الزيني بركات

جمال الغيطاني

رجب ٩٢٢ هـ

أغسطس إلى سبتمبر ١٥١٧ م

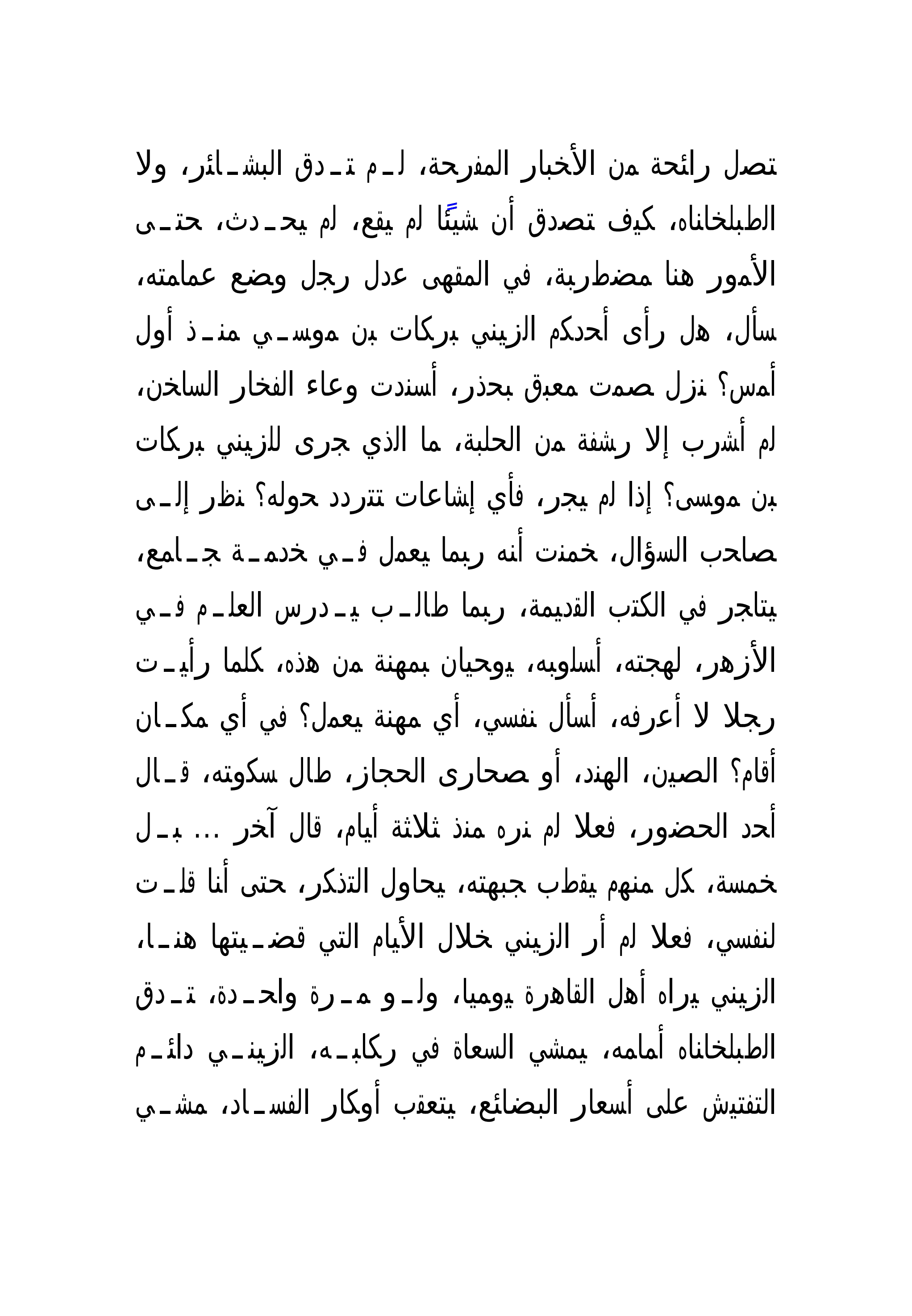
(مقتطف " ٣ " من مشـاهدات الرحالـة البنـدقي فياسكونتي جانتي، الذي زار القاهرة أكثر من مرة في القرن السادس عشر الميلادي أثناء طوافه بالعالم.

تسجل هذه المشاهدات أحوال القاهرة ... خلال شهر أغسطس ١٥١٧ ميلادية، الموافق رجب ٩٢٢ هـ).

تضطرب أحوال الديار المصرية هذه الأيام، وجـه القاهرة غريب عني، ليس ما عرفته في رحلاتـي السـابقة، أحاديث الناس تغيرت، أعرف لغة البلاد ولهجاتها، أرى وجه المدينة مريضا يوشك على البكاء، امرأة مـذعورة تخشـى اغتصابها آخر الليل، حتى السماء نحيلة زرقاء، صفاؤها بـه كدر، مغطاة بضباب قادم من بلاد بعيدة، أذكر قـرى الهنـد الصغيرة إذ يدركها الوباء، يثقل هواؤها بالرطوبـة، الليلـة، تنتظر البيوت أمرا قد يأتي غدا أو بعد غد، أصغي إلى وقـع حوافر تصطدم بحجارة الطريق، تبعد، تنـأى، أطـل مـن مشربية البيت محاذرا أن يراني أحد، أطل والظـلام يلـف البيوت، لا أرى مئذنة جامع السلطان الغوري الجديـد، لـم تمض سنوات على بنائه، لم أره عندما جئت هنا آخر مـرة قبل رحيلي الطويل إلى الشرق، سمعت باستعدادات تجـرى لبنائه، تشييد القبة الضخمة المواجهة له، أطل برأسي قلـيلا، أخاف انفتاق الظلام عـن وجـوه درك قسـاة القلـوب، إذ يجدونني أفرنجيا، يدفعون بي إلى الموت بـلا محاكمـة، لا استجواب، لا سؤال، من أنا، من أين جئت!! لن تتاح الفرصة لأخبرهم، لأقنعهم، إنني أعرف الـوالي الأميـر" كرتبـاي"

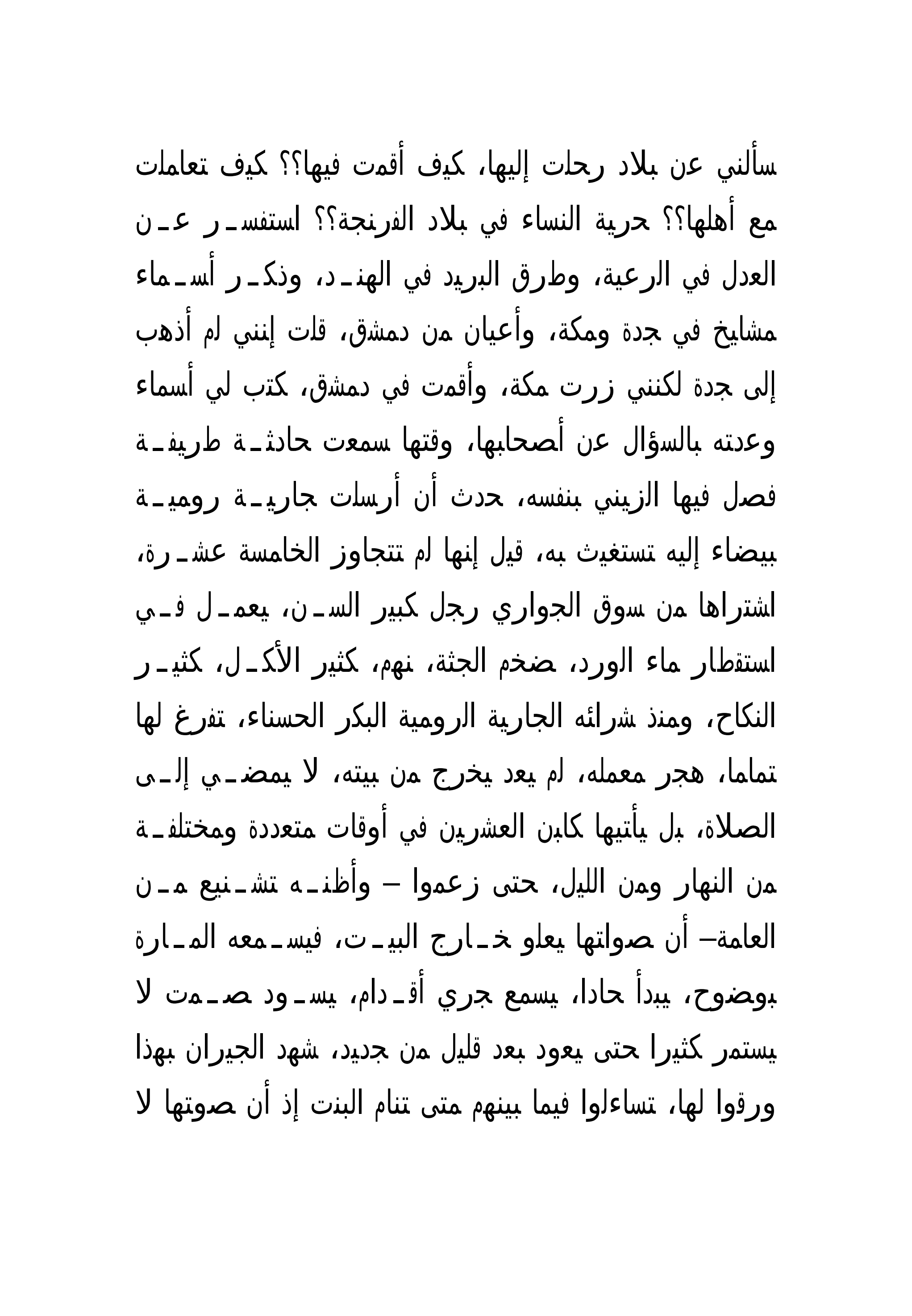
معرفة شخصية، بل إنني أصغيت مرتين إلى متولي حسـبة القاهرة، الزيني بركات بن موسى، إنـه صـاحب مناصـب عديدة أيضا، ومسئول عن حفظ الأمن والنظام، لـو رآنـي فسيتذكرني، أعرف أنه لا ينسى وجها عابرا رآه مرة واحدة، حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام، على أيـة حال سأبقى الليلة، بالتأكيد لن أنجو من العسـس، المنسـر، المماليك، بيوت المدينة كلها مغلقة، مرعوشة تود لو توارت، تهفو إلى الأمان المرجو، شموع بيتي مطفأة، أخشى تراقص الضوء في أحداق العيون المتلصصة، قبيل العصر مشيت من الحسينية، في صدري نفس الحنين الذي يجيئني كلما نزلـت بلادا، كلما عدت إلى مدينة زرتها من قبل، أقضي أياما قبـل اتصالي بمعارفي من أهلها، أجوبها من أعلى إلـى أسـفل، أسعى وراء أخبار من أعرفهم، أرثي الذين ذهبوا. أرى اليوم الذي فارق فيه الواحد منهم دنيانا، أسـأل نفسي، أين كنـت عندئذ؟؟ في أي مدينة؟؟ ألقى البعض صدفة، أفـتح ذراعـي على عادة أهل البلاد، أقبل كتفه ويقبل كتفي، أتراجع لأتأمله، أعود لأحتضنه من جديد، أذكر أنه لم يتغير إن كان متقـدما في السن، إن الصحة تطل مـن عينيـه. يغمغـم بحمـد

ويشكره، يحلف أيمانًا مغلظة ليصحبني إلى داره فأمضـي، نجلس في غرفة الضيافة، تفتح نوافذها المزخرفة على حديقة صغيرة بها ريحان وفل، تتوسطها نافورة صغيرة أرضـيتها مرصعة بالرخام الملون الجميل، لا تطلق النافورة مياهها إلا عند مجيء ضيف، لكن اليوم طال تجوالي، لم ألق واحدا من أصحابي القدامى، ربما تغيروا، سمعت من العامة أن كثيـرا من أعيان الناس، والمشايخ، نقلوا الثمين الغالي مـن ثيـابهم وحوائجهم إلى الأماكن البعيدة المجهولة، رحلوا عيالهم إلـى الأرياف، هجروا بيوتهم وسكنوا المزارات وفساقي المـوتى، سمعت بكثرة الإشاعات، كل إنسان يقول ما يحلـو لـه، أي شخص يدخل فيما يعنيه ومـالا يعنيـه، وطالـب الـبعض بضرورة تدخل الأمير طومانبـاي نائـب الغيبـة لإسـكات الألسنة، قال البعض هذا مستحيل فانقطاع الأخبار معنـاه أن حدثًا فظيعا لا نجرؤ على التفكير فيه وقع، صـاح الـبعض، وهل يقع فعلا مالا نجرؤ على الظن به؟ لا يمكـن، جـيش السلطان من فرسان الإسلام وحماته، كل فارس منهم مقـوم بألف من العثمانلية وكما غلبهم الأشرف قايتباي فلابـد مـن هزيمتهم على يد الغوري، يقول آخر، إذ صح هذا فلماذا لـم

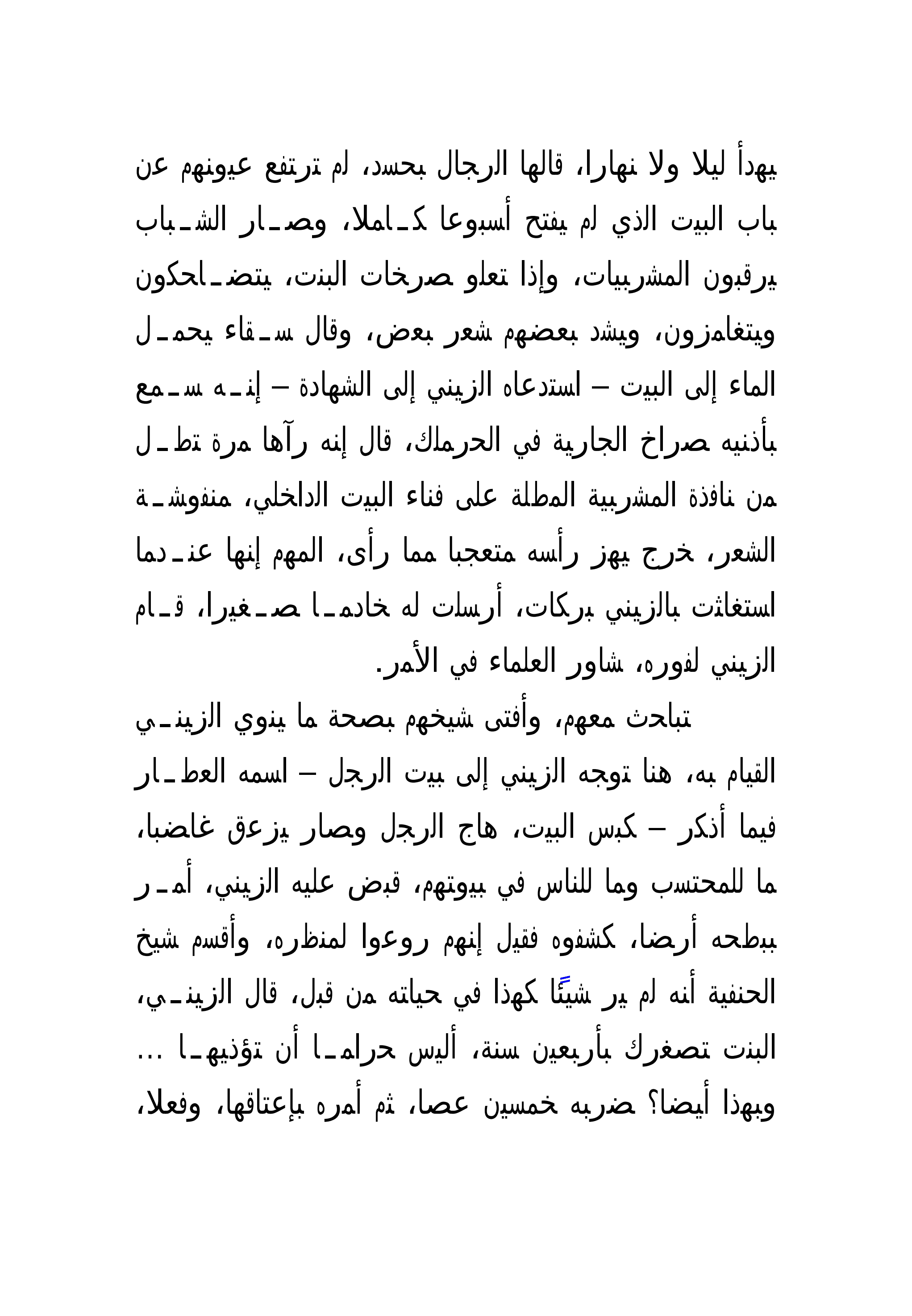


تصل رائحة من الأخبار المفرحة، لـم تـدق البشـائر، ولا الطبلخاناه، كيف تصدق أن شيئًا لم يقع، لم يحـدث، حتـى الأمور هنا مضطربة، في المقهى عدل رجل وضع عمامته، سأل، هل رأى أحدكم الزيني بركات بن موسـي منـذ أول أمس؟ نزل صمت معبق بحذر، أسندت وعاء الفخار الساخن، لم أشرب إلا رشفة من الحلبة، ما الذي جرى للزيني بركات بن موسى؟ إذا لم يجر، فأي إشاعات تتردد حوله؟ نظر إلـى صاحب السؤال، خمنت أنه ربما يعمل فـي خدمـة جـامع، يتاجر في الكتب القديمة، ربما طالـب يـدرس العلـم فـي الأزهر، لهجته، أسلوبه، يوحيان بمهنة من هذه، كلما رأيـت رجلا لا أعرفه، أسأل نفسي، أي مهنة يعمل؟ في أي مكـان أقام؟ الصين، الهند، أو صحارى الحجاز، طال سكوته، قـال أحد الحضور، فعلا لم نره منذ ثلاثة أيام، قال آخر ... بـل خمسة، كل منهم يقطب جبهته، يحاول التذكر، حتى أنا قلـت لنفسي، فعلا لم أر الزيني خلال الأيام التي قضـيتها هنـا، الزيني يراه أهل القاهرة يوميا، ولـو مـرة واحـدة، تـدق الطبلخاناه أمامه، يمشي السعاة في ركابـه، الزينـي دائـم التفتيش على أسعار البضائع، يتعقب أوكار الفسـاد، مشـي

الناس في الطرقات، له قواعد لا بد من مراعاتها، الالتـزام بها، أحيانًا يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة، ربما مـنعهن من الخروج إلى الطرقات لتزايد عبث المماليك فـي بعـض الفترات، آخر زياراتي لمصر، رأيت الزيني بركـات قويـا عفيا، لا أدري كيف صارت به الحال؟ ثلاث سنوات تغيـر الإنسان حقًا، رأيت الزيني ينزل بنفسه، يناقش باعة الحلوى، والأجبان، والبيض، يقف وقتًا طويلا مع الفلاحـات بائعـات الدجاج والأوز والأرانب والبط، يسعر الأصـناف بنفسـه، يجرس المخالفين في المدينة، أعرف رضاء النـاس عنـه، حبهم له، أذكر ما كتبته عنه بعد لقائي الأول به، رأيت رجالا كثيرين، بربرا وهنودا وإيطاليين وحكاما مـن بـلاد الغـال والحبشة وأقصى شمال الدنيا، لكنني لم أر مثل بريق عينيه، لمعانهما، خلال الحديث تضيقان، حدقتي قط في سواد ليلـي، عيناه خلقتا لتنفذا في ضباب البلاد الشمالية، في ظلامها، عبر صمتها المطبق، لا يرى الوجه والملامح، إنما ينفذ إلى قـاع الجمجمة، إلى ضلوع الصدر، يكشف المخبأ مـن الآمـال، حقيقة المشاعر، في ملامحه ذكاء براق، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدني الروح منه، في نفس الوقت تبعث الرهبـة،



سألني عن بلاد رحلت إليها، كيف أقمت فيها؟؟ كيف تعاملت مع أهلها؟؟ حرية النساء في بلاد الفرنجة؟؟ استفسـر عـن العدل في الرعية، وطرق البريد في الهنـد، وذكـر أسـماء مشايخ في جدة ومكة، وأعيان من دمشق، قلت إنني لم أذهب إلى جدة لكنني زرت مكة، وأقمت في دمشق، كتب لي أسماء وعدته بالسؤال عن أصحابها، وقتها سمعت حادثـة طريفـة فصل فيها الزيني بنفسه، حدث أن أرسلت جاريـة روميـة بيضاء إليه تستغيث به، قيل إنها لم تتجاوز الخامسة عشـرة، اشتراها من سوق الجواري رجل كبير السـن، يعمـل فـي استقطار ماء الورد، ضخم الجثة، نهم، كثير الأكـل، كثيـر النكاح، ومنذ شرائه الجارية الرومية البكر الحسناء، تفرغ لها تماما، هجر معمله، لم يعد يخرج من بيته، لا يمضـي إلـى الصلاة، بل يأتيها كابن العشرين في أوقات متعددة ومختلفـة من النهار ومن الليل، حتى زعموا – وأظنـه تشـنيع مـن العامة– أن صوتها يعلو خـارج البيـت، فيسـمعه المـارة بوضوح، يبدأ حادا، يسمع جري أقـدام، يسـود صـمت لا يستمر كثيرا حتى يعود بعد قليل من جديد، شهد الجيران بهذا ورقوا لها، تساءلوا فيما بينهم متى تنام البنت إذ أن صوتها لا



يهدأ ليلا ولا نهارا، قالها الرجال بحسد، لم ترتفع عيونهم عن باب البيت الذي لم يفتح أسبوعا كـاملا، وصـار الشـباب يرقبون المشربيات، وإذا تعلو صرخات البنت، يتضـاحكون ويتغامزون، ويشد بعضهم شعر بعض، وقال سـقاء يحمـل الماء إلى البيت – استدعاه الزيني إلى الشهادة – إنـه سـمع بأذنيه صراخ الجارية في الحرملك، قال إنه رآها مرة تطـل من نافذة المشربية المطلة على فناء البيت الداخلي، منفوشـة الشعر، خرج يهز رأسه متعجبا مما رأى، المهم إنها عنـدما استغاثت بالزيني بركات، أرسلت له خادمـا صـغيرا، قـام الزيني لفوره، شاور العلماء في الأمر.

تباحث معهم، وأفتى شيخهم بصحة ما ينوي الزينـي القيام به، هنا توجه الزيني إلى بيت الرجل – اسمه العطـار فيما أذكر – كبس البيت، هاج الرجل وصار يزعق غاضبا، ما للمحتسب وما للناس في بيوتهم، قبض عليه الزيني، أمـر ببطحه أرضا، كشفوه فقيل إنهم روعوا لمنظره، وأقسم شيخ الحنفية أنه لم ير شيئًا كهذا في حياته من قبل، قال الزينـي، البنت تصغرك بأربعين سنة، أليس حرامـا أن تؤذيهـا ... وبهذا أيضا؟ ضربه خمسين عصا، ثم أمره بإعتاقها، وفعلا،

أعتقها الرجل مرغما، لكنه لم ينس ما فعله الزيني به، أصيب بحسرة كبيرة على فراقه البنت، بدأ يظهر في الحارات زائغ العينين، ممزق الثياب، ريقه يسيل، يبحث عن شيء مجهول ضائع، لا يذكرها باسمها، إنما ينادي شيئًا يرفض الإفصاح عنه، كلما ظهر في مكان صاح عليه العامة، ضربوه على موضع عورته، ضحكوا وسخروا منه، بينما تدور عيناه، تبحثان عن الأمر العزيز المفتقد، وسمعت ممن أثق به، أن الشيخ العطار هذا لم يقرب امرأة في حياته قبل البنت، لم يتزوج، طوال حياته، يعول أمه وأخوته، وعندما تزوجت صغرى شقيقاته أصبح وحيدا، بدأ يقتصد ثمن هذه الجارية لمدة أعوام عديدة، جارية معينة رسم صورتها وهيئتها في ذهنه بعناية، بيضاء كطبق الفضة، نهداها كرتان من الملبن، لهما ملمس الحرير، حلم بها سنوات حتى عثر عليها، لم تطل فرحته بها، أخذوها منه، انتزعوها انتزاعا، فيا فرحة ما تمت كما يقول عامة مصر، اختلف الناس حول تصرف الزيني بركات، أكد جمع منهم صحة ما قام به، خاصة أن البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك، ورأى فريق آخر، أنه تدخل في أخص أمور الناس، وأن أحدا من الخلق لا يأمن

على بيته أو عياله بعد الآن، خاصة بعد تردد إشاعة كبيـرة تنفي استغاثة البنت بالزيني بركات، إنما اسـتطاع الزينـي معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطـلاع علـى أدق ما يجري في البيوت والزوايا، قيل أيضـا أن العطـار مظلوم وليس عنيفًا، وتساءل الرجال هل توجد امرأة تكـره هيئة رجل كهيئة العطار، البنـت فعـلا لعـوب وكرهتـه، استغاثت بالزيني بركات لتهرب منه لسبب خفي عندها، وبقي شعور خفي بالرهبة في أعمـاق النـاس، تعجبـوا لمهـارة المحتسب، قدرته على النفاذ إلى أدق الأمور التـي تخـص البيوت، وهذا ما لم يتفق لغيره قط، قيل بوجود فرقة خاصـة من أشداء البصاصين تتبعه شخصيا، لا يعرف من رجالهـا مخلوق، أين يعيشون، كيف يعملون، هذا أمر خفي لا يدري به إنسان، وهذه لا علاقة لها بفرقة بصاصي السلطنة التـي يرأسها رجل عتي معروف، المهم، سمعت حادثة العطار بعد وقوعها بسنة، رأيته بعيني وهو يلف الحواري، يقـف بـين الحين والحين، يزعق في الفراغ منهالا بالسـباب والشـتائم على شخص لا يذكر اسمه أبدا، وقيل إنـه يصـنع تماثيـل صغيرة من الورق يحرقها يوميا قبل نومـه، ويتلـو عليهـا

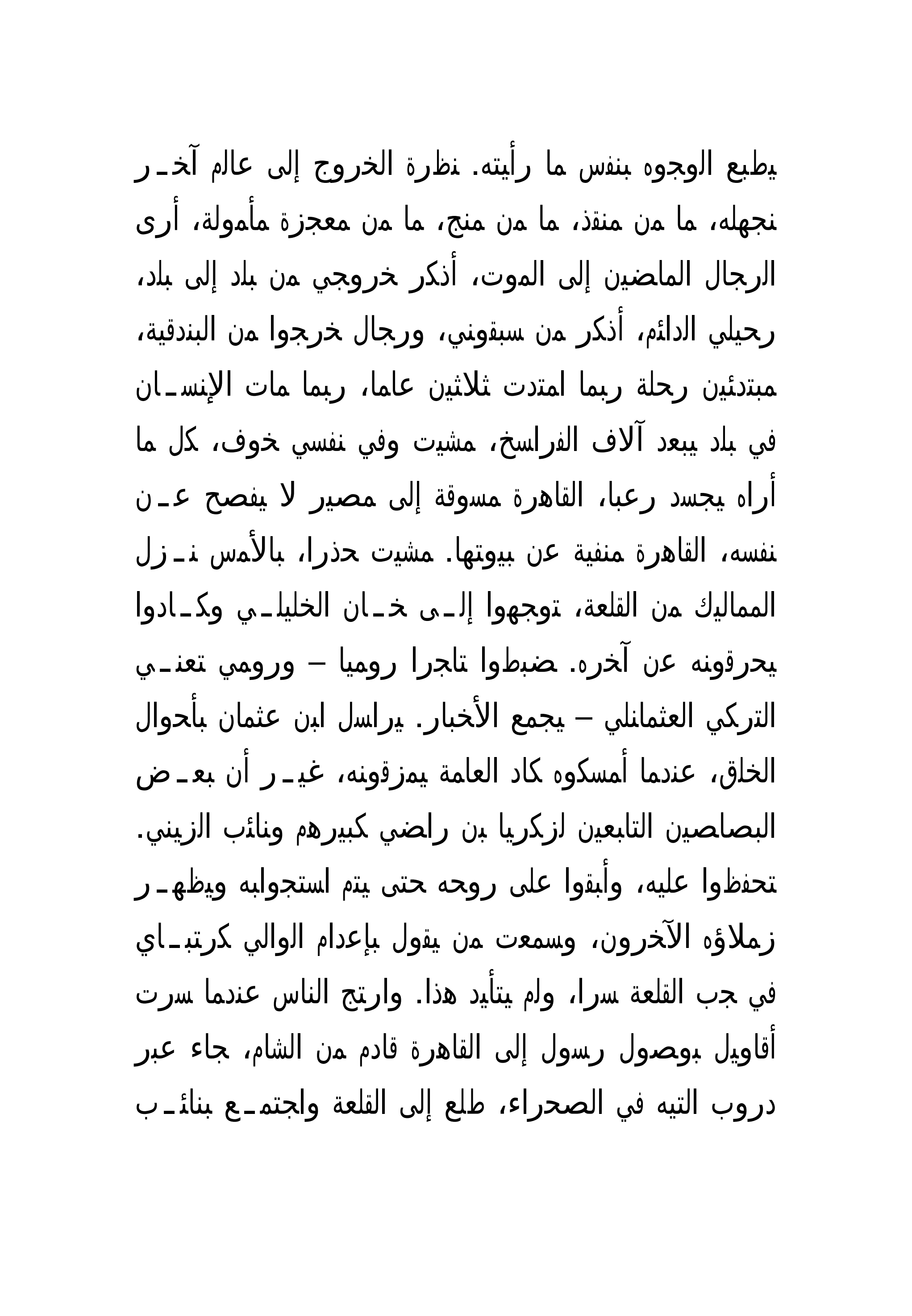
تعاويذ خاصة، وظل على حاله حتى كان من أمره ما كـان، وما سنذكره في حينه، أعود إلى الرجال في دكـان الشـاي، تساءلوا فعلا عن السر في اختفاء الزيني؟؟ تعجب كل مـنهم كيف فاته الأمر، اختفاء الزيني حدث غير عادي، أنها الأيام المضطربة التي ينسى فيها الإنسان نفسه، ألـم يـذكر أحـد المشايخ الصالحين في خطبة الجمعة الماضية أن أوان الريح التي تهب قبل القيامة ستكنس كل شيء، ريح يرسلها ا عز وجل، يمانية ألين من الحرير وأطيب من نفحة المسـك فـلا تدع أحدا في قلبه مثقال ذرة من الإيمان بوجود الخـالق، أو الحق أو العدل، تبعد الأب عن بنيه، والأخ عن أخيه، ويبقى الناس مائة عام لا يعرفون دينا أو ديانة، وهم شـرار خلـق ا ، وعلى هؤلاء تقوم الساعة، تباكى الرجال في المسـجد، وصار كل منهم يعانق صاحبه، وعندما خرج الـبعض إلـى الخلاء، خيل إليهم أنهم يشمون رائحة طيبـة، فيهـا نفحـة المسك، جهروا وأعلنوا، زمن الهـلاك آت لا ريـب فيـه، فزعوا، هلعوا، وهكذا، فمثل هذه الأيام، ينسى فيهـا المـرء أمورا جساما لا يتكرر حدوثها، كأن يمضي يوم بأكملـه، لا

يظهر الزيني بركات بن موسى في طرقات القاهرة، ولا ينتبه أحد، قال الطالب الأزهري – كما ظننت:

- أعرف أن الزيني اختفي في مكان لا يعلمه إلا القلائل جدا ...
- سكت ليوحي، أو ليبدوا واحدا من هؤلاء القلة. قال الحضور:
- أين يا سعيد؟
- إنه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى القاهرة ...
- اتسعت آذانهم، رأيت الزيني بعيني عقلي، يجلس في مكان خفي، تنبئه الأيام بأحداث جسام، نواب يدخلون ويخرجون، يرسلهم إلى شتى البلاد، والمعاقل البعيدة للعربان في الصحراء ...
- تساءل أحدهم:
- كيف تبقى البلاد بلا محتسب والدنيا في حرب؟؟
- عندما كان الزيني يسافر لمدة أسبوع، بمجرد أن يخطو خارج القاهرة ترتفع الأسعار، يفعل كل إنسان ما يحلو له، فما بالك وقد اختفى الآن؟

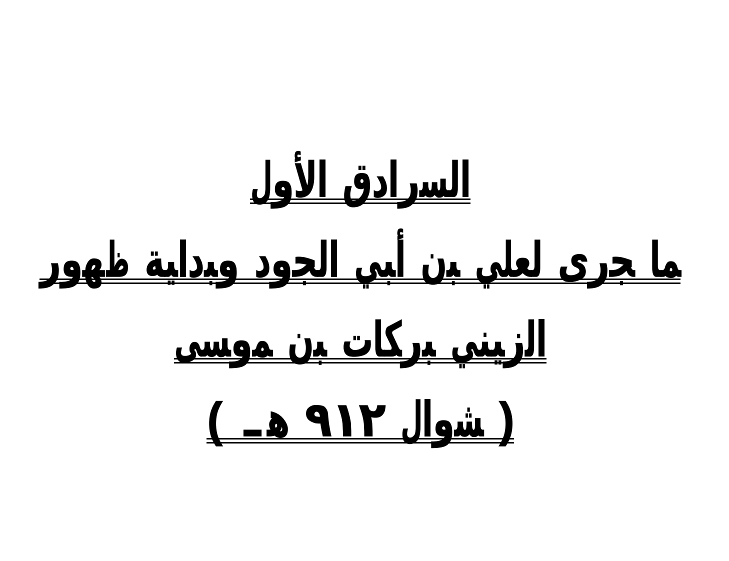
- قال سعيد:
- أبدا ... عين الزيني ترقب الناس كلهم رغم ابتعـاده ... ولا تنسوا الشهاب زكريا ...

صمتوا، في العيون رجاء أخرس، خوف موغل فـي الأعماق، في الطريق على مهل أليم مضى طابور من سجناء الفلاحين مربوطين من أعناقهم بسلاسل حديدية، يبدو أنهـم متجهون إلى سجن من السجون، أخرج طفل لسـانه مـرات عديدة، دق طبل بعيد، ربما يغادر الفلاحون عالمنا بعد قليل، مشيت قربهم، عيونهم زائغة، يتمنون لو احتووا كل ما يمـر بهم، نفس ما رأيته في طنجة، طابور رجال يعبرون أسـوار المدينة البيضاء مشدودين إلى بعضهم البعض برباط الهـلاك الأبدي، في العيون نفس النظرة. هذا الرجل المسـوق إلـى الإعدام في تلك الجزيرة الصغيرة بالمحيط الهندي، يرجو من الناس إعادة النظر في أمره. أن يلحقه طائر رخ فيطير بـه، العينان تقولان المعنى نفسه، أن يعلم الناس أنه بعد خطوات، بعد مسافة زمنية معينة، لن يفتح عينيه أبـدا، تضـيع منـه المعالم والأشياء، ربما أموت بعد لحظة، أجهل هذا، لكن أن أعرف تماما. أعلم بمفارقتي الدنيا في لحظة معينة، هذا مـا



يطبع الوجوه بنفس ما رأيته. نظرة الخروج إلى عالم آخـر نجهله، ما من منقذ، ما من منج، ما من معجزة مأمولة، أرى الرجال الماضين إلى الموت، أذكر خروجي من بلد إلى بلد، رحيلي الدائم، أذكر من سبقوني، ورجال خرجوا من البندقية، مبتدئين رحلة ربما امتدت ثلاثين عاما، ربما مات الإنسـان في بلد يبعد آلاف الفراسخ، مشيت وفي نفسي خوف، كل ما أراه يجسد رعبا، القاهرة مسوقة إلى مصير لا يفصح عـن نفسه، القاهرة منفية عن بيوتها. مشيت حذرا، بالأمس نـزل المماليك من القلعة، توجهوا إلـى خـان الخليلـي وكـادوا يحرقونه عن آخره. ضبطوا تاجرا روميا – ورومي تعنـي التركي العثمانلي – يجمع الأخبار. يراسل ابن عثمان بأحوال الخلق، عندما أمسكوه كاد العامة يمزقونه، غيـر أن بعـض البصاصين التابعين لزكريا بن راضي كبيرهم ونائب الزيني. تحفظوا عليه، وأبقوا على روحه حتى يتم استجوابه ويظهـر زملاؤه الآخرون، وسمعت من يقول بإعدام الوالي كرتبـاي في جب القلعة سرا، ولم يتأيد هذا. وارتج الناس عندما سرت أقاويل بوصول رسول إلى القاهرة قادم من الشام، جاء عبر دروب التيه في الصحراء، طلع إلى القلعة واجتمـع بنائـب

الغيبة، ونقل إليه أخبارا مفزعة، مؤداها أن جيش السـلطان هزم في مكان قرب حلب، ولم تعرف التفاصـيل، يقولـون: أمتع اللحظات التي يذكرها الرحالة فيما بعد، لحظات تتغيـر فيها الأمور والأحوال، معاينة وقوع الأحداث الكبيرة، رصد آثارها على الوجوه والبيوت والمدن، أقول بعد سنوات، بعـد مشاهدتي بداية حرب، وقوع طاعون، شـهدت بعينـي مـا جرى، ما حدث، عند الغروب تابعت الطريق، أيـد ضـخمة قوية تسحب الناس وتلقيهم داخل البيوت، أشم هواء لم أعرفه إلا في " حيدر أباد" بالهند عندما فاجأها وبـاء عفـي أفنـى وأهلك، بقيت محاصرا بطاعون جاف سنة كاملة، أولد فـي كل يوم مرات عدة، أرى القـاهرة الآن رجـلا معصـوب العينين، مطروحا فوق ظهره، ينتظر قـدرا خفيـا، أشـعر بأنفاس الرجال داخـل البيـوت، تتقـارب رءوسـهم الآن، يتهامسون الآن، يتهامسون بما سمعوه من أخبار، النـداءات مجهولة، الوقت يمضي ولا يمضي، لا يمكنني الطلوع إلـى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم، ربما يقترب الفجـر، غير أنني حتى الآن لم أسمع ديكا واحدا يصيح.



السرادق الأول

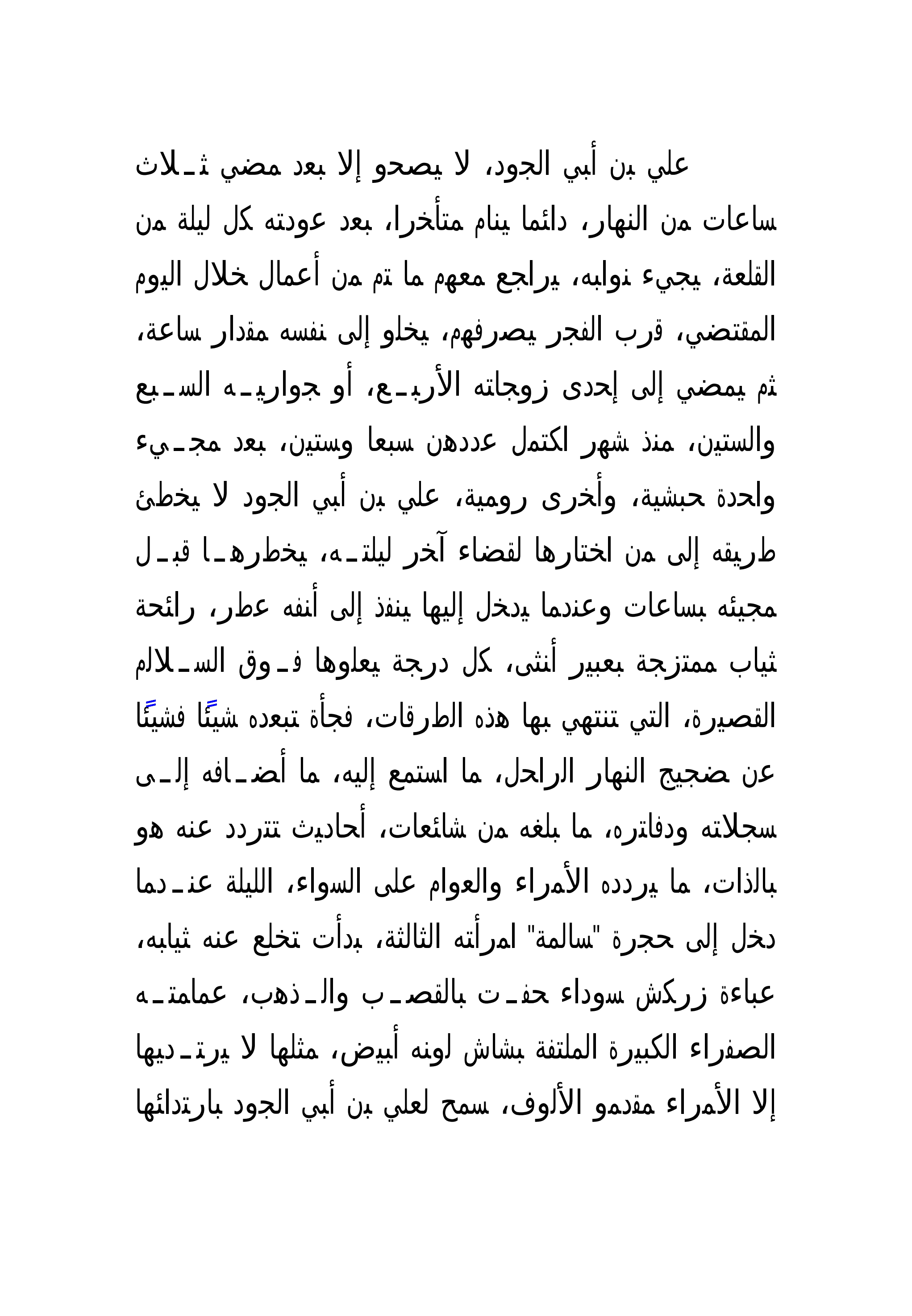
ما جرى لعلي بن أبي الجود وبداية ظهور الزيني بركات بن موسى

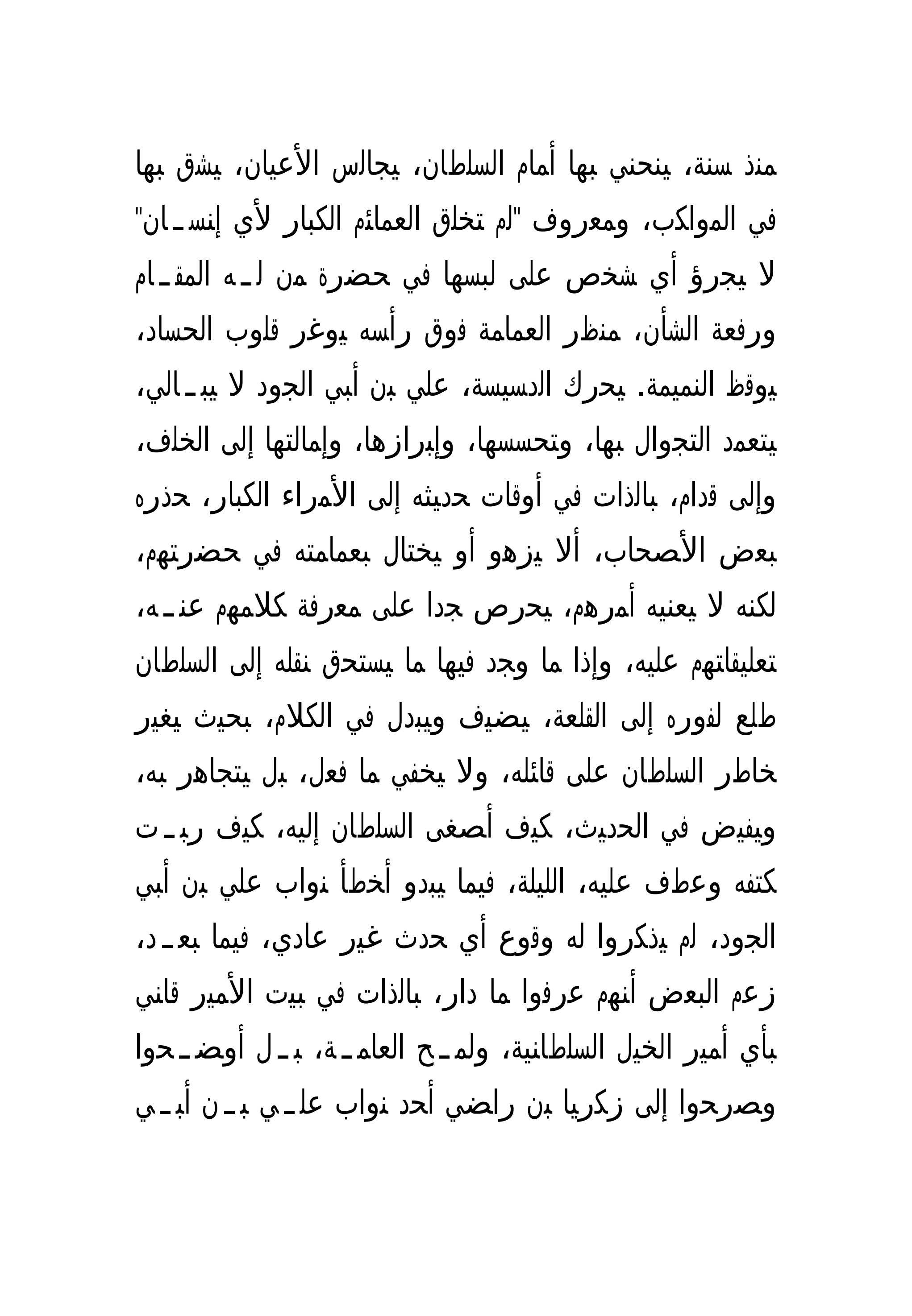
(شوال ٩١٢ هـ)

أول النهار:

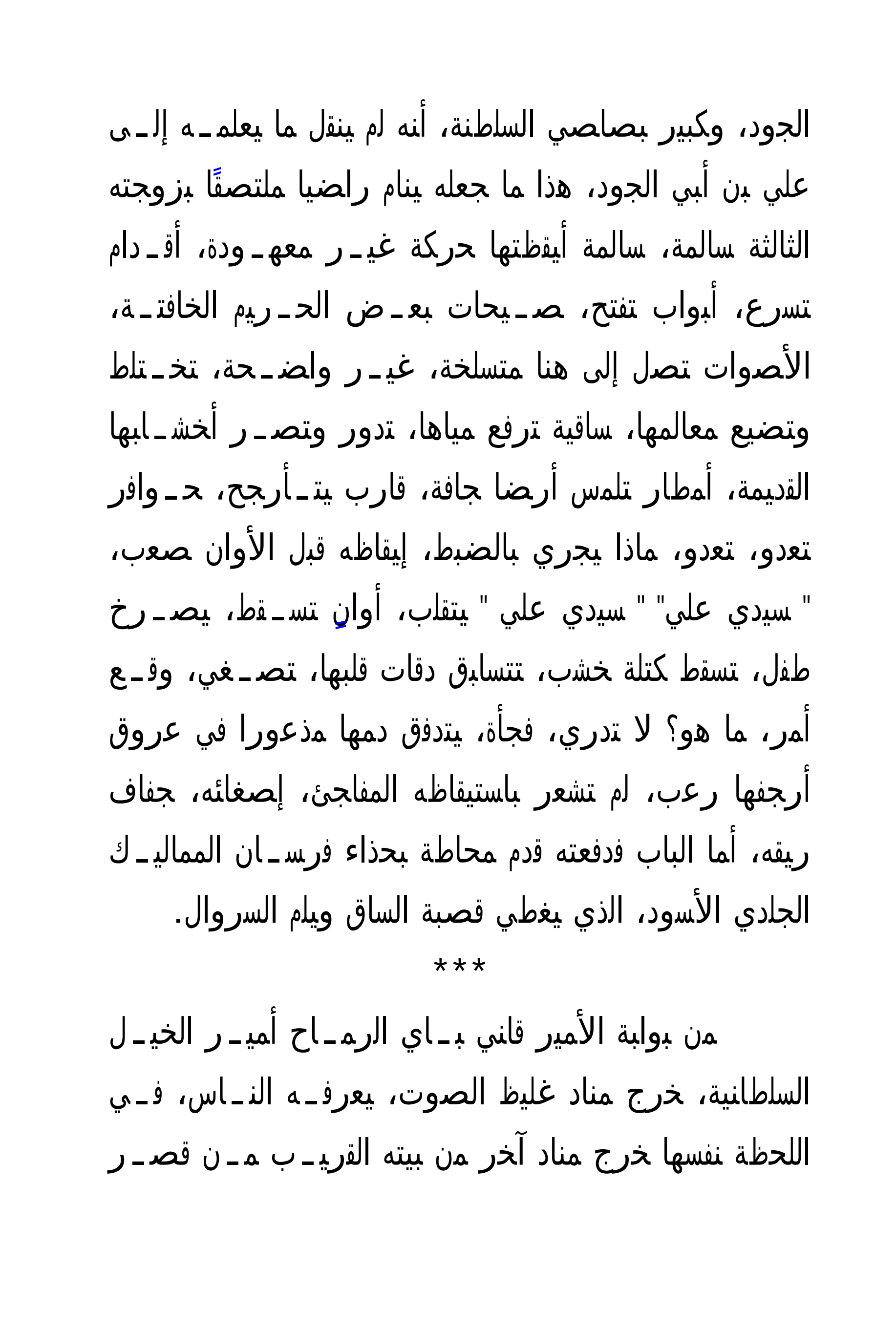
وفيه تغرق البيوت في نعاس طري، تتأخر الشـمس في الوصول إلى حواري الحسـينية، الباطنيـة، الجماليـة، والعطوف، بينما ترى واضحة من فوق أسوار وأبراج قلعـة الجبل، جماعة المماليك التي تخترق شارع حدرة البقرة لـم يخرجوا من القلعة، خرجوا من بيت الأمير قاني باي الرماح أمير الخيل السلطانية، عبروا الخليج، نزلوا على مهل إلـى باب اللوق، أشرعوا سيوفهم في وجه النهار المقبل، السقاءون الذين قابلوهم قرب باب اللوق، أول من يستيقظ في المدينـة، يحملون الماء من النيل إلى البيوت، يجهلون مقصد الفرسان، تنثر حوافر خيولهم دوامات ترابية صغيرة، تسرع خطـوات الجمال مثقلة بقرب المياه البنية اللون، يخفت همس السقائين، يبقى في أذهانهم انطباع خفيف كأثر ضربة المجداف في مياه ترعة هادئة، ينسل المماليك أول النهار، تبدو البيوت، أيام ما بعد عيد الفطر، دائما يركب الخمول هذه الأيام التي تعقـب الأعياد.

***


علي بن أبي الجود، لا يصحو إلا بعد مضي ثـلاث ساعات من النهار، دائما ينام متأخرا، بعد عودته كل ليلة من القلعة، يجيء نوابه، يراجع معهم ما تم من أعمال خلال اليوم المقتضي، قرب الفجر يصرفهم، يخلو إلى نفسه مقدار ساعة، ثم يمضي إلى إحدى زوجاته الأربـع، أو جواريـه السـبع والستين، منذ شهر اكتمل عددهن سبعا وستين، بعد مجـيء واحدة حبشية، وأخرى رومية، علي بن أبي الجود لا يخطئ طريقه إلى من اختارها لقضاء آخر ليلتـه، يخطرهـا قبـل مجيئه بساعات وعندما يدخل إليها ينفذ إلى أنفه عطر، رائحة ثياب ممتزجة بعبير أنثى، كل درجة يعلوها فـوق السـلالم القصيرة، التي تنتهي بها هذه الطرقات، فجأة تبعده شيئًا فشيئًا عن ضجيج النهار الراحل، ما استمع إليه، ما أضـافه إلـى سجلاته ودفاتره، ما بلغه من شائعات، أحاديث تتردد عنه هو بالذات، ما يردده الأمراء والعوام على السواء، الليلة عنـدما دخل إلى حجرة "سالمة" امرأته الثالثة، بدأت تخلع عنه ثيابه، عباءة زركش سوداء حفـت بالقصـب والـذهب، عمامتـه الصفراء الكبيرة الملتفة بشاش لونه أبيض، مثلها لا يرتـديها إلا الأمراء مقدمو الألوف، سمح لعلي بن أبي الجود بارتدائها



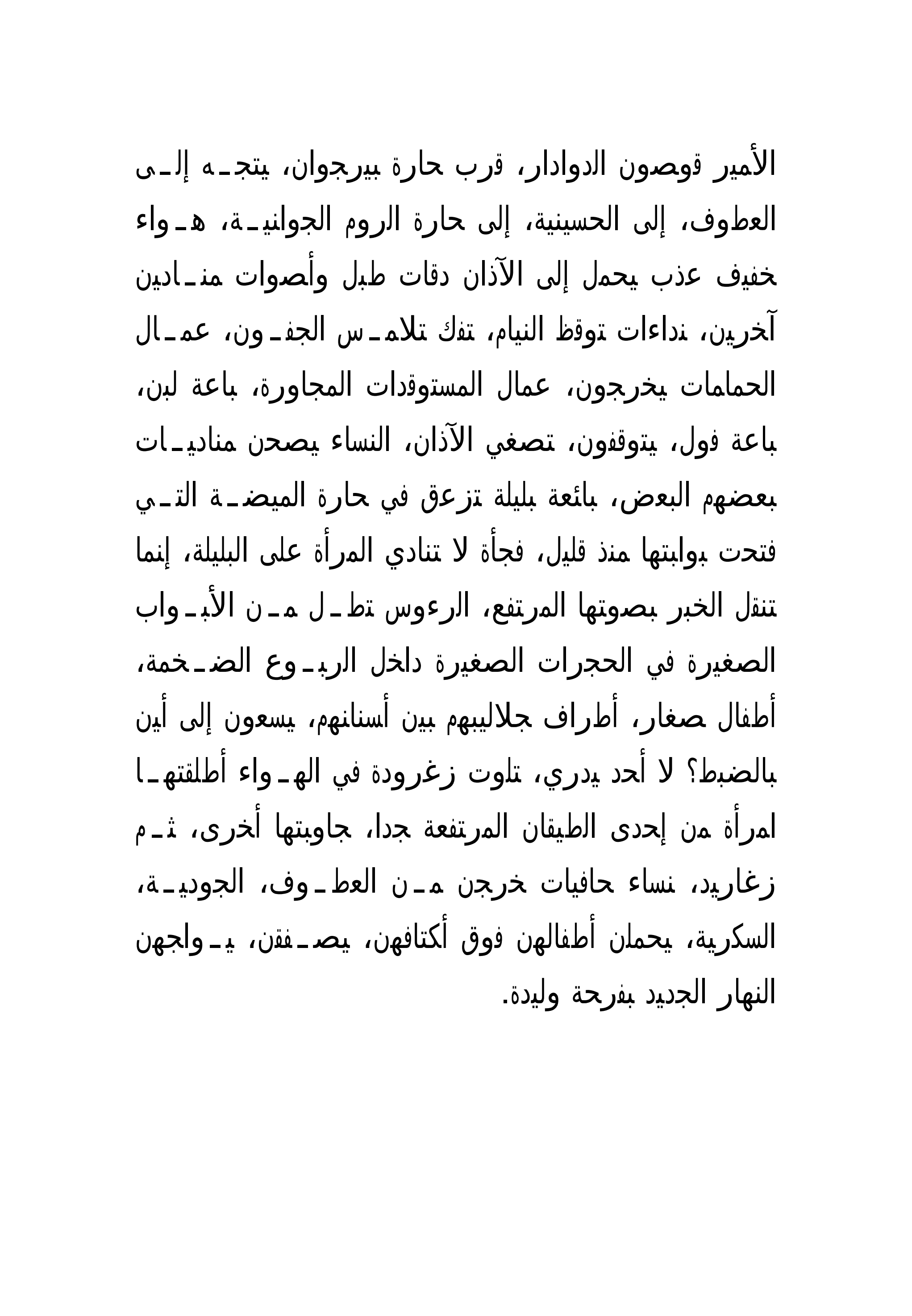
منذ سنة، ينحني بها أمام السلطان، يجالس الأعيان، يشق بها في المواكب، ومعروف "لم تخلق العمائم الكبار لأي إنسـان" لا يجرؤ أي شخص على لبسها في حضرة من لـه المقـام ورفعة الشأن، منظر العمامة فوق رأسه يوغر قلوب الحساد، يوقظ النميمة. يحرك الدسيسة، علي بن أبي الجود لا يبـالي، يتعمد التجوال بها، وتحسسها، وإبرازها، وإمالتها إلى الخلف، وإلى قدام، بالذات في أوقات حديثه إلى الأمراء الكبار، حذره بعض الأصحاب، ألا يزهو أو يختال بعمامته في حضرتهم، لكنه لا يعنيه أمرهم، يحرص جدا على معرفة كلامهم عنـه، تعليقاتهم عليه، وإذا ما وجد فيها ما يستحق نقله إلى السلطان طلع لفوره إلى القلعة، يضيف ويبدل في الكلام، بحيث يغير خاطر السلطان على قائله، ولا يخفي ما فعل، بل يتجاهر به، ويفيض في الحديث، كيف أصغى السلطان إليه، كيف ربـت كتفه وعطف عليه، الليلة، فيما يبدو أخطأ نواب علي بن أبي الجود، لم يذكروا له وقوع أي حدث غير عادي، فيما بعـد، زعم البعض أنهم عرفوا ما دار، بالذات في بيت الأمير قاني بأي أمير الخيل السلطانية، ولمـح العامـة، بـل أوضـحوا وصرحوا إلى زكريا بن راضي أحد نواب علـي بـن أبـي



الجود، وكبير بصاصي السلطنة، أنه لم ينقل ما يعلمه إلى علي بن أبي الجود، هذا ما جعله ينام راضيا ملتصقًا بزوجته الثالثة سالمة، سالمة أيقظتها حركة غير معهودة، أقدام تسرع، أبواب تفتح، صيحات بعض الحريم الخافتة، الأصوات تصل إلى هنا متسلخة، غير واضحة، تختلط وتضيع معالمها، ساقية ترفع مياها، تدور وتصر أخشابها القديمة، أمطار تلمس أرضا جافة، قارب يتأرجح، حوافر تعدو، تعدو، ماذا يجري بالضبط، إيقاظه قبل الأوان صعب، " سيدي علي" " سيدي علي " يتقلب، أوانٍ تسقط، يصرخ طفل، تسقط كتلة خشب، تتسابق دقات قلبها، تصغي، وقع أمر، ما هو؟ لا تدري، فجأة، يتدفق دمها مذعورا في عروق أرجفها رعب، لم تشعر باستيقاظه المفاجئ، إصغائه، جفاف ريقه، أما الباب فدفعته قدم محاطة بحذاء فرسان المماليك الجلدي الأسود، الذي يغطي قصبة الساق ويلم السروال.

***

من بوابة الأمير قاني باي الرماح أمير الخيل السلطانية، خرج مناد غليظ الصوت، يعرفه الناس، في اللحظة نفسها خرج مناد آخر من بيته القريب من قصر

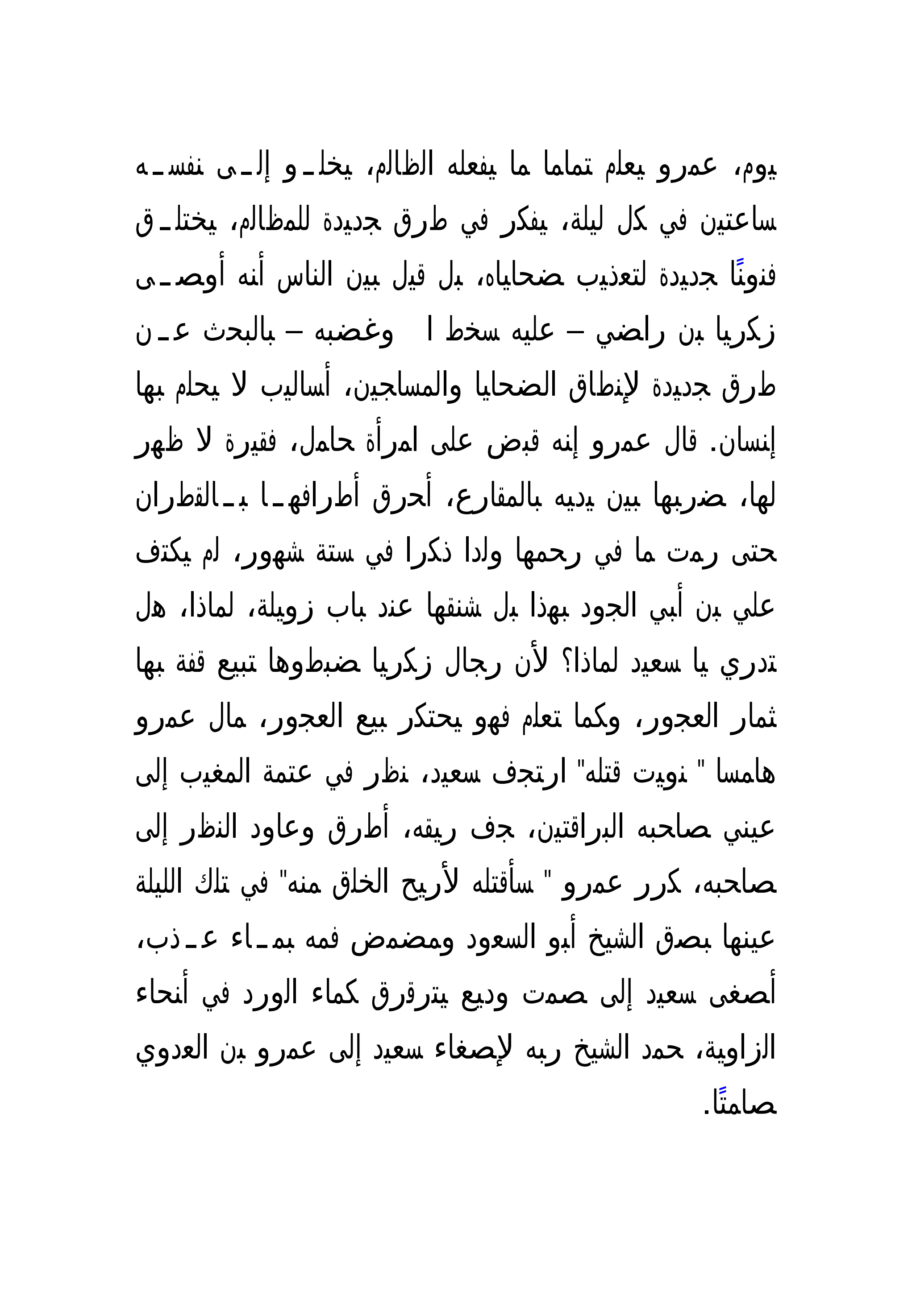


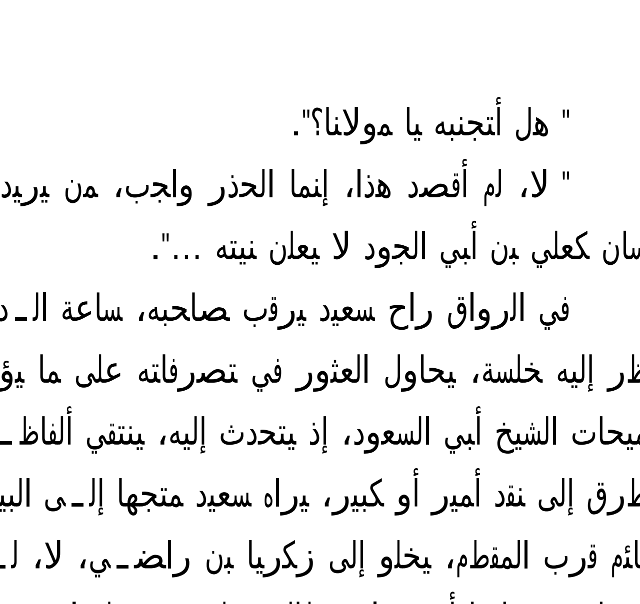
الأمير قوصون الدوادار، قرب حارة بيرجوان، يتجـه إلـى العطوف، إلى الحسينية، إلى حارة الروم الجوانيـة، هـواء خفيف عذب يحمل إلى الآذان دقات طبل وأصوات منـادين آخرين، نداءات توقظ النيام، تفك تلامـس الجفـون، عمـال الحمامات يخرجون، عمال المستوقدات المجاورة، باعة لبن، باعة فول، يتوقفون، تصغي الآذان، النساء يصحن مناديـات بعضهم البعض، بائعة بليلة تزعق في حارة الميضـة التـي فتحت بوابتها منذ قليل، فجأة لا تنادي المرأة على البليلة، إنما تنقل الخبر بصوتها المرتفع، الرءوس تطـل مـن الأبـواب الصغيرة في الحجرات الصغيرة داخل الربـوع الضـخمة، أطفال صغار، أطراف جلاليبهم بين أسنانهم، يسعون إلى أين بالضبط؟ لا أحد يدري، تلوت زغرودة في الهـواء أطلقتهـا امرأة من إحدى الطيقان المرتفعة جدا، جاوبتها أخرى، ثـم زغاريد، نساء حافيات خرجن مـن العطـوف، الجوديـة، السكرية، يحملن أطفالهن فوق أكتافهن، يصـفقن، يـواجهن النهار الجديد بفرحة وليدة.

سعيد الجهيني:

من داخل رواق الصعايدة في جامع الأزهر، يصغي سعيد الجهيني إلى ضجة الخلق، نافذة الرواق العلوية تطـل على مدخل الباطنية، تتدافع الأصوات إليه، أخيرا ... أمسكوا علي بن أبي الجود، رسموا عليه، بالأمس قبيل المغيب رأت الجموع موكبه، مجرسا فوق حمار أزعر، لا ذيل له، الناس تسد الشارع كالجراد المنتشر، في القلوب غل رأى الفرصـة فانفجر، سعيد يراه الآن بعيني عقله، هاهو ذا يمتطي حصانًا عليه كنبوش مذهب، يمر أمام بيوت المشـايخ أو الأمـراء، تتقدمه طبول قوية تفوق في ضجتها طبلخاناه تدق أمـام أي أمير، هاهو ذا يمشي في الطرقات مترجلا، يحفـه حرسـه الأشداء، عندما أقنع السلطان بفرض ضريبة علـى الملـح، ألحق الضرر بالمسلمين، ملح الطعام عز وجوده. علي بـن أبي الجود يمشي لا يجرؤ إنسان على رفع عينيه في وجهه، عمامته تذهل الأبصار، لم تمض ساعات، هـاهو ذا يركـب حمارا بالمقلوب مبهدل آخر بهدلة، يلطمه الصغير والكبيـر، النساء يبصقن عليه، الرواق خال تماما، كلهم خرجوا، فـي الهواء رائحة رطوبة، وخبز جاف مكوم في أركان الحجـرة

المستطيلة الطويلة قاتمة الجدران، أدخل قدميه فـي النعـل القديم، لا بد من طلوعه إلى مولاه الشيخ أبي السعود، يمضي إليه في كوم الجارح، يتبادل معه الحديث، يصغي إلى رأيـه فيما جرى ومـا حـدث، صـحن الجـامع الكبيـر يشـغي بالمجاورين وطلبة العلم، فعلا، لابد من مضيه إلى مولاه أبي السعود، لكنه الآن يجلس بجوار العمـود الرخـامي الكبيـر القريب من باب زاوية العميان، يمس الأرض الصلبة بعـود قش، سعيد يرقب ما تجيء به الأيام بحذر، لا يخفـي أبـدا فرحته بزوال هذا الظل الثقيل، لكن ماذا تأتي به الأيام؟؟ بل ماذا يخبئ اليوم نفسه؟ ربما انتهى الأمر بفتنة بين الأمـراء تروح فيها رقاب، تسيل دماء أبرياء لا حول لهم ولا شـأن، تغلق أبواب وطيقان، تشعل حرائق في البيوت، تهدم مساجد وزوايا، من يدري؟ ربما جاء من هو أعتى وأقسـى؟ هنـا ضرب سعيد عود القش فانقصم، نفض يديه، عزل علي بـن أبي الجود فيه رحمة بالعباد، ضج الناس وهـاجوا، سـعيد يسمع الآن ما قاله أحد المجاورين هنا منذ ثلاثة شهور، مال عليه عمرو بن العدوي، أخبره بما يضمره، ضاق بما يأتيـه علي بن أبي الجود في حق الخلق، المظالم المستجدة في كل


يوم، عمرو يعلم تماما ما يفعله الظالم، يخلـو إلـى نفسـه ساعتين في كل ليلة، يفكر في طرق جديدة للمظالم، يختلـق فنونًا جديدة لتعذيب ضحاياه، بل قيل بين الناس أنه أوصـى زكريا بن راضي – عليه سخط ا وغضبه – بالبحث عـن طرق جديدة لإنطاق الضحايا والمساجين، أساليب لا يحلم بها إنسان. قال عمرو إنه قبض على امرأة حامل، فقيرة لا ظهر لها، ضربها بين يديه بالمقارع، أحرق أطرافهـا بـالقطران حتى رمت ما في رحمها ولدا ذكرا في ستة شهور، لم يكتف علي بن أبي الجود بهذا بل شنقها عند باب زويلة، لماذا، هل تدري يا سعيد لماذا؟ لأن رجال زكريا ضبطوها تبيع قفة بها ثمار العجور، وكما تعلم فهو يحتكر بيع العجور، مال عمرو هامسا " نويت قتله" ارتجف سعيد، نظر في عتمة المغيب إلى عيني صاحبه البراقتين، جف ريقه، أطرق وعاود النظر إلى صاحبه، كرر عمرو " سأقتله لأريح الخلق منه" في تلك الليلة عينها بصق الشيخ أبو السعود ومضمض فمه بمـاء عـذب، أصغى سعيد إلى صمت وديع يترقرق كماء الورد في أنحاء الزاوية، حمد الشيخ ربه لإصغاء سعيد إلى عمرو بن العدوي صامتًا.

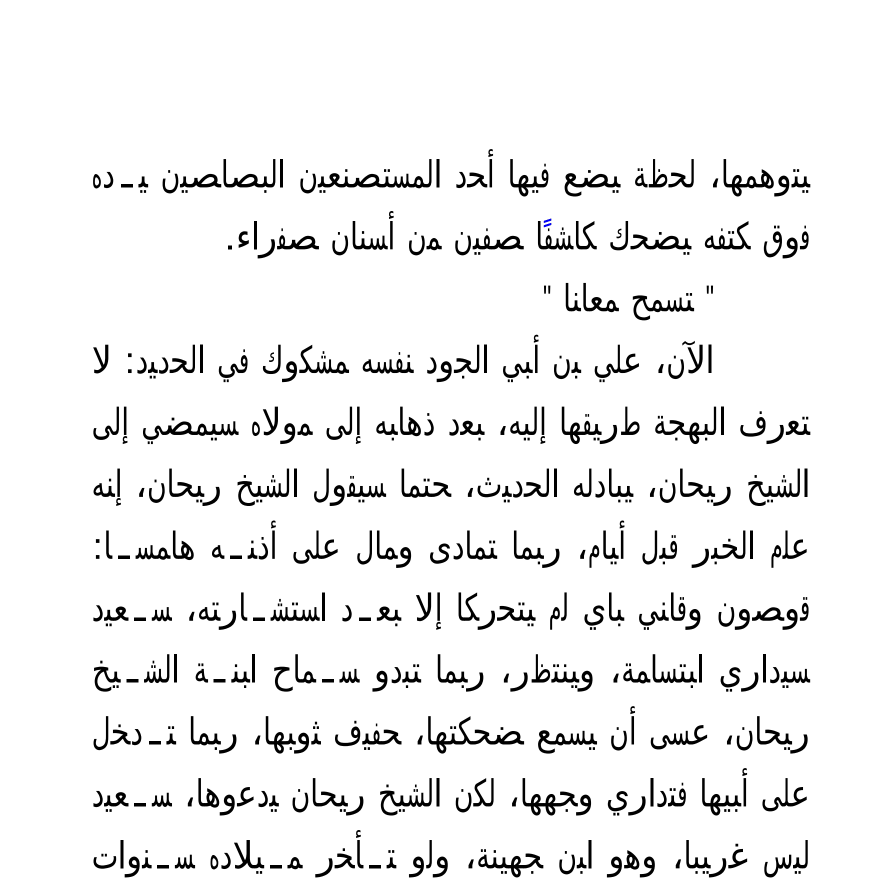


" هل أتجنبه يا مولانا؟".

" لا، لم أقصد هذا، إنما الحذر واجب، من يريد قتل إنسان كعلي بن أبي الجود لا يعلن نيته ...".

في الرواق راح سعيد يرقب صاحبه، ساعة الدرس ينظر إليه خلسة، يحاول العثور في تصرفاته على ما يؤكد تلميحات الشيخ أبي السعود، إذ يتحدث إليه، ينتقي ألفاظه لا يتطرق إلى نقد أمير أو كبير، يراه سعيد متجها إلى البيت القائم قرب المقطم، يخلو إلى زكريا بن راضي، لا، ليس زكريا نفسه، إنما أحد نوابه، طالب علم فقير مثله لا يجالس زكريا الذي ترتعد لذكره النفوس، عمرو ينقل ما قيل، تجيء الأيام التالية برجال غرباء، يسألون خفية عن سعيد، يتبعه بعض المستصنعين لزكريا، يجهلهم لكنهم يعرفونه، يرصدون خطوات قدميه، الحارات التي يطؤها، ضحكاته، لحظات شقائه الخفي، فرحه وبهجته، في لحظة معينة، لحظة يجيئون فيها كمصيبة، رعد أول الشتاء يفاجئ أهل مدينة آمنة، يمد أحدهم يده، يلمس كتفه، يلفظ لفظًا واحدا. يساق إلى سجن زكريا بن راضي، ينوعون له العذاب تنويعا، يلقونه في سجن كبير، العرقانة، الجب، المقشرة، تنسل أيامه، ينسى

خبره، يفنى ذكره، يضيع أثره، سعيد يبدو مهموما يسمع بشنق عبد، قطع يد سارق، إشهار امرأة ضبطت تسرق رغيفًا. تقطع يدها اليسرى، أو اليمنى إذا وجدوا اليسرى مقطوعة من قبل، يضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه، لماذا يحدث هذا كله، لماذا؟؟ تعلو الأسئلة وتنزل كعصا نقرزان، حلقات غليظة في سلسلة حديدية ساخنة تلهب منه العصب، تسل النخاع. تجفف ماء الحياة، يود لو يزعق من فوق مئذنة الأشرف قايتباي بالأزهر، يوقظ بيوت العامة الفقراء، منازل الأمراء، توخز عينيه أسوار قلعة الجبل، يرفع يديه، يطلق أذانا طويلا لا رجعة فيه، يسب كل ظالم أثيم. يرى بعينيه زكريا بن راضي مخوزقًا بجوار باب الوزير، سعيد لا يود أن يمضي بين الناس إلا زاعقًا، راجفًا محذرا من أمور تأتي، في كوم الجارح يهدئه الشيخ أبو السعود، الصالح، الطيب المنجب، النجيب، العارف بالأصول والفروع، دار ولف الدنيا، أقام زمنا بالحجاز واليمن، عرف لغة الهند، ولهجة الأحباش، عالج أمور المسلمين في فارس، وناقش علماء الأناضول، رأى بعينه مياه المحيط الأعظم عند حدود الدنيا الغربية، يصغي سعيد إليه، تغيب عنه لحظة دائما



يتوهمها، لحظة يضع فيها أحد المستصنعين البصاصين يـده فوق كتفه يضحك كاشفًا صفين من أسنان صفراء.

" تسمح معانا "

الآن، علي بن أبي الجود نفسه مشكوك في الحديد: لا تعرف البهجة طريقها إليه، بعد ذهابه إلى مولاه سيمضي إلى الشيخ ريحان، يبادله الحديث، حتما سيقول الشيخ ريحان، إنه علم الخبر قبل أيام، ربما تمادى ومال على أذنـه هامسـا: قوصون وقاني باي لم يتحركا إلا بعـد استشـارته، سـعيد سيداري ابتسامة، وينتظر، ربما تبدو سـماح ابنـة الشـيخ ريحان، عسى أن يسمع ضحكتها، حفيف ثوبها، ربما تـدخل على أبيها فتداري وجهها، لكن الشيخ ريحان يدعوها، سـعيد ليس غريبا، وهو ابن جهينة، ولو تـأخر مـيلاده سـنوات لأمضيا وقتا في اللهو، في اللعب، ربما أسعده الحـظ بقـدر معقول، يشم رائحة طعام هي طاهيته، يأكل منـه، يـرتعش قلبه، ترفرف روحه، يعود إلى الرواق، يخلو إلى نفسه طوال الليل، يقتات اللحظة، يعيشها ألف مرة، الآن تثور ضجة بين المجاورين، يؤكد أحدهم استحالة مجيء إنسان يشغل وظائف علي بن أبي الجود كلها، وكالة بيت المـال، التحـدث عـن

جهات الشرقية، ثم الحسبة وهي أجل وظائفه، إلـى جانـب مهمته الأصلية التي لم يعد يمارسها تقريبـا فـي أعوامـه الأخيرة، بشمقدار السلطان، كان يحمل نعل السـلطان فـي أوقات الصلاة، وظيفة ليست غريبة عليه، من قبـل عمـل بشمقدار صغيرا للأمير طومنباي، وعندما علا نجمه وبرق، سطع فأله، وبلغ سعده، تبرأ من البشمقدارية مع أنها الأصل، "من إذن؟؟"

الأسماء كثيرة ... لكنها لن تخرج عمن نعرفهم ... الأمير ملماي ... طغاق ... طاق ... قشتمر ...

" آه ... عد غنماتك يا جحا ..."

" لكن ... مسـتحيل أن يشـغل أميـر واحـد كـل الوظائف ..."

" من مدة والتدبير عمال لإزالة علي ... فهل يطرده السلطان ليأتي آخر يستبد بالأمر كله؟؟"

من إذن ... من القادم؟؟

كل يحاول النفاذ إلى ما يجيء به الغيب، تدبر أمور، في القلعة يدور همس فوق الحشايا، في الحجـرات المغلقـة داخل بيوت الأمراء، والقضاة، علي بن أبي الجـود ينتظـر

مكبلا في قبو مظلم نتن الرائحة، يرى أيامه وهمـا، حلمـا ضاع، اندثر " ربما جاءنا من لا يخطر ببالنا قط. "

" عد أغنامك يا جحا ... قلت لك ... يا جحـا عـد أغنامك."

الدروس معطلة. لن يطول الأمر، ليس معقولا بقـاء هذه الوظائف شاغرة، أشعة الشمس الراحلة تفـرش صـحن الجامع، خبز الجراية مرصوص منذ الصباح يجـف لـيحفظ زمنا، طنين الحديث لا ينتهي، سعيد يرى عمرو بن العدوي، نحلة حائمة ضلت طريقها إلى جحرها، من حلقة إلى أخرى يتنقل، يصغي، يشارك في الأحاديث. يغضب وقت الغضب، يفرح لحظات الفرح، يلقي رأيا يبدو عارضا، قيـل صـدفة، لكنه يدفع الحديث في اتجاه تشتهيه سفن زكريا، لا يقترب من الشوام والطلبة الأفغان، أو المغاربة، لا يهمه أمرهم، دائمـا بعيدون عما يجري، في المساء ينقل عمرو مـا يـراه ومـا يسمعه، لكن هذا المساء بالذات، إلى من يمضي؟؟ من يصغي إليه، يبتسم سعيد إذ يجول السؤال بذهنـه، هـل تبقـى آذان زكريا وعيونه مفتوحة كالعادة؟؟ هل يجد الوقت ليصـغي؟؟ هو أو نوابه؟؟ ربما يفكر الآن فيما يجب عمله بعـد ذهـاب

ولي نعمته علي بن أبي الجود، علي هو الذي أقـره كبيـرا لبصاصي السلطنة ونائبا له، لمن يمضي الليلة عمـرو بـن العدوي؟؟ سعيد يقرض شفته السفلي، كيف يعذب عمرو يوم القيامة؟؟ ربما أطاح رقبته بكلمة، يسفك حياة أسرة بوريقـة، يقطع الأمل من قلب أب عجوز ينتظر عودة ابنه الفقيه ليـؤم المصلين في القرية، آه لو يمضي سعيد الآن، يمسـكه مـن عنقه، ينفذ إلى أعماقه المكنونة، بنظرة حادة كسكين تغوص بين لوحي كتف، صمت في صحن المسجد، سعيد الآن حذر، كلماته تخرج بحساب، فراش عمرو وكيس جرايته لا يبعدان عنه إلا بمقدار ثلاثة مجاورين يتمددون فيما بينهما، لو تقلب في الليل، لو خرج يتوضأ قبيل الفجر، عيناه تقعان عليـه لا محالة، ربما يخطئ مولاه، لكن معاذ ا ، لا يظـن السـوء بإنسان، يستدير متمهلا، رائحة الحصير القديم، الرحبة خارج المسجد تفيض بالمارة، حمير مربوطة إلى جـدار قريـب، صوت المنادي لا يمل تكرار الخبر، إمساك الظالم الطـاغي المستجير، علي بن أبي الجود، الحوطة على موجوده، علـى حواصله وأمواله، على حريمه وجواريه، ترسيمه في جـب القلعة حتى يتكشف أمره، امرأة تلقي درهما إلـى المنـادي،

حلاوة البشارة والنقوط، بهجة تمتد إلى روح سعيد، بطيئـة كسريان ماء في شقوق ضيقة، يرى سماح، آه لـو تصـبحه الآن، ترقب الناس معه، يسـمع وقـع أقـدامها، لا يعـرف صاحب الخطى، لكنه يثق عند جلوسه إلى الشيخ ريحان أنها هي، وهي بالذات، فرحة الناس تدفئه، لو فاض درهم عـن حاجته لأعطاه للمنادي. ينحل خيط مر انعقد في لعابـه مـن قبل، يذوب متلاشيا، من داخل الباطنية خرج صبيان يعملون في مصبغة خضر شيخ الصباغين، صبغوا وجوهم بـأحمر وأخضر، يرقصون، يغنون.؟

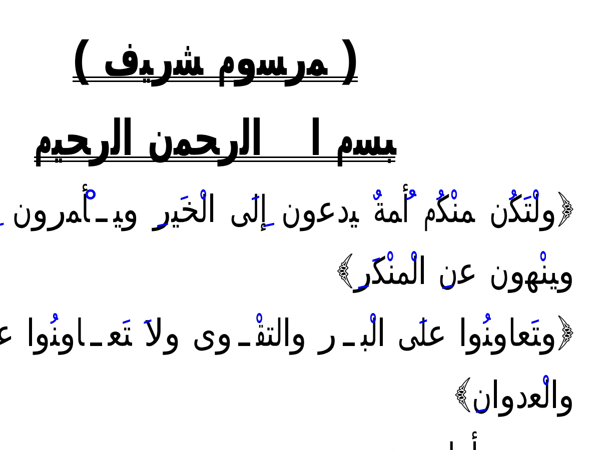
إحزن. إحزن. يا حسود...

شالوا علي بن أبي الجود

***

(مرسوم شريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

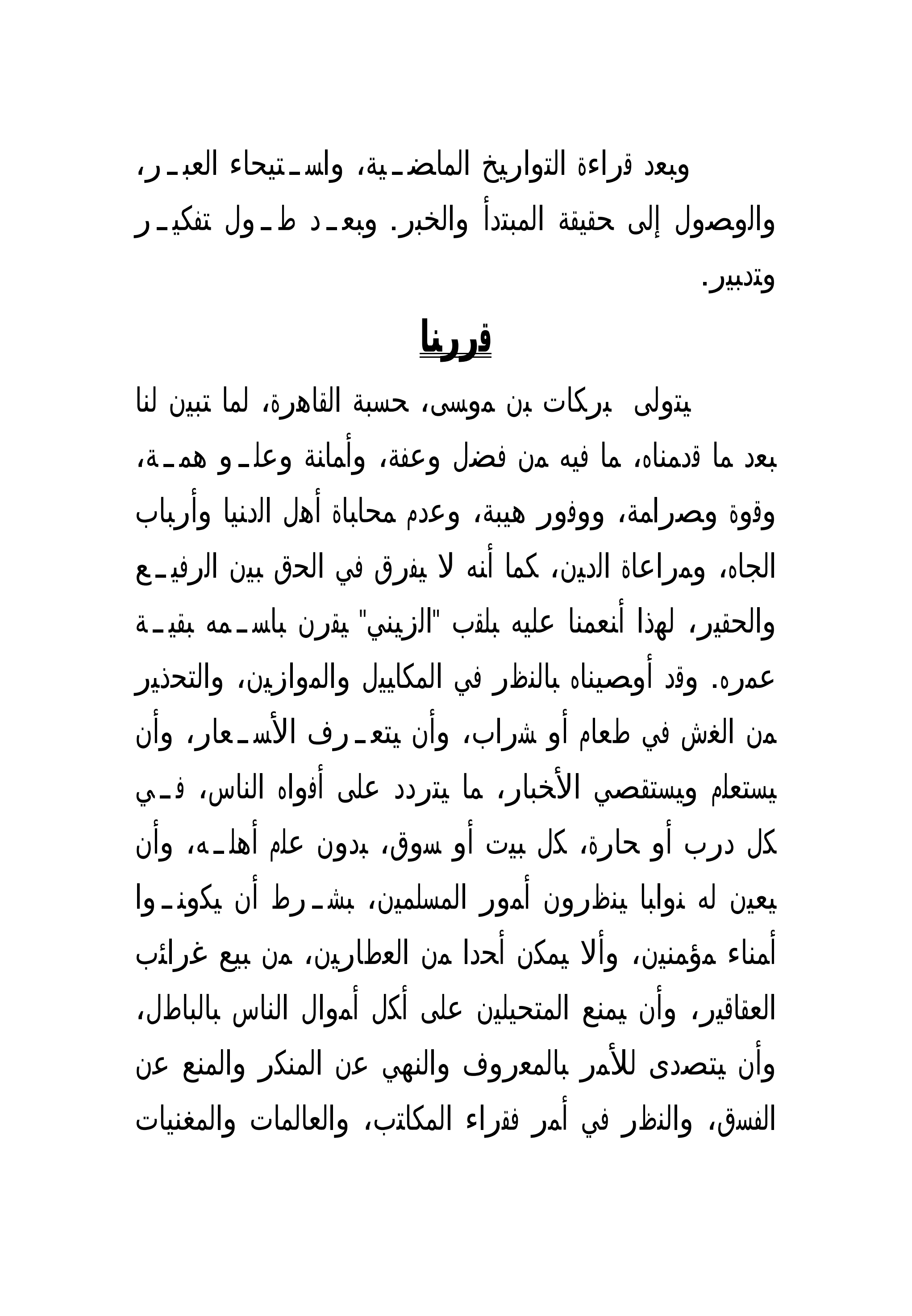


﴿ولْتَكُن منْكُم أُمةٌ يدعون إِلَى الْخَيرِ ويأْمرون بِالْمعروفِ وينْهون عنِ الْمنْكَرِ﴾

﴿وتَعاونُوا علَى الْبِر والتقْوى ولاَ تَعاونُوا علَى الإِثْمِ والْعدوانِ﴾

أما بعد:

الحمد لله الذي هدانا إلى كشف أشرارنا، والاهتداء إلى خيارنا، لما فيه راحة العباد واستقرار الأمن والنظام في البلاد، فمن بعد ترسيمنا على الباغي بن أبي الجود، وإقامتنا دونه الحدود، رأينا ملء وظائفه ومراتبه، وحتى نحفظ العدل، ونطلب منه المزيد، فكل منا عليه رقيب عتيد، رأينا توزيع هذه الوظائف على أرباب المعرفة والعلوم، والأمر بهذا حمل إن لم تتوزعه الأكف ثقل على الرقاب، وبدأنا بوظيفة الحسبة لأنها تمس أحوال الناس ومعاشهم، ولا يمكن تركها شاغرة، وبعد الاطلاع على أحوال الناس، ومعرفة أي الخلق منهم يريحهم ويجنبهم الصعاب.



وبعد قراءة التواريخ الماضـية، واسـتيحاء العبـر، والوصول إلى حقيقة المبتدأ والخبر. وبعـد طـول تفكيـر وتدبير.

قررنا

يتولى بركات بن موسى، حسبة القاهرة، لما تبين لنا بعد ما قدمناه، ما فيه من فضل وعفة، وأمانة وعلـو همـة، وقوة وصرامة، ووفور هيبة، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه، ومراعاة الدين، كما أنه لا يفرق في الحق بين الرفيـع والحقير، لهذا أنعمنا عليه بلقب "الزيني" يقرن باسـمه بقيـة عمره. وقد أوصيناه بالنظر في المكاييل والموازين، والتحذير من الغش في طعام أو شراب، وأن يتعـرف الأسـعار، وأن يستعلم ويستقصي الأخبار، ما يتردد على أفواه الناس، فـي كل درب أو حارة، كل بيت أو سوق، بدون علم أهلـه، وأن يعين له نوابا ينظرون أمور المسلمين، بشـرط أن يكونـوا أمناء مؤمنين، وألا يمكن أحدا من العطارين، من بيع غرائب العقاقير، وأن يمنع المتحيلين على أكل أموال الناس بالباطل، وأن يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمنع عن الفسق، والنظر في أمر فقراء المكاتب، والعالمات والمغنيات

من النساء، ولا يمكن منهم أحدا، ولا يستنيب عليهم إلا مـن عرفت أمانته، وآثرت صيانته، وأن يكونوا من أهـل العفـة والأمانة والنزاهة ممن بعدوا عن المطامع، ونأوا عن السوء، وأن يقصد بقوله وفعله وجه ا تعالى، وابتغاء مرضاته، فلا يبالي باحتسابه بغض الناس له، وسخطهم عليه، أو رضاءهم عنه، وأن يكون مواظبا على سـنن الرسـول، مـن قـص الشارب، ونتف الأبط، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، ونظافة الثياب والتعطر بالمسك، هذا ما رأيناه، وبه أمرنـا، وسـلام على أشرف الخلق، سيد المرسلين، محمد بن عبد ا ، صلى ا عليه وسلم.

" قلعة الجبل"

ثامن شوال

***

زكريا بن راضي

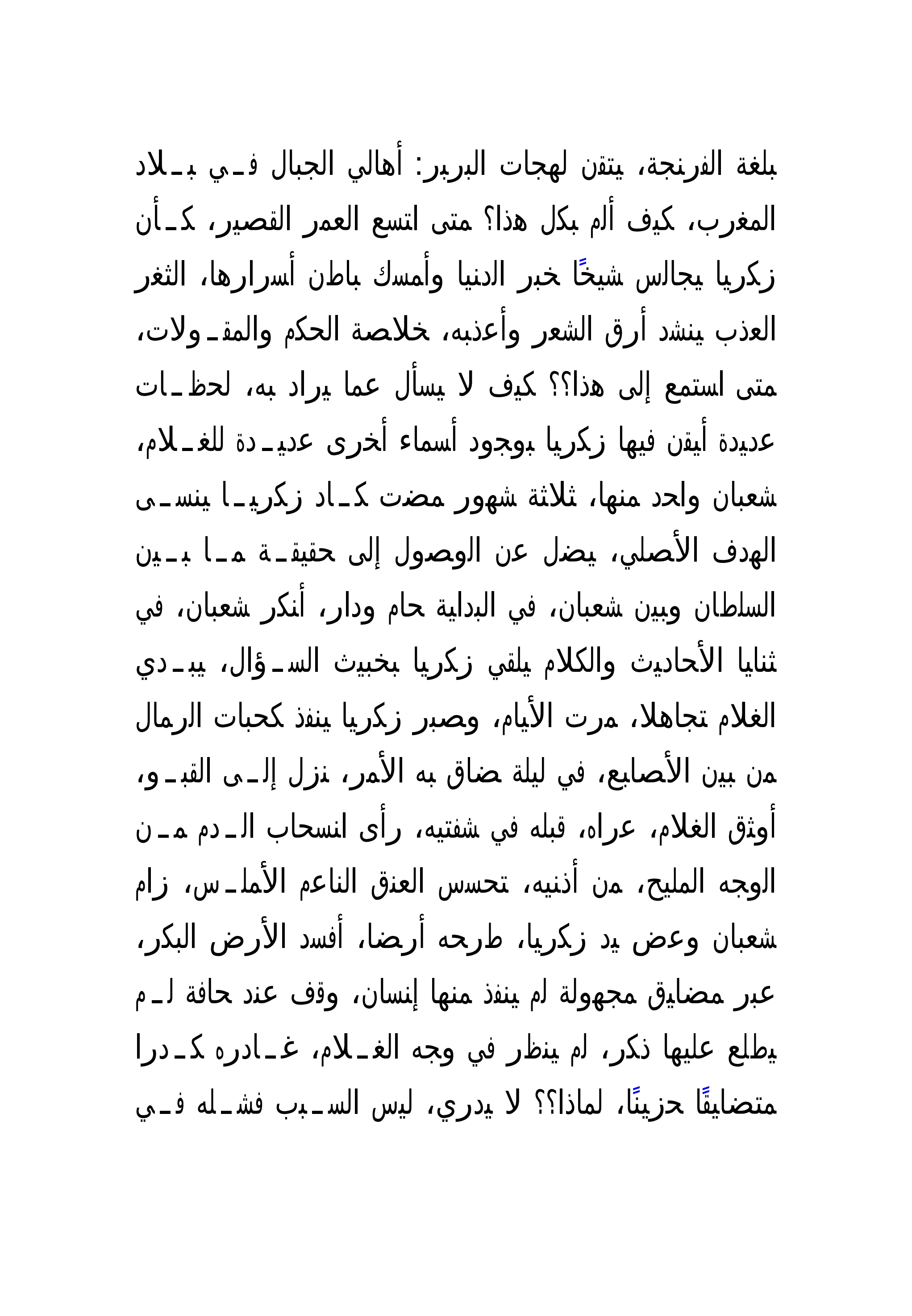
في أي وقت أو مكان، هل حال أمر بينه وبين فهم ما يجري، النفاذ إلى الأحداث، الصـغير منهـا والكبيـر، الآن بالذات يحاول تلمس الأسباب، ما يجـري الآن يحيـره، أول الليل، نزل إلى السجن الصغير المدفون تحت البيت، تقدمـه

المشاعلي مبروك، لا يذهبان إلى السجن إلا نـادرا، مـرات قليلة خطا فوق الممر المعتم الضيق، فـي نهايـة تجـاويف صغيرة في الجدران الرطبة المبللة اللازجة. تضـيق الفجـوة بقامة الإنسان، السجين يضطر إلى إحناء ظهره عند الوقوف حتى لا يصطدم رأسه بالسقف غير المستوي، لا يمكنه تلفت أو تقلب، أو قعود، أو نوم متمددا لضيق المكـان، وبسـبب المياه التي يرشها مبروك الأخرس عدة مرات كـل نهـار، يحافظ على منسوب ارتفاعها فوق الأرضية اللازجة المبللـة، زكريا لا يلقي المحابيس هنا، يبقى في الطرف الآخر للبيت، يجيء مبروك، يفك قيود المحبوس المطلوب، يعصب عينيـه بمنديل، يدفعه بحربة قصيرة في ضلوعه، في النهاية يقـف أمام زكريا، يبقى السكون بلا خدش فيتزايد رعب السجين، لا يدري من أين تجيئه الضربة، وبعد لحظات تطول أو تقصر يمد زكريا فجأة يده، يلمس كتف السجين، غالبا مـا يلمسـها برفق، على مهل، بتأن، كثيـرون لـم يحتملـوا المفاجـأة والمباغتة الخفية اللينة كبطن الأفعى، يسقطون مغشيا عليهم، ترفع العصابة عن العينين، في البداية تترقرق ابتسامة هادئة، نار قرب انطفاؤها، يمضي وقت، ترتفع صـرخات زعيـق

وآلام، تصر عجلات الساقية التي تبدأ في رفع الميـاه مـن البئر العميقة، أحيانًا يأمر زكريا بقرع الطبلخاناه، خاصة في الليل، في السكون الغويط، يسمع من بعيد، يـدرك القلائـل جدا، أشد المقربين إلى زكريا والعاملين معه، يـدركون مـا يحويه قرع الطبلخاناه الآتي من سفح المقطـم، الليلـة يمـر زكريا بنفسه في السجن المعتم الرطب، قبل ذهـاب النهـار طلب من مبروك إخلاء التجاويف من كافة السجناء، جمعهم لا يدري أحد بوجودهم، لم يصدر مرسوم بإمساكهم، زكريـا لا يدري ما تحمله الساعات الآتية، لا يأمن أبدا مهما استقرت الأحوال، عندما يرى الكل رسوخ الأمن وعمق جذوره فـي جوف الزمن، لا يخطئ زكريا تقدير أضيق الثغرات، وأتفـه الاحتمالات، من يدري؟؟ ربما أرسل أميـر إلـى السـلطان يخبره بأمر المحابيس هنا، منهم من نسيه زكريا لطول المدة، ربما جاء مماليك الغوري، الجلبـان أو القرانصـة، تسـلقوا الأسوار، نفذوا من الأبواب، الممرات والحجـب، أمسـكوه، بهدلوه، ثم يفتشون السجن، سوف يبحثون عن شعبان، شعبان بعينه، من شهور اختفى لم يدر به مخلوق، شـعبان غـلام السلطان المقرب، المفضل على غيره، جليسه فـي خلواتـه.

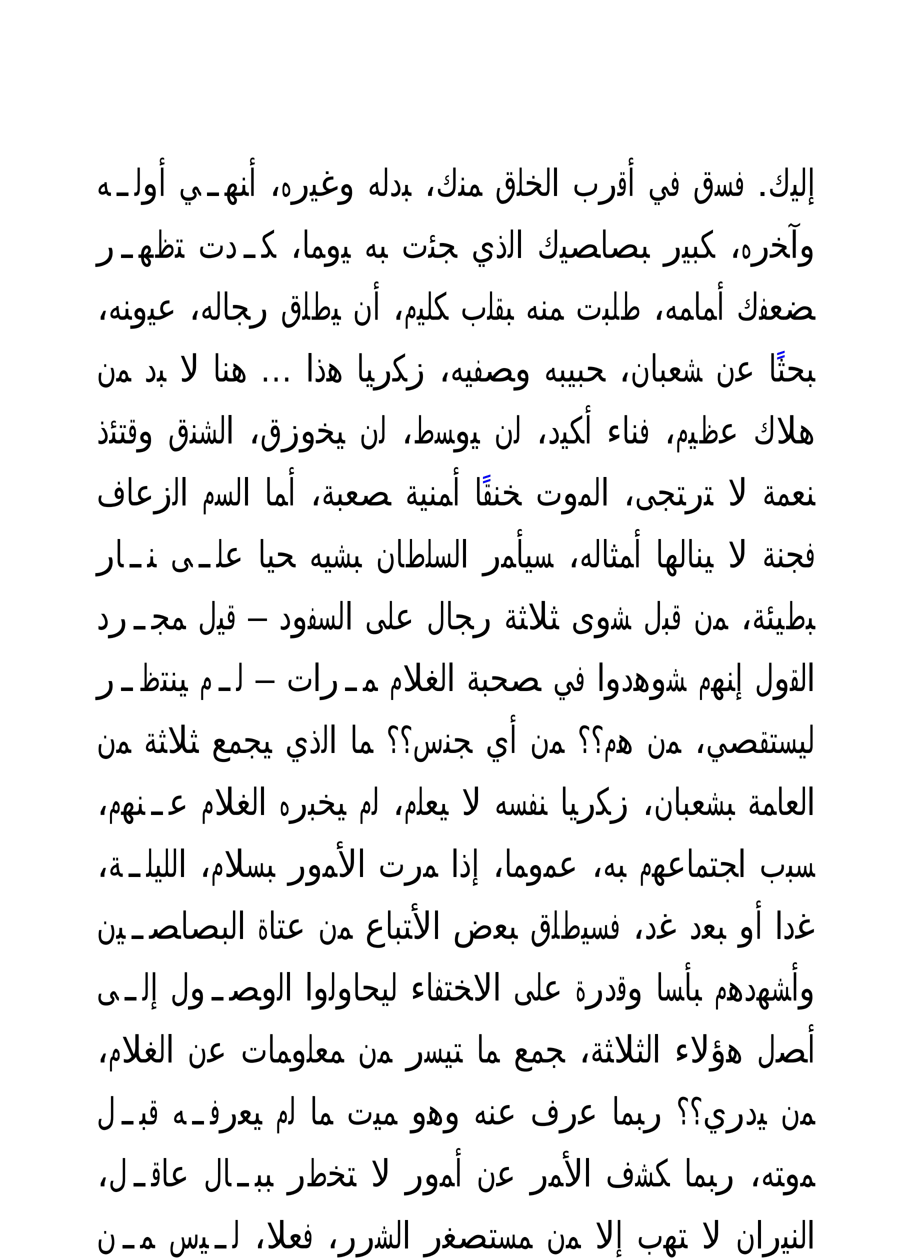
أنيسه في سهراته، يقعد إلى يمينه دائما في نفس مكان الأمير الدوادار، وأمير السلاح وأمير أخور وكبار رجـال السـيف والكتاب، شعبان فلقة قمر، هلال فضة مولود، شـفتاه حبتـا ياقوت، عينا هر، فمه مسك وطيب، خده ألين من حرير، يده في طراوة العجين، لا يتجاوز العشرين، عندما قرر زكريـا اختطافه لم يأمره أحد بذلك، لم يوزه أمير، لم يدفعه وزيـر، أي مخلوق، قرر أن يصل إلى جوهر الصلة بـين شـعبان والغوري، سؤال محير ألهب مرقده، أحرق ما بين جفنيـه، هل يهوي السلطان الغلمان، هل يؤثرهم على النساء؟؟ أمـر كهذا لا يغيب عن زكريا أبدا، إذن لا بد من الوصـول إلـى الحقيقة، خاصة والقرائن تؤيد ما يحوم من ظنون، منذ توليه أمور السلطنة لم يسمع أنـه أزال بكـارة أو أضـاف إلـى مشترياته جديدا، فيما عدا عشر جوار وصلن إليه هدية مـن ملك البندقية عندما أرسل قاصده إلى القاهرة مـن شـهور، زكريا يعرفهن، لديه أسماؤهن، أوصافهن ويعلم من مصادره أن السلطان لم يقربهن، وأنهن يتقلبن متحرقـات، ولـولا أن الرجال المسموح بدخولهم إليهن طواشية لأتين من الفعال ما تتندر به أجيال وركبان، أيضا لم يتزوج الغوري إلا اثنتـين،

إذن هل توجد صلة بين السلطان وشعبان؟؟ ولن يجيب عـن السؤال إلا شعبان بشخصه. راح مبروك يرقب مرات طلوعه ونزوله ثلاثة شهور كاملة، حتى ألم بعاداته، حفـظ المواقـع التي يتردد عليها، انحناءات طريقه، عدد البيوت على جانبيه، مواقع الخلاء فيه، وفي لحظة معينة خلت السماء من القمـر، من ضوء النجوم، كمن عدد من الرجال الملثمين على جانبي المدق الرملي الموصل إلى أول طريق القلعة، وفـي الليلـة نفسها وصل مقر زكريا، تأمل شفتيه، تعجب من خلقته، مـن رقته، مد يده وتحسس نعومة بشرته، استرسال شعره، دهش لنصاعة أسنانه، طيب رائحته. رهافة لسانه أمثل هذا يخلـق بين جنس الرجال. خلع ثياب الغلام قطعة قطعـة، الولـد لا يدري، غائب عن وعيه، صرف زكريا رجاله. مـال فجـأة وقبل الغلام، قال لنفسه. وقع القبلة بعد صحوه أحسن، وفعلا رأى في الصباح تورد الوجه المليح ورد سقاه الندى، أبـدي كربا، ورأى الغلام هادئًا واثقًا. تحدث إليه ولم يفصح عـن غرضه مباشرة لم يكشف قصده، استمع إلى وصـف بـلاد رآها شعبان، تساءل بعدها، أحقًا لم يتجاوز العشرين، شعبان رأى الصين، زار فارس، ورقص في جبال الأناضول، عالم



بلغة الفرنجة، يتقن لهجات البربر: أهالي الجبال فـي بـلاد المغرب، كيف ألم بكل هذا؟ متى اتسع العمر القصير، كـأن زكريا يجالس شيخًا خبر الدنيا وأمسك باطن أسرارها، الثغر العذب ينشد أرق الشعر وأعذبه، خلاصة الحكم والمقـولات، متى استمع إلى هذا؟؟ كيف لا يسأل عما يراد به، لحظـات عديدة أيقن فيها زكريا بوجود أسماء أخرى عديـدة للغـلام، شعبان واحد منها، ثلاثة شهور مضت كـاد زكريـا ينسـى الهدف الأصلي، يضل عن الوصول إلى حقيقـة مـا بـين السلطان وبين شعبان، في البداية حام ودار، أنكر شعبان، في ثنايا الأحاديث والكلام يلقي زكريا بخبيث السـؤال، يبـدي الغلام تجاهلا، مرت الأيام، وصبر زكريا ينفذ كحبات الرمال من بين الأصابع، في ليلة ضاق به الأمر، نزل إلـى القبـو، أوثق الغلام، عراه، قبله في شفتيه، رأى انسحاب الـدم مـن الوجه المليح، من أذنيه، تحسس العنق الناعم الأملـس، زام شعبان وعض يد زكريا، طرحه أرضا، أفسد الأرض البكر، عبر مضايق مجهولة لم ينفذ منها إنسان، وقف عند حافة لـم يطلع عليها ذكر، لم ينظر في وجه الغـلام، غـادره كـدرا متضايقًا حزينًا، لماذا؟؟ لا يدري، ليس السـبب فشـله فـي

الوصول إلى حقيقة العلاقة، بعد ثلاثة أيام نزل القبـو، رأى وجها بدلته قسوة تقاس بعشرات الأعوام، في البدء ظـن أن الغلام أبدل، أين ملاحة الوجه، روقان أول العمر، ناداه، لـم يجب شعبان، لم يفه حرفًا، زال زهاء الشباب، انكسر غصن الوردة، نسي الغلام بلادا زارها، قرى رآها، ثلوجاً بيضـاء تفنن في الحديث عنها، أي لغز يحير زكريا، غـادر القبـو مسرعا، عاد إليه مرات خلسة، روعه ما رآه وأفزعه، نحـل الغلام وكاد يفنى، لو امتد الوقت، لو في الزمن فسحة، متسع، ربما توصل إلى سر ما حدث، يضـع يـده علـى بـدايات الأشياء، ربما توصل إلى حقيقة الأمر بين السلطان وغلامـه شعبان، لكنه الليلة محسور، الغيظ يهريه، للأسف، يقرر خنق شعبان ودفنه حيا، بنفسه راقب الخنق، مبروك وحـده قـام بالعملية، ضربات معوله الصماء عالقة في أذن زكريا، الليل وغرابة الأمر ورحيل الفتى يكسبها رنينًا قاتما مخيفًا، لكـن، لا بد من تنفيذ ما أمر به، ربما جاءوا واختطفوا شعبان حيا، يطلعون به إلى السلطان، يا مولانا هـذا غلامـك الحبيـب وجدناه عند زكريا بن راضي كبير البصاصين، ونائب علي بن أبي الجود، يا مولانا خانك زكريا فاختطف أحب النـاس



إليك. فسق في أقرب الخلق منك، بدله وغيره، أنهـي أولـه وآخره، كبير بصاصيك الذي جئت به يوما، كـدت تظهـر ضعفك أمامه، طلبت منه بقلب كليم، أن يطلق رجاله، عيونه، بحثًا عن شعبان، حبيبه وصفيه، زكريا هذا ... هنا لا بد من هلاك عظيم، فناء أكيد، لن يوسط، لن يخوزق، الشنق وقتئذ نعمة لا ترتجى، الموت خنقًا أمنية صعبة، أما السم الزعاف فجنة لا ينالها أمثاله، سيأمر السلطان بشيه حيا علـى نـار بطيئة، من قبل شوى ثلاثة رجال على السفود – قيل مجـرد القول إنهم شوهدوا في صحبة الغلام مـرات – لـم ينتظـر ليستقصي، من هم؟؟ من أي جنس؟؟ ما الذي يجمع ثلاثة من العامة بشعبان، زكريا نفسه لا يعلم، لم يخبره الغلام عـنهم، سبب اجتماعهم به، عموما، إذا مرت الأمور بسلام، الليلـة، غدا أو بعد غد، فسيطلق بعض الأتباع من عتاة البصاصـين وأشهدهم بأسا وقدرة على الاختفاء ليحاولوا الوصـول إلـى أصل هؤلاء الثلاثة، جمع ما تيسر من معلومات عن الغلام، من يدري؟؟ ربما عرف عنه وهو ميت ما لم يعرفـه قبـل موته، ربما كشف الأمر عن أمور لا تخطر ببـال عاقـل، النيران لا تهب إلا من مستصغر الشرر، فعلا، لـيس مـن

الأمان بقاء شعبان حيا، وغيره من المسـاجين، أي شـخص يبقى هنا، حتى حقير الهيئة، مبتور الأصل فاقد النسـب، أو مجهول الهوية من صغار المنسر والحرامية، سـيعلو شـأنه وقتئذ، يطلق العامة والخاصة التشنيعات المهولة، يحطون في حقه كل قبيح، زكريا يحبس خلق ا ، زكريا لديه سجن تحت بيته، ترى كم من الأرواح أزهق؟؟ أي الطـرق سـلك فـي تعذيب أجساد خلقها ا ، وقتها يقوم الكـارهون، الأمـراء، أولاد الناس، مساتير الناس، مشايخ الطرق، طلبـة الأزهـر والمجاورون، سيرون في المحابيس، كل من أمسكهم زكريـا مساكين، أرواحهم بريئة، لم تجن ذنبا، لم يتآمر أصحابها، لم يسرق بعضهم، لم يقل سبابا في طريق عام ضـد أميـر أو كبير، الآن، يفتش السجن بنفسه، يتناول المشعل من مبروك، ينبش تجاويف السجن بعينيه، عطن ونتن يتصاعد إلى أنفـه، العفن لزج، لكن صبرا، ما قام به يدفع بالرضا إلى روحـه، لتخل التجاويف من الآهـات والتأوهـات والأنـات ليـالي معدودات، لن تتردد أسئلة المتحشرجين إذ يسـأل بعضـهم البعض عن أسمائهم، عن قراهم وبلادهـم، الأسـباب التـي جاءوا من أجلها، زكريا عندما رأى المحابيس تعجـب، رأى

وجوها لا يذكر أصحابها، كأنهم جاءوا بدون علمه، نسـيهم لتعاقب السنين وكثرة المشاغل، الآن، اطمأن زكريا، يخـرج إلى الهواء الطري الآتي من أعلى المقطم، يمكنـه أن يخلـو إلى نفسه، مبروك يدرك تماما ما يريده أستاذه، يبتعد مندمجا بالظلام، يتحسس زكريا مقبض خنجـره القصـير مسـموم النصل، يقطع الفناء المتسع بخطوات ثابتة، لعباءته حفيـف، ضحكة ناعمة كخيط حرير، كشرنقة فراشـة، تجـيء مـن أعلى، بعضهن يتسامرون في الحرملك، لن يخلو الليلة إلـى أي منهم، لن يرى ابنه يس، يدفع جزءا في جـدار، يغلقـه، يطلع سلالم ضيقة تؤدي إلى أعلى طوابـق مبنـى الـديوان المجاور لمبنى البيت، الناظر من بعيد، حاد البصر، يمكنـه رؤية نقطة ضوء تتسرب الآن من ثقوب المشربية، لكن مهما أوتي المرء من دهاء، مهما انكشف عنه الحجاب، لا يمكنـه أبدا تخمين ما يضمه الطابق العلوي، زكريا لا يجيء إليه إلا أوقات الاضطراب، تقلقل الأمور، تغير الأحـوال السـريع المصحوب بارتجاف الزمان، انهيار القوائم، تحلل الأسباب، قبل بداية العمل يتكئ إلى حشية لينة تحجز عن ظهره برودة الجدار المكسو برخام أحمر ملون بأسود، يغمض عينيه، مـا

معنى الذي جرى؟؟ حيرته الآن أشد حدة من اللحظـة التـي جاءه فيها الخبر، حوله تشهق الجدران تسند طوابق خشـبية مقسمة إلى مربعات وخانات، كل منها يضم عددا من الدفاتر، تختلف ألوانها وأحجامها، هنا تتلخص الديار المصرية، دائما يقول زكريا لأعوانه المقربين، عندما أود الذهاب إلى أي بلدة في مصر لا أبتعد عن بيتي، أجيء إلى هنا، لكل بلدة قسـم، كل قرية، أي كوم أو عزبة، أي إقطاع في بر مصـر مـن أدناها إلى أقصاها، كل دفتر يحوي أوصـاف المكـان، مـا اشتهر به، ثم أهم الأشخاص فيه، كافة ما يتوافر عنهم، القسم الخاص بالقاهرة يحوي حاراتها وخططها وجوامعها، رجالها وشيوخها ونساءها وغلمانها وجواريها وبيوت الخطـأ فيهـا وشرطتها وعسسها وفقهاءها وحماماتها وأسواقها وخاناتهـا وطوائفها ومغنياتها وملاهيهـا، وأسـماء الأروام المقيمـين والقادمين والراحلين والأفرنج العابرين، ومن يتصـل بهـم ويتردد عليهم من المصريين، كل أمر كبير أو صغير هنـا، أما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق فكل ما يتعلق بهم، أمزجتهم وعاداتهم، مشاربهم وأهواؤهم، ما مر بهم من أفراح وأتراح كله هنا، يقول زكريا متباهيا، هذا القسم في الـديوان

مفخرة للسلطان وغرة في جبين السلطنة المصرية، لم يحدث قط أن أعد شيء كهذا في تاريخ أي بصـاص مصـري أو أفرنجي، وبإذن ا العليم القريب سيجيء يوم يصـبح لكـل إنسان قسم خاص به، يلخصه منذ آهة الميلاد حتى رعشـة الموت، الآن، يبحث بين الدفاتر، بالضبط هذا ما يريده، دفتر أحمر مجلد بقماش، هنا يرقد المباشرون وأرباب الوظـائف أصحاب الطوائف الصغيرة، وفي آخره ملحق يتضمن مـن يظن وصولهم إلى مناصب يوما، نوعيتها، لا يذكر مـا دون عن بركات بن موسى، شهاب الحلبي ناظر الديوان أضـاف اسمه منذ عامين تقريبا، لم يطلب زكريا صـفحته للاطـلاع عليها، لا يدري هل أضاف شهاب الحلبي معلومات جديـدة عنه؟؟ الآن يتأخر الوقت، الليل يوغل حتى العظـام، لـولا سرية الأمر لأرسل في طلب شهاب الحلبي ليجمع كـل مـا تناثر من معلومات حول الزيني، لكن لكي يرسل إليه، لابـد من اجتياز حارات مسكوكة ودروب مغلقة ويتجنب عسـس وعيون زكريا نفسه، ربما يثير استدعاء شهاب الآن ظنـون البعض، لا داعي لحضوره، لا داعي، زكريا يضيق، بوغت بإعلان الخبر، لم يستبق كافة رجاله في الديوان، ولم ينفذ ما

اقترحه منذ فترة بخصوص تيسير سبل الاتصال بينه وبـين نوابه ورجاله وأعوانه، لابد من مراعاة هذا بسرعة وتنفيـذه من الغد، لولا حرصه على معرفة كل ما يضـمه الـديوان، طريقة ترتيب الدفاتر والتقارير والأوراق لتاه الآن، لا يـدع أحدا من نوابه يستأثر بأمر ما حتى لو كـان صـغيرا تافـه الشأن، لا بد من إلمامـه بكـل ظـروف العمـل، طرقـه ومصاعبه، حتى لا يلعب به أحد رجاله، يخدعه، لكـن مـا أحوجه الآن إلى شهاب الحلبي بالذات، شـهاب الحلبـي لا يكلف روحه عناء البحث، لديه ذاكرة عجيبة، يعـرف آلاف الأشخاص، ما يخصهم، لا ينسى أمرا أبدا ولو مرت سنون، يذكر ما تبودل من أوراق وتقارير، ما أضيف من معلومات وسطور، في أي سنة من السنين، الآن يقلب الدفتر، يمسـك بالشريط الملون الذي يفصل الصفحات عن بعضها، حـرف الألف لا يعنيه، غير مهم، ربما مات بعض أصـحاب هـذه الأسماء، بعضهم يجب نقله إلى دفاتر طبقات أخرى لتغيـر أوضاعهم، أو اختلالها، آه مثلا هذا، أحمد بن عمـر خـادم مسجد سيدي سويدان، أصبح إماما للمسجد يقرأ فيه الحـديث والقرآن ويؤم المصلين، تزوج امرأة حبشية، يشاع عنه هواه

بالحبشيات، مع هذا مازال لقبه واسمه في طائفة الخدام، كـل حريمه هنا، واحدة فلاحة من أوسيم، أم أولاده، منهم طالـب أزهري، لا يجب تنبيه شهاب الحلبي، ربما قيل وما أهميـة هذا؟؟ أبدا، أبدا، كل شاردة وواردة يجب تقييدها، رصـدها ربما جاء منها ما لا يدري مخلوق، ها هي. البـاء، حـرف الباء، بالضبط بركات، بن موسى، أعلى الصـفحة، أقصـى الركن الأيسر كلمة واحدة، حروف خمسة لا غيـر، المـداد أسود، الخط رفيع.

***

" بركات ":

لو نظر جاهل إلى الورقة لظن خلوها من أي حرف عدا الاسم وما الذي يعنيه لفظ واحد فـي صـفحة بيضـاء، ناصعة تلمع تحت ضوء الشموع المعلقة إلى الجدران المبطنة بالخشب والرخام والرفوف المزدحمة بالدفاتر، زكريا يمسح الورقة بقالب صغير شفاف لا يعرف تركيبه إلا قلـة، شـيئًا فشيئًا تبدو ملامح الحروف، تتكشف الكلمـات، يـد خفيـة تخطها، زكريا يمر بالقالب مرات، نفخ الهواء حولـه، فقـط أربعة سطور، أربعة سطور فقط، يستعيذ با العلي القـدير،

ملهم البشر، كاشف الأسرار، عالم الغيوب ما لهذا الرجل لا يأتي من ناحيته إلا الحيرة؟؟ كل ما خطـه شـهاب الحلبـي أربعة سطور (بركات بن موسى، له مقدرة الاطـلاع علـى النجوم، أمه اسمها عنقا).

زكريا يطبق الدفتر، أي شخص من سفلة الخلق، من طلبة الأزهر المشاغبين، أي غانية، أي بائع جبن مقلـي، أو سنبوسك، لا يقل المكتوب بخصوصه عن نصف ورقة، وهذا الإنسان يساوي سطورا أربعة يتيمة، يغمض عينيـه، ليـل ساكت لا يكشف سرا ولا خبرا، يعرف أن القـوم يسـهرون الآن، يهمسون، يحطون آراءهم في المحتسب الجديد، ومـا ينتظرونه منه، أه لو يجيء يوم يدرك فيه البصاص ما قيـل على بعد آلاف القرى والبلاد، لا يبعد أمر على ا . لولا ثقة زكريا فيما نقل إليه بعد الغروب ما صدقه الآن، أكثـر مـن مصدر، أكثر من بصاص، كل بصاص يجهل الآخر، نقلـوا إليه أخبار سعي بركات بن موسى لحصوله علـى منصـب الحسبة، ذهابه اليومي إلى الأمير قاني باي، طلوعـه إليـه، بقاءه عنده، حديثه إليه، ثم ثلاثة آلاف دينار كاملة سلمها إلى الأمير قاني باي ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظـم

بعد العشاء. ثلاثة آلاف دينار يشتري بها بركـات منصـب الحسبة، زكريا ينفخ الآن من فمه هواء ساخنًا، ظن وأيقـن وصول الحسبة حتما إلى الأمير طغاز، أصابعه تقبض علـى حافتي الدفتر، هاهو أول الليل يسمع ما يحيره، مـا يجعلـه ينطق لفظًا يكرهه " لماذا؟؟ لكن هل يعقل هذا؟ من أي طينة خلق بركات هذا، هل جاء المسيح الدجال متنكرا، هل نفذ إلى العالم ولم يدر به زكريا، كيف، كيف؟ بعد إصدار المرسـوم السلطاني، الشريف، بعد الثناء على بركات بن موسى، بعـد الإنعام عليه بلقب الزيني مدى الحياة، بعد دفع بركات ثلاثـة آلاف دينار ليشتري المنصب، بعد طواف المنـادي نهـارا بأكمله، بعد هذا كله يطلع من بيته في بركة الرطلي، يشـق دروبا جانبية، لا طلبخانـاه تتقدمـه، لا دق كوسـات، بـلا ضجيج، أول ركوب له، يطلع متخفيا على القلعة، ينبطح أمام الأمراء جميعا، يبكي، دموع حقيقية، لا شـك فـي ملوحـة طعمها، ينطق ما يجعل زكريا يروح ويجيء حتـى الآن، لا يمضي لرؤية ابنه الوحيد، أي من حريمه، يثقل الليل فوقـه، لا يعنيه إعدام علي بن أبي الجود، لا يهمـه الآن اسـتمرار الغوري أو خلعه وتولية أسفل الخلـق مكانـه، كـل همـه

الوصول إلى تفسير لما جرى من الزيني بركات بن موسى، في القلعة، وأمام من؟ أمام الدولة كلها، ما لو سمعه إنسـان لضرب الأكف عجبا ودهشة، في ساقه خدر، طـابور نمـل رفيع يسري تحت جلده، يعقد يديه وراء ظهره، ربما لم يدفع ثلاثة آلاف، لكن أبدا، لا أحد برفقة زكريا الآن، يهز رأسـه بقوة، أبدا، أبدا، يثق من صحة عيون بصاصيه المتخصصين في أمور قاني باي، يعلم تماما دخول ألف دينار إلى خـزائن الأمير قاني باي يوم استلامه البرطيل من بركات بن موسى، لم تصله إيرادات من أية جهة أخرى، أما الألفان المتبقيـان من الثلاثة آلاف فطلعا إلى القلعة، آه لو يتخذ السلطان رأيـا الليلة لاستقر زكريا، لكنه أمر الزيني بالانصراف حتى يرى من أمره ما يكون. زكريا يمسك الدفتر، يفتح الصفحة مـن جديد.

بركات:

من الليلة سيتولى زكريا بنفسه أمـر بركـات بـن موسى، ليضيف شهاب الحلبي ما يروق له من معلومات إلى سطوره الأربعة التي لا تبل ريقًا، لا تشـفي غلـيلا، يميـل زكريا إلى دولاب صغير يتناول منه دفترا مجلـدا بحريـر

أخضر، الليل حوله أخرس معصوب العينين، يخرج من جيبه لفافة أوراق، ما وصله من القلعة، كل مـا دار فـي قاعـة البيسارية، بركات بن موسى قبل رخامها، بللها بدمعـه، لـم يحدث هذا في تاريخ سلطان من السلاطين، منذ الآن ... كل ما يمس هذا الزيني من قريب أو بعيد سيقرؤه بنفسه، ينقلـه هو، عيناه ستتوليان أمره كلما جاءت الفرصة وسنحت، مـن تجويف ضيق مغطى بستارة صغيرة، يتنـاول وعـاء مـن فخار، يغمس قلما خشبيا رفيع السن في إناء ملون.

" الصفحة الأولى":

عاشر شوال عام ٩١٢هـ

على مرأى من الأمراء. في حضور جمـع عظـيم، طلب الزيني بركات بصوت خدشه التأثر، أن يعفيه مولاه من وظيفة الحسبة، قال بصوت مرتجف" الحسبة يا مولاي ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد، وحاشا أن أجـد فـي نفسي القدرة على هذا، أنا عبد فقير لا أطيق وصايتي علـى إنسان، أتمنى انقضاء عمري في أمن وسلام، بعيدا عن أمور الحكم والحكام، ما أريده رقدة آمنة، لا يقلقنـي فيهـا سـب إنسان، أو سخط مظلوم غفلت عنه ولم أنصفه من ظالمه؟".

كوم الجارح:

عددهم كثير، غير أن هدوء البيت لم يخدشه صـوت عال، فوق حشية قديمة مغطاة ببقايا سجادة لم يفـن الـزمن زهاء ألوانها، يجلس مولانا الشـيخ أبـو السـعود، يطيـل الإصغاء، يعرفهم كلهم، بعضهم حفظ القرآن علي يديه عندما قضي من عمره زمنًا مجاورا لعمود رخامي في مسجد سيدي سويدان، أو مسجد سيدي إسماعيل الإمبابي، يـدرس الفقـه والأصول، يفسر المتن، يشرح الأحاديث والآيات البينـات، يقص التواريخ، هاهم يوغلون في سـني العمـر الأخيـرة، يعرف الإنسان عند مروره بها إنه لن يعيش أكثر مما عاش، أكبر شيوخ الطوائف سنًا ومقامـا، الحـدادون، القصـابون، المرخمون، البناءون، الشعراء، مشايخ حارات، أعيان وأولاد ناس، يجيء سعيد بطبق كبير مليء بالبلح المجفف المغسول، يسنده أمامهم، يميل الشيخ رضوان كبير الفحـامين وأكثـر الموجودين تقدما في العمر " لن يقنعـه ... لـن يقنعـه إلا أنت ..."

تبقى الكلمات معلقة في فراغ البيت، ينسـل هـدوء عذب رقراق كسرب عصافير يطير على علو شـاهق، فـي

اللحظات نفسها تختنق طرقات الحارة بزحام كبيـر، تمـوت الأصوات كلها خارج جدران البيت، تنفذ رائحة لا تنتمي إلى جنس نبات أو عطر معروف، ائتلاف الريحان بماء الـورد المحفوف بروح السوسن، يتمهل كل منهم في تفكيره، يغمـق الهواء، يميل إلى لون الرماد، يملأ الصدور خشوعا ورهبة، تتدحرج حبات المسبحة، اصطدامها يسمع بوضـوح، إيقـاع تفكير الشيخ أبو السعود، يقلب ما يسمعه، مـا يـراه فـوق الوجوه.

" لم نسمع برجل مثله ... ونحـن مـا نرضـى إلا به ..."

ابتسامة خفيفة، ذرات نور تنفذ من ثقـوب مشـربية ضيقة العيون، خاطفة كبرق بين غمام.

" أعرفتموه؟؟".

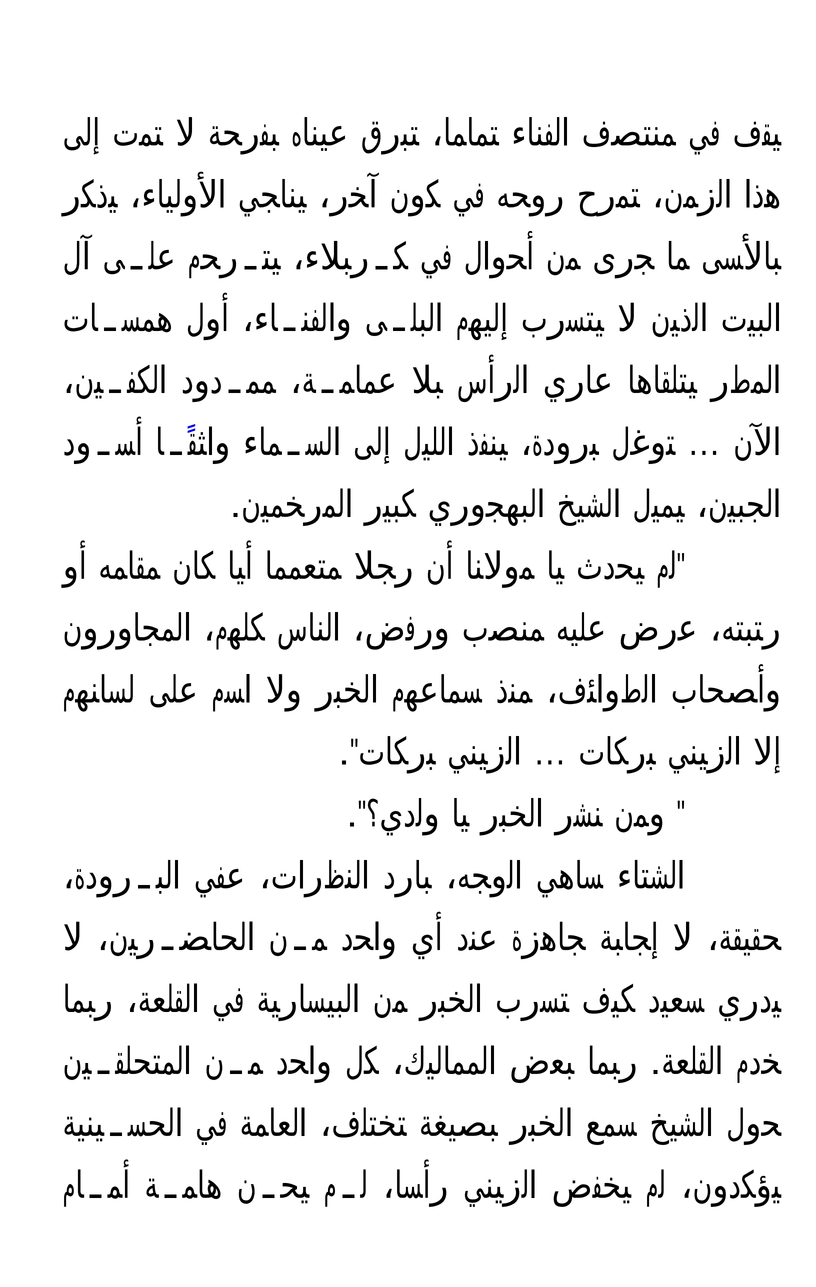
يقول الشيخ القصبي شيخ حارة زويلة ...

" رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا ..."

سعيد لا يقول لفظاً، ليدع الضـيوف يتحـدثون، أول الليل في مجيئه المعتاد إلى الشيخ، تحدث إليه بألفـاظ أكثـر عددا مما قاله جميع هؤلاء، آخر النهار لا يزوره إلا سـعيد

بعد انتهاء دروس الأزهر، يجيء المريدون في الصباح، يقرأون القرآن والأحاديث، بعضهم ينظف أركان البيت، يقدم إلى الشيخ غذاءه من اللبن الرائب والخبز الساخن الطري أقصى آمالهم كلمة من الشيخ إلى واحد منهم فيها رضا.

سعيد لا يتحرج أمام مولاه من إبداء ضيق أو غضب، ما يخشى التصريح أو التلميح به بين الجموع في الأسواق أو أروقه الأزهر، يقوله هنا، حتى لو رأى فيه جرأة، ينظر إليه مولانا، عيناه تنفذان بسرعة عبر أسوار روحه، لا يمكن لسعيد أو أي إنسان من الحاضرين تحديد عمر الشيخ، في التجاعيد آثار عشرات السنين، ربما تجاوز المائة، الصوت والقامة يحويان صلابة جذوع النخيل، يكره الانطواء، يعرف سعيد أي وجد يبهجه إذ يسمع صوت الرعد، يقول، هذا حس الدنيا، صوت الكون، لا يفهمه ويفسره إلا العليم الرحيم، لم يره إنسان لحظات إصغائه إلى صوت الرعد، فرحته بنزول النقطة، أول دمعة تنزل من السماء كل شتاء، سعيد كل سنة يسمع الرعد في الرواق، في المقهى، في الطريق، في لحظات تساؤله الغامض، عما تفعله سماح في لحظة بعينها؟ يتوقف، يعلم تماما أن الشيخ يصغي،



يقف في منتصف الفناء تماما، تبرق عيناه بفرحة لا تمت إلى هذا الزمن، تمرح روحه في كون آخر، يناجي الأولياء، يذكر بالأسى ما جرى من أحوال في كربلاء، يترحم على آل البيت الذين لا يتسرب إليهم البلى والفناء، أول همسات المطر يتلقاها عاري الرأس بلا عمامة، ممدود الكفين، الآن ... توغل ببرودة، ينفذ الليل إلى السماء واثقًا أسود الجبين، يميل الشيخ البهجوري كبير المرخمين.

"لم يحدث يا مولانا أن رجلا متعمما أيا كان مقامه أو رتبته، عرض عليه منصب ورفض، الناس كلهم، المجاورون وأصحاب الطوائف، منذ سماعهم الخبر ولا اسم على لسانهم إلا الزيني بركات ... الزيني بركات".

" ومن نشر الخبر يا ولدي؟".

الشتاء ساهي الوجه، بارد النظرات، عفي البرودة، حقيقة، لا إجابة جاهزة عند أي واحد من الحاضرين، لا يدري سعيد كيف تسرب الخبر من البيسارية في القلعة، ربما خدم القلعة. ربما بعض المماليك، كل واحد من المتحلقين حول الشيخ سمع الخبر بصيغة تختلف، العامة في الحسينية يؤكدون، لم يخفض الزيني رأسا، لم يحن هامة أمام

السلطان، لم يرتجف أو يهب، قال أمام الأمراء أجمعين، لا أقبل الحسبة لأنني لا أريد رؤية الظلم وأسكت عنه، أما الناس في الجودرية وحارة الروم الجوانية والباطنية فنفوا طلوعه إلى القلعة نفيا تاما، قالوا إنه أرسل إلى السلطان مكتوبا يعتذر فيه بأدب وحسم عن ولاية الحسبة، لأن الزمن دب فيه الفساد وكثر ظلم العباد، وصار الخير والعدل في أبعد واد، هذا يخالف طبيعته، ينافي شخصيته، المسئولية كبيرة ولن يساعده مخلوق، بل سيطلب منه السلطان فرض مكوس جديدة علي المسلمين. الزيني بركات بن موسى لن يقبل هذا أبدا، وقيل في بولاق، والحمامات العامة، خاصة حمامات النساء، إنه وقف أمام السلطان كزينة الرجال، وأشجع ما يكون عليه الفرسان، دفعه في صدره دفعا هينا حازما، وهذا لم يقع من قبل، ولم يفعله أي إنسان، قال ستأمرني بظلم الرعية وأنا لن أنفذ هذا لأني أخاف نسبة الظلم إلي، كيف أقابل خالقي يوم الحساب؟؟

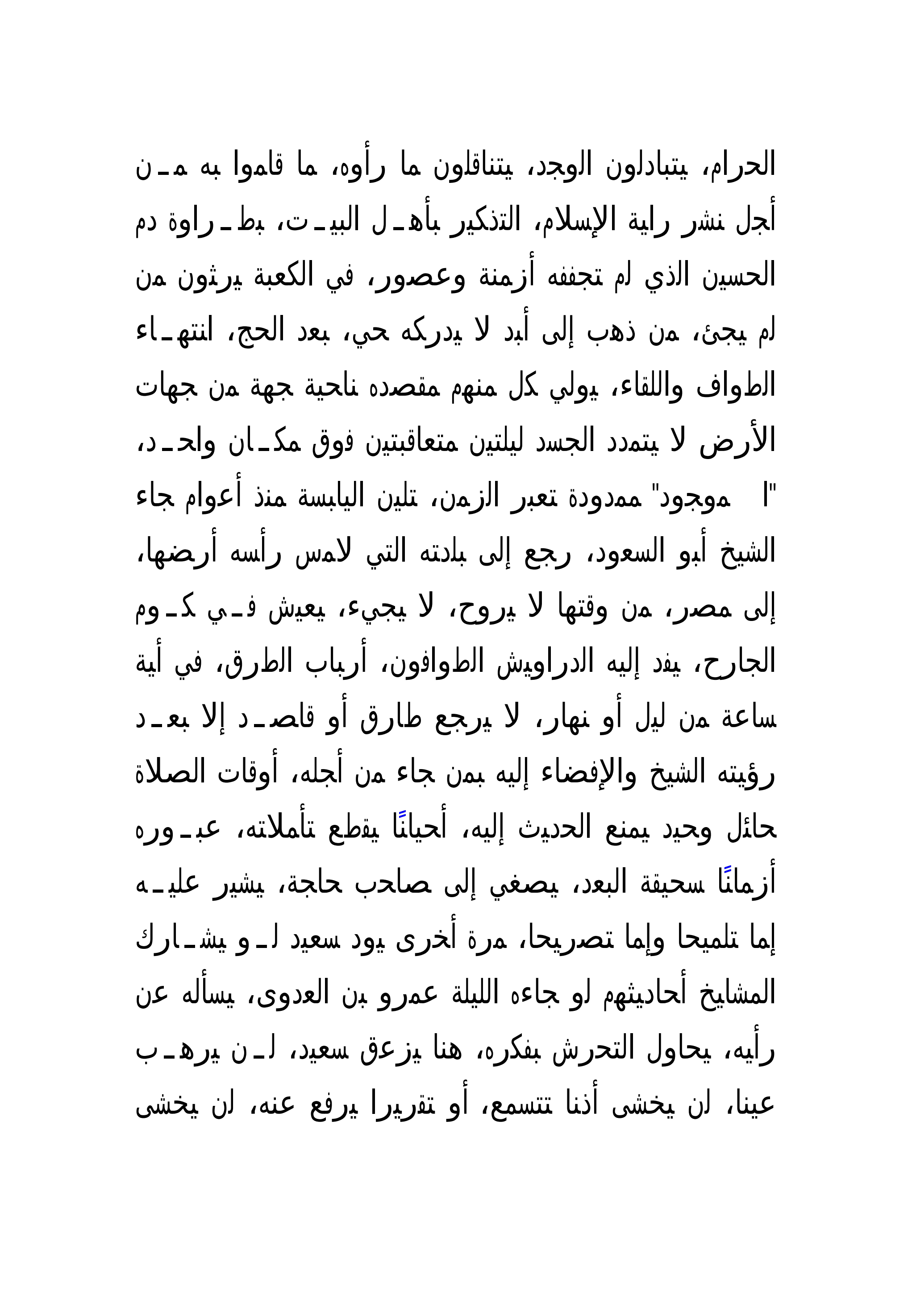
- " الحق يامولانا، لا ندري كيف تسرب الخبر لكن مثل هذه الأمور لا يطول احتجابها، عينا الشيخ نبعا صفاء، من يصلح إذن للمنصب غيره، من ينشر العدل بين الناس

إلا رجل مثله؟ يخشى ا ليس تصنعا أو زيفًا، إنمـا يجهـر بهذا أمام السلطان نفسه، وعلى مرأى ومسـمع مـن أعتـى الأمراء وأشدهم بأسا، وأقواهم شوكة. قال البعض إنهم رأوه يدخل قصر الأمير قاني باي ولم يطلع حتى الآن، السـلطان نفسه لم يصل إلى حل قـاطع، سـعيد يـرى الآن الجـامع الأزهر، عمرو بن العدوى ينتقل بين الطلبـة والمحـاورين، يخرج إلى المقاهي القريبة، دكاكين الحلوى والمشبك، يتسمع رأي الناس، ما يدور بينهم، آه لو اقترب سـعيد مـن هـذا الزيني، لم يره قط في حياته، كلما ظن خلـو الـزمن مـن الجرأة، تنفي الأيام انعدام المروءة، دائما يصغي الشيخ أبـو السعود إليه، رواياته لما يجري في المدينة من فظائع. ما من رجل شنق وراح على نفسه ظلما إلا وسعيد يحفـظ اسـمه، يخوزق فلاح لسرقته ثمرة خيار، توسط امرأة لعنت مملوكـا فاسقًا اختطف ابنتها البكر، في اليوم نفسه يجيء سعيد إلـى مولاه، يذكر الضحية، يتساءل ملوما مقهورا، كيف يجـري هذا؟ كيف يمضي الإنسان بأرخص الأثمان لا دية له، لا قوم يطلبون أثره، تترقرق الشفتان الرقيقتان بطيف ابتسامة كعبير النعناع، أحيانًا يهمس، ألطف بنا يا مولانا فيما جـرت بـه

المقادير ... حدقتا عينيه انطبع فيهما المهول مـن الأمـور، الطواف عبر بلاد ا ، وصـوله أطـراف الـدنيا، عبـوره صحارى لا حرث فيها ولا نسل، اعتلاؤه جبـالا تضـرب قممها في شاهق السماء، نزوله إلى قرى فقيرة فـي ربـوع الشام، صحراء الحجاز، نجد، حضر موت، وديـان الـيمن، سعيد لم ير في حياته الجليد، أحيانًا يتساقط البرد من سـماء القاهرة، لا يحدث هذا إلا نادرا، يطرقع كالحجارة لكنه غير الجليد، في الساحات البيضاء الشاسعة التي تشع دخانًا يتجمد في الفراغ، يمتد صمت يرعش الخوف في قرارة النفـوس، الفراغ والزمن بلا بداية، بلا نهاية، يقول مولانا، عندما يبدو العالم بلا آخر، بلا آفاق، لا نهائي، غير محسوس، لا يفنى، عندما رأى بحارا يعلو موجها كالجبال، حيث اليابسة حلم ما زال بعيدا ووهما ضنينًا، هنا تتجمع قوى غريبة في أعماقه، يطلق صيحة في وجه اللانهائي، اللامحدود، زعقة تبلغ جبال قاف، تحدث الزلازلة، تجمد المحيط...

" حي ... ا حي ... موجود ".

أصحابه كثيرون، يطلقون الصيحة نفسها في أمـاكن عدة، يلقاهم مرة واحدة في كل عام إذ يصـل إلـى البيـت



الحرام، يتبادلون الوجد، يتناقلون ما رأوه، ما قاموا به مـن أجل نشر راية الإسلام، التذكير بأهـل البيـت، بطـراوة دم الحسين الذي لم تجففه أزمنة وعصور، في الكعبة يرثون من لم يجئ، من ذهب إلى أبد لا يدركه حي، بعد الحج، انتهـاء الطواف واللقاء، يولي كل منهم مقصده ناحية جهة من جهات الأرض لا يتمدد الجسد ليلتين متعاقبتين فوق مكـان واحـد، "ا موجود" ممدودة تعبر الزمن، تلين اليابسة منذ أعوام جاء الشيخ أبو السعود، رجع إلى بلدته التي لامس رأسه أرضها، إلى مصر، من وقتها لا يروح، لا يجيء، يعيش فـي كـوم الجارح، يفد إليه الدراويش الطوافون، أرباب الطرق، في أية ساعة من ليل أو نهار، لا يرجع طارق أو قاصـد إلا بعـد رؤيته الشيخ والإفضاء إليه بمن جاء من أجله، أوقات الصلاة حائل وحيد يمنع الحديث إليه، أحيانًا يقطع تأملاته، عبـوره أزمانًا سحيقة البعد، يصغي إلى صاحب حاجة، يشير عليـه إما تلميحا وإما تصريحا، مرة أخرى يود سعيد لـو يشـارك المشايخ أحاديثهم لو جاءه الليلة عمرو بن العدوى، يسأله عن رأيه، يحاول التحرش بفكره، هنا يزعق سعيد، لـن يرهـب عينا، لن يخشى أذنا تتسمع، أو تقريرا يرفع عنه، لن يخشى

زكريا بن راضي نفسه الذي يكفي اسمه وصيته لبث الرعب في أوصال البلاد كلها ...

يقول الشيخ القصبي:

" وا يا مولانا إن لم يولوا علينا الزيني فـلا خيـر فينا ..."

يقول شيخ الفحامين:

" أنا وا لم أسمع به في حياتي ... لا أعرفـه يـا إخوان ولم أره ..."

يميل مولانا إلى الأمام، يكف الشيخ القصبي ...

وكيف اختاره السلطان وهو لا ينتمي إلى أصـحاب الوظائف الكبيرة ... مجهول للناس؟؟

يلقي الشيخ سؤالا يثير به أسئلة.

" ما أدرانا يا مولانا ... ربما غفل عمن يعرفهم من أشرار وفجرة ... وهداه ا إلى الزيني بركات ..."

" لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت ... أنت يا مولانـا والبركة فيك ..."

يميل الشيخ أبو السعود هامسا ...

" اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا ".

الأربعاء ... عاشر شوال:

عندما سمعت بذهاب الزيني بركـات إلـى الجـامع الأزهر، ليخطب في الخلق، قلت وا لا تفوتني رؤية وجهه أبدا، ظننت أنني الوحيد، وعندما ذهبت لم أجد لقدمي مكانـا وكأنه يوم الحشر ... قلت لنفسي ... من أين جاء هؤلاء؟؟

يميل الصفدي بائع العطور في الحمزاوي، أحسن من يستقطر الزيت من السوسن، يلخص ويركز روح السوسـن، يبسط يده فوق صدره.

أنا شفته ...

إليه ينظرون ...

" يا سلام على التقوى ... يا سلام على الصلاح ... كل ما قاله لا يصدر إلا عن رجل ابن رجل، مثله لم يخلـق لينحني أمام جبروت أو سلطان.."

محمود اللبان يسأل:

" أهو أسمر قصير ... سمعتهم يقولون إنـه أسـمر اللون، كبير اللحية؟؟"

" أبدا وجهه كأي وجه منا ..."

يضحك المعلم مرشدي:

" فأل ا ولا فألك ... أقصد أنه يشبه خلقتك أنت ... خلقتك العكرة ..."

يعود جادا:

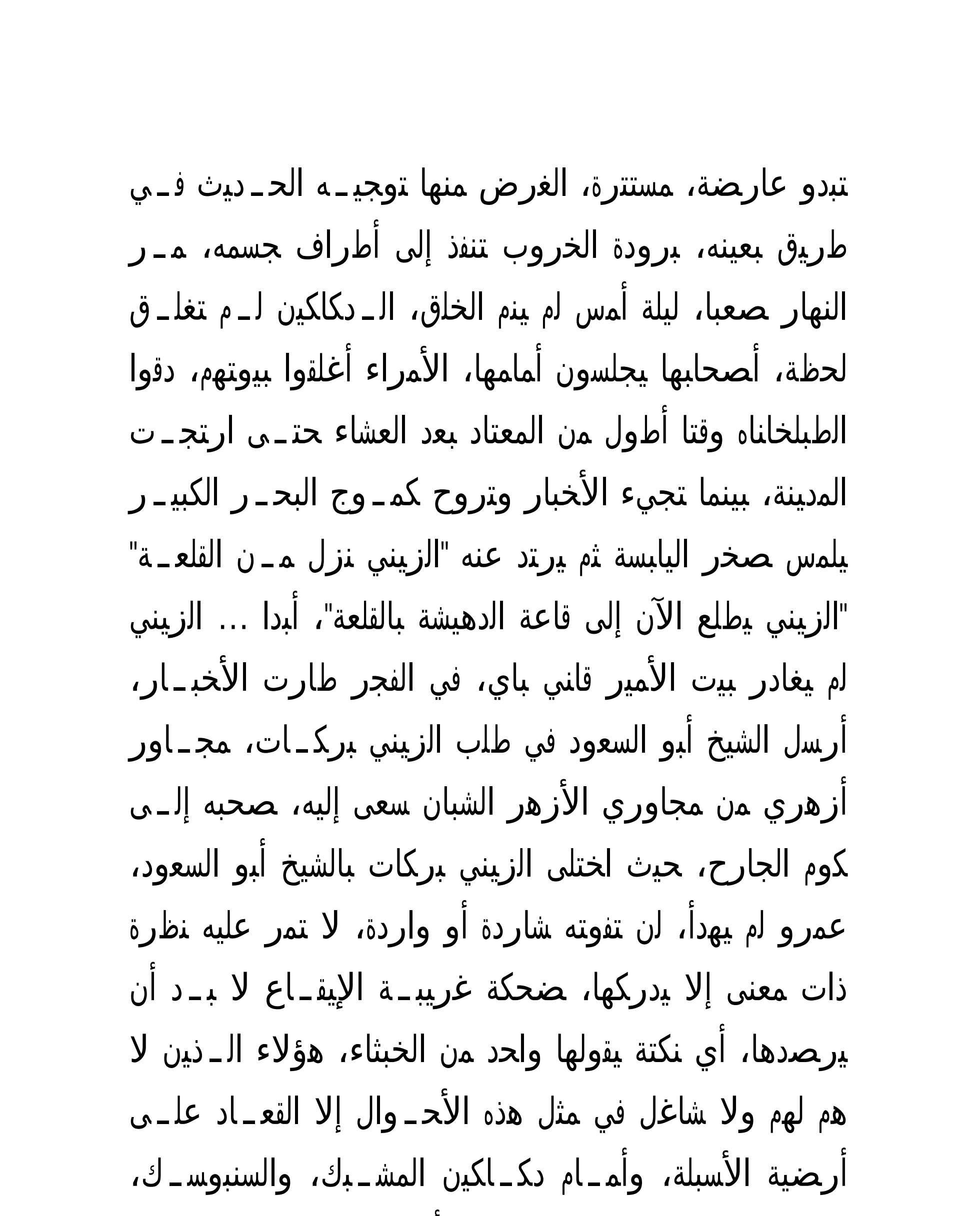
" رأيته يركب بغلة المحتسب في الطريق فلم أحكم... أهو قصير أم طويل؟ لم أره فوق منبر الأزهر ..."

هنا يقول عمرو بن العدوى، وحبات مسبحته تتـدافع بسرعة ...

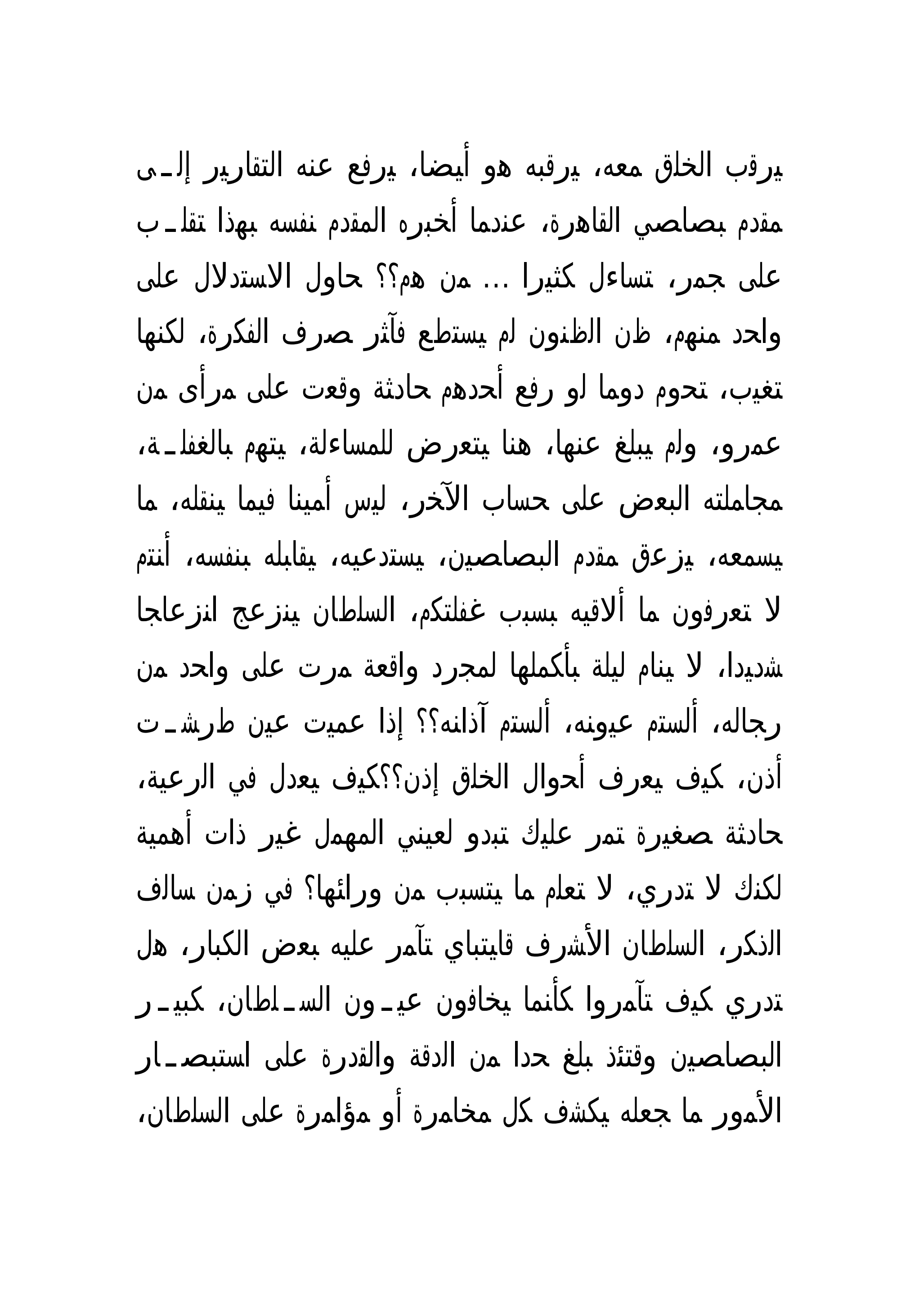
" قلت إن الروح لا تكرهه يا معلم ..."

" أي وا يا شيخ عمرو ..."

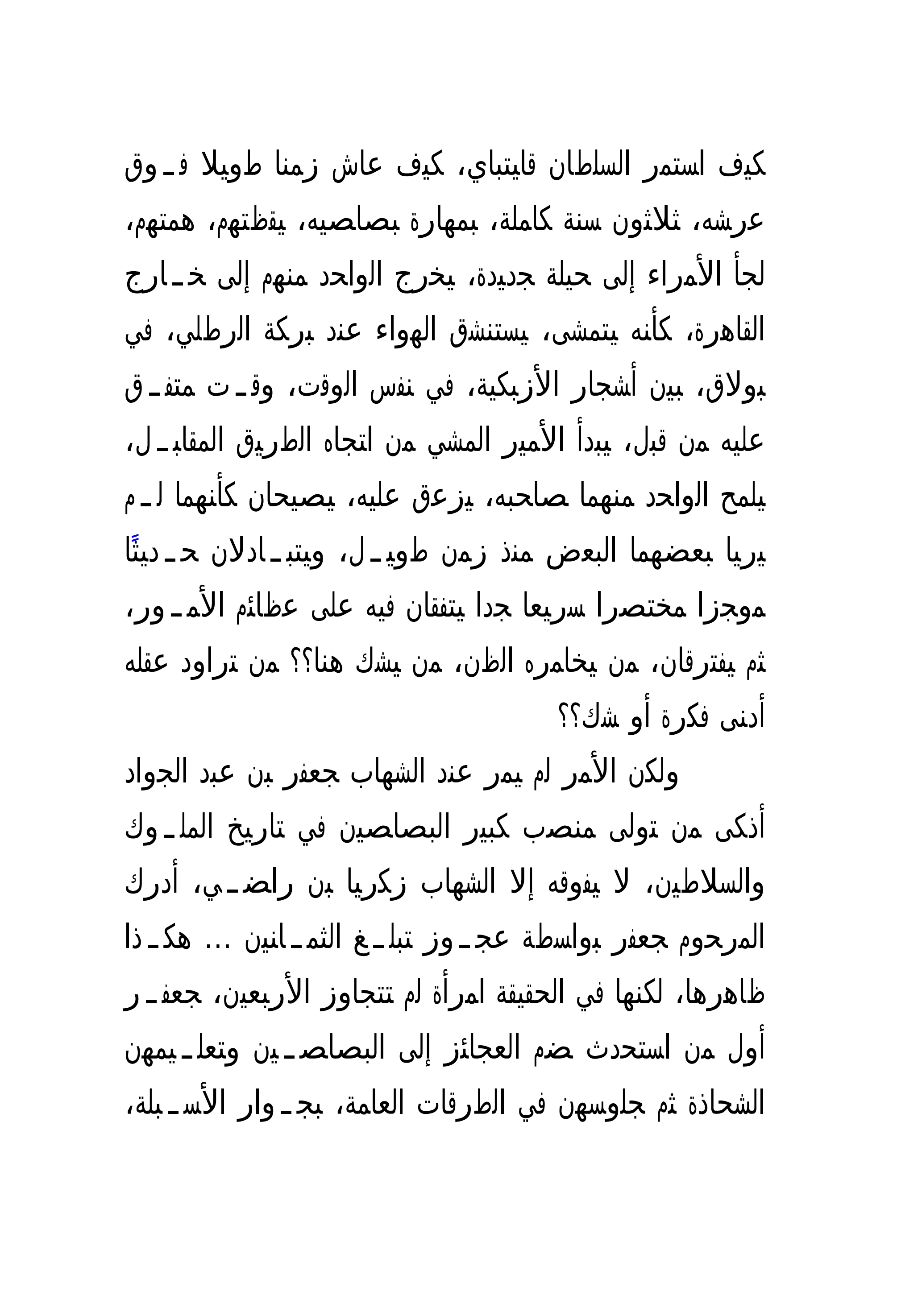
جاء صبي المعلم الصفدي يحمل صينية مثقلة بأكواب الخروب، يمسك عمرو كوز الفخار بأصابعه، تتسرب رائحة المشروب إلى برودة الهواء، من عادات الصفدي شرب التمر هندي، والخروب والليمون في قرارة أيام الشتاء، يقول: هذا يفتح دروب القلب، يشرح الصدر، شـفتا عمـرو تتمتمـان بأدعية قبيل شربه، تظل نظراته فـوق الوجـوه لحظـات، تتراجع بسرعة منطوية تحت جفنيه المسدلين، لا يتكلم كثيرا إنما يصغي، مع أمثالهم لا يخشى هفوة تشي به، كل آرائهـم تجيء على ألسنتهم بدون حرج، لا يضطر إلى إلقاء جملـة



تبدو عارضة، مستترة، الغرض منها توجيه الحديث في طريق بعينه، برودة الخروب تنفذ إلى أطراف جسمه، مر النهار صعبا، ليلة أمس لم ينم الخلق، الدكاكين لم تغلق لحظة، أصحابها يجلسون أمامها، الأمراء أغلقوا بيوتهم، دقوا الطبلخاناه وقتا أطول من المعتاد بعد العشاء حتى ارتجت المدينة، بينما تجيء الأخبار وتروح كموج البحر الكبير يلمس صخر اليابسة ثم يرتد عنه "الزيني نزل من القلعة" "الزيني يطلع الآن إلى قاعة الدهيشة بالقلعة"، أبدا ... الزيني لم يغادر بيت الأمير قاني باي، في الفجر طارت الأخبار، أرسل الشيخ أبو السعود في طلب الزيني بركات، مجاور أزهري من مجاوري الأزهر الشبان سعى إليه، صحبه إلى كوم الجارح، حيث اختلى الزيني بركات بالشيخ أبو السعود، عمرو لم يهدأ، لن تفوته شاردة أو واردة، لا تمر عليه نظرة ذات معنى إلا يدركها، ضحكة غريبة الإيقاع لا بد أن يرصدها، أي نكتة يقولها واحد من الخبثاء، هؤلاء الذين لا هم لهم ولا شاغل في مثل هذه الأحوال إلا القعاد على أرضية الأسبلة، وأمام دكاكين المشبك، والسنبوسك، يضحكون، يسخرون، عمرو يعلم أنه ليس بمفرده، هناك من



يرقب الخلق معه، يرقبه هو أيضا، يرفع عنه التقارير إلـى مقدم بصاصي القاهرة، عندما أخبره المقدم نفسه بهذا تقلـب على جمر، تساءل كثيرا ... من هم؟؟ حاول الاستدلال على واحد منهم، ظن الظنون لم يستطع فآثر صرف الفكرة، لكنها تغيب، تحوم دوما لو رفع أحدهم حادثة وقعت على مرأى من عمرو، ولم يبلغ عنها، هنا يتعرض للمساءلة، يتهم بالغفلـة، مجاملته البعض على حساب الآخر، ليس أمينا فيما ينقله، ما يسمعه، يزعق مقدم البصاصين، يستدعيه، يقابله بنفسه، أنتم لا تعرفون ما ألاقيه بسبب غفلتكم، السلطان ينزعج انزعاجا شديدا، لا ينام ليلة بأكملها لمجرد واقعة مرت على واحد من رجاله، ألستم عيونه، ألستم آذانه؟؟ إذا عميت عين طرشـت أذن، كيف يعرف أحوال الخلق إذن؟؟كيف يعدل في الرعية، حادثة صغيرة تمر عليك تبدو لعيني المهمل غير ذات أهمية لكنك لا تدري، لا تعلم ما يتسبب من ورائها؟ في زمن سالف الذكر، السلطان الأشرف قايتباي تآمر عليه بعض الكبار، هل تدري كيف تآمروا كأنما يخافون عيـون السـلطان، كبيـر البصاصين وقتئذ بلغ حدا من الدقة والقدرة على استبصـار الأمور ما جعله يكشف كل مخامرة أو مؤامرة على السلطان،



كيف استمر السلطان قايتباي، كيف عاش زمنا طويلا فـوق عرشه، ثلاثون سنة كاملة، بمهارة بصاصيه، يقظتهم، همتهم، لجأ الأمراء إلى حيلة جديدة، يخرج الواحد منهم إلى خـارج القاهرة، كأنه يتمشى، يستنشق الهواء عند بركة الرطلي، في بولاق، بين أشجار الأزبكية، في نفس الوقت، وقـت متفـق عليه من قبل، يبدأ الأمير المشي من اتجاه الطريق المقابـل، يلمح الواحد منهما صاحبه، يزعق عليه، يصيحان كأنهما لـم يريا بعضهما البعض منذ زمن طويـل، ويتبـادلان حـديثًا موجزا مختصرا سريعا جدا يتفقان فيه على عظائم الأمـور، ثم يفترقان، من يخامره الظن، من يشك هنا؟؟ من تراود عقله أدنى فكرة أو شك؟؟

ولكن الأمر لم يمر عند الشهاب جعفر بن عبد الجواد أذكى من تولى منصب كبير البصاصين في تاريخ الملـوك والسلاطين، لا يفوقه إلا الشهاب زكريا بن راضـي، أدرك المرحوم جعفر بواسطة عجـوز تبلـغ الثمـانين ... هكـذا ظاهرها، لكنها في الحقيقة امرأة لم تتجاوز الأربعين، جعفـر أول من استحدث ضم العجائز إلى البصاصـين وتعلـيمهن الشحاذة ثم جلوسهن في الطرقات العامة، بجـوار الأسـبلة،

بجوار المقابر، أمام البيوت يطلبن حسنة أو صدقة، لكـنهن يرصدن الشاردة والواردة، المهم ... أدركت هذه البصاصـة ما يتم كل يومين أمامها، طريقة اللقاء بين الأميـرين، كـل منهما يلقى الآخر فيصيح عليه: " لم أرك منذ زمن ..." قيـل وعلم هذا عند ربي كاشف الغيوب، إن المـرأة البصاصـة كانت عمياء. أدركت الأمور كلها عن طريق أذنيها، من هذه الواقعة الصغيرة كشف المتآمرون، كبسهم الشهاب جعفر في الليلة السابقة على شروعهم في الركـوب علـى الأشـرف قايتباي، رحمه ا ، اقرأوا التواريخ يا نـاس، أنـتم عيـون العدل، أنتم العدل نفسه، كيف تهملون، كيف تـدعون أمـرا يفوتكم ... كيف؟؟".

قام المعلم الصفدي ...

" نحمدك يا رب ... جرت الأمور كما نشتهي ..."

يبحث الشيخ القصبي عن عصاه...

الليلة في الحمام إن شاء ا ... نغطس فـي المـاء الساخن، نتطهر حتـى نلقـى المحتسـب الجديـد أطهـارا أبرارا ... عند مروره علينا ...

محمود اللبان:

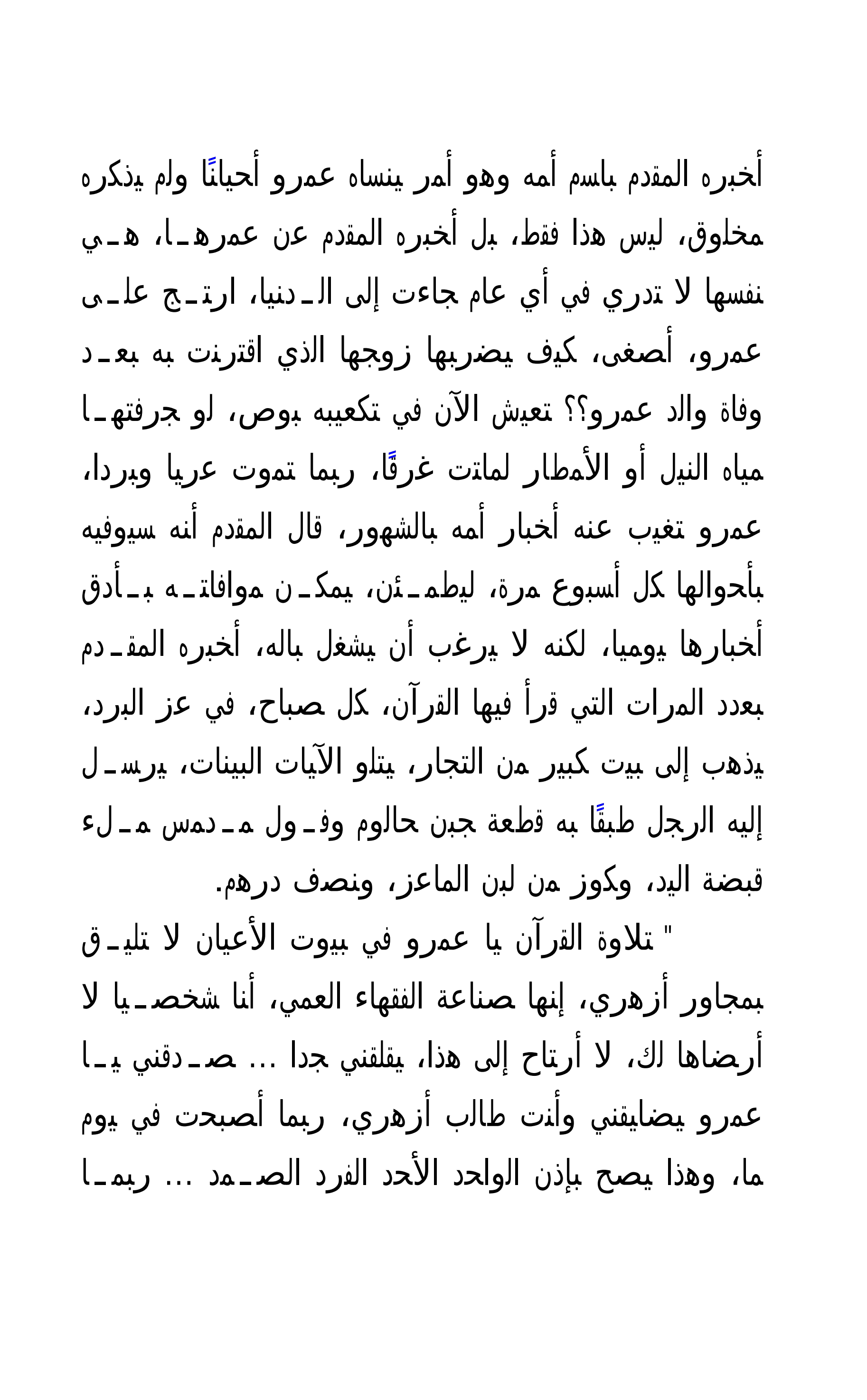
" أنت تبغي استرداد عافيتك ... وطرد الرطوبة"

تترقرق الضحكات، تهتز اللحى، يميل الليل بسواده، يحوي النهار المولي، يودعون بعضهم بعضا ...

" ربما جئت ... عندي شوق إلى المغطس ..."

" المغطس والمكبساتي يا شيخ عمرو ..."

يضحك عمرو ضحكًا سريعا، ترتعش أصابع يديـه مرة واحدة، أصغي إلى مقدم بصاصي القاهرة، تحدث إليـه معنفا عندما فاته نقل حوار دار بين ثلاثـة مـن مهـاجري الشوام، من لحظتها أدرك أنه تحت رقيب عنيد، أحد هـؤلاء المعلم الصفدي، اللبان، ربما الشيخ القصبي نفسه، ما عليـه، لن يشغل عقله بهم، لماذا يتساءل أيهـم يراقبـه؟؟ سـيدعوه المقدم، يسأله، لماذا فكر في الوقت الفلاني بمن يراقبه؟؟ لـن يشغل نفسه بهذا، يا سلام، تتغير الأحـوال دائمـا، وتتغيـر معاملة المقدم، عندما أرسلوا إليه أول مرة، مشي بعدها فـي الطرقات والارتياح يغزوه، أطرى المقدم صلاحه، كم مـن أزهريين فسدوا، أخبره أنه يعرف حاله كله، يعرف أنـه لا يعيش إلا على جراية الأزهر، لا يصله درهم من بلدته، بـل هو في أشد الحاجة إلى دراهم يرسلها إلى أمه العجوز، يومها


أخبره المقدم باسم أمه وهو أمر ينساه عمرو أحيانًا ولم يذكره مخلوق، ليس هذا فقط، بل أخبره المقدم عن عمرهـا، هـي نفسها لا تدري في أي عام جاءت إلى الـدنيا، ارتـج علـى عمرو، أصغى، كيف يضربها زوجها الذي اقترنت به بعـد وفاة والد عمرو؟؟ تعيش الآن في تكعيبه بوص، لو جرفتهـا مياه النيل أو الأمطار لماتت غرقًا، ربما تموت عريا وبردا، عمرو تغيب عنه أخبار أمه بالشهور، قال المقدم أنه سيوفيه بأحوالها كل أسبوع مرة، ليطمـئن، يمكـن موافاتـه بـأدق أخبارها يوميا، لكنه لا يرغب أن يشغل باله، أخبره المقـدم بعدد المرات التي قرأ فيها القرآن، كل صباح، في عز البرد، يذهب إلى بيت كبير من التجار، يتلو الآيات البينات، يرسـل إليه الرجل طبقًا به قطعة جبن حالوم وفـول مـدمس مـلء قبضة اليد، وكوز من لبن الماعز، ونصف درهم.

" تلاوة القرآن يا عمرو في بيوت الأعيان لا تليـق بمجاور أزهري، إنها صناعة الفقهاء العمي، أنا شخصـيا لا أرضاها لك، لا أرتاح إلى هذا، يقلقني جدا ... صـدقني يـا عمرو يضايقني وأنت طالب أزهري، ربما أصبحت في يوم ما، وهذا يصح بإذن الواحد الأحد الفرد الصـمد ... ربمـا

صرت قاضيا كبيرا، تفصل في أمور هؤلاء الذين يرسـلون
لك لبن الماعز والفول المدمس لتفطر، لتسد جوعك، بإذن ا
سوف نساعدك نحـن فـي أن تصـبح قاضـيا ... رئـيس
ديوان ... شخصا له هيبة ومكانة، إنما دعنـا فـي حالـك
الآن ... هل ترتاح إلى هذا ... لا ... لا أظنك ترضـى ...
لا ... لالا يا عمرو اعتبرني أنا شقيقًا لك. لا تخـف عنـي
أمرا ... حتى مشاكلك الخاصة، الخاصة جدا ... بح لي بهـا
وأنا ... أنا وحدي أساعدك في حلها ... ثق بي ... ثق بـي
أرجوك.

بجوار عمود الرخام الثالث من يمين الجدار القـديم
في الأزهر، يقول الأزهريون إن ثمة طلسما مـدفونًا تحتـه
يمنع العصافير والثعابين والعفاريت من الجامع، قعد أوقاتًـا
طويلة، يناجي أمه العجوز، أمه تقلع جذور الفجل والبطاطـا
من غيطان بنها، والبلاد المجاورة، توقـد الأفـران، تنقـل
الحطب، تحزم البوص، تحش النجيل، لم تعرف راحـة، لـم
تغمض عينيها ليلة على هناء شحيح، من مدة عرف بسـفر
شيخ زاوية العميان إلى بنها، جهز زوادته وبغلتـه وعـزم
أمره، عمرو وقتها لا يملك درهما، الشيخ سيمضي إلى البلدة

التي تعيش فيها أمه، سيعرف الناس، وتعلم أمه بمجيء رجل من مصر، من الأزهر بالذات، ابنها لم يرسل معه حتى حفنة سكر أو قماشًا أسود تلف فيه جسمها عاما كاملا، ربما تظنه ميتا، دهسته خيل المماليك، راح في وباء، ليلة بطولها لم ينم عمرو، يضيق به الحال، حجر هائل كجبل المقطـم يزحـف إليه وئيدا دار على أصحابه في الرواق، يجلس إلى الواحـد منهم، يخوض في أحاديث قريبـة وبعيـدة، يضـحك مـع الضاحكين، إذ يهم بالسؤال، ينعقد لسانه، يرتج صوته، تخونه الحروف والألفاظ، يقول هذا لا يصح، سأمضي إلى آخـر، يعبر صحن المسجد، لن يدور لن يلف، لكنه يجلـس فينعقـد العرق فوق جبهته، يختلط عليه الأمر، تخونه الألفاظ، تشنق المعاني على لسانه يدهمه الخجل، هذا الوقـت يـذكره الآن بمرارة وحزن كعفار يهب من الجبل يعكر يوما صافيا، لـم يعرف وقتئذ واحدا من المعلمين أو أصحاب المتاجر أو رواد الحمامات الذين يجلس إليهم الآن، يتسمع ما يقولون وينقلـه، وقتها كان خجولا، حييا، لم يجرؤ على اقتراض دراهم يرسل بها حاجة أمه، حمل جرايته من الخبز الجاف، في النهـار، يقف المجاورون أمام الأزهر يبيعون جراياتهم، أو يستبدلون

بها الغموس، خرج إلى الطرقات بعيدا عن الجامع، بادله أحد المارة رغيفين بقطعة جبن قديمة، في المغربلين والصنادقية، والعطارين، والفحامين، وأهالي الجودرية وسوق الشرابشيين والمارة في شارع الصليبة والمتسكعين عند بـاب الـوزير، كلهم هزوا رءوسهم، قالوا " على ا " وكلما اقتـرب الليـل يزحف سواده إلى القلب، يرى جبل الحجر أكثر قربا منـه، تعثر الهواء في صدره وكبا، فوق حجر قديم قـرب جـامع الحاكم عقد ساقيه، رفع يده، انساب صوته عاليـا بالآيـات البينات، نزل البرد ونفذ إلى حشاه، يرى عيني أمه فتوشـك عظامه أن تضيء بما يشتعل فيهما من هم، اقترب النهـار، سمع صريرا، أبواب الحارات تفتح، طلعت الشمس وفي يديه أحد عشر درهما، ألقاها إليه مارة مجهولون، لم يروا وجهه، لم يعرفهم هو، اشترى سكرا، وحلاوة معقودة، وفي زاويـة العميان شق فؤاده نصل ثقيل ...

" الشيخ سافر في الفجر يا عمرو... "

هاهو مقدم البصاصين في القاهرة:

" عمرو ... لا أقبل هذا لك ... لا أرضاه لك ..."

في البدء بدا رقيقًا، أه يهز عمرو رأسـه، لكـل أول آخر، خجله من مخالفة الخلق، أين هو؟؟ ابتعاده عن الناس، أين ذوى؟؟ ما يخشاه الآن، غضب المقدم، بعد الهفوة الأولى عفا عنه، الثانية من يدري ماذا يجري؟؟ ينفصل الرأس عـن الجسم، ما أسهل الأمر، ربما قتلوه بقية عمره حيـا، يصـير فضيحة متحركة، تشير إليه الأصابع، يطرده المشايخ، الحمد

فحتى الآن لم توجه إليه نظرة، لم يقل له أحد كلمـة ذات معنى، هاهو ذا النهار يولى، لحظات نـزول الليـل يحلـو الكلام، تكثر الفضفضة، أمام دكاكين باعة الحلوى، الترزية، في زاوية سيدي الحلوجي جماعة من قصر الشوق يسهرون بعد صلاة العشاء، يفسرون الآيات، الأحلام التي طالعتهم في المنام، لا ينفذ غريب إليهم، لكن مجيء عمرو المتكرر إلـى الزاوية، أداؤه الصلاة، تأدبه عند إصغائه إليهم، طول صمته، هزة رأسه لا تنقطع بالموافقة على ما يقولونـه مـن آراء، يطالعهم بمظهر تلميذ يحرص على الاسـتفادة مـن رجـال خبروا الحياة، ألموا بالعلوم، الأيام قربته منهم، لو تغيب لليلة يسألون عنه، المقدم يثني عليه دائما، يشيد به لنجاحـه فـي النفاذ إلى هؤلاء، حديثهم خافت على غير عادتهم توشك أذناه

على سماع جديد، يخرج عن مألوف ما يرفعه، ربمـا يبلـغ السلطان، يقترب عمرو من المقدم أكثر، يبدي رضاءه يثنـي عليه، منذ فترة لم يره عمرو، يضن عليه بلقائـه، تقـاريره يتسلمها نائبه الحبشي، يتساءل عمرو، هل غضب عليه، هل يدبر له أمرا؟؟ هاهو ذا المعلم حليم الدين يمط شفتيه:

" وا يا مشايخ فرحة الناس لا تأخذني ..."

يتمتم عمرو:

" أي وا ... أي وا ..."

" الأيام علمتني الحذر، لم نر منه ما يسر أو يضـر، فلم هذه البهجة كلها، ثم ..."

تنظر إليه العيون ...

" ما أتاه اليوم لا يعجبني ..."

بسرعة تخرج كلمات عمرو:

" لماذا يا شيخ حليم الدين؟؟"

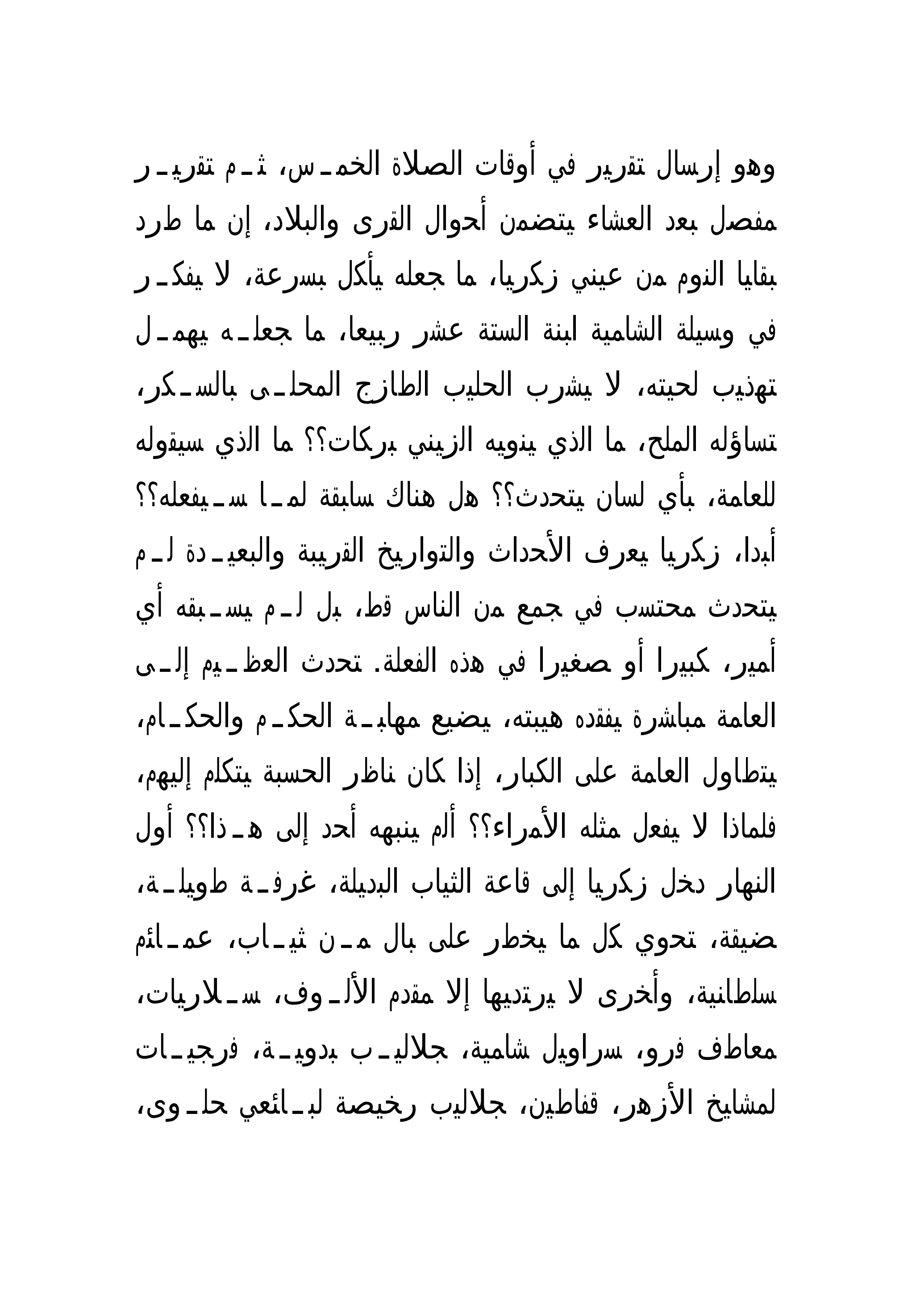
آه: لماذا التسرع؟؟ هل بدا في سـؤاله مـا يريـب، أحدهم على وشك أن يسأل نفـس السـؤال، المفـروض ألا يوجهه هو، مازالت عنده خفة، لو الجمع كبير لسجلت عليـه زلة من أحد الذين يعرفونه ولا يعرفهم هو، لكن، من أدراه؟؟

ربما تتصنت الجدران، ربما يرقبه أحد، يقرأ ما تنطقه شفتاه بدون الحاجة إلـى سـماع حسـه، يعلـم بوجـود هـؤلاء البصاصين: ألم يقل مقدم البصاصين: " لدينا طرق لا تخطر على بال إنسي أو جني نعرف بها الحقيقة، حتى لو همس بها المرء وراء جبل قاف" آه: لا بد من التزام الحـذر، بهـدوء ليرقب رد الفعل بينهم ...

أول الليل: الأربعاء عاشر شوال:

أخيرا هاهو ذا مبروك، يحمل لفافـة أوراق، طـال ترقب زكريا لوصولها، في الصباح سلمه مبـروك تقريـرا عاجلا، أعده مقدم بصاصي القاهرة، يحوي حركـة الزينـي بركات، كيف انتقل من بيتـه أول الفجـر بصـحبة طالـب أزهري إلى كوم الجارح، قضي مع الشيخ أبي السعود زمنـا خرج بعده من البيت، ومع أول مجيء الشمس إلى الحواري والدروب، طاف مناد جديد لم يسمعه الناس من قبل، قيل إنه أحد خدم الزيني، نقل إلى أهل المدينة ما عزم عليه الزينـي بركات، من ذهاب إلى الأزهر الشريف، عنده كلام سـيعلنه على الخلق، مناد جديد لا علم لزكريا به، صحيح مـن حـق المحتسب إطلاق مناد خاص من عنده، ينقـل إلـى النـاس رغباته وأحكامه، هذا ما تنص عليه الأصول، لكـن الواقـع يكذب هذا، يلغيه، جرت العادة منذ عصر الشهاب جعفر كبير بصاصي الأشرف قايتباي أن يتبع جميـع المنـادين لكبيـر البصاصين، ترسل إليه نصوص النداءات، طريقة نشر الحادثة أو الخبر قد ينتج عنها أمور جسام، بل إن كبير البصاصـين ينبه بضرورة تحمس المنادين عند نقل خبر بعينه أو تصـنع

الحزن والفتور لحظات نشره، كلها عوامل تؤثر في الخلـق، هناك مناطق وخطط في المدينـة يجـب ألا يطـوف بهـا المنادون، كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله؟؟ ثم إن الزيني بركات لم يحتسب بعد، كيـف يعطي لنفسه الحق في مخاطبة الناس بلا رقيب، بلا وسيط؟؟ هكذا يبدأ أيامه بإخلال الأمور، يعبث بالنظـام، فـي بدايـة النهار كان زكريا مرهقًا، الليلة السابقة قضاها بعيـدا عـن حريمه، عن وسيلة الجارية الصغيرة، لم يمض عليها أكثـر من أربعة أيام في بيته، حاول النفاذ عبر الأيام، أي أحـداث مقبلة؟؟ هذا الزيني لا يثير اطمئنانا، منذ سماعه باسـمه، ولا يجيء من ناحيته إلا عجائب الأمور، قبيل الفجر أرسل إلـى مقدم بصاصي القاهرة يأمره بإعداد ثلاثة مطالـب مفصـلة، جمع أقصى ما يمكن من معلومات وبيانـات عـن الزينـي بركات وإرسالها إليه أولا بأول، ثانيا، استنفار كافة بصاصي القاهرة، لتلتفت عيونهم إلى كل صغيرة وكبيرة خلال تجمـع الناس، إصغاؤهم إلى ما يقوله الزيني، المطلب الثالـث، أن يرتفع عدد التقارير التي ترسل إليه في مقـره إلـى أربعـة وعشرين تقريرا، بواقع تقرير كل ساعة، على غير المعتاد،



وهو إرسال تقرير في أوقات الصلاة الخمس، ثم تقرير مفصل بعد العشاء يتضمن أحوال القرى والبلاد، إن ما طرد بقايا النوم من عيني زكريا، ما جعله يأكل بسرعة، لا يفكر في وسيلة الشامية ابنة الستة عشر ربيعا، ما جعله يهمل تهذيب لحيته، لا يشرب الحليب الطازج المحلى بالسكر، تساؤله الملح، ما الذي ينويه الزيني بركات؟؟ ما الذي سيقوله للعامة، بأي لسان يتحدث؟؟ هل هناك سابقة لما سيفعله؟؟ أبدا، زكريا يعرف الأحداث والتواريخ القريبة والبعيدة لم يتحدث محتسب في جمع من الناس قط، بل لم يسبقه أي أمير، كبيرا أو صغيرا في هذه الفعلة. تحدث العظيم إلى العامة مباشرة يفقده هيبته، يضيع مهابة الحكم والحكام، يتطاول العامة على الكبار، إذا كان ناظر الحسبة يتكلم إليهم، فلماذا لا يفعل مثله الأمراء؟؟ ألم ينتبه أحد إلى هذا؟؟ أول النهار دخل زكريا إلى قاعة الثياب البديلة، غرفة طويلة، ضيقة، تحوي كل ما يخطر على بال من ثياب، عمائم سلطانية، وأخرى لا يرتديها إلا مقدم الألوف، سلاريات، معاطف فرو، سراويل شامية، جلاليب بدوية، فرجيات لمشايخ الأزهر، قفاطين، جلاليب رخيصة لبائعي حلوى،

وجزارين، وتجار فاكهة، زكريا يعرف مقصده هنا، انتقى جبة بيضاء متسخة، عمامة خضراء صغيرة ملفوفة بشال أحمر، أمسك عصا من سعف النخيل، خرج من الباب الخلفي للبيت درويشًا من أتباع سيدي مرزوق، تلميذ سيدي أحمد البدوي، مشى متمهلا، يتوقف بين الحين والحين، يطلق صيحة قوية، ... ا حي ... ا حي مدد ... مشى على مهل يتبعه جبران الأخرس، أحد رجاله الأشداء. دائما يسافر معه، يحميه من غوائل الطريق، ما تخبئة النفوس من حقد ربما تجسد في خنجر ينسل محاولا إيجاد الطريق إلى قلبه، برغم همه وحيرته، ابتهج كعادته إذ يلقي نفسه بين الناس، لا يعرفه أحد، حتى لو التقى به أقرب المقربين، مقدم البصاصين نفسه، لن يتبينه، أي واحد من هؤلاء في متناول يده، أليس هو عيون السلطان وأذانه؟؟ آلاف الرجال والنساء والأطفال يتبعونه، لا يعرف بعضهم البعض، ينقلون الهمسات والحركات من البيوت والربوع، من كل شبر في المدينة، إذا شذ شهيق إنسان عن البقية عرفه، نمى إليه بواسطتهم، لكنه عندما دخل الأزهر ارتاع فعلا، لم يحدث أن رأى مثل هذه الجموع، انتابه غم، كيف يسكت السلطان، أيدرون العاقبة

من تجمع كل هؤلاء؟؟ ما يجري خطأ فظيع. لابد من تنبيـه الكبار والسلطان نفسه، السكوت على الأمر ربمـا أدى إلـى استفحاله، انتشاره، هذا ما لا يسمح به أبدا، هذه سابقة تنـذر بعواقب لا يعرفها الجهلاء هاهو ذا زكريا الآن يفرد اللفافـة التي أتاه بها مبروك ... تقارير مقدم بصاصي القاهرة، جمع فيها وأوجز وأوضح خلاصة ما تلقاه من عيـون وأرصـاد طوال اليوم ...

" فوق منبر الأزهر القديم وقـف، المسـجد يفـيض بالخلق من كل لون وصنف زعقوا فارتجت الأعمدة، وكادت المآذن تميل، بدا وكأن كل قوة ستعجز عن إسـكاتهم، لكـن الزيني رفع يده اليمنى، مفرودة الأصابع (يده عادية، أصابعه خمس)، وكأن قوة سحرية تسيل منه، طاف الصـمت مغلقـًا أفواه الناس، قيل فيما بعد أنه أوتي مقدرة على جعل الخلـق يصمتون، ولو أراد أن يذرفوا الدموع لفعل، سـرى صـوته بين الناس هادئًا، قال ما معناه:

(أولا) أنه لم يكن يقبل الحسبة قط، لـولا إطلاعـه الأمراء على ما ترتضيه روحه لراحة العباد، ولولا الشـيخ

العارف بالأصول والفروع، الزاهد الناسك ولي ا أبو السعود لما قبل أبدا ...

(هنا علا زعيق الناس، رددوا "ما نريد إلا أنت" "ما ينفع إلا أنت " إلى غير هذا من النداءات التي تؤدي المعنى نفسه، وإن اختلفت الجمل والألفاظ، عادت يده تهتز بتؤده فاستكان العامة وأصغوا).

(ثانيا) أنه لا يخشى إلا ا ، كيف يلقى ربه إذا ظلم مخلوق من قبل أحد نوابه وهو لايدري؟ هذا مالا يطيقه ولا يمكنه سماعه أبدا، من هنا، لو وقع ظلم على إنسان، فقير أو غني، ناء أو دان، فعليه بالتوجه إلى نائبه إن لم يقتص من ظالمه بعد شرح قضيته وظهور العدل فيها.

(ثالثًا) لن يمكث في القاهرة، إنما سيلف الوجهين، فقد أضيفت إليه اليوم فقط نظارة حسبة الجيزة، سيدور ظاهرا أحيانًا ومتخفيا حينا آخر، يطلع على أحوال الناس، أما بيته في القاهرة، فمفتوح أطراف الليل وأثناء النهار لكل ذي حاجة، لا حاجب بينه وبين الناس، صغيرهم أو كبيرهم، على اختلاف مراتبهم، لو ظلم أحد من البشر فليقتص منه على مرأى من الجميع ...

(رابعا، وهذا خطير):

" في كل حارة، ودرب وقريـة، وبلـدة وإقطـاع، ستكون له عيون يرصدون ويتعسسون المظالم أينمـا تقـع، يبلغونه بها".

(بعد خروجه من الأزهر، شق طريقه راكبا بغلـة عالية بسرج متواضع، وكنبوش عادي (أثار هـذا رضـاء الناس عنه، قالوا، انظروا، كيف العدل والحكـام؟) اسـتمر موكبه حتى وصل سوق الشرابشيين، قابلته المغنيات بالرقص ودق الشبابة والدفوف، وانطلقت له الزغاريد من الطيقـان، بين يديه مشى ثلاثة من نوابه الجدد الذين لـم يطلـع علـى وجوههم إنسان (جار البحث عن أصولهم)، أحـدهم يحمـل سيفًا، وآخر يحمل ميزانًا، وصنجا، والثالث يلوح بمصـحف كبير يلثمه بين الحين والحين، خلاف الموكـب مشـى عبـد العظيم الصيرفي، أما الزيني فراح يهز رأسه هـزا خفيفًـا وعلى وجهه خشوع وتقوى ...

لفتة أولى:

أجمع رجالنا على وجود طالب أزهري، بقي طـوال الركب على مقربة من الزيني بركات، بدا متحمسا، بالكشف

عنه، اتضح أنه هو الذي صحبه من بيته إلى زاوية الشـيخ أبي السعود في كوم الجارح، واسمه "سعيد الجهيني"

لفتة ثانية:

عند اقتراب الموكب من جامع الحاكم، قبيل عبـوره باب الفتوح حيث يمكن لعيني العابر رؤيـة أسـوار سـجن المقشرة، ومدخله العلوي، ظهرت امرأة سمينة، متقدمة فـي العمر، ترتدي السواد، تتشح بطرحة قديمة، شـقت لنفسـها طريقًا حتى وقفت أما بغلة الزيني، زعقت زعقـة عظيمـة، حتى حظيت بانتباه الخلق، طلع عليها طلـوع لا يهتـف إلا بكلمة واحدة ... يا لئيم يابن اللئيمة. وعنـدما تنبـه العامـة هجموا عليها، ذابت كفص الملح، وجـار الكشـف عنهـا، وتحري حقيقتها، من هي وما أصلها؟

لفتة لثالثة:

أطلقنا أحد البصاصين المهرة في أثر الزيني لرسـم صورة دقيقة وافية لملامحه، سننقلها إلـيكم فـور إتمامهـا لإطلاعكم عليها، وإجراء اللازم من فحوص.

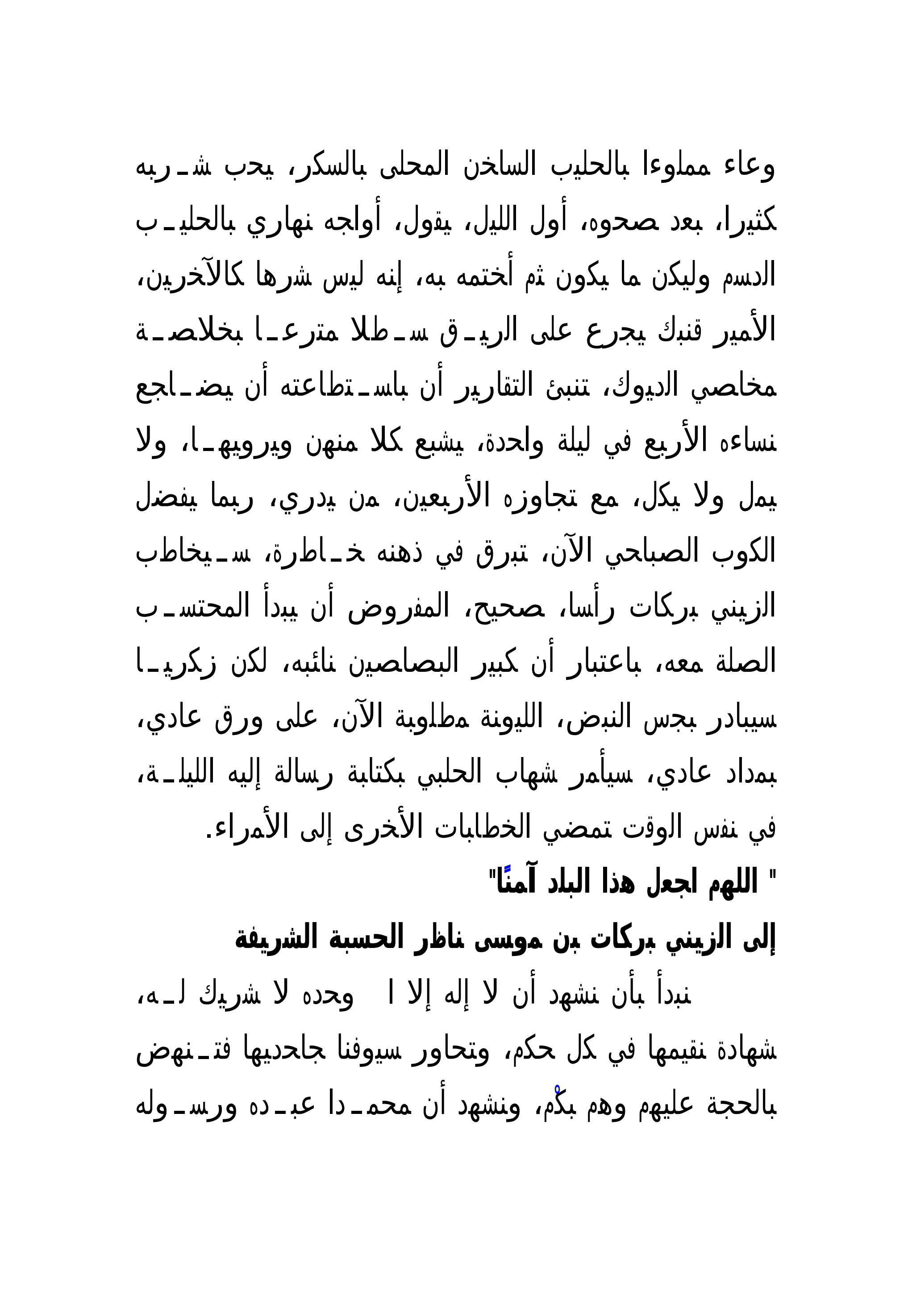
الآن يطل زكريا من طاقة المشربية، الشتاء يتـدثر بليل أسود بارد، نور يلمع في الناحية المقابلة، تسهر وسيلة،

تخشى مجيئه فجأة، الليلة لن يحتوى نهديها، لم يـر مثلهمـا طوال عمره، صلابة وليونة رقة وقسوة، خوف ونشوة، إقبال وانفلات، اقتراب وابتعاد، كرتا عجين أملس طـوع راحتـي يديه، يهوى نهودا لم تلمسها يد بشر، هكذا يشـترط علـى عارف شيخ دكة الرقيق، عارف أحد عيونه وأخلصها، عندما جاءته وسيلة فرح بها فرحا عظيما، استوثق أولا أنها قدمت فعلا من بلاد الروم، ربما دسها عليه أمير ابتغـاء غـرض خفي، قضى ليلته الأولى معها مبحرا في محيطات لم يطأهـا إنس ولا جان، يرقب الألم الأول اللذيذ، رعشة تترقرق فـي عينين واسعتين، فكر في تجنب العمل أياما ليرقبها، يرتشف رحيق العمر الأول، جاء هذا الزيني فجأة، أقصاه عن الآهـة وحلاوة الرعشة، هاهو ذا يواجه سابقة لم يطلع على مثيلها، عليه بالحذر، والثبات، سيذكر فيما بعد أنه تصـرف بعقـل، بحزم، ما يقوم به الآن سيراه الخلفاء فيستنيرون ويهتـدون، منذ قليل أرسل في طلب شهاب الحلبـي، سيحضـر القلـم والحبر الذي يجف بعد مدة بعينها، مدة تكفي لوصول الرسالة إلى مقصدها، وقراءتها، ثم يجف المـداد، يتلاشـي، تعـود الورقة بيضاء بعد يومين تضيع الورقة نفسها، تطير كبخـار

صباح أضاعته شمس قوية، حدث في زمن السلطان فرج بن برقوق، أن أطاحت رسالة برأس كبير البصاصـين، الآن لا يمكن لمناد أن يواجه زكريا بكلمة واحدة مدونة، تناقش فـي هذا الأمر طويلا مع كبير بصاصي دولة الشـاه إسـماعيل الصوفي، قال الرجل وهو من عتـاة البصاصـين، يحسـن بالبصاص الذهاب بنفسه إلى الأمراء ونقل الموضوع شفاهة، خالفه زكريا، الحديث لا يروح من الذهن، ربما شهد عليـك جمع من الناس فأطاحوا بك، لكن ما الرأي لو وجد نوع من المداد يختفي ويتلاشى بعد بلوغ المراد من الرسالة، لم يقـل لكبير بصاصي الشاه أنه حصل فعلا على هذا المداد، هـذه وسيلة ينفرد بها ولا يفرط فيها بسهولة، كبير بصاصي الشاه أنكر وجود مثل هذه الطرق، الزمن الذي يجيء بمثـل هـذا المداد مازال نائيا، لكن الليلة ستصل رسائل منه، إلى الأمير قنبك، وقاني باي، وقوصون، وطومنباي، وكافة كبار الدولة، سيشير إلى ما أتاه الزيني من أمور منكرة تخـالف أصـول الحسبة، تتعدى على وظائفه هو خاصة بعد إشارة الزيني إلى إطلاق عيونه وأتباعه، هل سيحدث نظاما آخر للبصاصـين، الدم يتدفق مغتاظًا في أوردة زكريا وشرايينه، ربما يعلم اللئيم

ما يتبعه أحد المهراجات في الهند لا يكتفـي بنظـام واحـد للبصاصين بل لديه ثلاثة نواب. يتبع كلا منهم فرقة خاصـة من البصاصين.

وهكذا يضمن استقرار الوضع ألا ينفـرد بصـاص واحد بالأمور، وهذا الترتيب يعجب زكريا فيه دهـاء مـن المهراجا، فكر في السفر إلى الهند ليطلع عليه، أو يرسل أحد نوابه المقربين لنقل تفاصيله، لكن مجرد سفر نائبـه سـيثير الشكوك، ربما ترامى إلى السلطان خبر الترتيب المتبع، ينقله إلى السلطنة، هنا يضيع زكريا، لا ينفرد بالرأي، بالمشورة، لكن كيف يحصل الزيني على هذه المعلومات؟؟ زكريا يملؤه غيظ، حتى الآن لم تصله معلومات كافية عن الزيني، ربمـا يلاقي مقدم البصاصين صعوبة في جمع ما يلزم، ربما يغفل الغبي عن أهمية الطلب، لابد من معرفة عـادات الزينـي، ساعات نومه، نسائه، إلى أي البلاد سافر، كم لغـة يجيـد، عاداته في الفراش، لا بد من استقصاء أمر المـرأة البدنيـة والقبض عليها مهما كلف الأمر، وأيضا الشاب الأزهـري، يبدو أنه مقرب إلى أبي السعود، هذا يلزم لـه شـأن آخـر، سيوليه عناية، الآن، يقف في منتصف الغرفة تماما، يمسـك

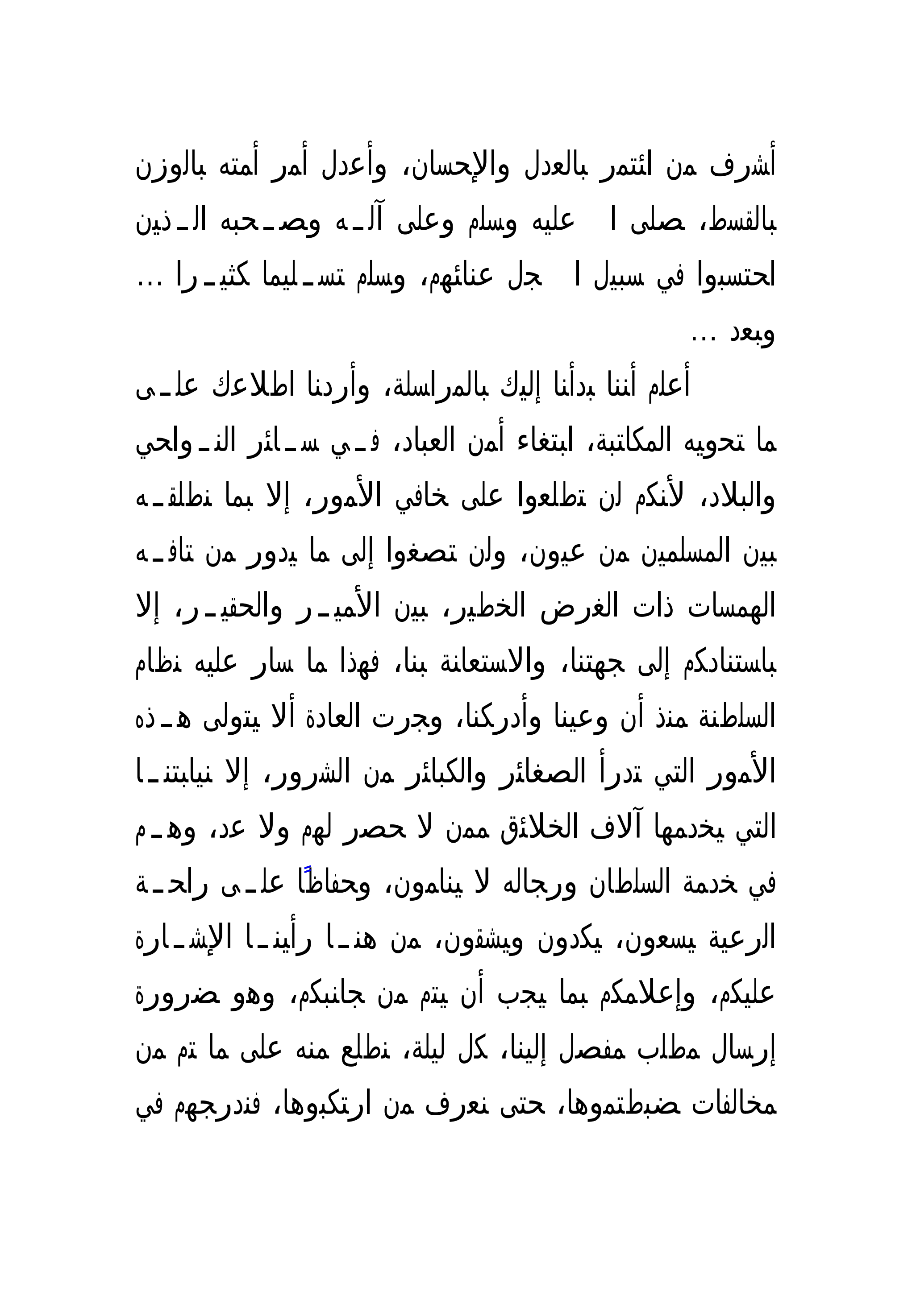


وعاء مملوءا بالحليب الساخن المحلى بالسكر، يحب شـربه كثيرا، بعد صحوه، أول الليل، يقول، أواجه نهاري بالحليـب الدسم وليكن ما يكون ثم أختمه به، إنه ليس شرها كالآخرين، الأمير قنبك يجرع على الريـق سـطلا مترعـا بخلاصـة مخاصي الديوك، تتنبئ التقارير أن باسـتطاعته أن يضـاجع نساءه الأربع في ليلة واحدة، يشبع كلا منهن ويرويهـا، ولا يمل ولا يكل، مع تجاوزه الأربعين، من يدري، ربما يفضل الكوب الصباحي الآن، تبرق في ذهنه خـاطرة، سـيخاطب الزيني بركات رأسا، صحيح، المفروض أن يبدأ المحتسـب الصلة معه، باعتبار أن كبير البصاصين نائبه، لكن زكريـا سيبادر بجس النبض، الليونة مطلوبة الآن، على ورق عادي، بمداد عادي، سيأمر شهاب الحلبي بكتابة رسالة إليه الليلـة، في نفس الوقت تمضي الخطابات الأخرى إلى الأمراء.

" اللهم اجعل هذا البلد آمنًا"

إلى الزيني بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة

نبدأ بأن نشهد أن لا إله إلا ا وحده لا شريك لـه، شهادة نقيمها في كل حكم، وتحاور سيوفنا جاحديها فتـنهض بالحجة عليهم وهم بكْم، ونشهد أن محمـدا عبـده ورسـوله


أشرف من ائتمر بالعدل والإحسان، وأعدل أمر أمته بالوزن بالقسط، صلى ا عليه وسلم وعلى آلـه وصـحبه الـذين احتسبوا في سبيل ا جل عنائهم، وسلم تسـليما كثيـرا ... وبعد ...

أعلم أننا بدأنا إليك بالمراسلة، وأردنا اطلاعك علـى ما تحويه المكاتبة، ابتغاء أمن العباد، فـي سـائر النـواحي والبلاد، لأنكم لن تطلعوا على خافي الأمور، إلا بما نطلقـه بين المسلمين من عيون، ولن تصغوا إلى ما يدور من تافـه الهمسات ذات الغرض الخطير، بين الأميـر والحقيـر، إلا باستنادكم إلى جهتنا، والاستعانة بنا، فهذا ما سار عليه نظام السلطنة منذ أن وعينا وأدركنا، وجرت العادة ألا يتولى هـذه الأمور التي تدرأ الصغائر والكبائر من الشرور، إلا نيابتنـا التي يخدمها آلاف الخلائق ممن لا حصر لهم ولا عد، وهـم في خدمة السلطان ورجاله لا ينامون، وحفاظًا علـى راحـة الرعية يسعون، يكدون ويشقون، من هنـا رأينـا الإشـارة عليكم، وإعلامكم بما يجب أن يتم من جانبكم، وهو ضرورة إرسال مطلب مفصل إلينا، كل ليلة، نطلع منه على ما تم من مخالفات ضبطتموها، حتى نعرف من ارتكبوها، فندرجهم في

زمرة الأشقياء ونحمي الأتقياء والأولياء، كما نرجو الاستعانة بمن يتبعوننا من منادين، لمراجعتنا ما يقولون، ما يوجهونـه إلى العامة وينقلون، فهذا الأمر الذي يبدو لكم تافهـا حقيـرا تترتب عليه عواقب منها الضار والخطير، يمكننا شرحها لكم عند أول لقاء بيننا لأننا نهدف إلى ما فيه سلامنا، وللعلم، فهذا ما درجت عليه النظم والرسوم، منذ وقت غير معلوم، ومـا نقوم به من زمن، وما سنؤديه إذا امتدت بنا فسـحة الأجـل وليست هذه نظما من اختراعنا إنمـا أصـول درج عليهـا أجدادنا.

ولكم سلامنا

عاشر شوال ٩١٢ هجرية

كبير بصاصي السلطنة

الشهاب الأعظم

زكريا بن راضي

بعض مما وجهه كبير البصاصين

" الشهاب الأعظم "

زكريا بن راضي إلى السلطان والأمراء

" ... وإذا أوضحت هذه المخالفات، سـأعدد، غيـر أنني على سبيل الاختصار أوجز فأقول:

أولا: لأول مرة، وليس لها سابقة أبـدا، يحـدث أن كبيرا يجمع عامة مصر كلهم، أسافلهم وأعـاليهم، يخطـب فيهم، مهيجا جوارحهم، ولا يعلم إلا ا أي جمرة نار كـان ممكنا أن تنطلق في البلد، فتقيد ولا تنطفئ، لـولا اسـتنفار رجالي، ومحافظتهم على الأمن والأرواح.

ثانيا: إطلاقه منادين لا يعرفهم أحـد، لـم أراجـع النداءات، لم أرتبها ولم أطلقها الوجهة المقصـودة، ولسـت بحاجة إلى سرد دلالات هذا الأمر الخطير ...

ثالثًا: إذعانه، تلويحه بقرب قيامه بإنشاء فرقة خاصة من البصاصين تتبعه، يشرف عليها بنفسه، وتأكد لي هذا بعد اطلاعي على مكاتبات نوابي التي لا تخطئ، والتي ترصـد حياة الزيني منذ نشأته حتى الآن، كل ما يدور عنه، وقصدي من هذا سلامة الأحوال، ولا يسعني إلا التنبيه بمـا يصـبح

عليه الحال لو أن كل موظف، كبيرا كان أو صغيرا، أنشأ له فرقة من البصاصين، يوجهها كيفمـا شـاء بـلا رقيـب أو سلطان، وأنا لن أسمح أبدا بهذا، وسـأحول دونـه ... فأنـا ورجالي فقط عينا السلطان وأذناه.

رابعا: تفيد التقارير أن العامة بدأت عيـونهم تتفـتح على الأمراء، كل منهم يقول لماذا لا ينزلـون أو يخطبـون فينا، أم هم أقل شأنا من الرجل الطيـب الزينـي بركـات؟؟ وبعد، فلا أطلب منكم إلا تبصر الأمور، وإلا سارت بعكـس ما نهدف وما نبتغي، واضطرب النظام وضاع الأمن، وراح السلام.

وأشهد ا ربي، كاشف الغيوب، علـى صـحة مـا أقول.

" عاشر شوال ٩١٢ هجرية"

" كبير بصاصي السلطنة "

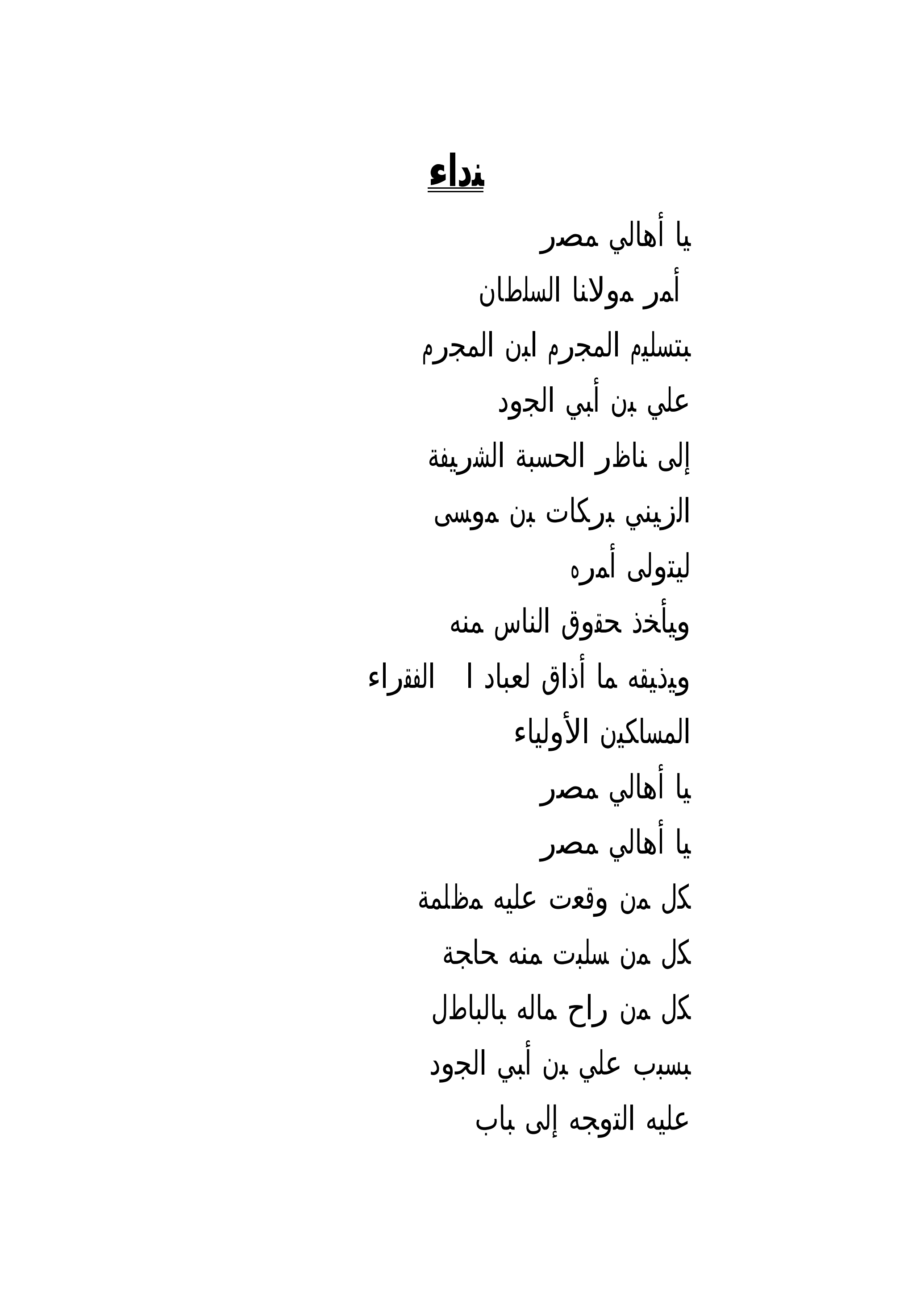
الشهاب

زكريا بن راضي

لكن ماذا ستأتي به الأيام؟ بل ماذا يخبئ اليوم نفسه؟

السرادق الثاني

شروق نجم الزيني بركات، وثبات أمره، وطلوع سعده، واتساع حظه



نداء

يا أهالي مصر

أمر مولانا السلطان

بتسليم المجرم ابن المجرم

علي بن أبي الجود

إلى ناظر الحسبة الشريفة

الزيني بركات بن موسى

ليتولى أمره

ويأخذ حقوق الناس منه

ويذيقه ما أذاق لعباد ا   الفقراء

المساكين الأولياء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

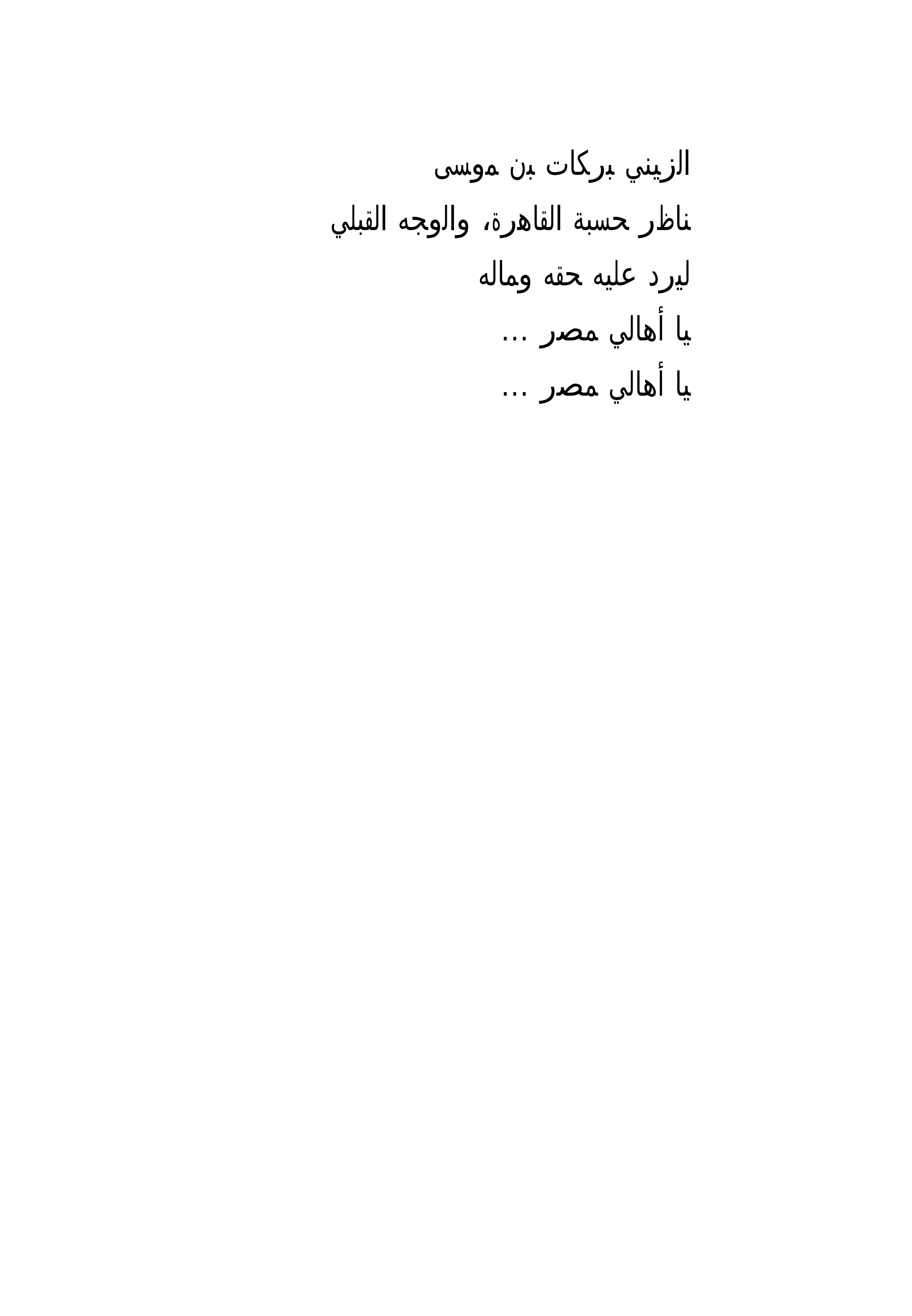
كل من وقعت عليه مظلمة

كل من سلبت منه حاجة

كل من راح ماله بالباطل

بسبب علي بن أبي الجود

عليه التوجه إلى باب



الزيني بركات بن موسى

ناظر حسبة القاهرة، والوجه القبلي

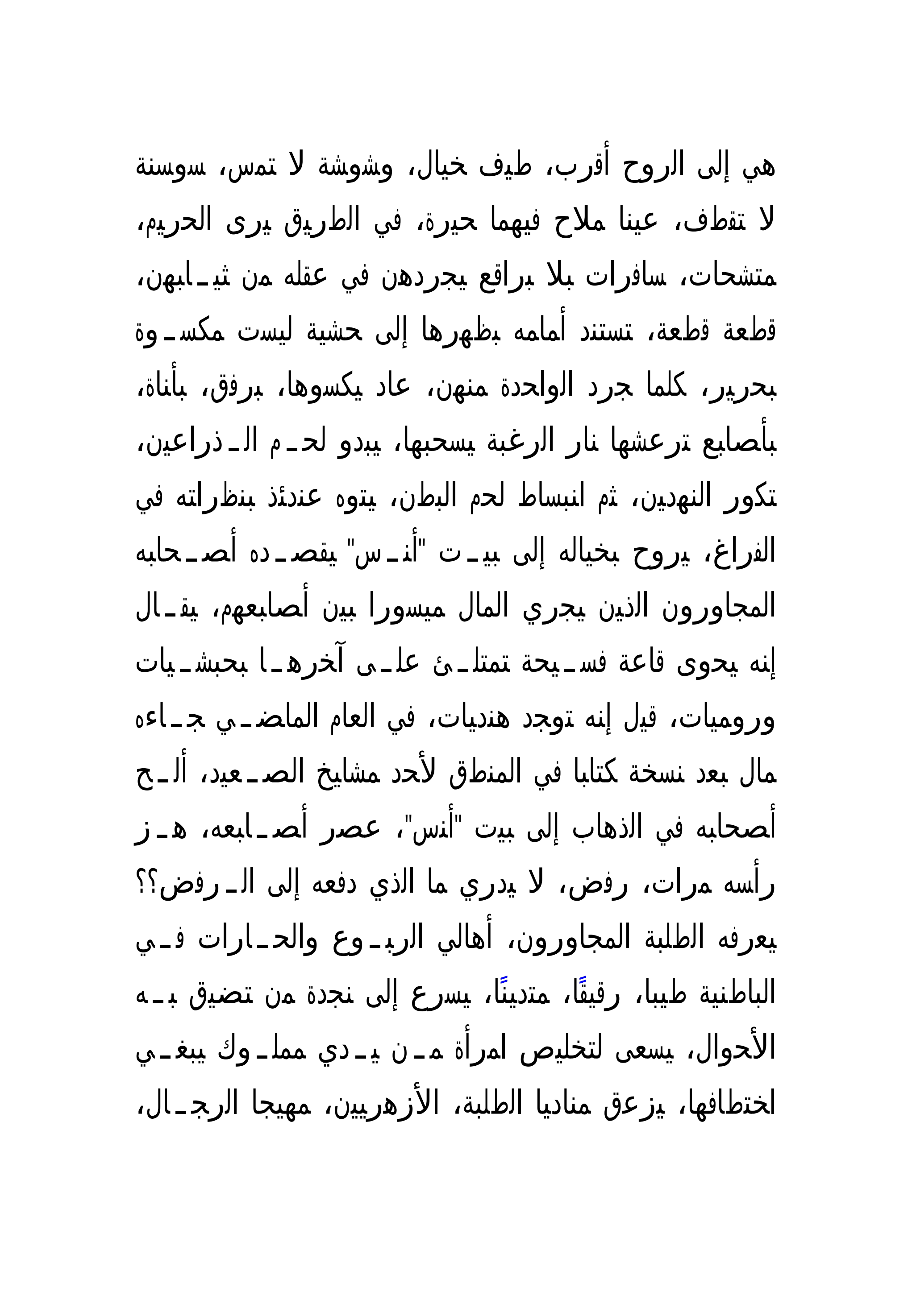
ليرد عليه حقه وماله

يا أهالي مصر ...

يا أهالي مصر ...

سعيد الجهيني:

طال به حب هذا البيت وأهله، حجارتـه، أخشـاب مشربياته، نقوش جدرانه، الضوء في فراغه، قاعـة تـلاوة القرآن في رمضان، عالية السقف، قرب منتصف الجـدران نوافذ ضيقة، يطل من ورائها الحريم، يستمعن إلـى الآيـات البينات، آمنات عيون الغرباء، من إحدى النوافذ تطل، ترقبه، تتأمله، عيناه تحتويان قطع الرخام الصغيرة الملونة ترصـع أرضية النافورة التي تتوسط حديقة البيت الصغيرة، الحشـايا الوثيرة التي تحول بين صلابة الجدران ورقة بدنها، سـماح تطأ الممرات بقدميها عندما يخلو البيت من الـزوار، راحـة خفيفة في صدر سعيد، لا يعد هنا مـن الغربـاء، لحظـات إصغائه إلى الشيخ ريحان، يراها بعيني قلبه، تروح وتجـيء في إحدى الغرف، تنظر من نافذة، تضـطجع إلـى حشـية، وسادة، منذ سبعة شهور، ثالث أيام عيد الفطر جاءت، مـال رأسه، مثقل بحيرة، بخجل، باضطراب، احتوى راحة يـدها الصغيرة الدقيقة، رعشات الأمل في قلوب المنتظـرين ليلـة السابع والعشرين من رمضان، همسات نهار وليـد، آه مـن ذوبان الوجد، لا يراها جسدا ونهدين، ونحرا وجيدا وعنقًـا،



هي إلى الروح أقرب، طيف خيال، وشوشة لا تمس، سوسنة لا تقطف، عينا ملاح فيهما حيرة، في الطريق يرى الحريم، متشحات، سافرات بلا براقع يجردهن في عقله من ثيـابهن، قطعة قطعة، تستند أمامه بظهرها إلى حشية ليست مكسـوة بحرير، كلما جرد الواحدة منهن، عاد يكسوها، برفق، بأناة، بأصابع ترعشها نار الرغبة يسحبها، يبدو لحـم الـذراعين، تكور النهدين، ثم انبساط لحم البطن، يتوه عندئذ بنظراته في الفراغ، يروح بخياله إلى بيـت "أنـس" يقصـده أصـحابه المجاورون الذين يجري المال ميسورا بين أصابعهم، يقـال إنه يحوى قاعة فسـيحة تمتلـئ علـى آخرهـا بحبشـيات وروميات، قيل إنه توجد هنديات، في العام الماضـي جـاءه مال بعد نسخة كتابا في المنطق لأحد مشايخ الصـعيد، ألـح أصحابه في الذهاب إلى بيت "أنس"، عصر أصـابعه، هـز رأسه مرات، رفض، لا يدري ما الذي دفعه إلى الـرفض؟؟ يعرفه الطلبة المجاورون، أهالي الربـوع والحـارات فـي الباطنية طيبا، رقيقًا، متدينًا، يسرع إلى نجدة من تضيق بـه الأحوال، يسعى لتخليص امرأة مـن يـدي مملـوك يبغـي اختطافها، يزعق مناديا الطلبة، الأزهريين، مهيجا الرجـال،

يلتفون حول المملوك، يقول عامة الناس، لو أوتي سعيد قـوة قرقماس المصارع لما جرؤ المملوك، يقول عامة الناس، لـو أوتي سعيد قوة قرقماس المصارع لما جرؤ مملـوك علـى اختطاف قشرة حبة فول من سلة تحملها طفلة، لكن ا خلقه ضئيل الحجم، كثير الأمراض، إذ يرقد فوق حشيته القديمـة بالرواق، يتوافد إليه الناس على اختلاف أصـنافهم يسـألون عنه، ماذا لو عرفوا ارتياده بيت "أنس" دفعه دراهم ليمتلـك امرأة بعض الوقت ...

" لا يتعارض هذا مع ذاك يا سعيد ..."

ينفي الخاطر والفكرة، تحوم سماح من بعيد في عقله، سره الدفين الذي أقام عليه أرصادا دونها أرصاد، لا يمكنـه رؤيتها بعيني عقله عارية، أو تقف في حمام، كل ما ترتديـه قبقاب خشبي عال يمنع عن باطن قدميها الماء القذر، سـماح خلاصة نساء الأرض أجمعين، منها تفرعن، عنهـا أخـذن، إليها يعدن، في المستقبل البعيد لا يراها إلا معه، ينظران معا من طاقة مشربية، يمشيان في حديقة، يسافران بلادا، منذ أيام يشتد البرد، في البرد يرى سماح موطنًا ينبع دفئًا وسلاما.

"هيا بنا إلى الغرفة العلوية ..."

طلع سلم البيت الداخلي، كان لأنفاسها أثرا تعلق في الهواء، تجسد إلى أبد، خاف أن يسمع الشيخ ريحـان دقـات قلبه، يرى ارتجاج أمره واضطراب لونه، يتربع الشيخ فوق وسادة خضراء كبيرة، ينفث الدخان هادئًا، تقرقر النرجيلـة، قام نصف قومة، مال عليه سعيد ...

" شتاء العام لم نر منه بردا بعد ..."

" ليس باردا كالسنين الماضية ... لكنه في الرواق لا يطاق ..."

تتوهج الحجرات، يسقط شيء ما في البيـت، ربمـا وعاء، علبة تمسكها، الليل هنا ناعم فيه هدوء البيت، وأمـن عائلي ...

كاد مماليك طشتمر يطفشون في الناس اليوم ... لولا خروجنا من الأزهر والوقوف بينهم وبين الناس ...

" ياه ... لم أسمع بهذا فأنا لم أخرج طوال النهار ... تقول مماليك من؟؟ " طشتمر ...

" غريب ... كان هادئًا ومماليكه لا بأس بهم ... مـا الذي غيره؟؟"

" أبدا ... كان الأمير خاير بك حط في حقـه كلامـا عند السلطان... وأشيع أن السلطان ينوي اعتقاله ..."

" ... يا سلام ... طول عمره طشـتمر متهـور ... متهور ... لا يسمع الكلام أبدا ..."

هنا يصمت سعيد، يبدو الأمر مسليا، لكنـه يبـرره، يبحث فيه عن فضيلة ما لأنه صادر عن والد سماح، دائما لا يجيء اسم أمير، موظف عظيم إلا يسـارع قـائلا ومؤكـدا بوجود رابطة قوية بينهما، أحيانًا يؤكد سعيد ما يقوله الرجل بسؤال أو استفسار، كان يقول منذ متى تعرف طشـتمر يـا عمي؟؟ هنا يتراجع الشيخ ريحان إلى الوراء، يزعق مناديـا الخادم ليحضر جمرات للنرجيلة" يا سلام ... طشتمر ربيتـه أنا على يدي ...كان يجئ هنا عندي وقت أن كـان مملوكًـا ضعيفًا، عرفته قبل زواجه بخوند زينب امرأته الأولى"، سعيد لا يعرف أحقًا تدعى امرأة طشتمر خوند زينب، أو لا؟؟ إنما يقول: " أظن طشتمر والأمير ملكتمر السـاقي مـن ..." لا يدعه الشيخ يتمم كلامه، يسارع قائلا "ملكتمر ... ملكتمر هو الذي أنصفتي على موسى بن إسحق عند اختلافي معه فـي بعض أمور بيت المال ... استدعاني ملكتمر فـي منتصـف

الليل تماما، أي وا منتصف الليل، طلعت إليه فـي القلعـة نفسها، أنا ذهبت إلى القلعة مرات ومرات هذا لم يتفق لأحـد غيري، المهم أنه قبل يدي، أي وا ملكتمر قبل يـدي فأنـا أكبر منه سنا قال ... إنه يعرفني صالحا تقيا، لهـذا سـيلغي أمر موسى بن إسحق تماما، وأذكر أنه ربـت بيـده علـى كتفي ... فأمسكت ذراعه ... بالضبط يا سـعيد يـا ولـدي أمسكت بذراعه ..."

" وعندما جاء الزيني بركات بنفسه تفـرق مماليـك طشتمر ... بل قبض علـى أربعـة مـنهم وأرسـلهم إلـى المقشرة".

" الزيني ... بركات ... آه ... كـان المفـروض أن أزوره منذ يومين ..."

"الزيني بركات أرسل إليك يا عمي؟؟"

ياه، تسرع سعيد بالسؤال، في كل مرة يسكت، لماذا الآن لماذا الآن بالذات؟؟

" الزيني صاحبي ... كان المفروض أن أزوره لولا صحتي التي لا تساعدني " قواك ا ..."

" أي زيني يا ولدي ... أمثاله كانوا لا يدخلون علي إلا بصعوبة، يسعون في ركابي ... ألا قل لي ... هل الناس راضية عنه؟؟ "

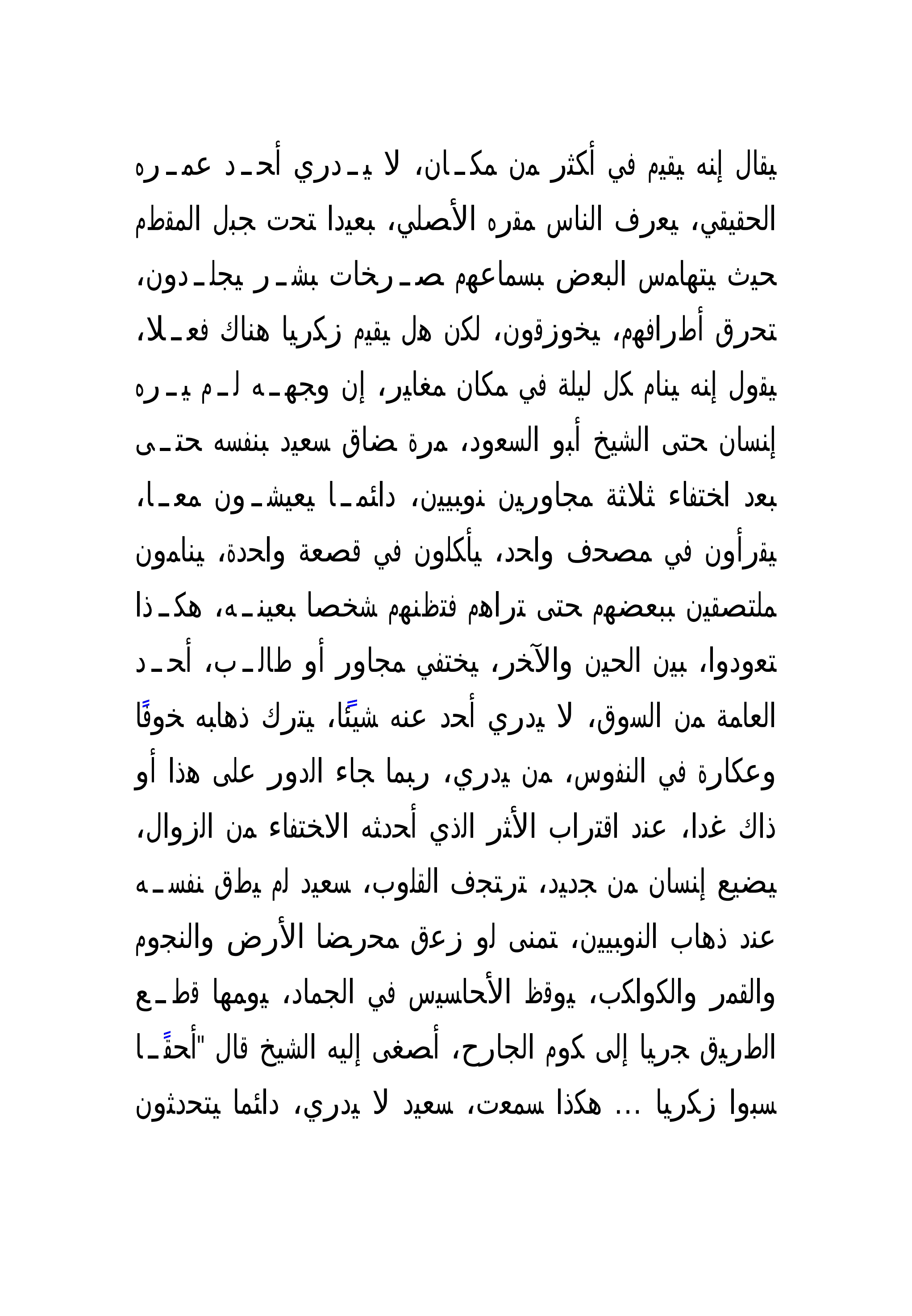
" جدا ..."

" أعرفه ... فهو عادل وأهم ما فيه أنـه عاقـل ... عاقل جدا، ما آخر أخباره؟؟"

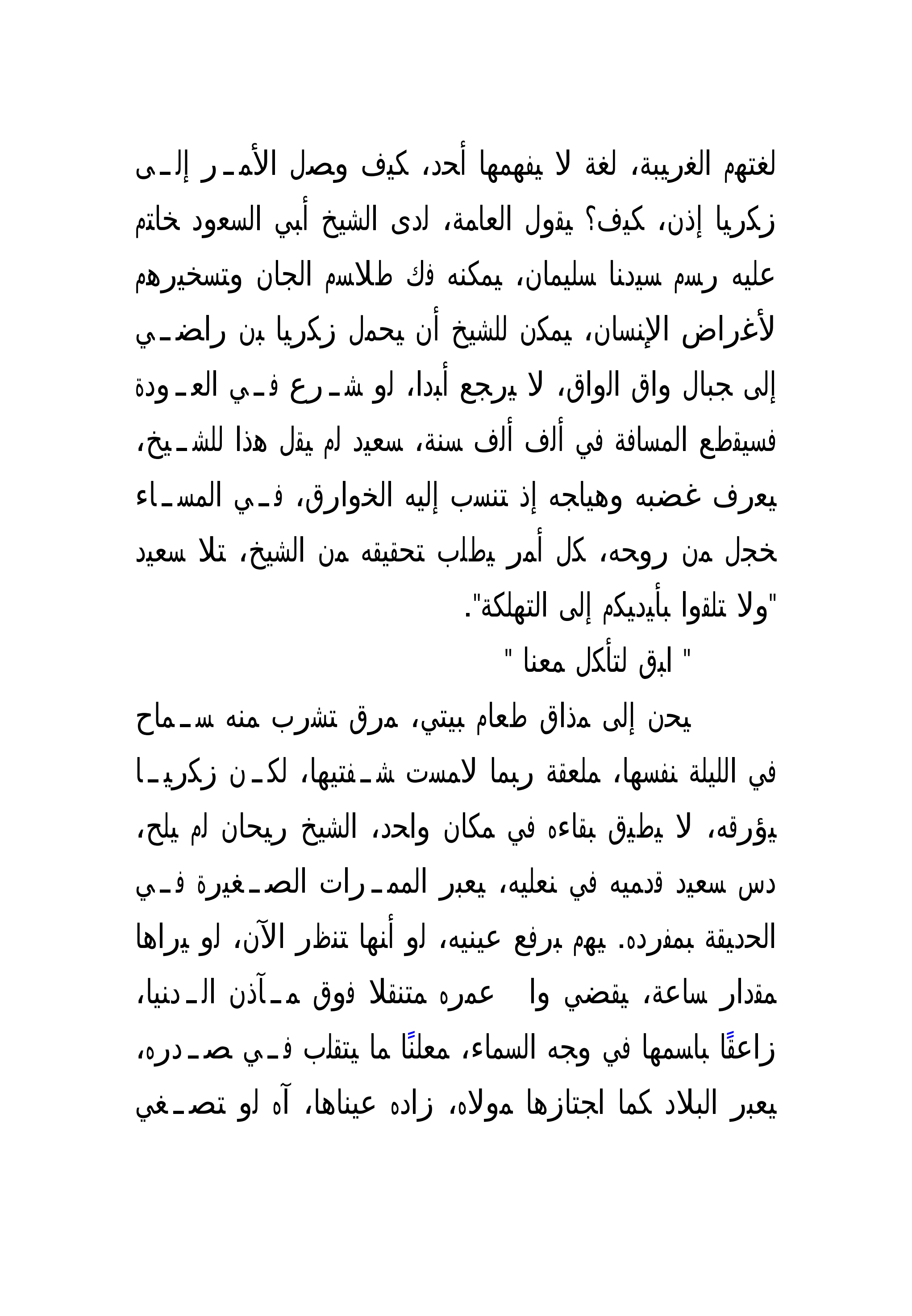
" لم نعد نرى المنادين التابعين لزكريا ..."

" زكريا بن راضي ... لا حول ولا قوة إلا با ... أخفض حسك يا ولدي ... ربما سمعنا ..."

الآن، تنسال مرارة في حلق سعيد، أي طالب مجاور لا يجرؤ على لعنه، سعيد يلعنه في سره، يعرف امتداد ظلـه بين الأروقة والحجرات، على محراب المسجد، تحت حصير الجوامع، غرف النوم في البيوت، يقول عنـه الشـيخ أبـو السعود، هذا من علامات الساعة، لابد من بقائه فوق الـدنيا ممثلا لإبليس حتى يتعذب الخلق أضعافًا مضـاعفة، وقتهـا تضايق سعيد من كلام الشيخ أبي السعود، ربما يقـول هـذا لعجزه عن الإمساك بزكريا بن راضي، باستطاعة الشيخ أن يفعل، لا يحاجه إنسان، لكن أين زكريا ليمسكه، لم يره أحد،



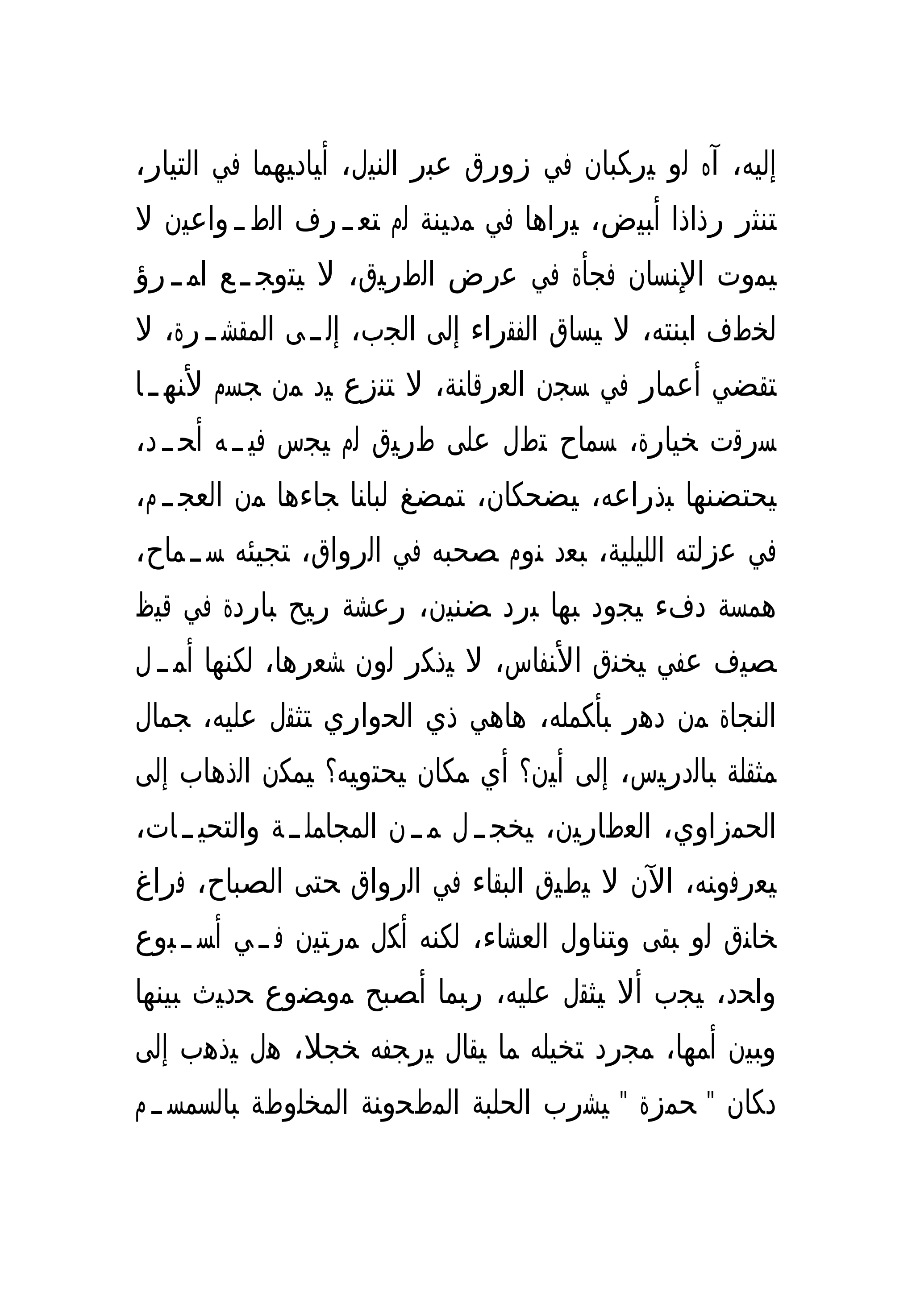
يقال إنه يقيم في أكثر من مكـان، لا يـدري أحـد عمـره الحقيقي، يعرف الناس مقره الأصلي، بعيدا تحت جبل المقطم حيث يتهامس البعض بسماعهم صـرخات بشـر يجلـدون، تحرق أطرافهم، يخوزقون، لكن هل يقيم زكريا هناك فعـلا، يقول إنه ينام كل ليلة في مكان مغاير، إن وجهـه لـم يـره إنسان حتى الشيخ أبو السعود، مرة ضاق سعيد بنفسه حتـى بعد اختفاء ثلاثة مجاورين نوبيين، دائمـا يعيشـون معـا، يقرأون في مصحف واحد، يأكلون في قصعة واحدة، ينامون ملتصقين ببعضهم حتى تراهم فتظنهم شخصا بعينـه، هكـذا تعودوا، بين الحين والآخر، يختفي مجاور أو طالـب، أحـد العامة من السوق، لا يدري أحد عنه شيئًا، يترك ذهابه خوفًا وعكارة في النفوس، من يدري، ربما جاء الدور على هذا أو ذاك غدا، عند اقتراب الأثر الذي أحدثه الاختفاء من الزوال، يضيع إنسان من جديد، ترتجف القلوب، سعيد لم يطق نفسـه عند ذهاب النوبيين، تمنى لو زعق محرضا الأرض والنجوم والقمر والكواكب، يوقظ الأحاسيس في الجماد، يومها قطـع الطريق جريا إلى كوم الجارح، أصغى إليه الشيخ قال "أحقًـا سبوا زكريا ... هكذا سمعت، سعيد لا يدري، دائما يتحدثون

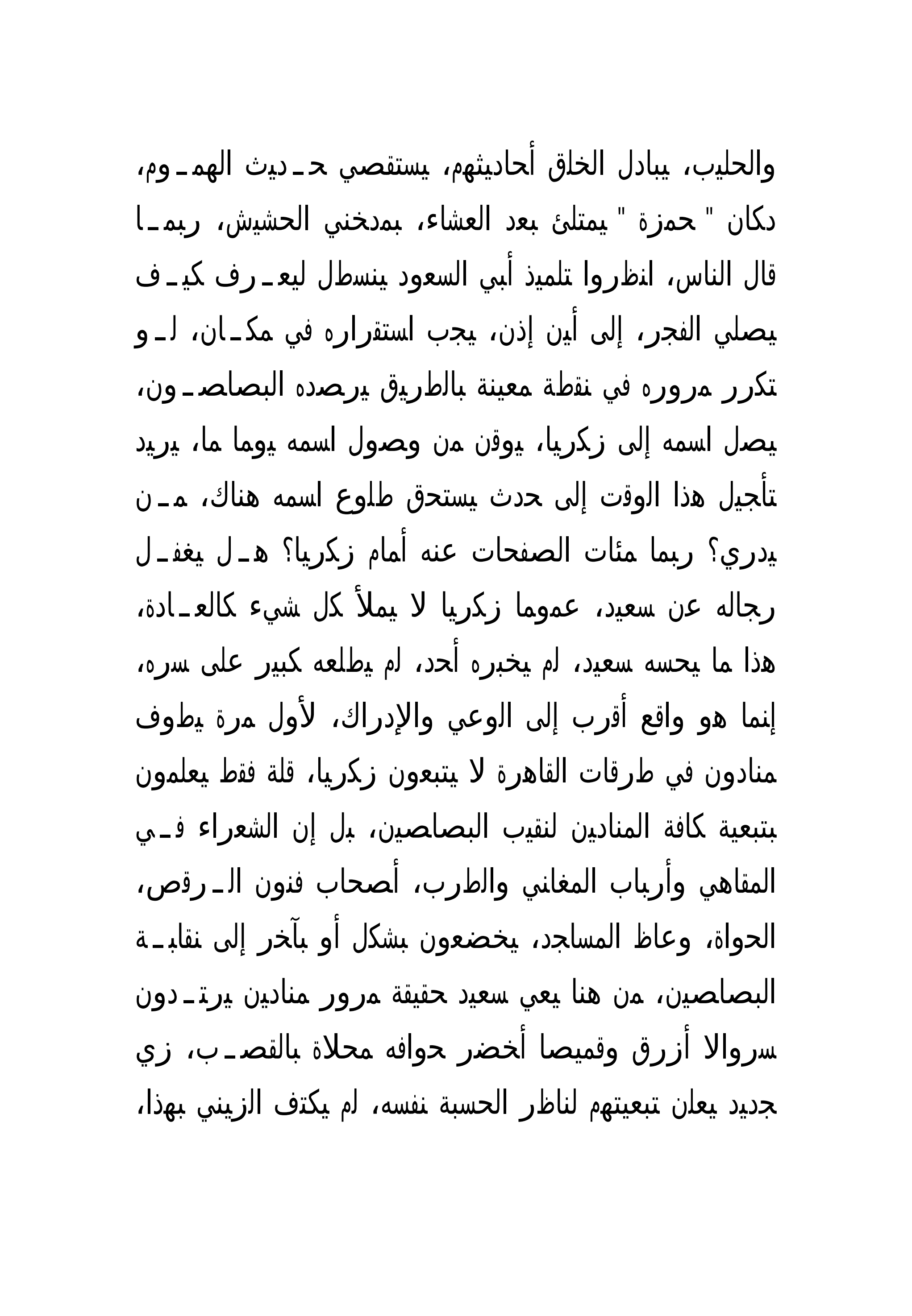


لغتهم الغريبة، لغة لا يفهمها أحد، كيف وصل الأمـر إلـى زكريا إذن، كيف؟ يقول العامة، لدى الشيخ أبي السعود خاتم عليه رسم سيدنا سليمان، يمكنه فك طلاسم الجان وتسخيرهم لأغراض الإنسان، يمكن للشيخ أن يحمل زكريا بن راضـي إلى جبال واق الواق، لا يرجع أبدا، لو شـرع فـي العـودة فسيقطع المسافة في ألف ألف سنة، سعيد لم يقل هذا للشـيخ، يعرف غضبه وهياجه إذ تنسب إليه الخوارق، فـي المسـاء خجل من روحه، كل أمر يطلب تحقيقه من الشيخ، تلا سعيد "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".

" ابق لتأكل معنا "

يحن إلى مذاق طعام بيتي، مرق تشرب منه سـماح في الليلة نفسها، ملعقة ربما لامست شـفتيها، لكـن زكريـا يؤرقه، لا يطيق بقاءه في مكان واحد، الشيخ ريحان لم يلح، دس سعيد قدميه في نعليه، يعبر الممـرات الصـغيرة فـي الحديقة بمفرده. يهم برفع عينيه، لو أنها تنظر الآن، لو يراها مقدار ساعة، يقضي وا عمره متنقلا فوق مـآذن الـدنيا، زاعقًا باسمها في وجه السماء، معلنًا ما يتقلب فـي صـدره، يعبر البلاد كما اجتازها مولاه، زاده عيناها، آه لو تصـغي


إليه، آه لو يركبان في زورق عبر النيل، أياديهما في التيار، تنثر رذاذا أبيض، يراها في مدينة لم تعـرف الطـواعين لا يموت الإنسان فجأة في عرض الطريق، لا يتوجـع امـرؤ لخطف ابنته، لا يساق الفقراء إلى الجب، إلـى المقشـرة، لا تقضي أعمار في سجن العرقانة، لا تنزع يد من جسم لأنهـا سرقت خيارة، سماح تطل على طريق لم يجس فيـه أحـد، يحتضنها بذراعه، يضحكان، تمضغ لبانا جاءها من العجـم، في عزلته الليلية، بعد نوم صحبه في الرواق، تجيئه سـماح، همسة دفء يجود بها برد ضنين، رعشة ريح باردة في قيظ صيف عفي يخنق الأنفاس، لا يذكر لون شعرها، لكنها أمـل النجاة من دهر بأكمله، هاهي ذي الحواري تثقل عليه، جمال مثقلة بالدريس، إلى أين؟ أي مكان يحتويه؟ يمكن الذهاب إلى الحمزاوي، العطارين، يخجـل مـن المجاملـة والتحيـات، يعرفونه، الآن لا يطيق البقاء في الرواق حتى الصباح، فراغ خانق لو بقى وتناول العشاء، لكنه أكل مرتين فـي أسـبوع واحد، يجب ألا يثقل عليه، ربما أصبح موضوع حديث بينها وبين أمها، مجرد تخيله ما يقال يرجفه خجلا، هل يذهب إلى دكان " حمزة " يشرب الحلبة المطحونة المخلوطة بالسمسـم



والحليب، يبادل الخلق أحاديثهم، يستقصي حـديث الهمـوم، دكان " حمزة " يمتلئ بعد العشاء، بمدخني الحشيش، ربمـا قال الناس، انظروا تلميذ أبي السعود ينسطل ليعـرف كيـف يصلي الفجر، إلى أين إذن، يجب استقراره في مكـان، لـو تكرر مروره في نقطة معينة بالطريق يرصده البصاصـون، يصل اسمه إلى زكريا، يوقن من وصول اسمه يوما ما، يريد تأجيل هذا الوقت إلى حدث يستحق طلوع اسمه هناك، مـن يدري؟ ربما مئات الصفحات عنه أمام زكريا؟ هـل يغفـل رجاله عن سعيد، عموما زكريا لا يملأ كل شيء كالعـادة، هذا ما يحسه سعيد، لم يخبره أحد، لم يطلعه كبير على سره، إنما هو واقع أقرب إلى الوعي والإدراك، لأول مرة يطوف منادون في طرقات القاهرة لا يتبعون زكريا، قلة فقط يعلمون بتبعية كافة المنادين لنقيب البصاصين، بل إن الشعراء فـي المقاهي وأرباب المغاني والطرب، أصحاب فنون الـرقص، الحواة، وعاظ المساجد، يخضعون بشكل أو بآخر إلى نقابـة البصاصين، من هنا يعي سعيد حقيقة مرور منادين يرتـدون سروالا أزرق وقميصا أخضر حوافه محلاة بالقصـب، زي جديد يعلن تبعيتهم لناظر الحسبة نفسه، لم يكتف الزيني بهذا،

إنما رتب مرورهم، أول النهار، بعد الغداء، قبيل المغـرب، قبيل العشاء، ينطلقون بلا حرس، كل مـا بأيـديهم عصـا قصيرة، يقرعون بها طبلة صغيرة، ينقلون إلى النـاس مـا استجده الزيني من أمور، يحرضون الناس على كشف كـل غشاش لئيم، عندما استمع سعيد إلى هذا النداء بالذات تـردد في قبوله وانتابه شك، لو تاجر كبير، قريب لوزير أو أمير، قريب الزيني نفسه؟؟ هل يجري عليه ما جرى للآخرين، لـم يحدث هذا ولو حدث لبدا أمرا عجيبا، بعد النداء بأيام ثلاثة، سمع سعيد ضجة، تجمع الناس حول منـاد يرتـدي الثيـاب الجديدة، ما الأمر؟؟ ترزي من ناحية المغربلين، ليس خياطًا صغير الشأن، يفصل الفرجيات والقفاطين للأمراء، لأربـاب الدولة، تجاوز الأربعين لكن ا ابتلاه بداء مكـين، وأثنـاء مشيه في سوق الخيامية، أعجبه غلام صغير، قال للغلام مـا اسمك يا شاطر؟

قال اسمي كمال، قال تعال آخذك إلـى أبيـك فـي الجامع لأنه ينتظرك هناك وسأشتري اك سنبوسك، غيـر أن اللعين ساقه إلى خرابة قديمة وراء الجـامع الأزرق، مـال عليه، لم يحتمله الغلام فانفزر من ثلاث جهات، وذهب إلـى

أبيه يصيح غارقًا في دمه، طلع الرجل إلى الزيني باكيا، أمر الزيني بإحضار الترزي، سأل الغلام، أهذا هو الرجل؟ فأومأ الطفل باكيا، زعق الرجل، الولد كذاب، فضربه الزيني على وجهه، قال: الأطفال لا يكذبون. أمر بشهره على حمار فـي القاهرة كلها، وسجنه بالعرقانة، حتى يكون مـن أمـره مـا يكون، طلع إلى الزيني بعض المشايخ قالوا، ما جرى يحدث كل يوم، مالوا في كلامهم، لم يصرحوا، إنما لمحوا، الرجـل يعرف بعض الأمراء ممن يترددون عليه، وهؤلاء ربمـا ... يعني ... ربما، قيل إن الزيني قام واقفًا، نتـر فـيهم، أمـر بإخراجهم، قال لن تحدث فاحشة في زماني أبدا، أنا ما أخشى إلا هو، أشار بإصبعه إلى السماء، قيل بـين العامـة، إنـه ضربهم على أكتافهم بمقرعة مقبضها عـاجي، مزخـرف، بذهب، زعق كيف تلقون ربكم يوم القيامة؟ سعيد خشي على الزيني، خاصة أن علي بن أبي الجود الـذي تسـلمه منـذ عشرين يوما، لم يعلن المنادي خبرا عـن اكتشـافه المـال المخبأ، ما يهم السلطان المال، ربما وجد زكريـا الفرصـة ليوغر صدر السلطان، عندئذ يقيل الزينـي مـن الحسـبة، الوقيعة الدائرة الآن بين طشتمر وخاير بك ربما غطت بعض

الوقت، لكن ... ما هذا؟ أيقلق سعيد من أجل الزيني،؟ أيتمني سعيد وقوع العذاب بعلي بن أبي الجود ليفشي سر المخبأ من ثرواته، أيرجو العذاب لإنسان ما؟ حتى علي بن أبي الجود، طبعا، وكم إنسانًا عانى ما عانى منه؟ كم؟ ثم ألن يوقع به ا عذابا أشد وأنكى يوم القيامة، لا ينكر سعيد قرب الزيني من روحه، عندما اقترب لإبلاغه طلب الشيخ أبي السعود، كـان الوقت ليلا، خرج إليه الزيني ملثما. عمامته صغيرة، ثيابـه عادية شأن فقراء المتصوفة. مشيا صامتين، ينظر إليه سعيد من طرف خفي. رائحة ثيابه تدفع إليه ذكرى بعيدة لخاله في قرية نزة، الصوف الممتزج بعرق الرجولة، رغبة راودتـه. لو يراه بعض أصحابه يمشي مع رجل يذكره كل لسان فـي القاهرة اليوم كله. في أي الملامح يكمن الإباء؟ القدرة علـى رفض منصب كبير؟ كل من صدر مرسوم بتوليه وظيفة من وظائف علي بن أبي الجود انتابته فرحة. بقوا فـي بيـوتهم يتلقون المهنئين. أما بركات بن موسـى المرشـح لأخطـر وظيفة. رفض. يندر الرفض في زمن بخيل بكل ما يحلم به المرء، بعد سكوت قال سعيد "أمرني ألا أرجع إلا معك" لفتة منه وهزة رأس. خجل سعيد. ربما يفكر في أمور خطيـرة.

فجأة قال "مولانا لا يمكنني أن أعصي له أمـرا، وتتابعـت أسئلة الزيني. أخبره سعيد بأمره كيف جاء من البلدة. كيـف التقى بمولاه، تردده عليه، رفقته له، أخذه العلم عنه، بقـاؤه عنده طوال وقته، الآن يذكر أسئلة الزيني، ثم صمته المفاجئ لا يدري سعيد ما يجري بينهما، أمره الشيخ بـالعودة إلـى الأزهر من يومها لم يقترب سعيد من الزينـي. فيمـا عـدا موكب عودته من الأزهر. لكنه مشى منفردا بين الخلـق. لا يدري الزيني بوجوده، لا يصغي إليه. آخر المنادين طـاف منذ ساعتين، لا يدري ما قاله للناس. في الأسبوعين الأولين يتجمع الناس بقصد الفرجة والاستماع إلى ما يقولون. بمرور الأيام خف زحامهم، أما الأطفال فلا يفـارقونهم الآن. يقـف سعيد فجأة يبدو أنه اقترب من حارة قصر الشـوق، رجـل يمضي مسرعا. أليس هو؟ لماذا توقف؟ تجمـد. أي حيـرة انتابته. لا يذكر طول القامة يذكره ممتلئًا ونحيلا. معتدلا وذا حدبة. لا تثبت صورته في الذهن. إنما هذا الماشي هناك. هو هو بعينه. اجتاز حارة بيت المال. يمضي طريق إلى حـارة بيت القاضي. آخر إلى مسجد الشهيد الحسين. اختفى. لكـن

أين الحرس. كيف يأمن على روحه؟ وإذا كان هـو الزينـي بنفسه. هل رآه ... هل عرفه؟

***

نداء

يا أهالي مصر

نوصي بالمعروف وننهي عن المنكر

اليوم ...

خرج السلطان إلى الريدانية

بدأ لعب الكرة. وكله عافية

أمده ا بالصحة والقوة

يا أهالي مصر

مازالت الوحشة والقطيعة مستمرة

بين الأمير طشتمر والأمير خاير بك

وكل منهم مترصد للآخر ... فانتبهوا ...

يا أهالي مصر ...

العطار صابر بن الحمزاوي غش في الميزان

وباع الحلبة مخلوطة بالتراب الناعم

غش المغات، ودس السقنقور الهندي

وعنده منه الكثير، حتى يغلو ثمنه

لأنه الوحيد تاجر السقنقور

رأى الزيني بركات بن موسى ...

ناظر حسبة القاهرة، والوجه القبلي

منفذ تعاليم الشريعة، وحافظ حقوق الناس

وخادم السلطان

بتغريمه مائة دينار

والحوطة على مخزونه من السقنقور

وتوزيعه على سائر العطارين

لينتفع به المخاليق، وتسعيره بثلاثة دراهم للواحد

وا منتقم من كل غشاش لئيم

إتعظوا

يا أهالي مصر ...

يا أهالي مصر ...

***

زكريا بن راضي:

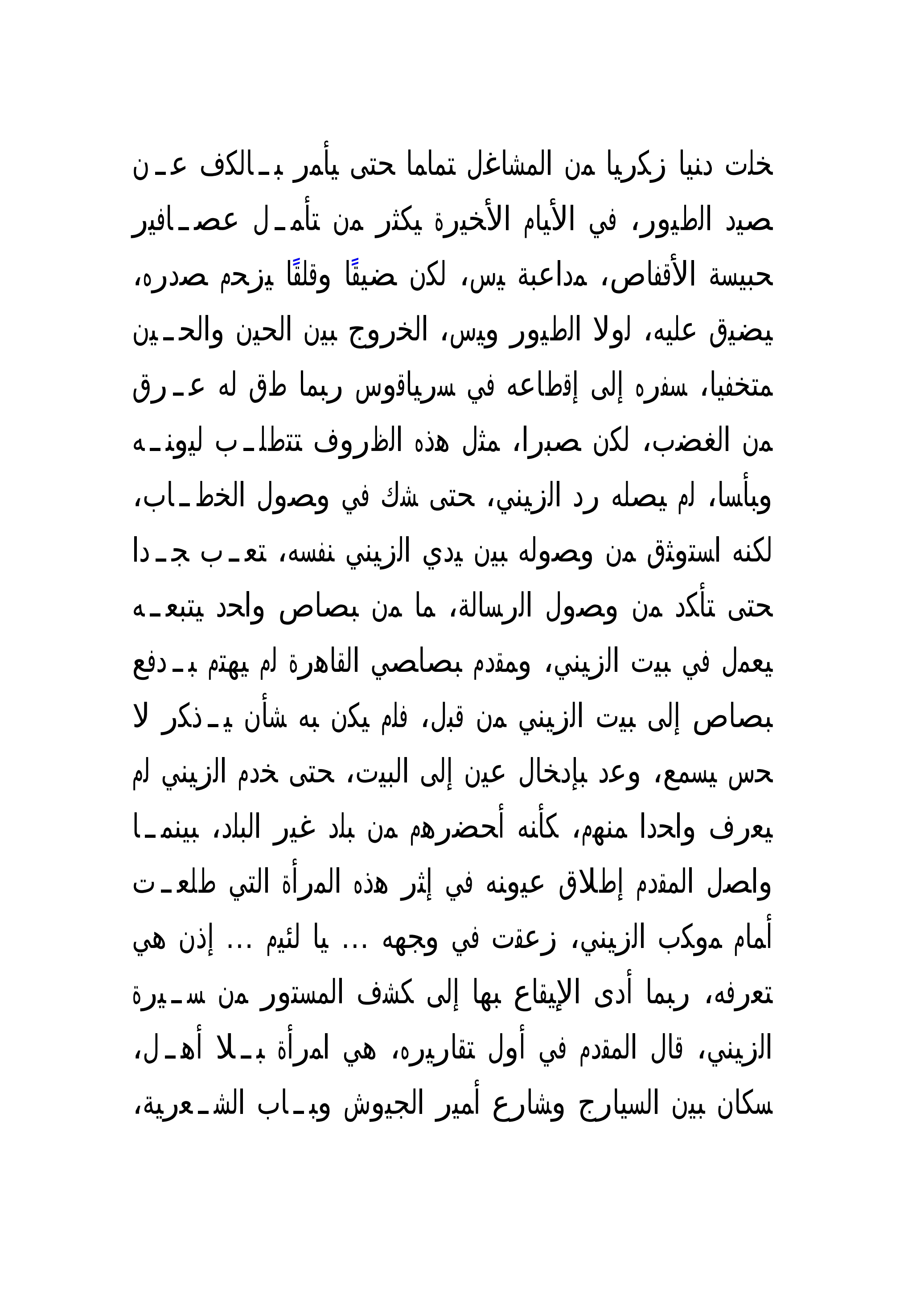
صباح الثلاثاء سابع ذي القعدة ٩١٢ هـ

يخلو إلى نفسه تماما إذ يتأمل طفلا، يداعبـه، رقـة العمر الأول، ريش العصافير وسخونة جلدها الرهيف، لـو يبقى الإنسان طفلا إلى الأبد، يحرك اليدين كما يشاء، يضحك في كل اتجاه، يحبو، يعبث، يبكي فتهرع نفس حانية تجفـف الدمعات، الأوهام والمخاوف لا تتخذ من قلبه الصغير خانـا أبديا، يرى الدنيا بعيني الدهشة والتسـاؤل، محـال هجـرة زكريا عبر الزمان قاصدا بداية سنينه. أحيانًا يوقن أنـه لـن يمر بمثله أبدا. لا يذكر يدا ملست عليه. أصـعب الظـروف تمنعه من رؤية ابنه الأول والأخير حتى الآن. يس. يجيئـه ملفوفا في قماط قطيفة سوداء مطرز بذهب، يحملـه، أمـه زينب ترقبهما، تحكي أخبار يس. كم مرة أرضعته. ابتسامته الهادئة عندما راح في نومه. إذ يستيقظ كأن عينيـه تبحثـان عن الغالي أبيه. تعثره في الحروف. تطيل الحديث. يس هو ما يقربها إلى الرجل تتباهى وتعلـو علـى بقيـة حريمـه وجواريه. لم ينجب منهن. أما هي فولدت له يـس تتجاهـل أحمد الذي جاء منذ أربع سنوات. ذهب بعـد شـهور. أمـه

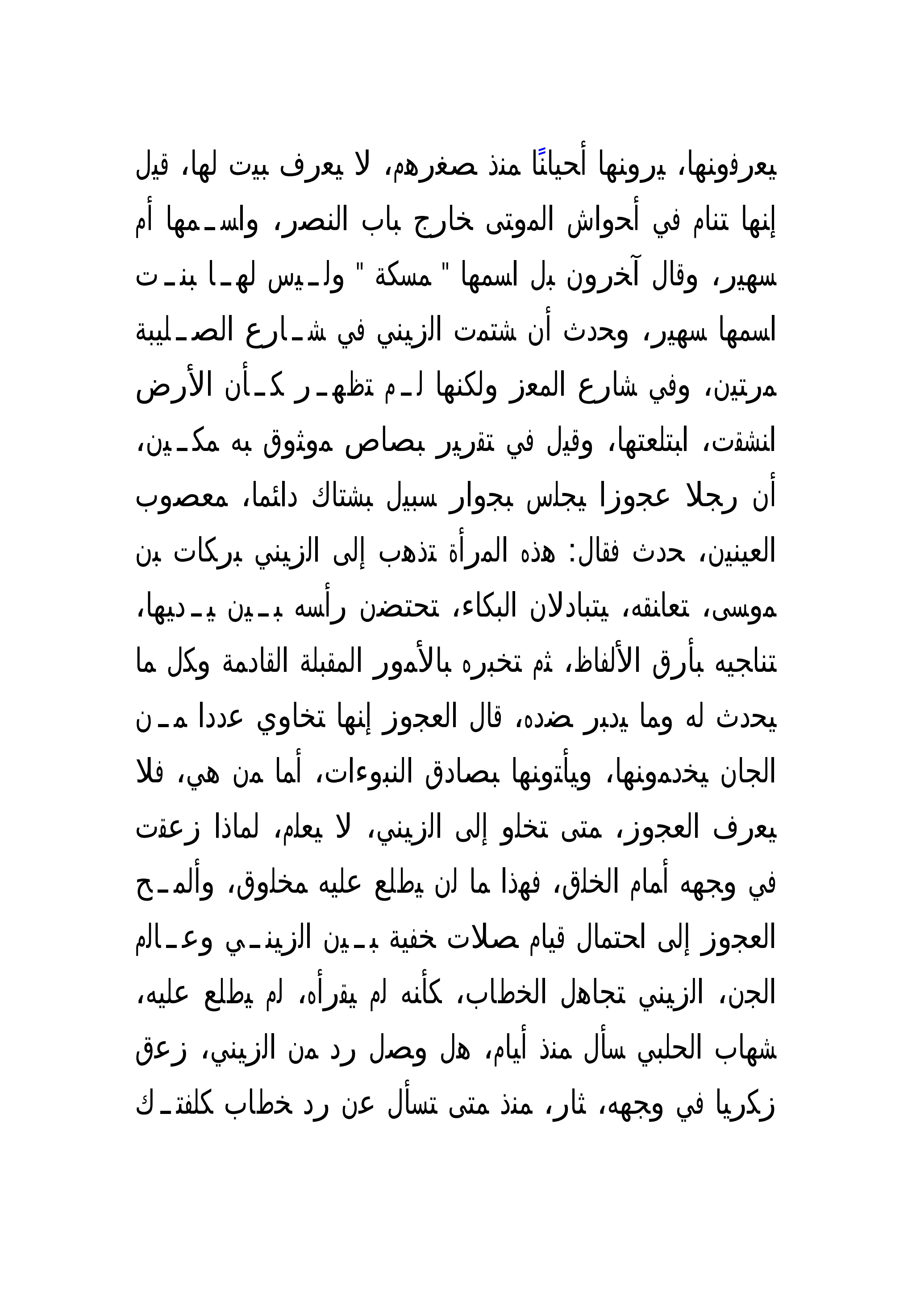
الحبشية لا تزال تقيم في البيت. مجهولة لا يعرفها أحد، لسعة حزن حارقة تغشي قلب زكريا بين الحين والحين، لم تطفئها السنون. تخفف حدتها. أشد الظروف فظاعة لم تعطله عـن لحظات يمضي فيها إلى يس ربما يوقظه آخر الليـل بـرغم تحذيرات أمه. يلاعبه يناغشه. من شهور أمسكوا في خـان الخليلي تاجرا روميا قيل إنه يكاتب ابن عثمان بأخبار الدولة أمسكه رجال زكريا. راقب عقابه بنفسه. تعصـير أكعابـه. حرق جلد ظهره بنار هادئة. ومبروك قائم على تعذيبه بهمة عالية، بإخلاص وتفان. نزل الصمت كالجثـة علـى بقيـة المحابيس في حفرهم. وهم يصغون إلى صـرخات الرجـل التي لا تنفذ إلى الفراغ الخارجي أبدا. يعـرف زكريـا أي رعب يتملكهم. ما يقع في أرواحهم من رعـب وآلام عنـد سماعهم أوجاع إنسان آخر يجهلون منه الاسم حتى، أكثر مما انتزعت أسنان الواحد منهم بكماشة محماة، خاصـة حـديثي العهد منهم بالحبس، من يدري، ربما جرى عليهم ما يجـري على المكنوب الرومي، طال صمته، لم ير زكريا إلا تقلـص وجهه، جحوظ عينيه وتضخم أنفه، تدلي فكه، لكنه لـم يفـه حرفًا، ما أغاظ زكريا، ما كاده، تأكده من وجـود شـركاء

للرجل، بعد مرور نهار بأكمله، أمسك زكريا بسـيخ رفيـع طويل كالإبرة محمي ببطء، على مهل راح يدفعه في بطـن الرومي، حول سترته، زكريا يختنق بدخان اللحم المحتـرق، خرج، نفذ الهواء من أنفه كما يتجرع الماء، عبر الفناء إلـى جناح حريمه، طلع السلم المؤدي إلى غرفة زينب، سأل: هل نام؟ أومأت ... نعم، قال: أريد رؤيته، بالتأكيد غمرتها خيبة أمل، تأمل قضاء الليل معه، بقاءه عندها حتى الصباح، لـن يكتمل تظاهرها على بقية الحريم إلا بنجاحها فـي اسـتبقائه الليلة كلها، طلب رؤية يس مرة أخرى، قالت ... نـائم منـذ فترة يا سيدي، قال بصوت أجوف أرعشها خوفًا أنا لم أقـل صحيه ... مشيت أمامه، بـين الحشـايا رق وجـه الطفـل مستديرا مغمض العينين، قمر بين غمام، بشرة تفاحة ملساء، قماش حريري يشف عن ملامحه، قرب الشمعدان منه، تمايل الضوء، بقي مقدارا من الزمان، يرحل وجه الرومي مبتعدا، قالت المرأة: هل أخلع القفطان يا سيدي؟ اعتدل فجـأة، لـم ينظر إليها إنما مضى إلى الباب، تقارير اليوم لم يراجعهـا، ثمة ما يجب رفعه إلى السلطان بخصوص الرومي، أسرعت خلفه، خيبة أمل لا تخجل من التواري في صوتها.

الآن، ينزل زكريا السلم الطويل إلى حوش البيـت، ينفذ الريحان إلى صدره، وشيش سعف النخل، أشجار غريبة أرسلها إليه كبار البصاصين في الهند، في اليمن، في الحبشة، في ركن الحديقة الأيمن، زهور صـفراء قليلـة، لا ينسـى إحداها، همسة تجسدت زهـرة، رقيقـة صـفراء، حوافهـا بنفسجية، قلبها أحمر قان، به ثلاث ذرات من لـون أخضـر قاتم، رآها تنفتح أمامه، شهد إطلالها على العالم أمام عينيـه، يذكر المنظر متعجبا، في الحديقة أقفـاص صـغيرة تضـم عصافير غريبة الخلقة، صياح بعضها غريب، الآن لا همس لها، في الشتاء يرى عصافير طليقة، أخبره علماء الطير أنها تجيء من بعيد، من بلاد ليلها ستة شـهور ونهارهـا سـتة شهور، تذهب مع الشتاء يجيء الصيف قاحلا منها، زكريـا يؤرخ اليوم الذي يرى فيـه أول العصـافير فـي حديقتـه، يتساءل، أهذه العصفورة بعينها هي التي جاءت فـي العـام المنقضي، كم تعيش إذا لم تغتلها يد صـياد؟ تمـوت موتـا طبيعيا، أمثل هذه المخلوقات يموت؟ فكر في إطلاق المنادين ليأمروا الناس بالكف عن صيد العصافير لكنه تراجع، ربمـا ظن بعض الأمراء الظنون، ربما قوبل أمره باستخفاف، هل



خلت دنيا زكريا من المشاغل تماما حتى يأمر بـالكف عـن صيد الطيور، في الأيام الأخيرة يكثر من تأمـل عصـافير حبيسة الأقفاص، مداعبة يس، لكن ضيقًا وقلقًا يزحم صدره، يضيق عليه، لولا الطيور ويس، الخروج بين الحين والحـين متخفيا، سفره إلى إقطاعه في سرياقوس ربما طق له عـرق من الغضب، لكن صبرا، مثل هذه الظروف تتطلـب ليونـه وبأسا، لم يصله رد الزيني، حتى شك في وصول الخطـاب، لكنه استوثق من وصوله بين يدي الزيني نفسه، تعـب جـدا حتى تأكد من وصول الرسالة، ما من بصاص واحد يتبعـه يعمل في بيت الزيني، ومقدم بصاصي القاهرة لم يهتم بـدفع بصاص إلى بيت الزيني من قبل، فلم يكن به شأن يـذكر لا حس يسمع، وعد بإدخال عين إلى البيت، حتى خدم الزيني لم يعرف واحدا منهم، كأنه أحضرهم من بلد غير البلد، بينمـا واصل المقدم إطلاق عيونه في إثر هذه المرأة التي طلعـت أمام موكب الزيني، زعقت في وجهه ... يا لئيم ... إذن هي تعرفه، ربما أدى الإيقاع بها إلى كشف المستور من سـيرة الزيني، قال المقدم في أول تقاريره، هي امرأة بـلا أهـل، سكان بين السيارج وشارع أمير الجيوش وبـاب الشـعرية،



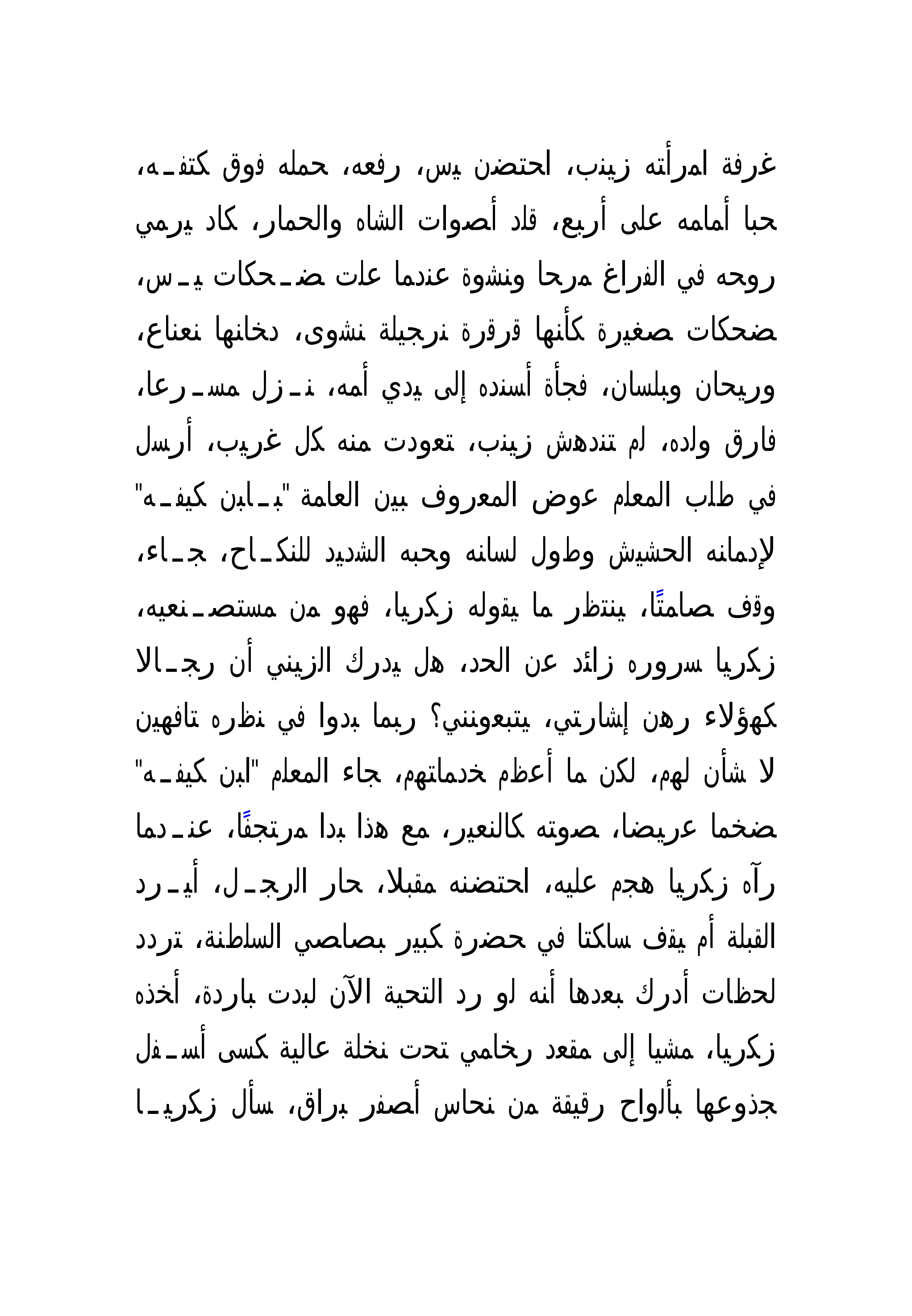
يعرفونها، يرونها أحيانًا منذ صغرهم، لا يعرف بيت لها، قيل إنها تنام في أحواش الموتى خارج باب النصر، واسـمها أم سهير، وقال آخرون بل اسمها " مسكة " ولـيس لهـا بنـت اسمها سهير، وحدث أن شتمت الزيني في شـارع الصـليبة مرتين، وفي شارع المعز ولكنها لـم تظهـر كـأن الأرض انشقت، ابتلعتها، وقيل في تقرير بصاص موثوق به مكـين، أن رجلا عجوزا يجلس بجوار سبيل بشتاك دائما، معصوب العينين، حدث فقال: هذه المرأة تذهب إلى الزيني بركات بن موسى، تعانقه، يتبادلان البكاء، تحتضن رأسه بـين يـديها، تناجيه بأرق الألفاظ، ثم تخبره بالأمور المقبلة القادمة وكل ما يحدث له وما يدبر ضده، قال العجوز إنها تخاوي عددا مـن الجان يخدمونها، ويأتونها بصادق النبوءات، أما من هي، فلا يعرف العجوز، متى تخلو إلى الزيني، لا يعلم، لماذا زعقت في وجهه أمام الخلق، فهذا ما لن يطلع عليه مخلوق، وألمـح العجوز إلى احتمال قيام صلات خفية بـين الزينـي وعـالم الجن، الزيني تجاهل الخطاب، كأنه لم يقرأه، لم يطلع عليه، شهاب الحلبي سأل منذ أيام، هل وصل رد من الزيني، زعق زكريا في وجهه، ثار، منذ متى تسأل عن رد خطاب كلفتـك

بكتابته؟ أهذا ما علمته لكم؟ أتعرفون مـا عاقبـة الثرثـرة الكاذبة؟ عاقبة الفضول، الكلمة التي تخطها يجب أن تنساها، ارتعب شهاب الحلبي، أشد ما يخشاه غضب زكريا، الأدهى من ذلك، لو ظن شيئًا من وراء السؤال، ربما ارتاب، هنا لا يدري شهاب الحلبي ما قد يفعل به، عمله الطويل لا يغفر له أية زلة مقصودة أو غير مقصودة، دائما، يردد زكريا علـى مسمعه قصة نائب كبير البصاصين العثماني الذي وصل إلى أعلى مراتب دولة البصاصة في دولة ابن عثمان ثم اكتشـف أمره بعد العديد من السنين، لم يكن إلا بصاصا وثيق الصلة بدولة الشاه إسماعيل الصوفي، ألد أعداء الخنكـار، شـهاب الحلبي حريص دائما على حركاته وسكناته، ليس هـو فقـط إنما أي إنسان يعمل في ديوان البصاصين، زكريـا تعجـب لحدة غضبه، لكن تأخر الزيني يضايقه، سؤال شهاب الحلبي نغزه، كل يوم يقول، ربما أجاب الليلة، غدا، لكـن الزينـي تمادى في غيه، الأمير الجمدار هز رأسه، قـال، السـلطان يوافق الزيني على كل كبيرة وصغيرة، الزيني يطلـع إلـى السلطان كل ليلة، يخلو به مقدار ساعة، لا يطلع إنسان على ما يدور بينهما، زكريا يواجه ظروفًا لم يعرفها أحد أسـلافه،

ربما يرد اسمه في هذه الخلوات، ربما تدبر له الملاعيـب، عاوده انزعاج ليلة وصول تقرير يؤكد استمرار الزيني فـي إقامة فرقة بصاصين خاصة به، الأمير منكلي بغا - وهـو قريب الصلة من زكريا – ألمح في لقائه مع الزيني إلـى أن الأصول تقضي بوجود فرقة بصاصين واحدة في السـلطنة كلها، وأن يتبع زكريا بن راضي المحتسب كما هـو متبـع، لكن الزيني هز رأسه، قال لا أطمئن إلا لرجالي، أن توجـد فرقة بصاصين أخرى، فهذا ما يقلق زكريا، ربما تسرب أحد إلى بيته. إلى ديوان السر، أصدر أوامر مشددة إلـى مقـدم بصاصي القاهرة. إلى مقدم بصاصي الوجه القبلي، الوجـه البحري، مقدم البصاصين ببلاد النوبة، أن يرصدوا ما يقيمه الزيني، أن يتعقبوا أفراد الفرقة الجديدة. من هم، أين، كيـف يعملون. لا تزال التقارير بخصوص هذا الموضوع باهتـة. عموما لا بد من العمل في تأن، لكن بلا توان. لا بد من حسم أمر الزيني وإلا أصبح تاريخ البصاصين كله مهددا. استدعى كبير الشعراء والمغنين في مصـر، إبـراهيم بـن السـكر والليمون، إبراهيم من أخلص مستصـنعيه، يشـرف علـى الشعراء في المقاهي، وأصحاب الربابة. المنشدين في الموالد

والأذكار، كافة ما يقولونه من المواليا والدوبيت والأراجوزات والسير، كل ما ينشد لا بد أن يقره إبراهيم بن السكر والليمون، يحذف منه ما قد يراه مخلا بأصول الديانة والأخلاق، ما فيه من تعريض بوجيه كبير أو أمير من أمراء الدولة، إبراهيم يجيء إلى زكريا يوم الثلاثاء من كل أسبوع، يحكي له أخبار المغنين والمنشدين، أحوالهم وما يدور بينهم، وما ينتويه كل منهم. ما يشرع فيه من أمور تخصه هو أو تتعلق بالمغنى والطرب. يسخر زكريا في سره. لا يخطر هذا ببال الزيني، يستمع الناس إلى الشعراء في المقاهي. يرون سيف بن ذي يزن ينبش الأرض بحثا عن كتاب النيل. ترتعش القلوب حبا لذات الهمة، يتابعون أخبار البرامكة مع بني العباس. أبو زيد ودياب والزناتي خليفة. سليمان وكيف تحكم في الجان. استشهاد الحبيب النجيب في كربلاء. لا يدري إنسان أن ثمة خيطًا يربط كل أرباب المغاني والمنشدين والقصاصين في مصر بعضهم إلى بعض. خلا زكريا إلى إبراهيم بن السكر والليمون طلب منه إعداد حكاية تروى على الربابة. عن رجل لا أصل له ولا فصل نزل عليه الجاه فجأة. فادعى أنه سينشر العدل بين الناس وطلب

أن ينشدها الليلة أربعة منشدين في دكان "لانضي"، "دكان البهجوي" بالحسينية، ودكان "يونس" بالفسطاط، ودكان "أبو الغيط" في بولاق، الدكان الأول والثاني من أكبر دكاكين الحلبة والجنزبيل والنراجيل في مصر وروادهما من ميسوري الحال، ويبدأ شرب الكيف فيها بعد العشاء، أما الثالث والرابع فشأنهما ضئيل وروادهما من أسافل القوم، جلهم من الفعلة، بعد يومين تنتشر الحكاية في عشرة دكاكين، في أحياء مختلفة من القاهرة، نعم بعد أسبوع لتصبح حديث الناس ويمكن الاستعانة بالبصاصين المندسين بين البشر لشرح وتفسير ما تتضمنه الحكاية لو تاه مغزاها عن البلهاء، غادر إبراهيم بن السكر والليمون بيت زكريا، قام، نزل إلى الحديقة، إنه الآن أكثر نشاطًا، يفكر بسرعة، تتدافع إلى ذهنه الخواطر، يذكر عشرات الأسماء، المواضيع، يضرب راحته بقبضة يده، يميل ليشرب جرعة من ماء الورد المخفف، يفاجأ بخواطر لم يحلم بورودها قط، ينسى روحه تماما، تولد مشاريع لا يمضي وقت طويل حتى تتحقق، إنه لا يغفل التفاصيل، أدنى ما يخص المشروع، كافة ظروفه وأحواله، بعد انصراف إبراهيم بلحظات، في غمرة نشاطه طلع إلى



غرفة امرأته زينب، احتضن يس، رفعه، حمله فوق كتفـه، حبا أمامه على أربع، قلد أصوات الشاه والحمار، كاد يرمي روحه في الفراغ مرحا ونشوة عندما علت ضـحكات يـس، ضحكات صغيرة كأنها قرقرة نرجيلة نشوى، دخانها نعناع، وريحان وبلسان، فجأة أسنده إلى يدي أمه، نـزل مسـرعا، فارق ولده، لم تندهش زينب، تعودت منه كل غريب، أرسل في طلب المعلم عوض المعروف بين العامة "بـابن كيفـه" لإدمانه الحشيش وطول لسانه وحبه الشديد للنكـاح، جـاء، وقف صامتًا، ينتظر ما يقوله زكريا، فهو من مستصـنعيه، زكريا سروره زائد عن الحد، هل يدرك الزيني أن رجـالا كهؤلاء رهن إشارتي، يتبعونني؟ ربما بدوا في نظره تافهين لا شأن لهم، لكن ما أعظم خدماتهم، جاء المعلم "ابن كيفـه" ضخما عريضا، صوته كالنعير، مع هذا بدا مرتجفًا، عنـدما رآه زكريا هجم عليه، احتضنه مقبلا، حار الرجـل، أيـرد القبلة أم يقف ساكتا في حضرة كبير بصاصي السلطنة، تردد لحظات أدرك بعدها أنه لو رد التحية الآن لبدت باردة، أخذه زكريا، مشيا إلى مقعد رخامي تحت نخلة عالية كسى أسـفل جذوعها بألواح رقيقة من نحاس أصفر براق، سأل زكريـا

عن أولاد المعلم، وحال حريمه، هل تصالح علـى امرأتـه الثانية التي أغضبها منذ أربعة أيام وهجرته إلى بيت أمها أم مازالت الفرقة بينهما، قال بسرعة، أنه سمع بعزم المعلم على طلاقها، هدأ صوته، تراجع برأسه، ألا يوجد عندك حل غير الطلاق يا معلم؟ أنت تعرف، أبغض الحلال عند ا   الطلاق، لكنك لو أصررت فلا يمكنني الإشارة عليك بأمر آخر. لـم يخف المعلم دهشته وخوفه أيضا. زكريا يعلـم كـل كبيـرة وصغيرة. غرق في خجل عندما مال عليه زكريا ضـاحكًا. بيني وبينك الحق عليك أنت. يا معلم أنت لا تعطيها حقها كما يجب. زوجتك الصغيرة الأخيرة أخذت وقتك كله ... لا يـا معلم. لا بد من العدل. العدل مطلوب هنا ... آخر مرة ذهبت إليها متي ... آه ... متى؟ أخبرك أنا، منذ شهرين وأسـبوع، أنت رجل تفهم الدنيا وتزنها على طرف أصـبعك، وتلقـي العيب عليها! تعاظم خجل الرجـل. انقلـب نعيـره همسـا وحشرجة تبدو منهما كلمتان. معك حق، معك حق، فجأة قال زكريا: مهمة صغيرة جدا أتمني إتمامها. غمز بعينه. فـرد أصابعه، يثنيها واحدا وراء الآخر كلما ذكر أمرا أو مطلبـا، يضيق المعلم عينيه، يصغي، تروح التفاتة منه هنا أو هناك،

صوت زكريا هادئ، كأنه يطرق أي باب للحديث، قد تهـيج روحه بألف سبب وسبب، لكنه إذ يبدأ الحديث تصبح لهجتـه منبسطة كلفظة "صباح الخير" حتى لو تناول أخطر الأحداث وأكثرها تعقيدا، ما يريده الآن مجموعـة أقـوال وشـائعات وأحاديث معينة، تنتقل بين الناس بخفة ويسر، أصغى المعلم، قال "بسيطة لك علي ألا أجعل حديثًا على لسان الخلق إلا ما تريد" تضيق عينا زكريا "لو خرج ما جـرى بينهمـا إلـى مخلوق ..." يسرع المعلم جريئًا في مقاطعته ... " اشـتمني ولا تقل هذا ... " بسط زكريا يده " أعرف ... أعرف " المهم ألا تظهر القصد في حكايتك ورواياتك"، ضرب المعلم صدره براحته "ابن كيفه يعرف شغله ..." ضحك زكريا "تعجبني يا زينة الرجال" قال بعد لحظة: "ولا تنس مراجعة نفسـك فـي الموضوع" تساءل المعلم: أي موضوع؟ ثم تدارك أمره عندما رأى الابتسامة الجانبية على شفتي زكريا "أي وا سـأعمل عقلي يا شهاب ... أعـرف أن أبغـض الحـلال عنـد ا الطلاق" ... يهز زكريا رأسه، يقطب جبينه ... يضيق عينيه وكأن الأمر مفروغ منه "اذهب إليها بقطعة من القماش بشيء من الحلوى. النساء عقولهن كالأطفال" يؤمن المعلم على كلام

زكريا. يتراجع. ينحني محييا. يتبعه مبـروك إلـى خـارج الحديقة. صوته العالي يجيء ملقيا بالسلام. كلما صادف باب أو شرخًا في جدار أو نبتة زرع يلقي عليـه السـلام، الآن يتضح مذاق الشتاء في النهار، يكسب حصى الطرقات بريقًا هينا لينا خفيفًا. النبات الغريب. الطيور حبيسة الأقفـاص لا تكف عن أحاديثها الغامضة. في الليل تخرس. أما الآن فـي النهار فتبوح. يدخل إلى غرفته في الطـابق الأول. أعـدها للمقابلات. رطوبة خفية تسري في الحشايا الوثيرة المحشـوة بريش ناعم. يحلو له أن يخلو إلـى روحـه هنـا. تلتصـق النباتات الخضراء الخصبة بالمشربية من الخـارج. حركـة النبات كل ما يسمع هنا، السـقف عـال منقـوش بالفضـة والذهب، ونقوش أبدعها "الخسرواني الفارسي" بجواره طبق نحاس، يقرعه بيد قصيرة من الجلد. مـرة واحـدة. يجيئـه "مبروك" لو همس سيده باسمه يجيء فورا كأنه يقف الوقـت كله منتظرا لحظات اضطجاعه إلى الوسادة عنـدما تـدور الأسئلة بعقله. كم عدد التقارير التي تكتب الآن لتـدفع إليـه ملخصة في ورقة واحدة؟ ربما يموت إنسان في هذه اللحظة بعينها. هذه اللحظة بالذات. آه انقضت. حلت لحظة غيرهـا.

مات، كم إنسان يذكر اسمه الآن، أي أفكار في ذهن الزيني الآن، الآن تلد امرأة طفلا. ماذا سيصبح بعد ثلاثين عاما بأي أرض يموت؟ ربما يطلق ربان مركب صرخة فزع تنبئ بالمصير المحتوم في قرارة البحر الشرقي الكبير، أحياناً والليل مسدل. يحاول النفاذ بعيني عقله إلى أحشاء الظلام. كم رجلا يعلو امرأة في المدينة الآن؟ أعداد لا أول لها ولا آخر. لحظات كهذه يدرك فيها أنه مهما نفذت بصيرته فسوف تظل أمور ممتنعة عليه. لو يجيء زمان. يعرف بصاصوه كم من الرجال يضاجعون حريمهم، أي أطفال سيسكنون أرحام أمهاتهم، أي طفل منهم سيولد ويكبر، يثير فتنا وقلاقل. لو عرف هذا لمنع الرجال من إتيانهم المرأة التي ستحمل الطفل. هكذا يجتز الشر من جذوره. قبل أن تنبت له جذور. لو أوتي فرعون مصر بصاصا عظيما نفذ إلى حقيقة الطفل الذي ألقته أمه في النهر لما عرفت الدنيا نبي ا موسى. ولنجا فرعون وجنوده من الغرق. يثق زكريا من مجيء زمان يعرف بصاصوه ما يدور في بر الشام وهم جلوس فوق المقطم. إذا قارن أساليبه الحالية. هل تشبه ما استعان به بصاص الدولة الأيوبية. بصاص الأشرف قايتباي منذ ثلاثين

عاما فقط؟ الدنيا تتغير؟ لا يبقى أمر على حاله. زمان بمجرد إمساكهم مذنبا يوسعونه ضربا. ربما زهقت روحه. الآن ... لا يحدث هذا ... موت المذنب آخر مطاب، تبدل عليه الآلام وهو واع حي. لو غشي عليه فهناك من الأساليب ما تجعلـه يفيق. كأنه صحا من نوم عميق أكثر نشاطًا. أمـور كهـذه يجهلها الزيني، وإلا أين نتيجة تعذيبه لسلفه علي بـن أبـي الجود؟ تسلمه منادوه منذ شهر. لم يعلن منـادوه اسـتخراج درهم واحد منه أو تقريره بأي ذنب. قيـل بـين النـاس إن الزيني يجهل طرق تعذيب المحابيس. تهامس بعض الأمراء عن حقيقة ما أشيع حول علي بن أبي الجود، قال الأمير يلبغا الجاشنكير، إذا ما شنع العامة والسوقة على كبير في الدولـة فهل نصدق ما يقال؟ لا يصح هذا أبدا. تجاهله الزينـي. لـم يرد على رسـالته. فيلـذق عاقبـة مكـروه تجاهـل آلاف البصاصين وهم أطراف جسمه. يسمع بهم ويـرى. ويشـط الفكر بزكريا إذ يذكر أن كل إنسان يمشي حاملا ملكين، ملكًا يرصد الحسنات فوق الكتف اليمنى، والآخر يدون السـيئات فوق اليسرى، لا يكفي هذا، إنما ينتظر ناكر ونكير في القبر، يسألان، يستقصيان ويستفسران، ينتزعان الحقيقـة بضـرب

الميت بهراوات ملائكية لا يعرف أبشع من قسوتها. كم عدد الناس في الدنيا؟ لكل إنسان ملكان، هل يوجد أتبـاع لنـاكر ونكير، لو دفن رجلان في وقت واحد، فكيف يسـتجوبانهما؟ كيف يسألان في وقت واحد. ناكر ونكير لا يمكن تواجـدهما في كل قبر، الموجود في الدنيا كلها هو ا سبحانه وتعـالى، يطيل زكريا التأمل، نظام عظيم وترتيب أروع، هكذا تمسك الدنيا كلها فلا تفلت حسنة ولا سيئة، يوما ما سيخلو إلى نفسه ويضع مطلبا مفصلا بما يرجوه للبصاصين، ما يتمنى مجيئه من أساليب، وسائل سحرية تكشف ما يفكر فيـه الإنسـان، أخرى تعيد زمنا انقضى برمته لمواجهة إنسان ينكـر ذنبـا اقترفه، الآن يقوم زكريا، يقطع الحجرة جيئة وذهابا، يقـيس طولها بخطواته، أربع عشرة خطوة يمشيها متمهلا مطرقًـا تهاجمه الخواطر فجأة، يد خشنة تقبض قلبه، هاهو ذا الزيني يبدأ العداء، حتى الآن لم يخط زكريا خطـوة واحـدة لهـدم الزيني وإيذائه، الآن مضت فترة ظن فيها استسلام زكريـا، هنا يبدأ العمل، ولو تمادى السلطان في مساندة الزيني؟ هنـا تضيق عينا زكريا، تسرع خطواته، يصبح طـول الحجـرة عشر خطوات، من الذي ساند الملك المؤيد شـيخ الحمـوي

عندما جاء إلى دست الملك من؟ الزيني لا يعرف، السلطان لا يدري، من الذي دفع به إلى كرسي السلطنة بعد سجنه زمنًا طويلا في خزانة شمائل، في السجن أقسم لو أنه خرج ليهدمن الخزانة البشعة ويقيم مكانها مسجدا تتحدث به الأجيال، وفعلا خرج، هدم خزانة شمائل، أقام مسجدا تفخر به القاهرة الآن، لكن هل يعلم المصلون فيه والفقهاء من الذي ساند الملك المؤيد؟ من السبب في بناء المسجد؟ كتب التاريخ لا تذكر هذا، إنما الأمر محفوظ في ديوان البصاصين، كبير البصاصين هو السبب، كرسي السلطنة ليس بعيدا عن يدي زكريا، من هنا يزحزحه، لو طال العمر بشعبان حتى يقر بما بينه وبين الغوري، لكن الضرورة أوجبت قتله، كان قمرا، لكن لابد للأقمار أن تغرب وتمضي، اليوم سيرسل زكريا في إحضار المشرف على أبراج الحمام الزاجل، نظام دقيق استحدثه يتفاخر به على البصاصين في أنحاء الدول والإمارات، كل حمامة تعرف أي الطرق تسلك، لا تطير فوق بيت فيه إنسان، فوق قافلة في الصحراء، إنما تعبر الخراب إلى أهدافها ولو طال بها الزمن، اليوم ستطير الأسراب، ليعلم المباشرون وأصحاب الإقطاعات ومشايخ

البلاد، حتى العامة من الناس الذين خدعوا في الزيني، أي خطأ أتاه السلطان عندما ولى على أمة الإسلام في مصر رجل لا يعرف له أصل ولا فصل، لم يره أحد يصلي جماعة في يوم جمعة، يظهر العدل، ولا يعرف أحد ما في عقله، أبطأ في استخراج أموال علي بن أبي الجود، ومن يدري؟ ربما شاركه خفية من قبل أن يعرفه أحد في أذية الخلق، ستطير الأسراب إلى بيت الأمير طغلق شادي العمائر، وبشتاك المعروف بين الناس بفول مقشر، فتنة واحدة بين طشتمر وخاير بك لا تكفي، سيعلم طغلق أن بشتاك فول مقشر يحط من شأن المسجد الجديد الذي بناه للسلطان في سوق الشرابشيين. في الوقت نفسه يعرف بشتاك أن طغلق يضحك عليه، يقلده ويلمح إلى بشتاك في التشبه بالأمراء المقربين جدا من السلطان. يقول عنه، هذا رجل محدث نعمة، الآن يبتسم زكريا. خطواته تسرع سينتفخ فم طغلق يرمي زبدا أبيض. يسلط كل منهما مماليكه على الآخر. تضطرب أحوال الناس، ترفع البضاعة من الأسواق. يكثر النهب. يقوم عدد من أشداء البصاصين بخطف عدة أبكار وغلمان، الآن يتوقف زكريا عن الرواح والمجيء يمضي

النهار وادعا يكاد يسمع سريانه في الفراغ. ما أحب الشـتاء إليه. أمسك المطرقة الجلدية. خبط الطبـق النحـاس. مـرة واحدة لها رنين.

مساء الثلاثاء سابع ذي القعدة

نداء

يا أهالي مصر

نوصي بالمعروف وننهي عن المنكر

نعبد ونسجد ونحمد

من أذل كل لئيم متجبر

يا أهالي مصر

البشرى لكم

يأمر مولانا السلطان

بعد اطلاعه على أوفى بيان

رفعه الزيني بركات بن موسى

ناظر حسبة القاهرة والوجه القبلي

وشرح فيه حقيقة الأحوال

وما يمس العباد من الرعية الفقيرة

تلغى الضريبة على الملح

وتطلق يد التعامل فيه

من بعد أن كان حكرا على القلة القليلة

يا أهالي مصر

يأمر مولانا السلطان

بعد أن اطلعه الزيني بركات على حقيقة الحال

برفع احتكار الأمير طغاق للخيار الشنبر

وسائر أنواع الخضار

وأن يبيعه الفلاحون في الأسواق بلا وسيط

حتى تنحط الأثمان

ومن يضبط حارسا أو مملوكًا

من القراصنة أو الجلبان

يتقاضى ضريبة على حمولة خيار أو خضار

عند أي باب من أبواب القاهرة

يشنق بلا معاودة

من نداء طاف به المشاعلية مساء نفس الثلاثاء، سابع ذي القعدة:

يأمر مولانا السلطان

بعد أن أطلعه الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي

على الأحوال

ألا يمشي مملوك ملثما بعد المغرب في الطرقات

وألا يدخل مملوك بسلاحه الحارات

بعد العشاء

***

من نداء غير عادي شهره رجـال الزينـي مسـاء الثلاثاء، سابع ذي القعدة، بين الناس الذين نزلـوا الطرقـات يسمعون بفرحة ما ينشر وما يقال:

بعد الاطلاع على رأي الشريعة

واستشارة أهالي الرأي والمشورة

والبحث فيما مضى وانقضى

يأمر الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي

بإبطال عادة نعي الموتى بدق الطارات

ومن ضبطت تدق طارا على ميت

تشهر بغير معاودة

***

نداء أعقب السابق مباشرة:

خصص الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي

باب من أبوابه

لتلقي المظالم

كل من وقع عليه ظلم

من أي كبير أو صغير ...

فليتوجه إلى الزيني بركات

لاسترداد ما ضاع من حقه

(عنوان رسالة، وصلت إلى دار زكريا بن راضـي، مع رسول خاص، من رجال الزيني):

﴿والتين والزيتُون * وطُور سِينين * وهـذَا البَلـدِ الأَمِين﴾

إلى كبير بصاصي مصر. ونائب الحسبة الشريفة

الشهاب زكريا بن راضي له السلام

***

نداء في ليلة الثلاثاء، نفس الوقت الذي وصلت فيـه الرسالة إلى زكريا:

من الآن فصاعدا

ستعلق فوانيس كبيرة تضيء بالشحم

هندسها وسواها

الأمير طغلق شادي العمائر

بعد استماعه إلى رأي الزيني بركات

متولي حسبة القاهرة والوجه القبلي

على كل باب حارة

تحت كل منزل وقصر

أمام كافة الوكلات

ستعلق الفوانيس الجديدة

وسيقوم رجال الزيني بإضاءتها كل ليلة

وبمعرفتهم

حتى تنام القاهرة آمنة

وحذار أن ينزع مصباح من مكانه

وإلا جوزي وعوقب أصحاب المكان

يا أهالي مصر لن يكلفكم الأمر درهما

فتعاونوا مع ناظر الحسبة الشريفة

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

*****

يأمر مولانا السلطان باستمرار زكريا بـن راضـي نائبا للمحتسب كما كان في كافة وظائفه ويقرن اسمه بلقـب "الشهاب".

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

اهتموا اعتنوا بالفوانيس الجديدة

ومن يضبط مخالفًا لأوامر ناظر الحسبة

شنق بغير معاودة ...

***

من عمرو بن عدوي

إلى مقدم بصاصي القاهرة

تقرير في وصف ما دار وما جرى
بين العامة والناس ليلة الثلاثاء
سابع ذي القعدة ...

أجمع العجائز، وكتبة الدواوين، والقضاة، والمطلعون على حقيقة ما جرى خلال الأزمان الغابرة أن مـا شـهدته القاهرة ليلة الثلاثاء سابع ذي القعدة لم يحدث من قبل قط. لم يعرف مثيله في بلاد آخر. سمعت هذا بأذني مـن مجـاوري الأزهر. وعجائز زاوية الحلوجي وتجار الغورية والباطنية. والحلاقين الجالسين أمام باب المـزينين وزاويـة العميـان. بجامع الأزهر. إذ لم يحدث طواف المنادين من قبـل. كـل نصف ساعة. يتقدمهم طبل. وفي كل مرة ينقلـون أمـرا أو خبرا جديدا إلى الناس. ولكثرة ما قالوه من نداءات لم يكـرر نداء واحد قط مع أن العادة جرت من قبل أن يـردد النـداء السلطاني أسبوعا كاملا خمس مرات يوميا إلا في حالة وقوع حدث مهول، رأيت الزحام عظيما. خرجت الباطنية برجالها ونسائها أجمعين، النساء يطلقن زغاريد وأيد تلوح وحنـاجر تزعق، وتفاوت كلام الناس، وحتى لا أطيل وأكرر، أجمل ما سمعت كما يلي:

أولا: كثر الدعاء بعد النداءين الأول والرابع، للزيني بركات، وكثر الكلام الطيب من سائر الأفواه، خاصة النساء اللواتي رحن يهتفن ويهرجن. ويصحن "أدام ا أيام الزيني" وأجمعن على معرفة الزيني بما يقرص أبدان الناس وأرواحهم من مواجعهم لأنه ليس متعاليا ولا متغربا، إنما يعرف أحوال الخلق، ويقشعر جسمه لذكر المظالم، يأنف تعذيب الإنسان، ويركع الصلوات في أوقاتها، قال الرجل(وهو بائع هريسة متجول، اسمه شمس الرمضاني، ويسكن أول ربع في حارة الروم الجوانية عمره فوق الأربعين، لحيته بيضاء، أعرف مكانه أنه يرى الزيني ينزل متخفيا في النهار والليل يتسمع أحوال الناس، يجس ما يؤلمهم، وأن ا أرسله في هذا الزمان نصيرا للفقراء، وقال إنه يعرف خادما في بيت الزيني بركات يقول أن سيده يبكي طويلا قبل نومه لعلمه تماما أن الليل يرخي سدوله على حزانى مظلومين، الزيني يتعذب كثيرا بسبب هذا، يطلب من ا السماح في الدنيا والآخرة لأنه لا يمكنه إزالة كل ما يقع من مظالم، وأشيع بعد النداء الرابع طلوع الزيني بركات إلى السلطان وخلوه به فترة طويلة، قال فيها للسلطان " أنت

مسئول عن هذه الرعية أمام ا تعالى يوم القيامـة وسـوف تحاسب أنت وأحاسب أنا على كل ذنب ارتكـب علمنـاه أو جهلناه، أين نروح يومها من جبروته، أصغى السلطان طويلا إليه، كان حديث الزيني مشفوعا بآيـات قرآنيـة وأحاديـث نبوية، ونصوص من متن لا يجيدها إلا أفقه العلمـاء (قـال التجار إنه يحفظ القرآن كله وله شرح مخطوط لم يطلع عليه أحد)، تحدث الزيني عن الأمير شاربك، واحتكاره للملح فـي بر مصر كله، وأنه الوحيد الذي يتجر فيه، إذا ضبط إنسـانًا غلبانا يبيع بنصف درهم ملحا يعاقبه بقطع ذراعـه اليمنـى، واليسرى إذا كانت اليمنى قطعت من قبل أو ساقه اليمنى إذا سبق قطع الذراعين، واليسرى إذا سبقتها اليمنى، أو يحضـر ابن المخالف أو أخاه أو أمه أو أباه إذا وجد بـلا أطـراف، احتكار شاربك للملح جعله يزيد في سعره كما يشاء، أحيانًـا يعتدل مزاجه فينزل بالثمن إلى الحضيض، إذا شط مزاجـه وغضب شهر المناداة برفع السعر، هذا لا يضر إلا بالرعية نفسها، قال الزيني: الناس لا يجهرون عندئذ إلا بالدعاء على السلطان نفسه وإظهار النقمة عليه والغيظ منه، قال الزينـي الأمر أدهى وأفدح خطرا بالنسبة للخيار، لأن الأمير طغلـق

حرج على أحد المتاجرة فيه أو بيعه أو شرائه إلا عن طريق نوابه، وأكد التجار أن الزيني أجرى الدمع من عيني السلطان حتى أطلق السلطان يده فيما يشاء، بشرط ألا تنخفض ماليـة البلاد درهما واحدا، السلطنة أحوج ما تكون للفلـوس هـذه الأيام بعد انقطاع عديد من الموارد، أبدى الزيني مقدرة على تحقيق هذا. بعد نشره النداءات تعالت الشتائم ضـد الأميـر طغاق ولو طالته الأيدي لقطعته حتتا، كما جهر البعض بهذا، لعن العامة أجداد الأمير شاربك وكثر الدعاء عليه، وحـدث أن رمي بعض الفقراء نقوطًا للمنـادين إظهـارا لفـرحتهم وبهجتهم.

ثانيا: سمعت بأذني ثلاثة رجال يتحدثون في قهـوة (لانضي) " أحدهم أعرفه واسمه فتوح الإسكندراني من سكان باب الشعرية، عنده معصرة زيوت، وله من العمـر خمسـة وخمسون عاما، يقولون كلاما له طعم آخر، إذ أبدى فتـوح الإسكندراني شكا وريبة في نداءات الزيني، قال فتوح، الأمر لن يستمر على ما هو عليه، السلطان لن يسـمح باسـتمرار الأمور هكذا، إلا ...إلا إذا احتوى الأمر غرضا يتفـق مـع مصالحه وبذل جهدا في إقناع الحضور أكثر من إشارة يديه،

بادرت إلى نكشه محاولا استخراج ما في رأسه ولم يخـرج حديثه مع صحبه عن هذا، وفي مقهى آخر صاح رجل اسمه أبو غزالة في مصبغة بحارة الميضة، حقًا ... ومتى كان أحد الحكام يظهر العدل؟"

ثالثًا: قرب سوق التربيعة حيث يكثر تـردد النسـاء على محلات التجار الشوام هناك، تساءل الرجل عن مغـزى منع النساء من دق الطارات حزنًا على المـوتى؟ أجمعـت آراؤهم على حق الزيني بصفته محتسبا في منع هذه البدعة، لكن الأمر الأخطر من هذا، الأكثـر فداحـة، مـا يخـص الفوانيس، قال عبد الحميد رئيس طائفة السقائين في القـاهرة (ومجلسه عند هؤلاء التجار) قال هذه بدعة ما يصح نشرها في أمة الإسلام، وقال أحد المجاورين في نفـس الموضـوع (اسمه جاد ا ، صعيدي يسكن رواق الصعايدة) يريد الزيني إدخال بدعة جديدة تنسب إليه، قال آخر ربما أخذت البدعـة البركة من الناس، كثر الحديث عن تعليق المصـابيح، قـال آخرون، ربما منع هذا هجوم المنسر في الليل، وأجيب على هذا بسؤال، هل يمنع الضوء هجوم المنسر؟ يعني إذا قصـد المنسر أو المماليك الهجوم على حارة من الحـواري فهـل

يمنعهم هذا؟ سيكسرون المصابيح وينفذون ما بأغراضـهم، قال اليهود مادمنا لن ندفع درهما لا بـأس، وقـال بعـض المشايخ، لم يظهر من الزيني إلا الخير فلا بد مـن احتـواء الأمر الجديد على نفع، وبعد انتهاء المنادين مـن الطـواف خرج رجال الزيني طلعوا فوق سلالم خشبية يدقون المسامير الكبار في الجدران، يربطون إليها الفوانيس، ثـم يشـعلونها وعند انبعاث الضوء منها يهلل الجميع ويزعقون " هيـه" ... دامت الفوانيس، " هيه عاشت الفوانيس " الفوانيس، الفوانيس ولم تنم القاهرة في هذه الليلة بسبب ذلك ...

رابعا: أثناء دخولي جامع الأزهر عند الفجر، رأيت طالب العلم الأزهري، سعيد الجهيني (ذكرته مـرات مـن قبل) يجلس بين جمع من الطلبة، كان يكثر من هز قبضته، على وجهه غيظ، وعدم رضاء وكمد وحقد دفـين، وكلهـم مصغون إليه، ألقيت السلام، وروعت إذ وجدته يشـير إلـى أمر لم يتردد على ألسنة الناس قط، لم أسمعه من مخلـوق، سعيد الجهيني يعلق على مـا جـاء فـي النـداء الخـاص بالفوانيس بإقرار الشهاب الأعظم زكريا بن راضـي نائبـا للمحتسب، تركز كلامه في الآتي:

١- وقوع قهر على الزيني بركات بن موسى من ناحية الشهاب وأعوانه حتى يتم إقراره نائبا للحسبة.

٢- إنه عليم بالزيني بركات وتأكده عن عدم رضائه عن القرار.

٣- كل ما أذيع من نداءات متتالية الغرض منه شغل الخلق عن أخطر ما في الأمر وهو إقرار الشهاب الأعظم وإعطاء الشرعية لوظائفه.

٤- قال بالحرف الواحد الجمل التالية:

" بدأت الأمور تضطرب "

"هذا فأل سيئ"

"اللهم نجنا واسترنا"

وحتى كتابتي هذه لا يكف عن التنقل بين المجاورين يجهر بنيته في الطلوع على شيخه أبي السعود، شارحا له الحال، طالبا تدخله في الأمر، وهو مستمر في سب الشهاب الأعظم بأنتن الألفاظ، وأقبحها.

خامسا: خطب بعض الوعاظ، وحطوا في حق الفوانيس، من فوق منابر المساجد، وسخر الشعراء في المقاهي من الأمر الجديد، وألفوا شعرا قالوا فيه:

" إلحق يا متعوس، وإلا علقوا لك فانوس " ...

نداء

الجمعة، عاشر ذي الحجة، ٩١٢ هـ

يا أهالي مصر

نأمر المعروف وننهي عن المنكر

اليوم، قابل السلطان

قاصد ملك الحبشة

وقاصد ملك البنادقة

أنعم على كل منهما بخلعة

كاميلية محمل. بفرو سمور

يا أهالي مصر

وقعت قطعية مفاجئة

بين الأمير بشتاك فول مقشر

والأمير طغلق شادي العمائر

لأن البشتاك شنع على المئذنة

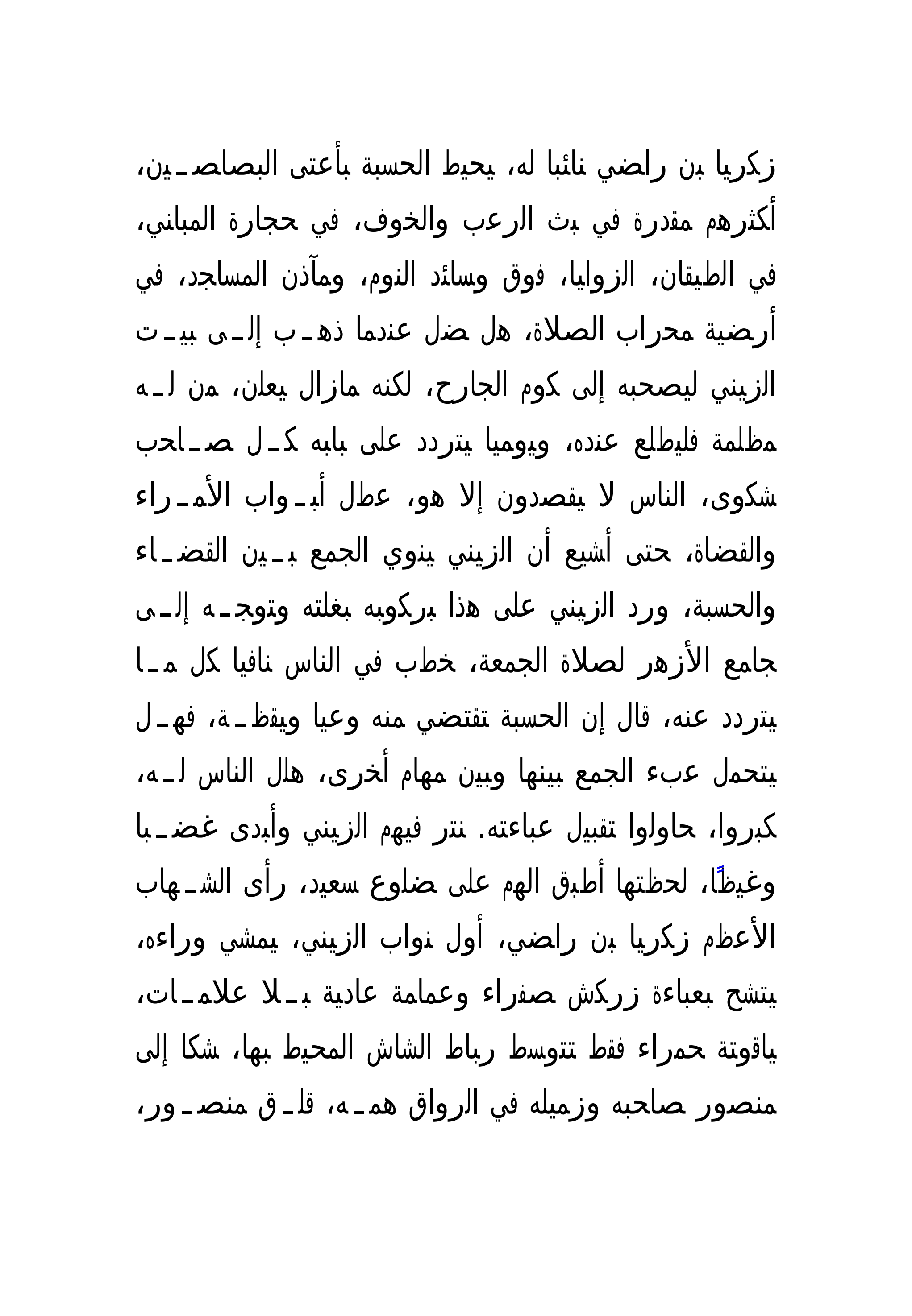
الجديدة في جامع السلطان

قال، بها بعض الميل

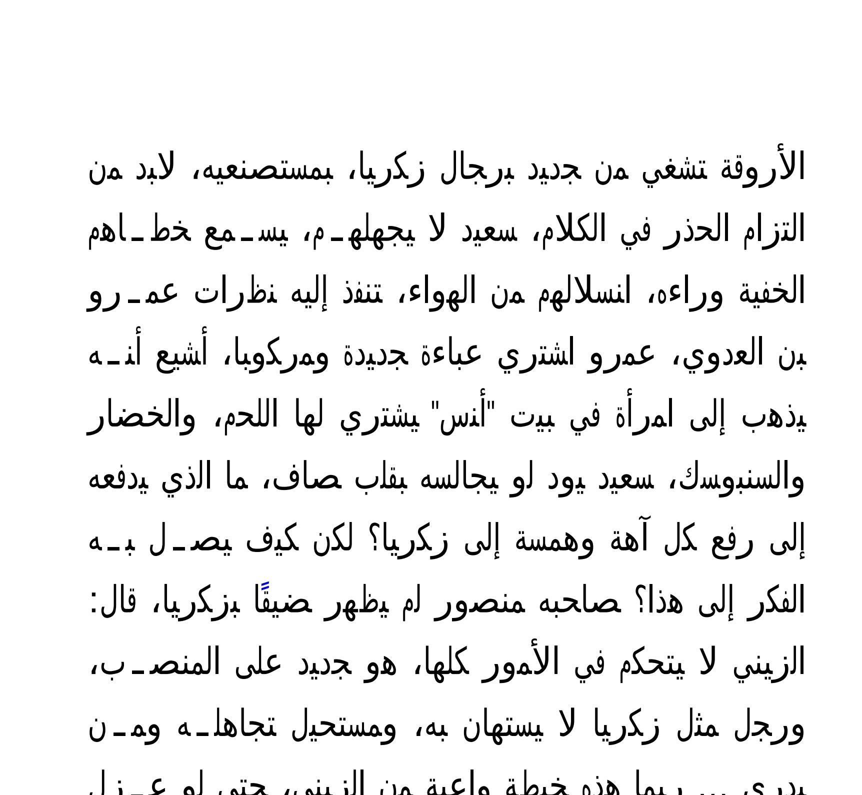
***

سعيد الجهيني:

هذا زمان الحيرة وسيادة الشك وفناء اليقين. تغيب التفاصيل، تطغى رغبة. آه لو هج في بيداء لا أول لها ولا آخر، لا عرض لها ولا طول. ينحل شعره يبلى جسمه، ربما عرف ما غاب عنه. ما هجره. ما كساه السحاب، ما تقنع بالضباب، كيف يفنى عمره، يذوب وجده في عشق لا أمل فيه، زاده ... شعوره بوجودها في بيت لا يطرقه كل أسبوع إلا مرتين، إنما يتمنى رؤيتها، تطلع الشمس من الشرق، تنزل الغرب، كم تبعد السماء الأولى عن الثانية، عن الثالثة؟ هل تقاس المسافة بالطول أم الزمن؟ كم تبعد النجوم عن الأرض. وأي سلاسل ضخمة تربطها، تمنعها من السقوط، وهذه النجوم التي تهوي أهي أرواح شريرة مطرودة من الجنة؟ تبدو لحظات في العتمة. تضيع فلا تصل الأرض ولا تستقر في سماء، حتى ذيول اللهب التي تسحبها تمحى كحلم ثقيل، كيف لا تطغى البحار على اليابسة؟ كيف يمتلئ النيل ويفيض ثم ينحسر من جديد؟ عندما ولد الزيني بركات هل درى بما كتب في لوحه المحفوظ؟ يوما سيصبح محتسبا؟ سينتظره رجل اسمه زكريا، كيف، كيف، كيف يقبل استمرار

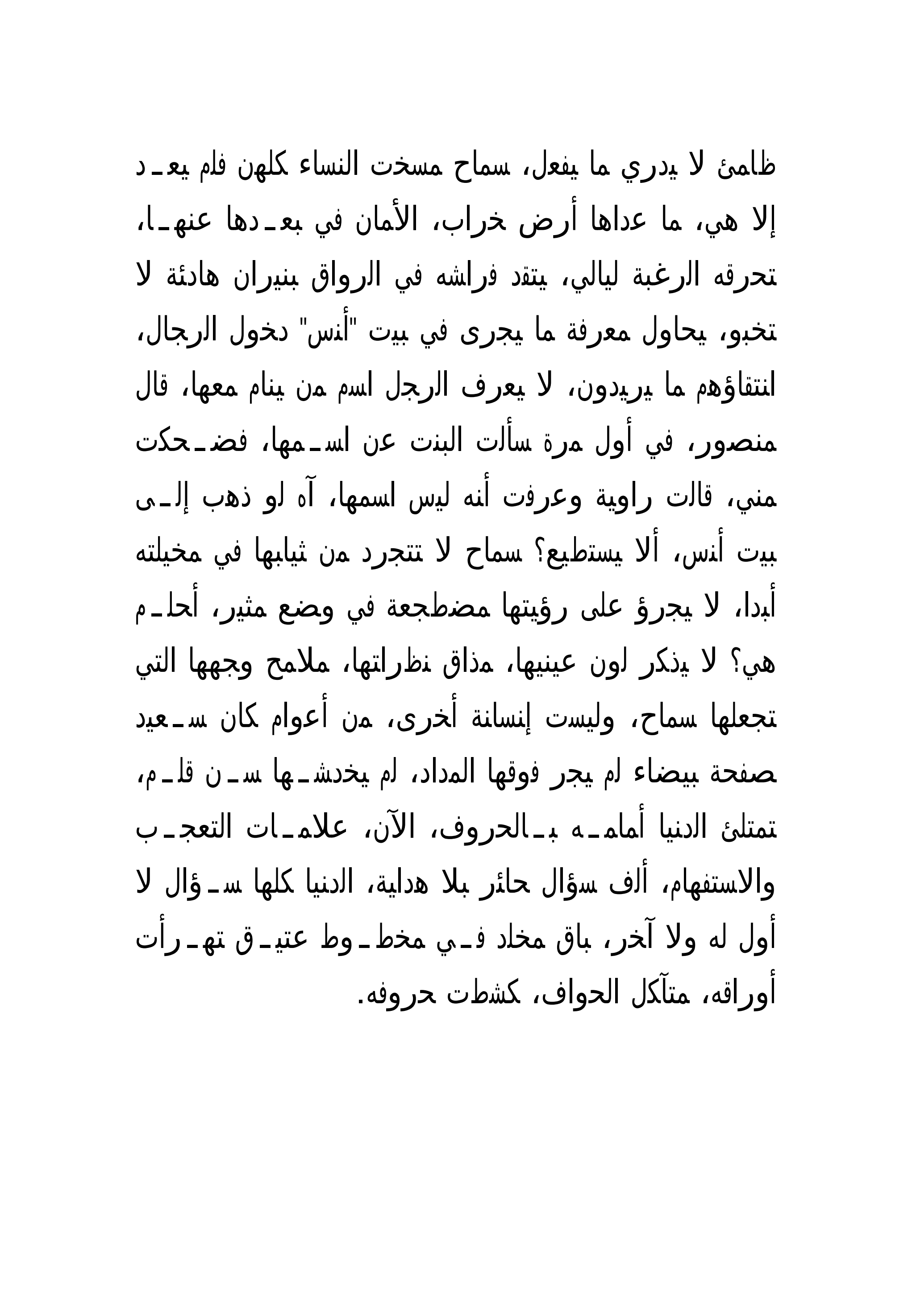


زكريا بن راضي نائبا له، يحيط الحسبة بأعتى البصاصـين، أكثرهم مقدرة في بث الرعب والخوف، في حجارة المباني، في الطيقان، الزوايا، فوق وسائد النوم، ومآذن المساجد، في أرضية محراب الصلاة، هل ضل عندما ذهـب إلـى بيـت الزيني ليصحبه إلى كوم الجارح، لكنه مازال يعلن، من لـه مظلمة فليطلع عنده، ويوميا يتردد على بابه كـل صـاحب شكوى، الناس لا يقصدون إلا هو، عطل أبـواب الأمـراء والقضاة، حتى أشيع أن الزيني ينوي الجمع بـين القضـاء والحسبة، ورد الزيني على هذا بركوبه بغلته وتوجـه إلـى جامع الأزهر لصلاة الجمعة، خطب في الناس نافيا كل مـا يتردد عنه، قال إن الحسبة تقتضي منه وعيا ويقظـة، فهـل يتحمل عبء الجمع بينها وبين مهام أخرى، هلل الناس لـه، كبروا، حاولوا تقبيل عباءته. نتر فيهم الزيني وأبدى غضـبا وغيظًا، لحظتها أطبق الهم على ضلوع سعيد، رأى الشـهاب الأعظم زكريا بن راضي، أول نواب الزيني، يمشي وراءه، يتشح بعباءة زركش صفراء وعمامة عادية بـلا علامـات، ياقوتة حمراء فقط تتوسط رباط الشاش المحيط بها، شكا إلى منصور صاحبه وزميله في الرواق همـه، قلـق منصـور،



الأروقة تشغي من جديد برجال زكريا، بمستصنعيه، لابد من التزام الحذر في الكلام، سعيد لا يجهلهـم، يسـمع خطـاهم الخفية وراءه، انسلالهم من الهواء، تنفذ إليه نظرات عمـرو بن العدوي، عمرو اشتري عباءة جديدة ومركوبا، أشيع أنـه يذهب إلى امرأة في بيت "أنس" يشتري لها اللحم، والخضار والسنبوسك، سعيد يود لو يجالسه بقلب صاف، ما الذي يدفعه إلى رفع كل آهة وهمسة إلى زكريا؟ لكن كيف يصـل بـه الفكر إلى هذا؟ صاحبه منصور لم يظهر ضيقًا بزكريا، قال: الزيني لا يتحكم في الأمور كلها، هو جديد على المنصـب، ورجل مثل زكريا لا يستهان به، ومستحيل تجاهلـه ومـن يدري ... ربما هذه خبطة واعية من الزيني، حتى لو عـزل زكريا فهو خطر كامن كالحفرة المموهة، يمسـك بأسـرار السلطنة والأمراء فهـل يصـطدم بـه الزينـي أم يضـمه ويحتويه ... لم يقل سعيد حرفًا، أي أمور أصـح، رأى كـل أمر في الدنيا يسلك طريقًا لا حيدة عنه، طريقًا ملتويا، عليـه ضباب، دخان كثيف. منصور ينتحـي ركنـا فـي مقهـى "لانضي" يمد يده، يسوي الدخان فوق حجر الجوزة، يغـرق في لب الدخان، خلاصة النجاة من الأحزان، حبيبته النائيـة

تدنو، يفتح ذراعيه، يحتويها، تتقرب إليه، تجثو عند قدميـه، يهاجر إلى أرض واق الواق، يغزو جـزر النسـاء، يـرى الزيني رسولا منزلا. وزكريا تابعه الأمين، يحمـي الأمـن، يقصى البلاء، يدفع الفتنة، منصور يقول قبل هجرته إلى دنيا النسيان، لا أمر يعنيني فلماذا أشغل نفسي، كتبت علي سنين أعيشها في الدنيا، والدنيا فانية، فلأنهل من ينبوع اللذة. أسلك طريق السلامة، ولا أكون خفيف العقـل، فأتشـنج لحظـة، وأتقاص لحظات، يدعو سعيد إلى رفقته فهو يشعر بالوحـدة لحظة هجرته إلى عالم الغيب الأزرق حيث الحور والولدان، يضيق سعيد، يمضي خارج دكان "لانضي" الطرقات تضيئها الفوانيس، حتى الآن لم يحسم أمر الفوانيس، فتنة توشك على الاندلاع بسبب الفوانيس، أهو مع تعليق الفوانيس أم ضده؟ لا يدري، لم يطلع إلى مولاه منذ أربعة أيام، آه لو يرحل إلـى الصعيد، يرمي عن كتفيه ما ناءتا به منذ سنوات مجيئه إلـى الأزهر، آه لو يمضي إلى جامع الحسين، يشد عمـره إلـى الباب الأخضر، لا يفارق الحبيب، يتلـو الأذكـار ويناجي الشهيد، آه لو يمضي إلى سماح، ينزع خمارها، يضمها كنزا غاليا وطلسما وشعرا لم ينشد مثله وجنة ضائعة، لكنها سراب



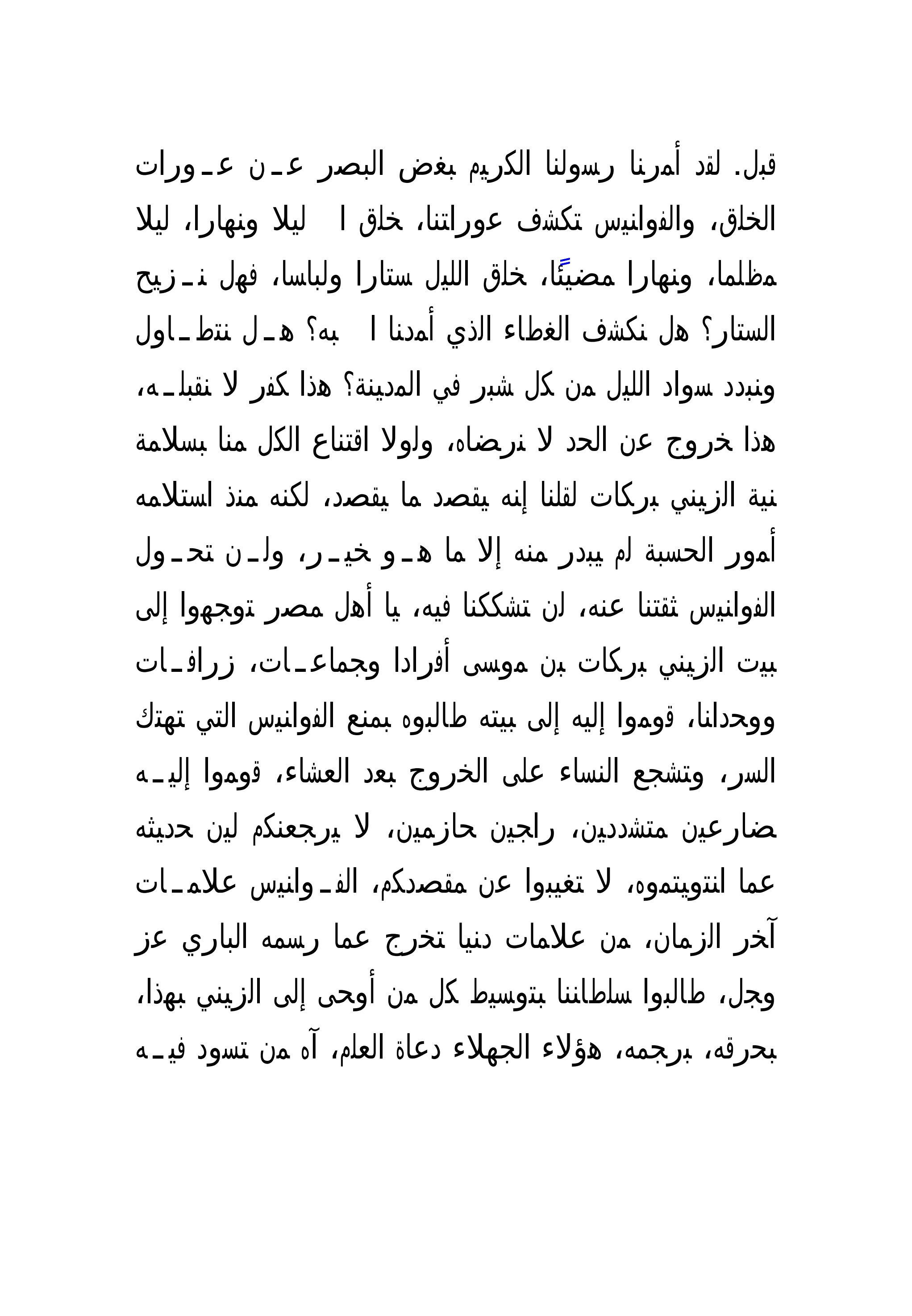
ظامئ لا يدري ما يفعل، سماح مسخت النساء كلهن فلم يعـد إلا هي، ما عداها أرض خراب، الأمان في بعـدها عنهـا، تحرقه الرغبة ليالي، يتقد فراشه في الرواق بنيران هادئة لا تخبو، يحاول معرفة ما يجرى في بيت "أنس" دخول الرجال، انتقاؤهم ما يريدون، لا يعرف الرجل اسم من ينام معها، قال منصور، في أول مرة سألت البنت عن اسـمها، فضـحكت مني، قالت راوية وعرفت أنه ليس اسمها، آه لو ذهب إلـى بيت أنس، ألا يستطيع؟ سماح لا تتجرد من ثيابها في مخيلته أبدا، لا يجرؤ على رؤيتها مضطجعة في وضع مثير، أحلـم هي؟ لا يذكر لون عينيها، مذاق نظراتها، ملامح وجهها التي تجعلها سماح، وليست إنسانة أخرى، من أعوام كان سـعيد صفحة بيضاء لم يجر فوقها المداد، لم يخدشـها سـن قلـم، تمتلئ الدنيا أمامـه بـالحروف، الآن، علامـات التعجـب والاستفهام، ألف سؤال حائر بلا هداية، الدنيا كلها سـؤال لا أول له ولا آخر، باق مخلد فـي مخطـوط عتيـق تهـرأت أوراقه، متآكل الحواف، كشطت حروفه.

" قسم خاص "

به " نتف " مما قيل بشأن واقعة الفوانيس

١- جزء من خطبة الجمعة التي ألقيت من فوق منابر المساجد، آخر ذي القعدة ٩٠٩ هـ، وهذا الجزء قاله الوعاظ كلهم على اختلاف مذاهبهم.

" يا أهل مصر، يقول رسول ا صلى ا عليه وسلم، لا يستحي العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، نقول هذا لمن أحلوا تعليق الفوانيس، أمام البيوت والدكاكين يدعون العلم بالتواريخ والأحداث التي جرت وينقصهم القول بما سيجيء هنا ندخلهم في زمرة الكافرين، قالوا سبق لعديد من الأمم أن علق حكامها الفوانيس في شوارعها، فهل ذكروا لنا مثلا بعينه؟ أهل كان رسولنا يمشي على هدى الفوانيس؟ وفي رحلتي الصيف والشتاء إلى الشام واليمن هل أضيء طريقه بفوانيس صنعها بشر، نقولها عالية. نقولها بلا حرج، نقولها ورقابنا على أيدينا لهؤلاء الذين يدعون العلم بالحكم التاريخية، والأحاديث النبوية، والمتون الخفية. والأصول المرعية، وهم جهلاء يخفون جهلهم، نقولها ولا نهاب، لا نخاف، لا نخشى، يا أهل مصر لم يحدث تعليق الفوانيس من



قبل. لقد أمرنا رسولنا الكريم بغض البصر عـن عـورات الخلق، والفوانيس تكشف عوراتنا، خلق ا ليلا ونهارا، ليلا مظلما، ونهارا مضيئًا، خلق الليل ستارا ولباسا، فهل نـزيح الستار؟ هل نكشف الغطاء الذي أمدنا ا به؟ هـل نتطـاول ونبدد سواد الليل من كل شبر في المدينة؟ هذا كفر لا نقبلـه، هذا خروج عن الحد لا نرضاه، ولولا اقتناع الكل منا بسلامة نية الزيني بركات لقلنا إنه يقصد ما يقصد، لكنه منذ استلامه أمور الحسبة لم يبدر منه إلا ما هـو خيـر، ولـن تحـول الفوانيس ثقتنا عنه، لن تشككنا فيه، يا أهل مصر توجهوا إلى بيت الزيني بركات بن موسى أفرادا وجماعـات، زرافـات ووحدانا، قوموا إليه إلى بيته طالبوه بمنع الفوانيس التي تهتك السر، وتشجع النساء على الخروج بعد العشاء، قوموا إليـه ضارعين متشددين، راجين حازمين، لا يرجعنكم لين حديثه عما انتويتموه، لا تغيبوا عن مقصدكم، الفـوانيس علامـات آخر الزمان، من علامات دنيا تخرج عما رسمه الباري عز وجل، طالبوا سلطاننا بتوسيط كل من أوحى إلى الزيني بهذا، بحرقه، برجمه، هؤلاء الجهلاء دعاة العلم، آه من تسود فيـه

الفوانيس اللهم قنا شره، اللهم أبعدنا عنه، اللهم لا تمد أجلنـا حتى نراه.

(وهنا تعالى بكاء الناس فـي الجوامـع، وزعـق بعضهم، اللهم اهدم الفوانيس، اللهم اسحق الفوانيس)

فتوى قاضي قضاة مصر:

" الفوانيس تذهب بالبركة من بين الناس "

***

أول محرم ٩١٣ هـ

قاضي الحنفية يقول رأيا مخالفًا:

الفوانيس تطرد الشياطين. وتنير المسالك في الليـل للغرباء، وتمنع مماليك الأمراء والمنسر من الهجوم في الليل على الخلق الأبرياء.

***

قاضي القضاة بالديار المصرية:

" خرج أحد كبار العلماء عن الحد، خالف الأصول، ونفى الفروع، بانحيازه إلى صف الفوانيس"

***

" الأمراء الكبار يطلعون إلى القلعة "

" مولانا السلطان، تسبب تعليـق الفـوانيس بجميـع الحارات في تشجيع حريم العامة على النزول بعـد العشـاء والتجول في الطرقات، والسهر أمام الربوع والأسواق وهـذا مخالف للحشمة. وخادش للحياء " **" خاير بك "**

***

" العيال الصـغار لا يرجعـون إلـى بيـوتهم الآن مبكرين ... إنما يبقون في الشوارع ساعات ينشدون ويغنون، وأحيانًا يقلسون ويرجمون مماليكنا بالحجارة، ويتبادلون قبيح الألفاظ "

" قوصون "

***

" مثل هذا الأمر لا يبتدعه إلا إنسـان يبغـي نشـر الفتنة ... والفجور "

" طغاق "

" إنارة المدينة، وسهر الأهالي على ضوء الفـوانيس أمر جارح للهيئة، ومهين للسلطنة".

" قنبك "

الزيني يرسل رجاله أول الليل، يطلعون فوق السلالم الخشبية لينيروا الفوانيس وينظفوها، كما يقـول، لكـنهم يـا مولانا ويا أمراء، لا يقومون إلا بالتجسـس علـى الخلـق، وعلينا، يهتكون حياة الناس داخل بيوتهم "

" طشتمر "

***

" هذا حق ... هذا تمام ... "

" كافة الأمراء "

***

" قاضي القضاة عبد البر ":

" سجل قاضي الحنفية سابقة خطيرة لم تحـدث مـن قبل، خالف رأينا، قال ... لا ... وهذا حدث مهول ".

***

رواق الصعايدة:

أبدى بعض المجاورين استحسانا لرأي قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة، قالوا إن رجلا مثله لا يمكن أن يشـغل روحه بالفوانيس إلا إذا عظمت أهمية الأمر ليس كما يتهيـأ للبعض، قال سعيد، تبالغون في الأمر، أشار إلى الطرقـات الكبيرة في مدينة القاهرة، وإضاءة دكاكينها طوال الليل، هنا قال أحد المجاورين:

كلام غير صحيح، الدكاكين تغلق بعـد العشـاء ولا ينتصف الليل إلا والكل في بيته نيام، علا صـوت سـعيد، أيكره أحدكم إضاءة الحوارى والبيوت حتى يأمن الناس على أرواحهم؟ ما يريده الأمراء أن تبقى العتمـة حتـى يعبـث مماليكهم كما يريدون، علا صوت عمرو بـن العـدوي ... بالضبط ما يقوله سعيد صحيح، قال مجاور شامي" أنت يـا سعيد تخالف دائما" قال مهتاجا، لا أخالف إلا ما أراه خطـأ، تساءل مجاور نوبي، وهل يخطئ قاضـي القضـاة؟ مـال منصور إلى سعيد، يخالفه الرأي ما الداعي لبدعة الفوانيس؟ ألا يوجد من أمور الناس ما هو أهم منهـا وأجـدر بعنايـة الزيني واهتمامه؟ ثم بصراحة يا سعيد هذه البدعة لا تزيـد

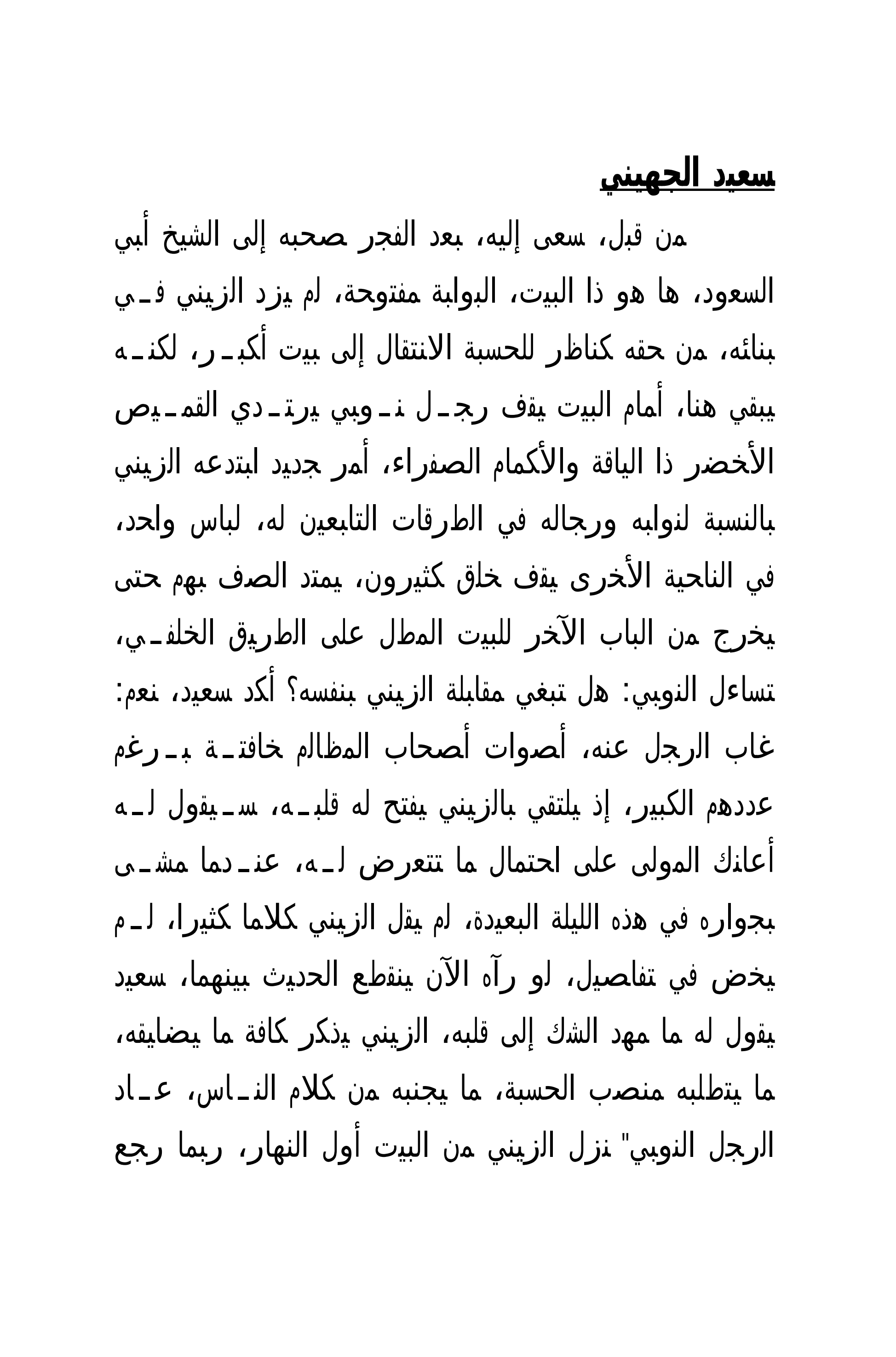
الأمر إلا فسادا، أطرق سعيد، من يدري، ربما تضمنت بدعة الفوانيس أغرضا تغيب عن عينيه هـو، تسـاءل المجـاور الشامي، الناس تقيم الدنيا وتقعدها، لكن هل جـرؤ كبيـر أو صغير على إزالة الفانوس المعلق أمام داره، صاح مجـاور من منفلوط " يهابون الزيني" قال عمرو " بالضـبط" سـخر منصور، أيخشاه أتابك العساكر نفسه؟ قرص سـعيد طـرف شفته العليا، آه لو يقول لهم، بدلا من إنهاك أرواحكم أرقبـوا ما يفعله زكريا، كيف فرض نفسه على الزيني، لكن ... أحقًا فرض نفسه، من يدري، ربما جاء المنصب برضاء الزيني، قال عمرو بن العدوي ولكن الحكاية ليست حكاية فوانيس ... أبدا ... "

***

هتف الخلق في الجوامع والطرقات

لعن ا الفوانيس

لعن ا الفوانيس



سعيد الجهيني

من قبل، سعى إليه، بعد الفجر صحبه إلى الشيخ أبي السعود، ها هو ذا البيت، البوابة مفتوحة، لم يزد الزيني فـي بنائه، من حقه كناظر للحسبة الانتقال إلى بيت أكبـر، لكنـه يبقي هنا، أمام البيت يقف رجـل نـوبي يرتـدي القمـيص الأخضر ذا الياقة والأكمام الصفراء، أمر جديد ابتدعه الزيني بالنسبة لنوابه ورجاله في الطرقات التابعين له، لباس واحد، في الناحية الأخرى يقف خلق كثيرون، يمتد الصف بهم حتى يخرج من الباب الآخر للبيت المطل على الطريق الخلفـي، تساءل النوبي: هل تبغي مقابلة الزيني بنفسه؟ أكد سعيد، نعم: غاب الرجل عنه، أصوات أصحاب المظالم خافتـة بـرغم عددهم الكبير، إذ يلتقي بالزيني يفتح له قلبـه، سـيقول لـه أعانك المولى على احتمال ما تتعرض لـه، عنـدما مشـى بجواره في هذه الليلة البعيدة، لم يقل الزيني كلاما كثيرا، لـم يخض في تفاصيل، لو رآه الآن ينقطع الحديث بينهما، سعيد يقول له ما مهد الشك إلى قلبه، الزيني يذكر كافة ما يضايقه، ما يتطلبه منصب الحسبة، ما يجنبه من كلام النـاس، عـاد الرجل النوبي" نزل الزيني من البيت أول النهار، ربما رجع

بعد العصر" وكأن سعيد توقف فجأة بعد جـ ري، تسـاءل ألا تعرف أين؟ قال النوبي، للزيني جولاتـه التـي لا يعرفهـا إنسان، ليطمئن على الناس، لكنني أعرف مهمة واحدة مـن مهامه اليوم ... كما تعرف هناك وقيعة بين مماليك طشـتمر وخاير بك، ناحية حارة الجوانية، انتهزوا فرصـة الخنـاق ونهبوا عدة دكاكين في الخط ... والزينـي قصـد الحـارة لإحصاء المال المنهوب وما لحق الناس من أضرار، ورفـع الأمر إلى السلطان، وتساءل سعيد ... متى جرى هذا؟ قـال النوبي معجبا، طوال الليل، كيف حدث ما حدث وسعيد لـم يصله خبر، ربما لبقائه في الدرس حتى الظهيرة، لكـن ألـم يصبح الصلح وشيكا بين طشتمر وخاير بك؟ هـز النـوبي رأسه، أبدا، بعد أن اتفقا على ضرورة التخلص من الفوانيس كبقية الأمراء، قال خاير بك، لا اتفق مـع طشـتمر أبـدا، وعندما بلغ طشتمر هذا ... صاح ... أيحقرني وا لأقلبنهـا فوق رأسه. فجأة علت ضجة. فلاحـون وجـوهم معفـرة، عيونهم تطير هنا وهناك لا تستقر على حـال، رأى سـعيد أطفالا صغارا في قريته البعيدة، رءوسهم ضخـمة، رقـابهم نحيلة كالعيدان، يمضغون تراب الطريق، عيـونهم أوطـان

للذباب، وجد نفسه يحمد ا   لأنه لم يخلق فلاحا يشـقى فـي الغيط، في رفع الماء من الترعة إلى القنوات، تفرض عليـه الأتاوات، يجلده الكشاف، يسعى إلى المدينة ليجهر بالشكوى، لا يرجع إلى عياله أبدا، لم يقطع ما يفكر فيه إنما تمادى حتى تساءل، كيف حالي لو خلقت فلاحا؟ سأله البواب النوبي بعد لحظات صمت؟ لكن ما الذي تقصده من مقابلة الزيني؟ " أكد أن نائب الزيني الموجود حاليا يمكنه الإصغاء إلى ما يقوله، قال سعيد، الزيني يعرفني لابد من مقابلته هو "سعيد لا يشي بأحد لكن أمامه أدلة وقرائن تثبت أن برهان الدين بن سـيد الناس، تاجر الفول صاحب عدة مراكب في النيل. ومكـامير في منية ابن خصيب، برهان منذ مدة يشـتري الفـول مـن الفلاحين ويخزنه عنده، أنشأ من الصوامع ما يفوق الحصـر والعد في ساحل أثر النبي بمصر القديمة. يبرطل على عـدد من كبار الأمراء ليفوز في نهاية الأمر بإقرار شـرعي مـن السلطان يقضي باحتكاره الفول، هذا يعيد بلية قديمـة يعمـل الزيني على إنهائها وهي احتكار فرد بعينه أو مجموعة ناس لصنف معين من الخضار أو البقول أو البضائع، فمـا بالـك والأمر يهم الخلق أجمعين، ماذا لو طلعت في دماغ برهـان

الدين بن سيد الناس؟ يمنع الفول عن الأسـواق حتـى يعـز وجوده، والحق إنها حادثة لم يسمع لها مثيل، لم يحاول تاجر من قبل احتكار بيع الفول في مصر، لـن يسـكت الزينـي، تساءل سعيد: أيقلقه الأمر فعلا؟ أم ينبغي التأكد مـن عـدل الزيني؟ الحق إنه لا يدري الآن، يعبر طريق أمير الجيوش، المطارق تنهال فوق النحاس الأحمر، تشكله حللا وأبـاريق، مكاري ربط حماره إلى وتد بالطريق قعد بجـواره يمضـغ رأس فجلة وخبزا، ها هو ذا دكان حمزة بن العيد الصـغير يرتاح إلى الجلوس فيه لا يعرفه مخلوق هنا، يخلو إلى روحه تماما، حتى منصور صاحبه يبتعد "أهلا ... أهلا ... يا نهار الفل" ترحيب دافئ من حمزة، يرده برفع يده، بسط راحتـه فوق صدره، طلب جوزة، في الأنفاس الأولى يشعر بـدوار خفيف لطيف مع خلو الكرسي من الحشيشة، يرتاح إليه، مـا أحوجه إلى تأمل ما راح وما استجد، اسـتعادة مـا سـيقوله للزيني بركات لو التقى به في المساء، أما رؤيته سماح بعيني عقله، فلها مذاق آخر، إذ يجلس هنا ...

***

مرسوم سلطاني

" يقصى الشيخ سعيد بن السكيت عن منصبه كقاض لمذهب الحنفية"

***

" من قاضي قضاة مصر إلى السلطان "

" حميت الحق، وأعليت كلمـة الإسـلام، أقصـيت المارقين، أبقاك ا حاميا للديار ..."

***

مرسوم سلطاني

"تبطل عادة الفوانيس ... ويزال ما علق منها، وكأنها لم تكن"

***

من أمراء الديار المصرية وأكابرها

"ما قمتم به حق، ما أثبتموه عدل لعن ا الفوانيس"

سعيد الجهيني

" إحك عن دنياك ... "

يحار من أين يبدأ؟؟

" مات الشيخ البلقيني عالم الحديث في الأزهـر ... مات عن ثلاثة وتسعين عاما لا يبدي الشيخ جزعا، إنما يهتز رأسه هزا خفيفًا لينا ...

" يرحمه ويرحمنا أجمعين ..."

" زكريا والزيني على اتفاق ..."

" أعرف هذا ..."

يبدي سعيد دهشته ...

" الزيني جاءني أمس ... بعد سماعي الخبر، فكرت أن أرسل إليه لأعرف حقيقة الأمر، لكنه دخل علي وشـرح الأمر ...

عوده مولاه ألا يطيل السؤال أو الاستفسـار، إنمـا يصغي إلى ما يقال، يستنتج ويحاول الفهم ...

" مولانا ... كل شيء يحيرني ..."

ابتسامة تقطر صفاء

" كل شيء؟؟"

" مولانا أنا صحبت الزيني إلى دارك، مشيت أمامـه في موكبه كأي ركبدار، بشرت به، تحمست له، أنا الآن أشك فيه، أتضرر منه، من شهر قلت فلأمض إليه أنقل ما سمعته،

ما استوثقت منه، عن رجل يقال له برهان الدين بن سيد الناس ... برهان الدين؟؟

" نعم يا مولانا ... برهان هذا شرع في احتكار الفول، عرفت أساليبه، مكاميره، عرفت أن سعر الفول سيشط في الأسواق، عندما جلست إلى الزيني، بعد مرات عدة ترددت فيها عليه بدون جدوى، شكا إلي ما يثار حول الفوانيس، قال إن الأمراء غرروا بالناس، ضحكوا عليهم حتى أثاروهم ضد الفوانيس مما جعل السلطان يلغيها، تحدث طويلا عن موضوع الفوانيس، قال إنه كان يرجو الكثير من وراء الفوانيس، أبدى نيته في رفع الكثير من المظالم، تحدث عن ضيقه بمنصب الحسبة، ما يجره عليه، تصور يا مولانا، شكا من قلة المال بين يديه، لأنه قبل الحسبة كان يسافر إلى بعض البلاد يتاجر في أصناف بعينها، يشرف على أرض قليلة عنده في دمياط لكنه أهمل الأرض والرزق، ومرتبه من الديوان خمسون دينارا لا يكفي المظاهر التي يستلزمها منصب الحسبة، حتى لو أبطل هذه المظاهر فلا بد من ارتدائه أزياء معينة كلما طلع إلى السلطان وهذا يكلفه كثيرا، لم يخف عني شيئًا، أدق أموره حكاها لي، وا يا مولانا

وجت نفسي قريبا جدا منه حتى كـدت أصـرح لـه بمـا يزعجني، لماذا قبل استمرار زكريا بن راضـي نائبـا لـه؟ تمنيت لو أقول له ما يفعله زكريا بالناس، لم تتغير عوائدهم، يملأون الأزهر، فهل يقبل؟ كدت وا يا مولانا لكنني لم أفه حرفًا أبدا أبدا، قلت له ما جئت من أجله فعلا ... هز رأسـه وقال ... سأكلف نائبي بمراقبته ورصد حركاتـه، وعنـدما يثبت صحة ما يفعله يلقى جزاءه. تصور يا مولانا من سيقيم العدل، من سيمنع برهان الدين بن سيد الناس ... زكريا بـن راضي ... لكنني قلت في دمـاغي ربمـا يحـاول الزينـي استخدام زكريا لما فيه خير للناس، رحـت أرقـب برهـان الدين، لكنه استمر على حاله، طلعت إلى الزيني مرة ثانيـة، قال مثل هذه الأمور تستغرق وقتًا. وذكر حادثة الخياط الذي عاقبة لاعتدائه على غلام صغير برغم شفاعة أكبر الأمـراء له عند السلطان، لا أدري يا مولانا ما الذي يقصده الزينـي؟ حتى الآن لم يهز أصبعا في وجهه برهان الدين، هـل أنـدم على سيري أمامه يوما، من ناحية أخرى توجعني المظـالم، لماذا يجلد الفلاحون وينكر عالم كبير من الأزهر أمه التـي جاءت من الأرياف تزوره ... لماذا ... لأنها فلاحة! كيـف

أصدق يا مولانا أن الناس خلقوا متساوين؟ كيف، وما حـدث ويحدث وما سيحدث ينكر هذا ويكذبه، كيف، أود لو تقـدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد، لـيس فـي الـديار المصرية وحدها، إنما في الدنيا كلها، لكن أعمارنا ستضـيع وتمضي ولن نقدر على هذا ... تصور يـا مولانـا، إننـي أخاف، أخاف عندما أرى عمرو بن العدوي، أتسـاءل عمـا سيكتبه في أوراقه عني، ما يجعلهم يلقون بـي يومـا فـي المقشرة، في العرقانة، أو الجب، لكن ماذا يفعلونه بي، ربما قطعوا دراستي بالأزهر، يمنعون راتبي ورزقـي، يسـدون أبواب الوظائف في وجهي، فليفعلوا ... ما قيمة هذا كله، إذا رفعت الظلم عن إنسان، ما قيمته؟ لكنني أجد نفسي من جديد أخشى الحرمان والسجن والقيد والعذاب، أرتجف لو سـمعت باسم زكريا، تصور يا مولانا ... أنا الذي يعـذبني مـرأى الذباب على عيون العيال في بلدنا، أتمنى ... أحمـد ا ... تصور يا مولانا ... أحمده، لأنه لم يخلقني فلاحا أعاني قسوة العيش وظلم الكشاف، مولاي أعذرني لأنني وضعت أثقـالي كلها عندك ... لكن ما حيلتي والزمان يلجمني ويكسر فكـي ويخرس البوح في صدري ...

الليل يمضي صامتًا، في البداية ألوانه خادعة تـزداد مع ضياع النهار قتامة وعمقًا، حتى يغرق الكون في سـواد، تضيع أصوات العباد، تدور أصابع الشـيخ حـول بعضـها البعض، سعيد يخشى الليل، لا يلقاه في الرواق أبـدا، يـرى نهاية الضوء في الطرقات، بعد إطراقه تدور عيناه في الفناء الصغير. راسخ رسوخ جذع النخلة المروية بالسنين، مرتفـع من الأرض يتوسط الفناء لم يلحظه. الشيخ ساكت يشير سعيد إلى كومة التراب، بروز الأرض ... " لم أره من قبل ..."

بأي سؤال يكسر الصمت.

" من حين إلى آخر أحتاج إلى خلوة ... من أجلهـا حفرت لنفسي هذا السرداب، حفرته لجسدي أودعه فيه كلمـا حارت الروح وأعجزها الزمان ...

هذه الفتحة الضيقة تؤدي إلى سرداب الخلوة، بمفرده انتزع لنفسه مكانًا من الأرض، داخله يخف من أثقاله، مـن أحماله، تحلق الروح إلى واد يمكن فيه الوصول إلى الحقائق الأولوية، يدق أبواب الكون، يفصح عن خباياه، فيبصر القلب ويرى ما يرى ...

***

نداء

يا أهالي مصر ...

نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر

انكشف المستور

ظهر المقبور

بانت فضيحة علي بن أبي الجود

الليلة قبيل المغرب

سيقرأ الفقهاء في الجوامع

وثيقة تلقون فيها ما تشاءون

لتروا، كيف امتص الظالم

دماء المسلمين

فحق عليه عقاب مبين

***

نقف ضد تعذيب البدن، فلا نرضى لإنسـان مهمـا كان، أن يحرق عضو في جسمه أو ينعل كالفرس.

السرادق الثالث

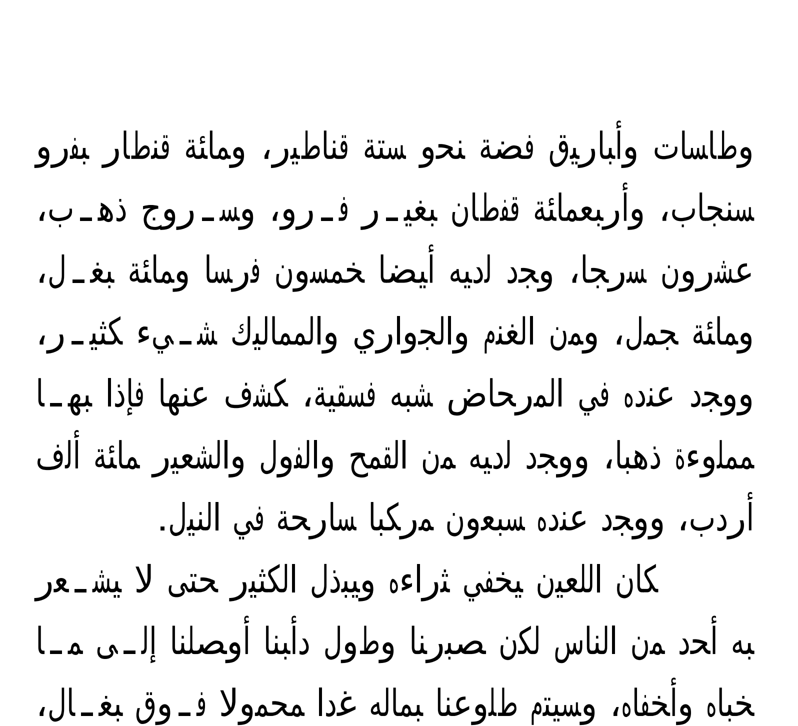
وأوله

وقائع حبس علي بن أبي الجود

بسم ا الرحمن الرحيم

سبحان الذي كشف كل غطاء. وبسط الأرض، ورفع السماء، نتوجه إلى أمة الإسلام، نكشف أمرا طال به الترقب، ليكون عبره لمن اعتبر، الحي ومن غبر، تفاصيل هذا كمـا يلي ... منذ عام، أمر مولانا السلطان بالترسيم على المـدعو علي بن أبي الجود، وتسليمه إلى متولي الحسـبة الشـريفة وذلك لعقابه، وكشف المخفي وراء أبوابـه، ومنـذ البدايـة أضمرنا الصبر حتى النهاية، لأننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان، أن يحرق عضو في جسـمه، أو ينعل كالفرس، وهذا سبب المدة الفاصلة بين تسلمنا علي بـن أبي الجود، وكشف أمره، كشفنا من أمواله ما يعجـز عـن تصديقه إنسان، وكل هذا امتص من دماء المسلمين، وإلـيكم ما وضعنا يدنا عليه.

بلغ دخله اليوم مـن أملاكـه وأطيانـه وضـماناته وحماياته تتمة ألف دينار يوميا واشتملت تركته علـى مائـة وخمسين ألف دينار ذهبا ووجد عنده يـاقوت أحمـر، زنـة الفص رطل ونصف، وستة صناديق فيهـا جـواهر، ومـن الماس وعين الهر مائة قطعة، وعلى ذهب مقـدار قنطـار،



وطاسات وأباريق فضة نحو ستة قناطير، ومائة قنطار بفرو سنجاب، وأربعمائة قفطان بغيـر فـرو، وسـروج ذهـب، عشرون سرجا، وجد لديه أيضا خمسون فرسا ومائة بغـل، ومائة جمل، ومن الغنم والجواري والمماليك شـيء كثيـر، ووجد عنده في المرحاض شبه فسقية، كشف عنها فإذا بهـا مملوءة ذهبا، ووجد لديه من القمح والفول والشعير مائة ألف أردب، ووجد عنده سبعون مركبا سارحة في النيل.

كان اللعين يخفي ثراءه ويبذل الكثير حتى لا يشـعر به أحد من الناس لكن صبرنا وطول دأبنا أوصلنا إلـى مـا خباه وأخفاه، وسيتم طلوعنا بماله غدا محمولا فـوق بغـال، حيث تضم هذه الأموال إلى خزانة مولانا السلطان، في وقت نحن في أشد الحاجة إلى المال، لتحرك أعدائنا علينا، ومـن شاء منكم الفرجة فلينتظر في تمام الساعة الرابعـة عربـي وقت الضحى، أيضا سيعرض عليكم علي بن أبـي الجـود وسترونه سليما معافى لم يلحقه أذى ولا تعذيب ...

تم الحوطة على ثلاثين جارية، ومائة وعشرين عبدا، وأربعين خصيا خصاهم اللعين بيده ...

يا أمة المسلمين

يا أهالي مصر

أتوجه إليكم برجاء. أبلغونا حال وقوعكم على أي إنسان يكتنز المال من دم المسلمين، لا نقبل أبدا أن يجوع الخلق، وتستمتع قلة، أبلغونا: مهما علا قدر مكتنز الذهب والفضة والبغال والعبيد والجواري أخذنا لكم الحق منه ...

***

بسم ا الرحمن الرحيم

اللهم اجعل هذا البلد آمنا

وقائع تعذيب علي بن أبي الجود، مرفوعة إلى الشهاب زكريا بن راضي كبير بصاصي مصر، ونائب الحسبة الشريفة، من مقدم البصاصين في القاهرة.

***

بناء على ما أشرتم به، ونوهتم إليه قامت فرقة من أشداء بصاصينا بتنقيب الأحوال وإظهار ما جرى لعلي بن أبي الجود، وقد نفذنا عبر أسوار منيعة، وعقبات كبيرة، لنجتلي سر الأشياء، وبعد جهد جهيد استطعنا ضم واحد من العاملين مع الزيني. لكننا لم نعتمد عليه وحده، فهو أول رجل ينضم إلينا من ناحية الزيني، استوثقنا من مصادر أخرى، تعرفون بعضها، والآخر نحتفظ به حتى ننقله إليكم شفاهة، أما بعد ...

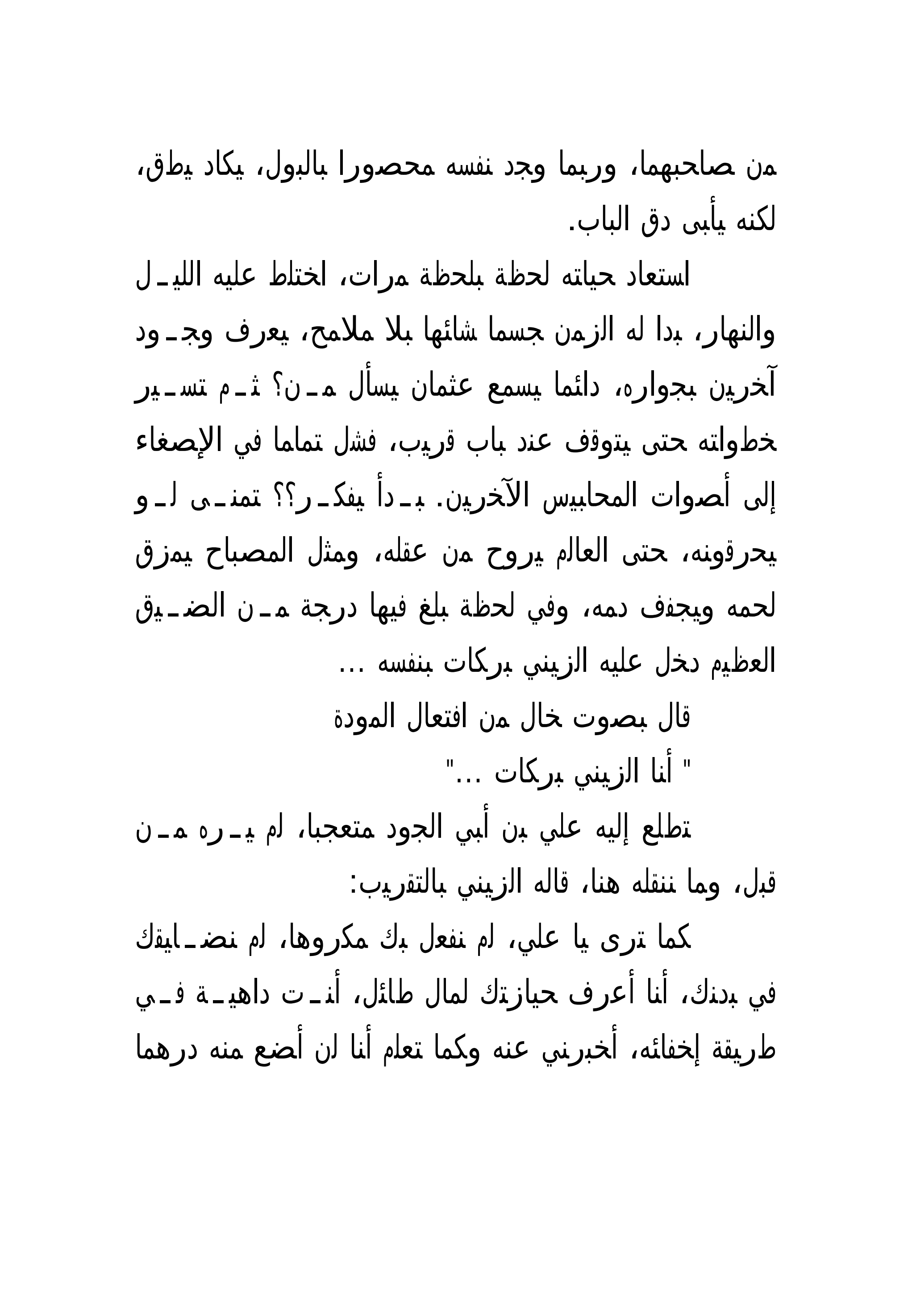
ثبت عدم وجود سجن في بيت الزيني الكائن ببركة الرطلي فهذا البيت ضيق ولا يتسع لوجود سجن به، وأي صراخ فيه يمكن سماعه من قريب، لقد نقل "علي" إلى بيت قصي قريب من حلوان وهذا البناء تحيطه خضرة كثيفة، لا

نعرف متى انتقل إلى ملكية الزيني، من شيده وبنـاه وجـار بحث هذا ... يقع تحته سجن يضم أربع عشرة زنزانة، ليست زنازين بالمعنى الدارج، الواحدة منها حجرة مستطيلة طولها ثلاث خطوات بقدمي رجل بالغ، ارتفاعها أزيد مـن قامـة رجل عادية بشبر ونصف، عرضها لا يمكن الإنسان من فرد ذراعيه، يتوسط سقفها فتحة صغيرة تؤدي إلى الخارج ترى منها السماء قطعة فضية، لكن الفتحة لا تظهـر أبـدا مـن الخارج، فوق الباب من الداخل مصباح يضيء بنفس طريقة الفوانيس، هذا المصباح يواجه الإنسان أينما استدار أو حاول الهرب، حتى لو نام تحت الباب مباشرة، ولـو أدار ظهـره فحتما يجدها في مواجهته، يئز الضوء ليلا ونهارا، يحـدث وشا خفيفًا لا يدركه الداخل مباشرة لكنه ينقلب إلى زئير في الأذنين بعد فترة، ويبرز من الجدران لوح خشـبي قصـير يتناول فوقه المحبوس طعامه ...

السجان القائم على أمور المحابيس هنا، شاب ملـيح الوجه، رقيق العبارة، جميل الصورة، وهذا يخالف كـل مـا اتبع من قبل، ابتسم في وجه "علي" خاطبه بأدب "إذا احتجت أمرا اطرق هذا الباب بقبضتك مرة واحدة"، وعنـدما أقـول

من؟ فلا تقل اسمك إنما قل "واحد" أنت منذ الآن واحد، طوال حديثه لم تفارق شفتيه الابتسامة، حديثه في ظاهره رجاء لكنه أمر في جوهره، نظافة المكان لم تطمئن "علي" أدركه رعب خفي، ليس حادا، إنما يماثل غرابة المكان، هـدوءه، البـاب يوحي باحتمال فتحه المفاجئ، ربما انطبقت عليه الجـدران، تتغير الابتسامة، عندما جاءه الطعام تعجـب للغايـة وضـع أمامه أرزا مفلفلا، طبق ملوخية، قطعة لحم وبرتقالة، وهـذا لم يسبق حدوثه في تاريخ الحبوس، لكن لابد من توضيح أمر هنا، علي بن أبي الجود، أو غيره من المحابيس الذين ساقهم حظهم إلى هذا السجن، لم يشعر بالشبع أبـدا، إنمـا يعـيش جوعا خفيا، الأكل في مظهره أكثر من كاف، يحدث شـبعا مباشرا، لكنه لا يقضي على جوع خفي مستور يأكل نخـاع الغطاء الدفين.

بقي علي بن أبي الجود ثلاثة وتسعين يوما لـم يـر خلالها إلا وجه عثمان. إذا دق الباب في أي زمان، يجيئـه مبتسما كأنه لا ينام ولا يفارق المكان أبدا، كأنه يعرف متـى ينوى دق الباب فينتظر، وبمضي الزمن بدأ علي بـن أبـي الجود يخشى الابتسامة والعينين الهادئتين حتى صار يـزوغ


من صاحبهما، وربما وجد نفسه محصورا بالبول، يكاد يطق، لكنه يأبى دق الباب.

استعاد حياته لحظة بلحظة مرات، اختلط عليه الليـل والنهار، بدا له الزمن جسما شائها بلا ملامح، يعرف وجـود آخرين بجواره، دائما يسمع عثمان يسأل مـن؟ ثـم تسـير خطواته حتى يتوقف عند باب قريب، فشل تماما في الإصغاء إلى أصوات المحابيس الآخرين. بـدأ يفكـر؟؟ تمنـى لـو يحرقونه، حتى العالم يروح من عقله، ومثل المصباح يمزق لحمه ويجفف دمه، وفي لحظة بلغ فيها درجة مـن الضـيق العظيم دخل عليه الزيني بركات بنفسه ...

قال بصوت خال من افتعال المودة

" أنا الزيني بركات ..."

تطلع إليه علي بن أبي الجود متعجبا، لم يـره مـن قبل، وما ننقله هنا، قاله الزيني بالتقريب:

كما ترى يا علي، لم نفعل بك مكروها، لم نضـايقك في بدنك، أنا أعرف حيازتك لمال طائل، أنـت داهيـة فـي طريقة إخفائه، أخبرني عنه وكما تعلم أنا لن أضع منه درهما

في جيبي، كله سيذهب إلى خزانة السـلطنة، أمـا حريمـك وعيالك فأنا أضمن معيشتهما.

" أين الأموال؟"

هز علي بن أبي الجود رأسه

" أتنكر؟"

أكد النفي، قام الزيني واقفًا ...

" اللهم إني بريء من ذنبك "

بعد زمن لم يعرف مقداره، دخل عثمـان. عصـب عيني علي بن أبي الجـواد بقماشـة مبللـة، لحظـة طـال انتظارها، لا يدري ما سيفعل به، لكنه يفارق هـذا المكـان الغريب، هذا يكفي، نزل درجات، عبر أبوابا، تركه عثمـان في قاعة خلاء. ارتعدت مفاصله تهيب الجلوس، خطا الوقت ثقيلا كالخيل إذ تحتضر. ارتعشت أطرافه. دب الخدر إلـى ظهره، جسمه كله يهتز. فجأة هوت يد قوية صـفعته فـوق عنقه، أطارت شررا ونجوما زرقاء في فراغ عتيم أحاطـه، ثلاث صفعات صنعت حزاما ساخنًا حول قفاه. وهنـا تبـدأ الوقائع الفعلية لتعذيب جسد علي بن أبي الجود.

اليوم الأول:

وفيه دهنوا باطن قدميه بماء وملح، أحضروا عنـزة صغيرة سوداء في رأسها بياض راحت تلعق المـاء المـالح على مهل، التوت شفتاه، ارتجفت ضلوعه، صار يصرخ، ثم ينقلب صراخه ضحكًا حتى غشي عليه، سكبوا على وجهـه ماء باردا.

" أين أموال المسلمين "؟

ولم يجب.

اليوم الثاني:

من الثابت الذي لا يدع فسـحة للشـك أن الزينـي بركات لم يفارق الغرفة المجاورة للحجرة التي يـتم فيهـا: استخراج الحقيقة "وفي أول النهار أخذه الغيظ، لثبات علـي ابن أبي الجود، دخل بنفسه، راح يمد أصبع يـده الوسـطي بحركة ثابتة في صدر علي بن أبي الجود، في نفس الوقـت أمسك أحد رجاله بإبريق ماء رفعه، بدأ نزول المـاء قطـرة قطرة، بفاصل زمني معلوم، لـم يمـض وقـت طويـل إلا انتفضت رقبته، ارتعش جسده كأنه على وشك الانقصاف إلى

قسمين، صرخ صرخة هائلة خارجة من الحشا، هنا زعـق فيه الزيني" أموال المسلمين يا علي ".

ولم يجب ...

عصر اليوم التالي:

أحضروا فلاحا من المحابيس المنسيين، نزعوا عـن ثيابه تماما، نظروا إلى علي بن أبي الجود، قال الزيني" انظر سأفعل بك كما أفعل بالرجل " أظهـروا حـدوتين سـاخنتين لونهما أحمر لشدة سخونتهما، بدأ يدقهما في كعـب الفـلاح المذعور، نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع علي، وكلما حـاول إغلاق عينه يصفعه عثمان بقطعة جلد على قفاه ...

اليومان: الرابع والخامس:

ذبح ثلاثة من الفلاحين المنسيين، أسندت رقابهم إلى صدر علي بن أبي الجود والزيني يدخل ويخـرج محمومـا مغتاظا يسأل " ألم يقر بعد؟ " لا يجيب أحد، يضرب الحجـر بيديه ...

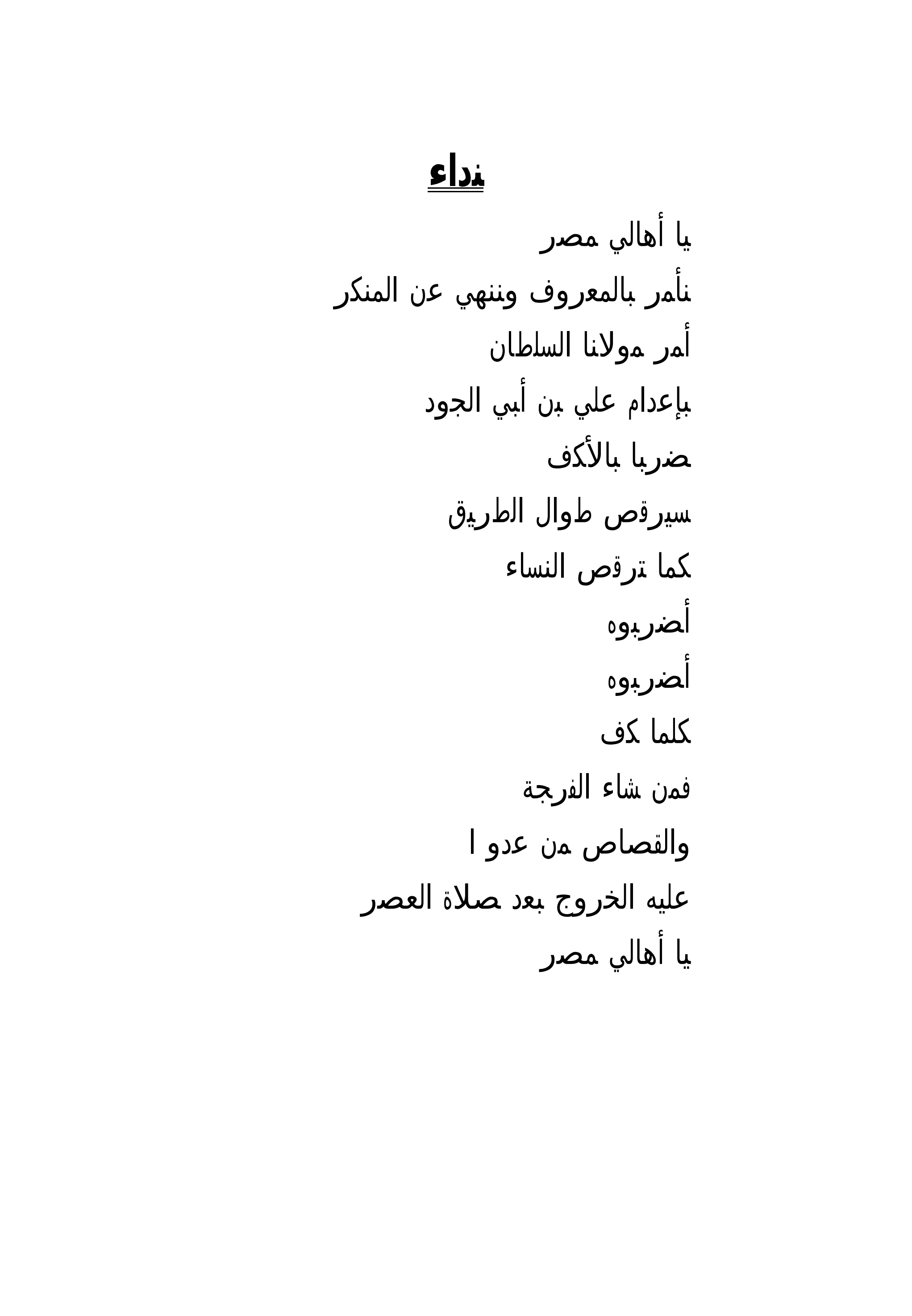
اليوم السابع:

عندما أحضروا خليل، أصغر أبناء على بـن أبـي الجود بدا غائبا تائها، لكن عندما صرخ خليل: اتسعت عينـا أبيه ولم يسمع صيحات ولده ...

تعليق:

هذا بعض ما وصلنا من وقائع تعذيب علي بن أبـي الجود. لكن الثابت فعلا – وهذا محير – عدم إقراره بمكـان المال، إذن من أين عرف الزيني مقدار ومكان الأموال التي نشرها على الناس. العجيب أيضا أنه بعد مدة معينة، وبعـد تنوع أساليب العذاب الجديدة التي يسميها الزينـي " كشـف الحقيقة " أصبح علي بن أبي الجود معافى، التغيير الوحيـد أصاب عينيه، أصبح لا ينظر إلا في خط مستقيم كـالأعمى لكنه مبصر، إذا ناداه أحد لا يجيب، إنما ينحني ويدلدل لسانه كالكلاب ولم نفسر بعد ما حاق به.

(مقدم بصاصي القاهرة)



نداء

يا أهالي مصر

نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر

أمر مولانا السلطان

بإعدام علي بن أبي الجود

ضربا بالأكف

سيرقص طوال الطريق

كما ترقص النساء

أضربوه

أضربوه

كلما كف

فمن شاء الفرجة

والقصاص من عدو ا

عليه الخروج بعد صلاة العصر

يا أهالي مصر

رجب ٩١٤ هـ

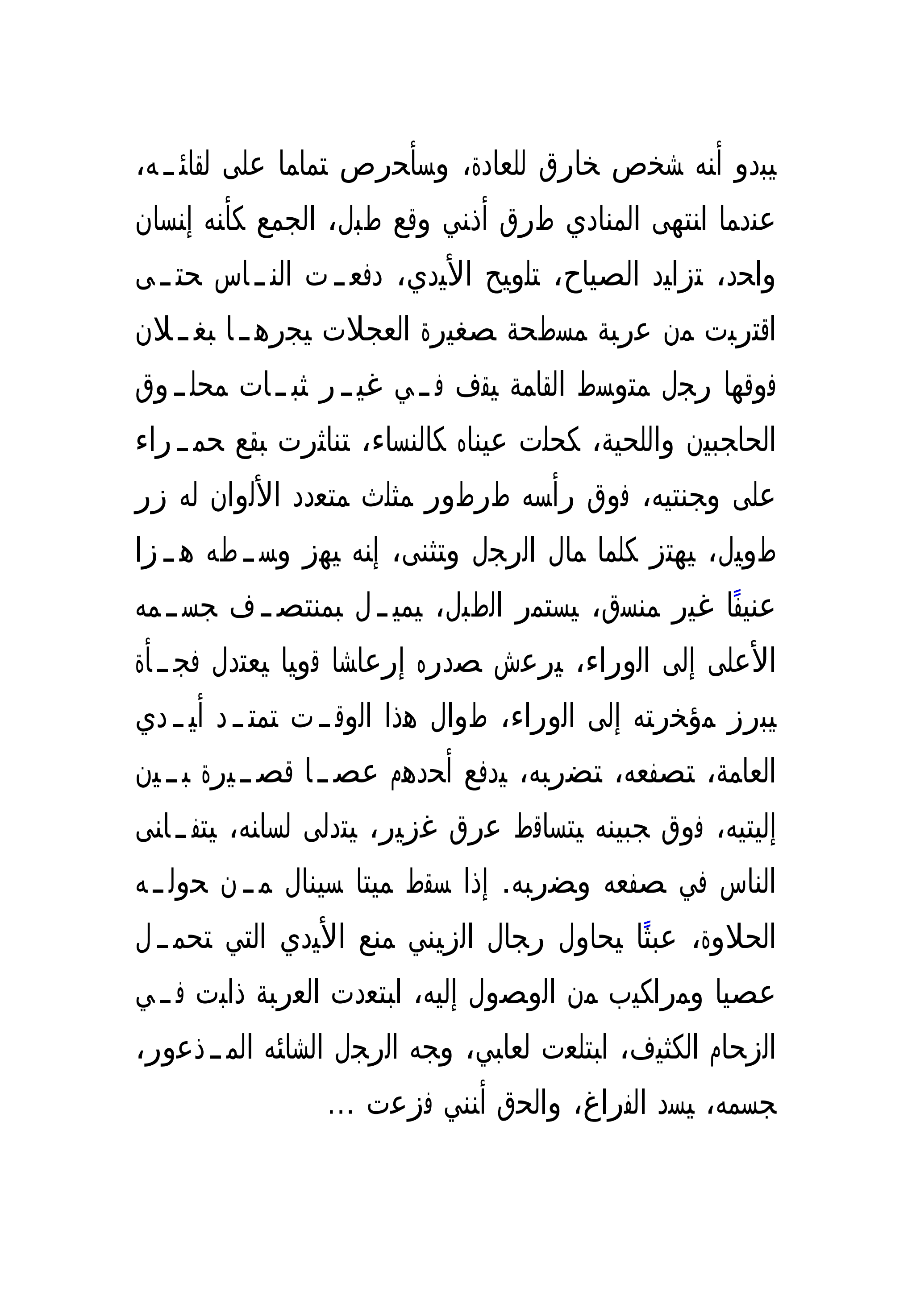
مقتطف " ب "

ويتضـمن بعـض مشـاهدات الرحالـة البنـدقي، فياسكونتي جانتي الذي كان يعبر القاهرة وقتئذ لأول مـرة، وكان قادما من بلاد الزنج والسودان، قاصدا ركوب البحـر، عائدا إلى بلاده بعد تجوال طويل

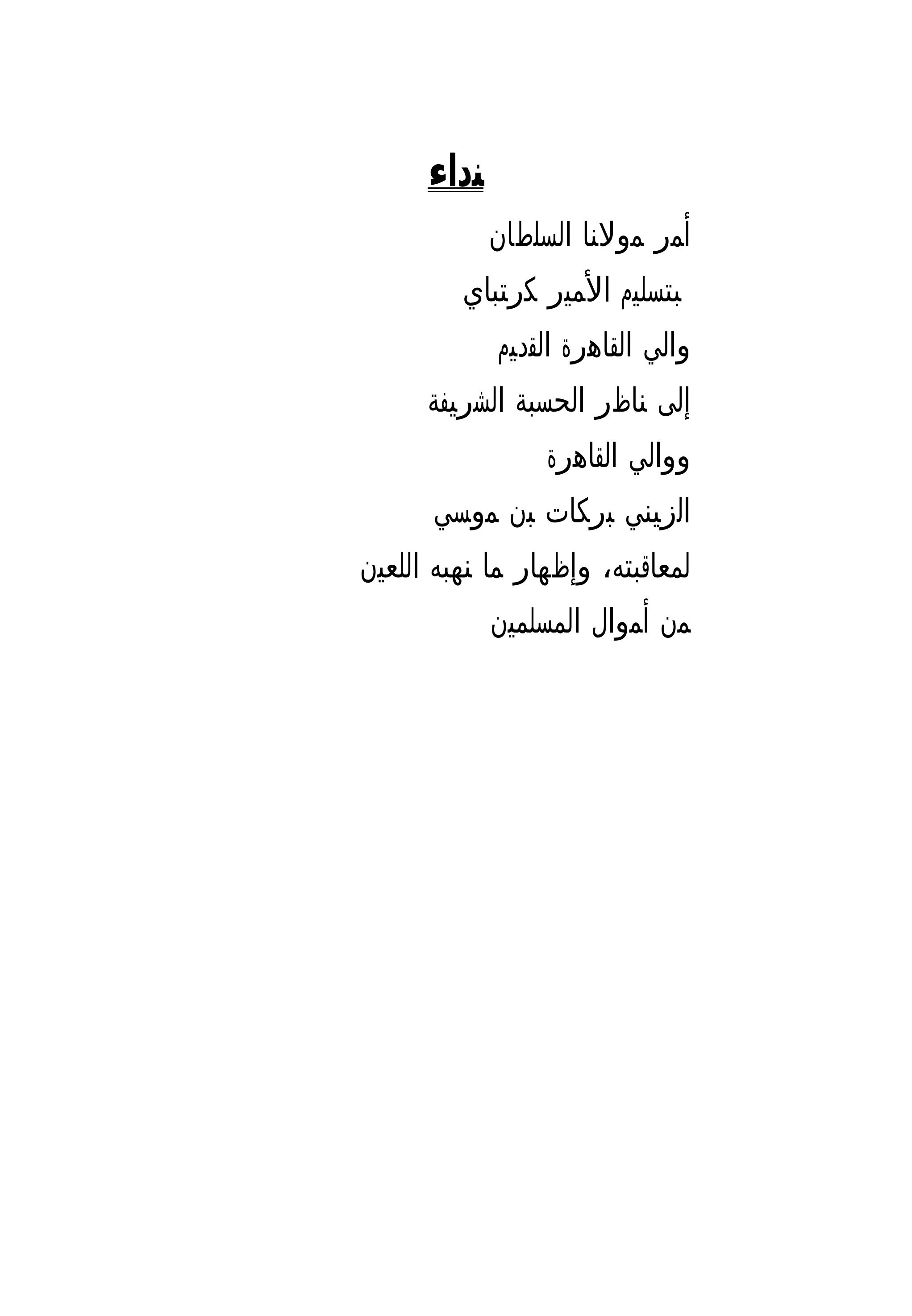
***

خرجت من الخان، والحق أنني وجدت الزحام ثقيلا، النساء يختلطن بالرجال، الصبية الصغار يحاولون التسلل بين الأقدام للنظر، وعلى جانبي الطريق وقـف رجـال أشـداء مدرعون يرتدون ملابس زرقاء بياقات صفراء، عرفت مـن علي مترجمي أن الموكب خرج فعلا من بيت الزيني بركات محتسب القاهرة وقف عند مدرسة ابن الزمن، عـرج علـى جزيرة النيل، أتى إلى شبرا، استمر حتى عبر قنـاطر أبـي المنجا وطلع من قنطرة الحاجب، دخل من بـاب الشـعرية، كنت أقف عند بين الصورين، (سوق كبير) أمام دكان يبيـع أصباغ الملابس، انتشر قلق بين الناس تـدافعت المناكـب، صرخ طفل، أطلقت امرأة صـوتًا طـويلا، يسـمونه هنـا

زغرودة، بدأت تباشير الموكب، عدة خيول مسـرجة، كلهـا بيضاء. ثم مرت أربعة خيول يدق راكبوها طبلا، يتوقفـون ليعلن رجل قصير لم أسمع أقوى من صوته قط، وأخبرنـي علي مترجمي أنه يطلب من الناس أن يضربوا علي بن أبي الجود كلما كف عن الرقص، حتى يسقط ميتـا، والموضـع الذي سيسقط فيه سينال بقشيشا من الزينـي، والحـق، هـذا أغرب طريق إلى الموت رأيته أو سمعت به، أخبرني علـي أيضا أنه يزف إلى الناس بشرى حسنة، أمر السلطان بتعيين الزيني بركات واليا للقاهرة إلى جانب منصبه، وقبل الزينـي المنصب حرصا على راحة الخلق، ومـن أراد الاعتـراض على ولايته للقاهرة فعليه إبداء رأيه بعد صلاة الجمعة فـي أكبر مساجد العاصمة (الأزهر) ومنصب الوالي يشبه حـاكم الإقليم عندنا، أما الحسبة فلا مثيل لها فـي بلادنـا إذ أنـه منصب يجمع بين السلطة الدينية والمدنية، ويـتلخص فـي ضمان الخير، وطرد الشر، والحقيقة لم أصدق ما أخبرني به علي، فيما يتعلق بحض الرعية على الذهاب إلـى الأزهـر لإبداء رأيهم، هذا تقليد لم أره قط، سابق لزماننا لم أسمع به، على الرغم من سعة تجوالي، سمعت اسم الزيني يتردد كثيرا



يبدو أنه شخص خارق للعادة، وسأحرص تماما على لقائه، عندما انتهى المنادي طرق أذني وقع طبل، الجمع كأنه إنسان واحد، تزايد الصياح، تلويح الأيدي، دفعت الناس حتى اقتربت من عربة مسطحة صغيرة العجلات يجرها بغلان فوقها رجل متوسط القامة يقف في غير ثبات محلوق الحاجبين واللحية، كحلت عيناه كالنساء، تناثرت بقع حمراء على وجنتيه، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الألوان له زر طويل، يهتز كلما مال الرجل وتثنى، إنه يهز وسطه هزا عنيفًا غير منسق، يستمر الطبل، يميل بمنتصف جسمه الأعلى إلى الوراء، يرعش صدره إرعاشا قويا يعتدل فجأة يبرز مؤخرته إلى الوراء، طوال هذا الوقت تمتد أيدي العامة، تصفعه، تضربه، يدفع أحدهم عصا قصيرة بين إليتيه، فوق جبينه يتساقط عرق غزير، يتدلى لسانه، يتفانى الناس في صفعه وضربه. إذا سقط ميتا سينال من حوله الحلاوة، عبثًا يحاول رجال الزيني منع الأيدي التي تحمل عصيا ومراكيب من الوصول إليه، ابتعدت العربة ذابت في الزحام الكثيف، ابتلعت لعابي، وجه الرجل الشائه المذعور، جسمه، يسد الفراغ، والحق أنني فزعت ...



نداء

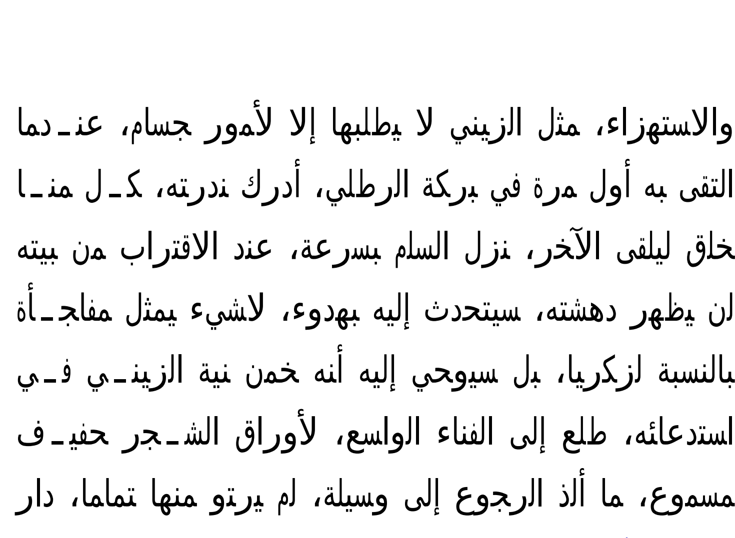
أمر مولانا السلطان
بتسليم الأمير كرتباي
والي القاهرة القديم
إلى ناظر الحسبة الشريفة
ووالي القاهرة
الزيني بركات بن موسي
لمعاقبته، وإظهار ما نهبه اللعين
من أموال المسلمين

زكريا بن راضي:

يظن زكريا بن راضي أن لقاءه بالزيني تم في الليلة نفسها، ساعات الليل الأخيرة عادة لا يزعجه أحد إلا بـدافع أمر جسيم، ليلتها أصغى إلى "وسيلة" تحدثه عن بلادها، مـا يحب الإصغاء إليه، عادات الناس هنـاك، ألـوان الطعـام، يسألها كيف لم يفض تاجر الرقيق بكارتها منـذ اختطافهـا؟ عودتها الأسئلة الغريبة ألا تخجل قالت إنه طمع فيها، كل من رآها طمع فيها، وحدث قرب حلب هنا. مد زكريا يده، لمس شفتيها بأطراف أصابعه، حدثيني عن حلـب " لـم تـدركها الحيرة اعتادت منه الانتقال من موضوع إلى آخـر. فجـأة بدأت تسترجع المدينة، الطرق المؤدية إليها، رجال البريد في المباني الصغيرة القائمة وحدها وسط الخلاء، عيون فلاحات الشام المتطلعة إلى القافلة، إسراعهن بإغلاق بيوتهن، تـذكر ترحيب الحراس بالقافلة، مسرور التاجر يعرفهم كلهم، يـدفع لهم مجعولا معينا من الذهب، لا يتعرضون لـه أبـدا، بـل يتولون حراسته إلى الطريق، زكريا يمسـك كوبـا مضـلع الحواف، لا يشرب الخمر أبدا، لا يحب لوعيـه أن يهجـر العالم لحظة واحدة، حدث منذ مائتي عام أن أضاعت الخمر

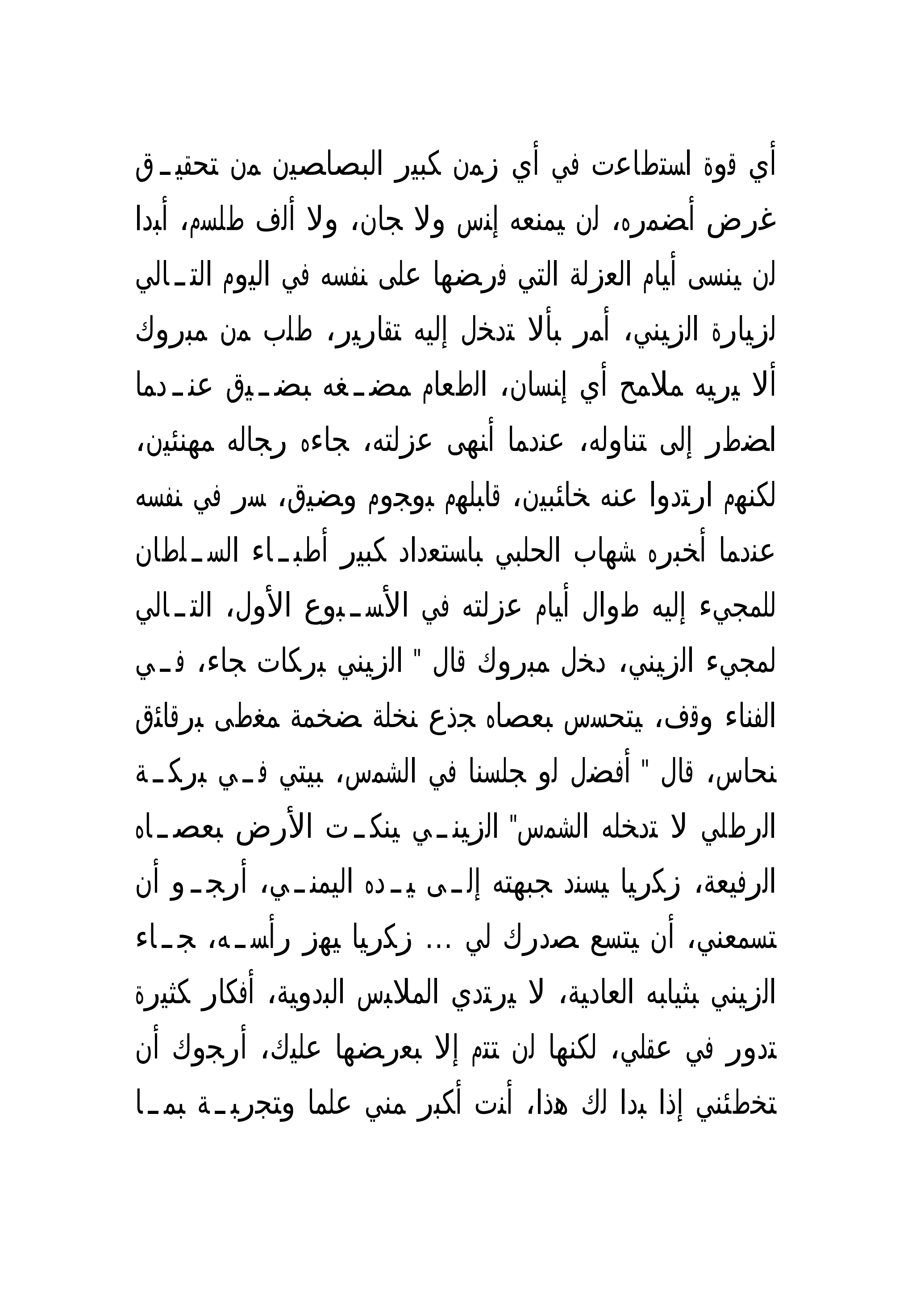
واحدا من أعظم البصاصين الذين عرفتهم مصر، في زمـن الظاهر بيبرس. أدمن ابن الكازاروني الخمر، صار يقول في مجالسه الخاصة والعامة كل ما يعرفه عن أحـوال النـاس والدولة، تسبب هذا في فضيحته ثم قطع رقبته، كان قد ابتدع نوعا جديدا من الخمور، قيل، مجرد رائحتها تجلب للإنسـان سكرا عظيما، نسبت فيمـا بعـد إليـه. وعرفـت بـالخمر الكازرونية. أمر السلطان الناصر بن قلاوون – فيما بعـد – بإبطالها وإراقة ما تجمع منها في الـدنان. زكريـا يعشـق عصير الفاكهة، استحضر جهازا من بلاد تلمسـان يعصـر أقسى أنواعها، يصفي البذور، يرشف عصير العنب، يمد يده إلى جيد وسيلة يمر عليه مرا هينا لطيفًا تستمر في حـديثها، ترتعش الحروف، فجأة بينما تطلع يده وتنزل تقترب أصابعه من صوان أذنيها، تخرج أنفاسه ساخنة فوق مؤخرة عنقهـا، قشعريرة بدنها تنتقل إليه، يتابع اختلاج ركني فمهـا، فجـأة يحتوي إذنها الصغيرة في فمه، يرضع اللحم القاسي، تشهق، تتباعد أطراف جسدها تحيط ثدييها بيديها تغمـض عينيهـا تروح إلى بعيد، فجأة بضربة واحدة، يمزق الثـوب لا يفـك إزاره، إنما يمزقه يصغي إلى تقطع القمـاش، تـنكمش لـه

بدايات العالم الطري، تبدأ حركة من عينيها تجسد صغر السن، تفتح الزهرة، صبية تطرق أول العمر تدهش إذ تقف عند حدود الدنيا، أمثل هذه المتعة توجد فعلا؟ في اللحظة، هذه اللحظة تماما، جاءه شهاب الحلبي طرق درع النحاس المعلق في الدرقاعة السفلى، نزل إليه "أرسل الزيني بركات مبعوثًا يطلب من زكريا الحضور بسرعة لأمر جلل" أومأ زكريا برأسه، طلع إلى خزانة ثيابه انتقى رداء شيخ أزهري، منذ إقراره نائبا للحسبة لم يرسل إليه الزيني، كل صلتهما تقرير يومي يرسله زكريا إلى الزيني، طبعا تقرير يعد بشكل خاص، مرات قليلة أرسل الزيني يسأل عن أمور ذكر أنها عامة، جاوب عليها زكريا وهو يضمر تعجبه لتفاهة هذا المطلب، مثلا أسماء الجواري اللواتي اشتراهن الأمير بشتاك في عام ٩٠٧ هـ مقدار الخمر الذي يشربه الأمير قوصون كل ليلة، اسم والدة بائع مخلل بالحسينية، أصناف الطعام التي يفضلها قاضي القضاة عبد البر، أو عدد أمتار الثياب اللازمة لعمل عباءة زركش لخوند زينب زوجة طشتمر، كم مملوكا له ست أصابع في كلتا يديه وعددهم في الأبراج، زكريا قابل هذا باستغراب، تدارك رأيه بسرعة ليستبعد السخرية



والاستهزاء، مثل الزيني لا يطلبها إلا لأمور جسام، عندما التقى به أول مرة في بركة الرطلي، أدرك ندرته، كل منا خاق ليلقى الآخر، نزل السلم بسرعة، عند الاقتراب من بيته لن يظهر دهشته، سيتحدث إليه بهدوء، لاشيء يمثل مفاجأة بالنسبة لزكريا، بل سيوحي إليه أنه خمن نية الزيني في استدعائه، طلع إلى الفناء الواسع، لأوراق الشجر حفيف مسموع، ما ألذ الرجوع إلى وسيلة، لم يرتو منها تماما، دار بعينه باحثًا عن مبروك، مبروك الوحيد الذي يميزه حتى لو اختفى في زي الجان، يبدو للغرباء أخرس لكنه يتحدث قليلا جدا، أحيانًا يعنف زكريا ويلومه لوما قاسيا، زكريا يقبل هذا ويصغي إليه، وينفذ ما يقوله مبروك، سأل زكريا، " أين رسول الزيني؟ " تقدمه مبروك، همس زكريا "إذًا لم أرجع حتى ظهر اليوم التالي فقل لمقدم القاهرة أن يهتدي بما يقوله شهاب الدين كاتم السر ... مفهوم؟ دخل زكريا إلى حجرة الجلوس بالديوان، قام رجل بدوي ملثم، أهلا بالشهاب الأعظم زكريا ..."نظر زكريا إلى الوجه الملثم، الحزام العريض المرصع بفصوص معدنية بارزة، زكريا يتفحص رداءه، هذه الأمور الصغيرة، تبدد دهشته عندما رأى الزيني بنفسه، دخل

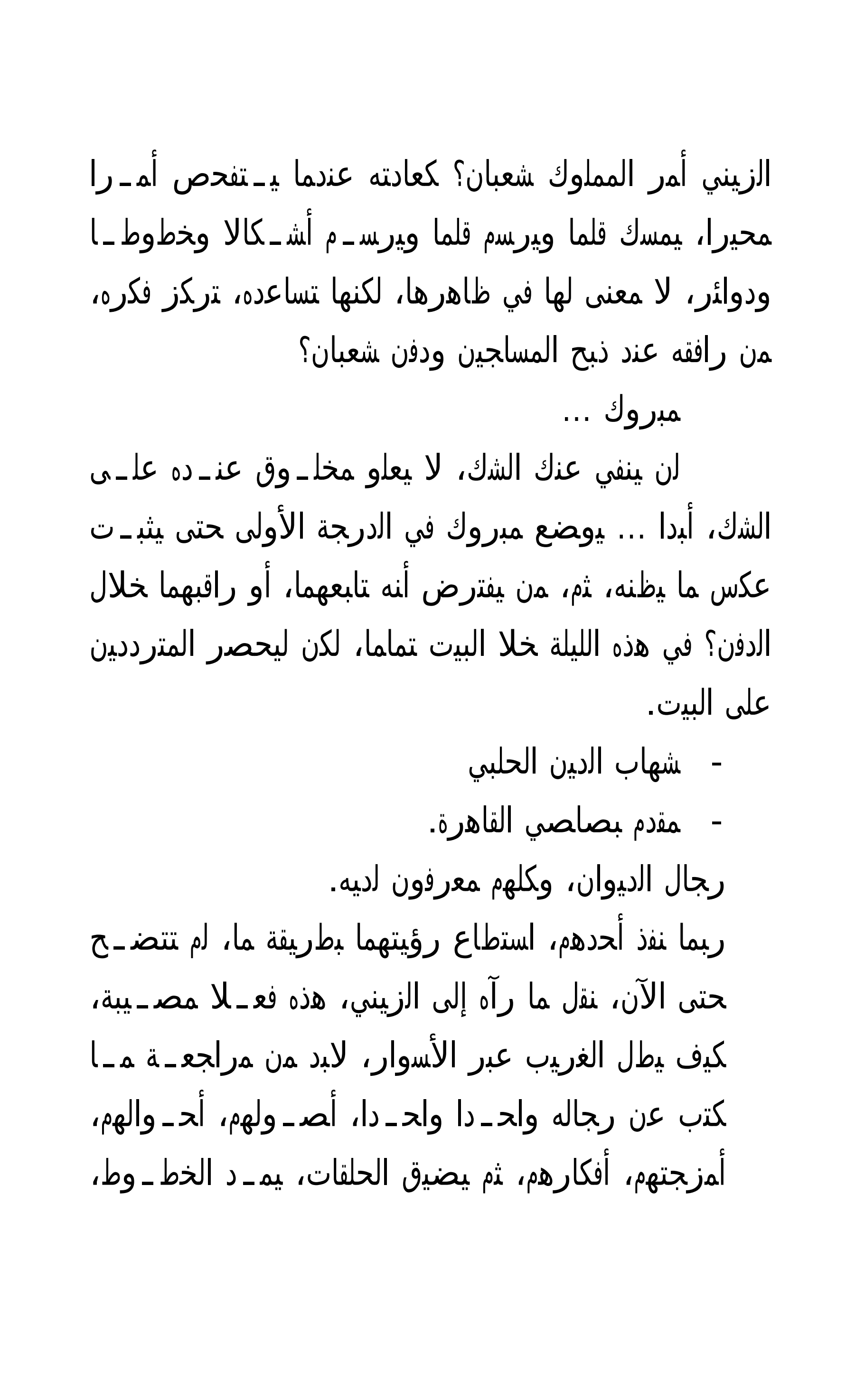
الزيني مباشرة في غرضـه قـال: بـدون لـف أو دوران، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط ... أين أخفى علـي بن أبي الجود أمواله؟ أسند زكريا جبهته إلى أصبعين من يده اليمني، باختصار كعناوين البطائق " لا أعرف" زعق طـائر غريب الحس في السماء، الليل يشيخ، قام الزيني مرة واحدة، على مهل اقترب من زكريا " أنت يا زكريا تعرف تماما أين موجودات علي بن أبي الجود، أنت لا يخفى عنك شيء ولو خفي لما خاطرت بسمعتي وأقررتك نائبا للحسبة، أنت تعرف ليس لأنك شغلت منصب نائب علي بن أبي الجود إنما لأنـك زكريا، أتفهمني، لأنك زكريا بن راضي أعتى مـن تـولى منصب كبير بصاصي مصر" لم يرد زكريا، ليقل الزيني ما يريد، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه، الضـوء خافـت غامض مرعوش، يوشك على توهج لكن يدا قوية تحبسـه، توشك على إلغائه، قال الزيني بركات بن موسى "أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبي كما أعرف أنا قبر شعبان" الآن بعـد مضي زمن على مجيء الزيني آخر الليل لم تبرد حرارة ما قرره زكريا بعد انصراف الزيني، ربما امتد الـزمن سـنين طويلة، لكن ما قرره لابد أن يتم، يتحقق يوما، يراه مجسدا،


أي قوة استطاعت في أي زمن كبير البصاصين من تحقيـق غرض أضمره، لن يمنعه إنس ولا جان، ولا ألف طلسم، أبدا لن ينسى أيام العزلة التي فرضها على نفسه في اليوم التـالي لزيارة الزيني، أمر بألا تدخل إليه تقارير، طلب من مبروك ألا يريه ملامح أي إنسان، الطعام مضـغه بضـيق عنـدما اضطر إلى تناوله، عندما أنهى عزلته، جاءه رجاله مهنئين، لكنهم ارتدوا عنه خائبين، قابلهم بوجوم وضيق، سر في نفسه عندما أخبره شهاب الحلبي باستعداد كبير أطبـاء السـلطان للمجيء إليه طوال أيام عزلته في الأسـبوع الأول، التـالي لمجيء الزيني، دخل مبروك قال " الزيني بركات جاء، فـي الفناء وقف، يتحسس بعصاه جذع نخلة ضخمة مغطى برقائق نحاس، قال " أفضل لو جلسنا في الشمس، بيتي فـي بركـة الرطلي لا تدخله الشمس" الزينـي ينكـت الأرض بعصـاه الرفيعة، زكريا يسند جبهته إلـى يـده اليمنـي، أرجـو أن تسمعني، أن يتسع صدرك لي ... زكريا يهز رأسـه، جـاء الزيني بثيابه العادية، لا يرتدي الملابس البدوية، أفكار كثيرة تدور في عقلي، لكنها لن تتم إلا بعرضها عليك، أرجوك أن تخطئني إذا بدا لك هذا، أنت أكبر مني علما وتجربـة بمـا

سأقول، التردد واضح في ألفاظه، ارتياح خفي يتسرى إلـى زكريا، أردت أن أفضي إليـك بمـا أوده وأرغبـه لنظـام البصاصين، هل يمكن لإنسان أن يتخيل الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر بدون عيون قوية مخلصة ترى في كـل مكان ما أراه أنا ... قال زكريا بسرعة، عندك رجالـك ... نفض رأسه بسرعة، سرور في صـوته، ربمـا لاسـتجابة زكريا إلى الحديث، أعرف إنك ستقول هذا. لكنك يا زكريـا تهول من أمر رجالي، أليس من الأفضل للإنسان رؤية الدنيا بعينين بدلا من عين واحدة، صحيح، ستقول ومعـك الحـق كله، لدينا آلاف العيون، صحيح، لا أعتـرض. ولكـن لـو وجدت مجموعة أخرى لها نظام مخالف، طريقة ثانيـة، ألا يصبح هذا مفيدا، أولا ... أعذرني لأننا لا نلتقي بمـا فيـه الكفاية مشاغلي كثيرة جدا يا زكريا، تصور إنسانًا يقر بالعدل بين الناس في مثل هذا الزمان، أنت تعلم ما ينويه ابن عثمان ومهما طال الزمن فالحرب واقعة لا محالة، مهما طـال يـا شهاب، لقد أخبرت مولانا بهذا، وأقولها لك صريحة، بل إن ثقتي بك تدفعني إلى التصريح بما هو أكثر من هذا، المشرق لا يحتمل دولة بني عثمان ودولة المماليك في مصـر، إمـا

نحن وإما هم، لا تندهش يا زكريا أو بمعنى آخر لا تتصـنع الدهشة، أنت أدرى مني بهذا، من يعطس في القسـطنطينية تسمعه أنت هنا، كل حركة هناك أنت تعرفهـا، وبـإذن ا سوف يتغلب عليهم، ببركة البيت الذي يحميه مولانا، فكمـا ترى، الأحوال صعبة، لابد من لقائنا كثيرا، نـنظم أمورنـا معا، ما ينقله رجالي سأقدمه لك ملخصا كـل يـوم، عنـدك تجربة مهولة، عندك أدق نظام في الدنيا لاسـتخدام الحمـام الزاجل والبريد، وأنا وأنت نشهر سيف العدالة، أنا وأنت نقيم الميزان صحيحا لا يميل ولا يخل، ما أريده يـا زكريـا أن يصبح رجالنا أداة العدل بين الناس كل الناس لا بد أن تعرف هذا" كف الزيني فجأة عن الكلام، بقي زكريا نـاظرا إلـى الأرض، قال بعد لحظات " آه ... وبعد؟؟"، وكان الزيني لـم يتوقف قط، قال بسرعة " حتى لا أعطلك جئت إليك بأوراق فيها ما أتخيله، أرجوك إبداء الرأي فيها " ... عند الباب شـد على يد زكريا، أدعوك إلى الغـداء عنـدي ... أي وقـت تختار؟ قال زكريا " لا أفارق البيـت إلا نـادرا.." اتسـعت ابتسامة الزيني، "سوف أمد لك مائدة حافلة.." قال زكريا إذن سأرسل لك ونلتقي قريبا، عاد إلى الحديقة ليرجئ التفكير فيما

قاله حتى الليل، بعد قراءة هذه الأوراق، لا بد من النفاذ إلى باطن كل حرف، الأمر ليس هزلا، ما قدره منذ هذه الليلـة، يزداد رسوخًا في عقله، لكن الحقيقة الزيني رجل لم يعـرف مثيل، أحيانًا يفكر زكريا، بضرورة مجيئه بعد هذا الزمـان بسنوات، لا يدري مقدارها تماما، ولكن أليق به العيش فـي زمان بعيد، يلقي فيه أدوات يحلـم بوجودهـا، لا يـدركها لعجزه، وعجز زمانه عن تجسيدها، هذا الزيني جاءه أيضـا من العصر الغامض النائي الذي يود العيش فيـه، مثلـه لا يستهان به، مع مجيء الليل أدرك زكريا خاطر مزعج عنـد زيارة الزيني الخفية، يعود إلى ممارسة وظيفة لم يشرع فيها من قديم، تقريبا منذ توليه منصب مقدم بصاصـي القـاهرة، قبيل ارتقائه إلى منصب كبير البصاصين، الليلة يرتـد إلـى زمن بعيد تعقب فيه الخلق بنفسه، كان يتخفى في ثياب أرباب المهن والطوائف، وقتها استحدث طريقة جديدة فـي اقتفـاء الأثر، تعقب الإنسان بالسير أمامه، وهذا لا يقوم به إلا عتاة البصاصين، زكريا ابتدأ العمل بصاصا من أصغر الدرجات، لم يسبقه أحد في هذا، الليلة يرهف حواسـه التـي خدمتـه بصاصا صغيرا مبتدئًا، لكن أين؟ هنا في بيت، كيف عـرف


الزيني أمر المملوك شعبان؟ كعادته عندما يـتفحص أمـرا محيرا، يمسك قلما ويرسم قلما ويرسـم أشـكالا وخطوطـا ودوائر، لا معنى لها في ظاهرها، لكنها تساعده، تركز فكره، من رافقه عند ذبح المساجين ودفن شعبان؟

مبروك ...

لن ينفي عنك الشك، لا يعلو مخلـوق عنـده علـى الشك، أبدا ... يوضع مبروك في الدرجة الأولى حتى يثبـت عكس ما يظنه، ثم، من يفترض أنه تابعهما، أو راقبهما خلال الدفن؟ في هذه الليلة خلا البيت تماما، لكن ليحصر المترددين على البيت.

- شهاب الدين الحلبي
- مقدم بصاصي القاهرة.

رجال الديوان، وكلهم معرفون لديه.

ربما نفذ أحدهم، استطاع رؤيتهما بطريقة ما، لم تتضـح حتى الآن، نقل ما رآه إلى الزيني، هذه فعـلا مصـيبة، كيف يطل الغريب عبر الأسوار، لابد من مراجعـة مـا كتب عن رجاله واحـدا واحـدا، أصـولهم، أحـوالهم، أمزجتهم، أفكارهم، ثم يضيق الحلقات، يمـد الخطـوط،

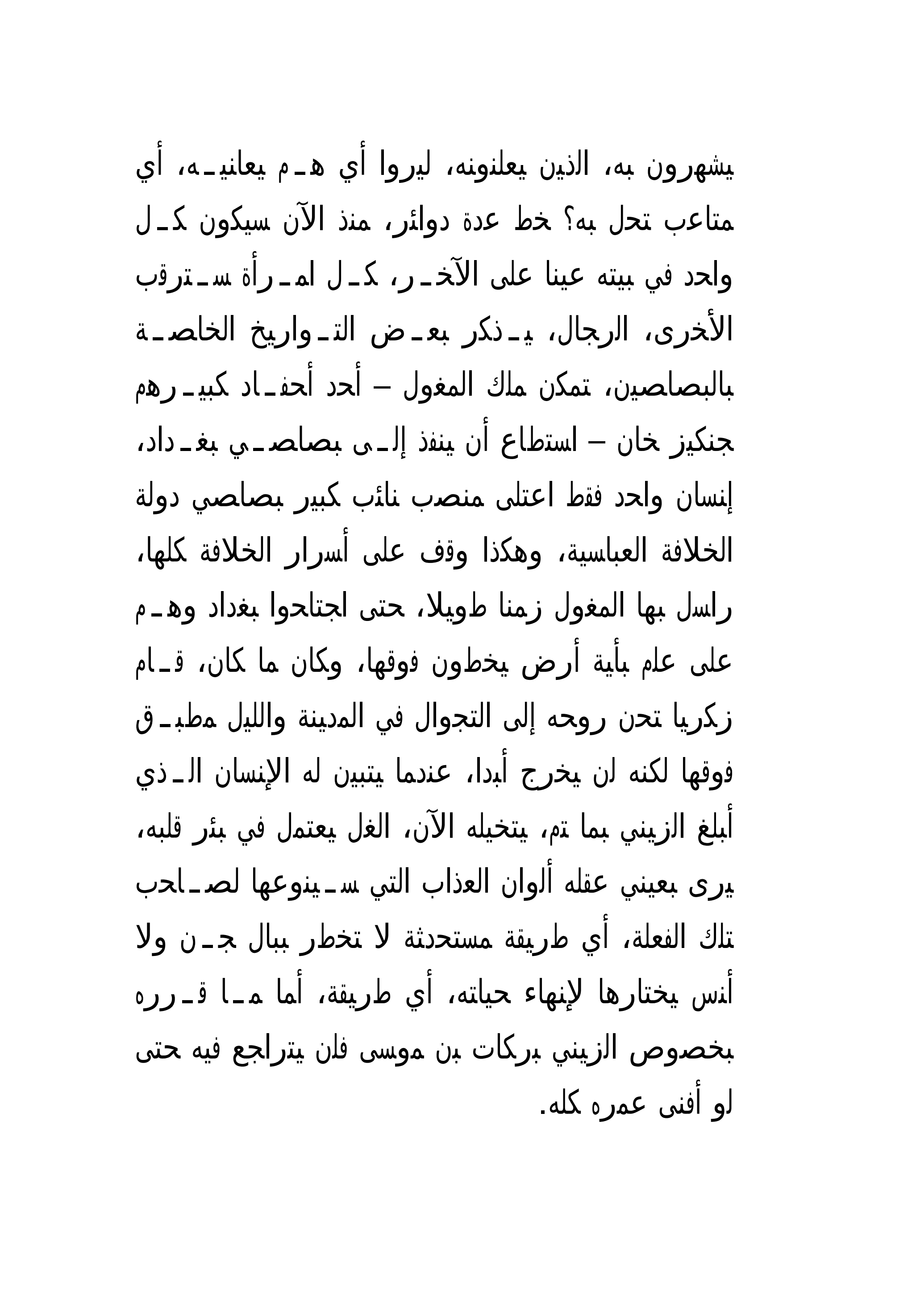
يضع الدوائر، حتى تضيق الحلقة حول عنق بعينه، ثـم ينتقل إلى معارفه وأقاربه خارج رجال الديوان.

- الحريم

(أ) نساؤه الأربع

(ب) الجواري

من الليلة، سيرى كلا منهن، ليبدأ بأقدمهن، حكمت، أولى حريمه، هجرها منذ وقت، ولم يزرها، الليلة يبـدأ بهـا، وعندما يشم عبير المسك، يرشف عصير العنب، يأكـل الدجاج المسقى بالسمن وماء الورد، تخرج الأسئلة منـه تائهة بلا قصد، الباقيات لكل منهن وقـت يلـي الليلـة، الجواري، "وسيلة" لكنها طفلة لا تكاد، جاءته قبيل تـولي الزيني بأسابيع، من يدري، لن يخرج أحد عـن دائـرة الشك، يبقى احتمال لجوء الزيني إلى حيلة جديدة يجهلها زكريا، هذا ما سيحاول الوصول إليه، لا بد من ذهابـه إلى " بركة الرطلي "، الزيني يقترح عليه بحث الوسائل والخبايا يريد معرفة طرقه، لا يغيب عن زكريا الضـيق الذي جاءه، صحيح أنه يأخذ حذره من جميع الناس بمـا فيهم أقربهم إليه، العاملون في بيته، حريمه، فليأت الذين


يشهرون به، الذين يعلنونه، ليروا أي هـم يعانيـه، أي متاعب تحل به؟ خط عدة دوائر، منذ الآن سيكون كـل واحد في بيته عينا على الآخـر، كـل امـرأة سـترقب الأخرى، الرجال، يـذكر بعـض التـواريخ الخاصـة بالبصاصين، تمكن ملك المغول – أحد أحفـاد كبيـرهم جنكيز خان – استطاع أن ينفذ إلـى بصاصـي بغـداد، إنسان واحد فقط اعتلى منصب نائب كبير بصاصي دولة الخلافة العباسية، وهكذا وقف على أسرار الخلافة كلها، راسل بها المغول زمنا طويلا، حتى اجتاحوا بغداد وهـم على علم بأية أرض يخطون فوقها، وكان ما كان، قـام زكريا تحن روحه إلى التجوال في المدينة والليل مطبـق فوقها لكنه لن يخرج أبدا، عندما يتبين له الإنسان الـذي أبلغ الزيني بما تم، يتخيله الآن، الغل يعتمل في بئر قلبه، يرى بعيني عقله ألوان العذاب التي سـينوعها لصـاحب تلك الفعلة، أي طريقة مستحدثة لا تخطر ببال جـن ولا أنس يختارها لإنهاء حياته، أي طريقة، أما مـا قـرره بخصوص الزيني بركات بن موسى فلن يتراجع فيه حتى لو أفنى عمره كله.

بسم ا   الرحمن الرحيم

قال تعالي: ﴿ادع إِلَى سبِيلِ ربك بِالْحِكْمةِ والْموعِظَةِ الْحسنَةِ وجادِلْهم بِالَتِي هِي أَحسن إِن ربك هو أَعلَم بِمن ضل عن سبِيلِهِ وهو أَعلَم بِالْمهتَدِين﴾

"ما أقدمه إليكم ليس إلا مجموعة خواطر وأفكار تراءت لنا، إذا ما رأيتم صلاحيتها أرجو أن نعمل معـا علـى إقرارها، حتى يستقيم العدل ويستقر ولن نبالي في هذا إلا مرضاة رب العالمين، وكما تعرفون فإن أشرف الخلـق عليه الصلاة والسلام، قال ((من أرضـى ا   بسـخط الناس كفاه ا   شرهم، ومن أرضى النـاس بسـخط ا   وكله ا   إليهم، ومن أحسن فيما بينه وبين ا   – تعالى – أحسن ا   فيما بينه وبين الناس، ومن أصلح سـريرته، أصلح ا   علانيته، ومن عمل لآخرتـه كفـاه ا   شـر دنياه)) وبعد.

كان أساس عملنا – أنا وأنت – إقرار الأمن والعدل فـي ربوع السلطنة، وسأقصـر حـديثي الآن علـى دائـرة اختصاصي (القاهرة والوجه البحـري الـذي أضـافه السلطان على نظارة حسبتي أخيرا) أما فيمـا يخـص

ربوع الشام، فهذا أمر أنت عليم به، خبير فيه، ولا أقـر عليه، وحتى يستقر العدل في بر مصر لا بد من إقامـة أسس قوية، ودعائم متينة، وكما هو معروف لدينا، فهذه وظيفة مكروهة عند الناس، فمن سـبقك لـم يظهـر إلا جانبها الوحشي، حتى غاب عن الخلق ضرورة وجودها وعدم استمرار الدنيا بدونها، من هنا فلابد من وصـولنا إلى لحظة يصبح فيها كل بصاص محبوبا مـبجلا مـن الجميع، رجال الدنيا والدين، وسيتم هذا بوسـائل عـدة سنناقشها معا، لكن ما يهمنـي الآن تقسـيم الجماعـات والفئات التي سنعمل خلالها، وتحديد أهمية كـل منهـا، وضرورة التركيز على بعضها دون الآخر.

تنقسم مصر إلى فئات (وجعلنا بعضـكم فـوق بعـض درجات)

١- السلطان والأمراء الكبار

٢- المماليك والأمراء الصغار

٣- أولاد الناس، المتعممون، والفقهاء أرباب الطوائـف والحرف، التجار.

٤- العامة من الناس

بالنسبة للفئة الأولى، يجب النفاذ إلى خباياهـا، عـن طريق بصاصين متخصصين على درجة عالية من الرفعـة والإلمام بالعلوم والقدرة على المناقشة ومعرفة تقاليد هذه الفئة وعلومهم، وغرضنا هنا حماية مولانا السـلطان والأمـراء الكبار، وأرى أن يكون البصاصون المخصصـون للتوغـل داخلهم من نفس الفئة (على خلاف المتبع حاليا)

- المماليك والأمراء الصغار وتخصهم فرقة تتبعك وتقـوم بعملها خير قيام
- الفئة الثالثة: لا بد من التركيز عليهـا، والاهتمـام بهـا اهتماما كبيرا فلهم تأثير عظيم على الفئات القريبة منهم، الجماعات العلوية (الأمراء والأكابر) أو السفلية (العامـة والأوباش).
- عامة الناس وهم دائما مثيرو الفتن، ربما حركوا بعـض المتعممين والفقهاء في ظروف عدة، وأجدني مضـطرا إلى تقسيمهم.

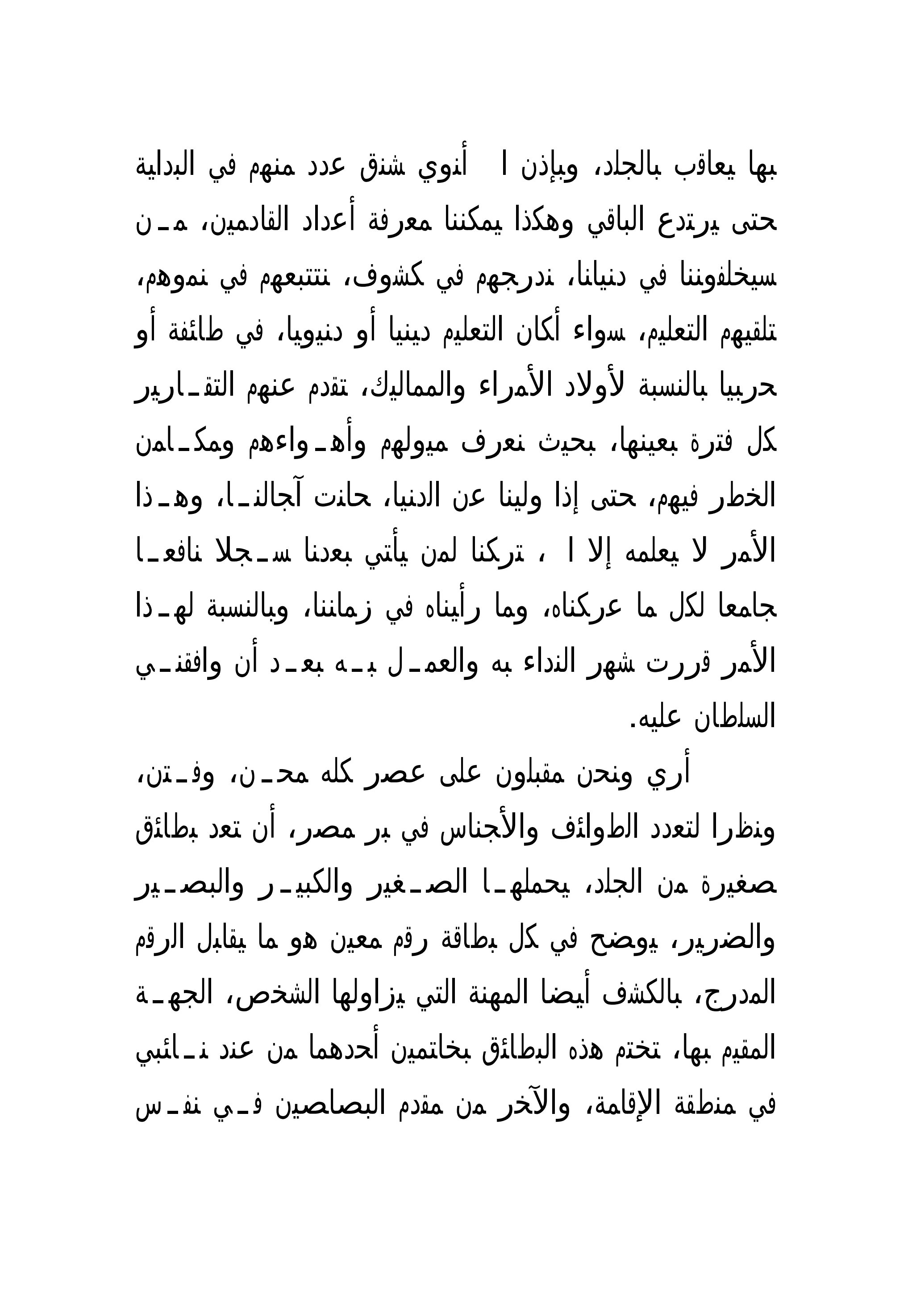
(أ) طلبة الأزهر والكتاتيب، وهؤلاء لابد مـن تتـبعهم باستمرار، وإثارة بعض الفتن من حين إلـى حـين لكشف من ضل ومال إلى جانب إثارة الفتنة والغـم،

وتحريض الأوباش على سادتهم، هؤلاء لا يجزرون من بين الناس فربما أثار هذا سخط العامـة، إنمـا يعاملون بطرق مختلفة وأساليب متنوعة سنتفق عليها معا.

(ب) بالنسبة للعامة فهؤلاء قطيع يتجه كيفما توجهه، إنه بحر زاخر طوع الريح، وحش بلا عقـل تسوسـه فيطيعك، والأعمار في هذه الفئة لا قيمة لها، فكلمـا ضاقت سبل العيش، قلت قيمة الحياة، وذهب عنـاء الحرص عليها ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين إلى آخر، بطريقة لا يعرفها أحـد، وهـذا يرهب الباقين.

أرجو مساعدتي في إعداد كشوف تضم أسماء جميع العاملين في الحرف والمهن والصناعات والتجـارة، كشـف يحوي أسماء القصاصين وآخر بـه البنـاءون والمرخمـون والصــباغون، والنقاشــون، والعقــادون، والصــدفجية، والنساجون، وباعة الحلوى والمشبك، والشربتلية. وغيرهم.

لا بد من حصر المواليد الذين يجيئون إلى الدنيا وكل أب ينجب طفلا لا يبلغ عنه إلى نائبي في المنطقة التي يقـيم



بها يعاقب بالجلد، وبإذن ا أنوي شنق عدد منهم في البداية حتى يرتدع الباقي وهكذا يمكننا معرفة أعداد القادمين، من سيخلفوننا في دنيانا، ندرجهم في كشوف، نتتبعهم في نموهم، تلقيهم التعليم، سواء أكان التعليم دينيا أو دنيويا، في طائفة أو حربيا بالنسبة لأولاد الأمراء والمماليك، تقدم عنهم التقارير كل فترة بعينها، بحيث نعرف ميولهم وأهواءهم ومكامن الخطر فيهم، حتى إذا ولينا عن الدنيا، حانت آجالنا، وهذا الأمر لا يعلمه إلا ا ، تركنا لمن يأتي بعدنا سجلا نافعا جامعا لكل ما عركناه، وما رأيناه في زماننا، وبالنسبة لهذا الأمر قررت شهر النداء به والعمل به بعد أن وافقني السلطان عليه.

أري ونحن مقبلون على عصر كله محن، وفتن، ونظرا لتعدد الطوائف والأجناس في بر مصر، أن تعد بطائق صغيرة من الجلد، يحملها الصغير والكبير والبصير والضرير، يوضح في كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج، بالكشف أيضا المهنة التي يزاولها الشخص، الجهة المقيم بها، تختم هذه البطائق بخاتمين أحدهما من عند نائبي في منطقة الإقامة، والآخر من مقدم البصاصين في نفس

المكان، ومن ضبط بدون بطاقة جلد، عوقب معاقبة شـديدة، وعند وفاة الإنسان تقوم أسرته بتسليم بطاقتـه إلـى مقـدم البصاصين لترفع إلى الديوان فيشطب اسمه مـن الأحيـاء، وينقل إلى كشوف الأموات ولا يستثنى الحريم.

في المدة المنقضية على ولايتي للحسـبة، لاحظـت طلوع حكايات بين الحين والحين تنتقل بين الناس الغـرض منها التشهير بأحد كبار رجال السلطنة، ومني شخصيا، وهذا أمر تتفق معي على ضرورة مقاومته وإزالة أسبابه حفاظـًا على هيبة الأمراء، والرجال الأكابر، وأضرب مثلا بسـيطًا، عندما أردت إنارة القاهرة بالفوانيس، تردد كلام كثير حـول الموضوع واعتبر واقعة عظيمة أدرجت في كتب التـاريخ، مما اضطرني إلى الرجوع عن أمر انتويته، وشـرعت فـي البدء فيه، هذا لم يغضبني قط ربما أخطأت الوقت، لكن مـا آلمني وأوجعني هذه الحكايات التي تـرددت علـى ألسـنة العامة، وهم يحبونني، مما دفع بي إلى الظن بـاختلاق هـذه الحكايات والنوادر، وأنت كنائب للحسبة ونائب لي في جميع ما أتولاه من مناصب (قررت هذا أخيرا) وما يلحـق بـي اليوم، يلحق بك غدا، ومما يمسني يمسك، لهـذا أرى أنـك

الوحيد القادر على مقاومة وإخفاء هذه النـوادر والحكايـات حال ظهورها ولن أقبل عذرا، فلا مستحيل يحول بينك وبين ما تريده.

واقبل مني السلام، وأدعو معك أن يجعـل ا هـذا البلد آمنا.

(متولي حسبة الديار المصرية)

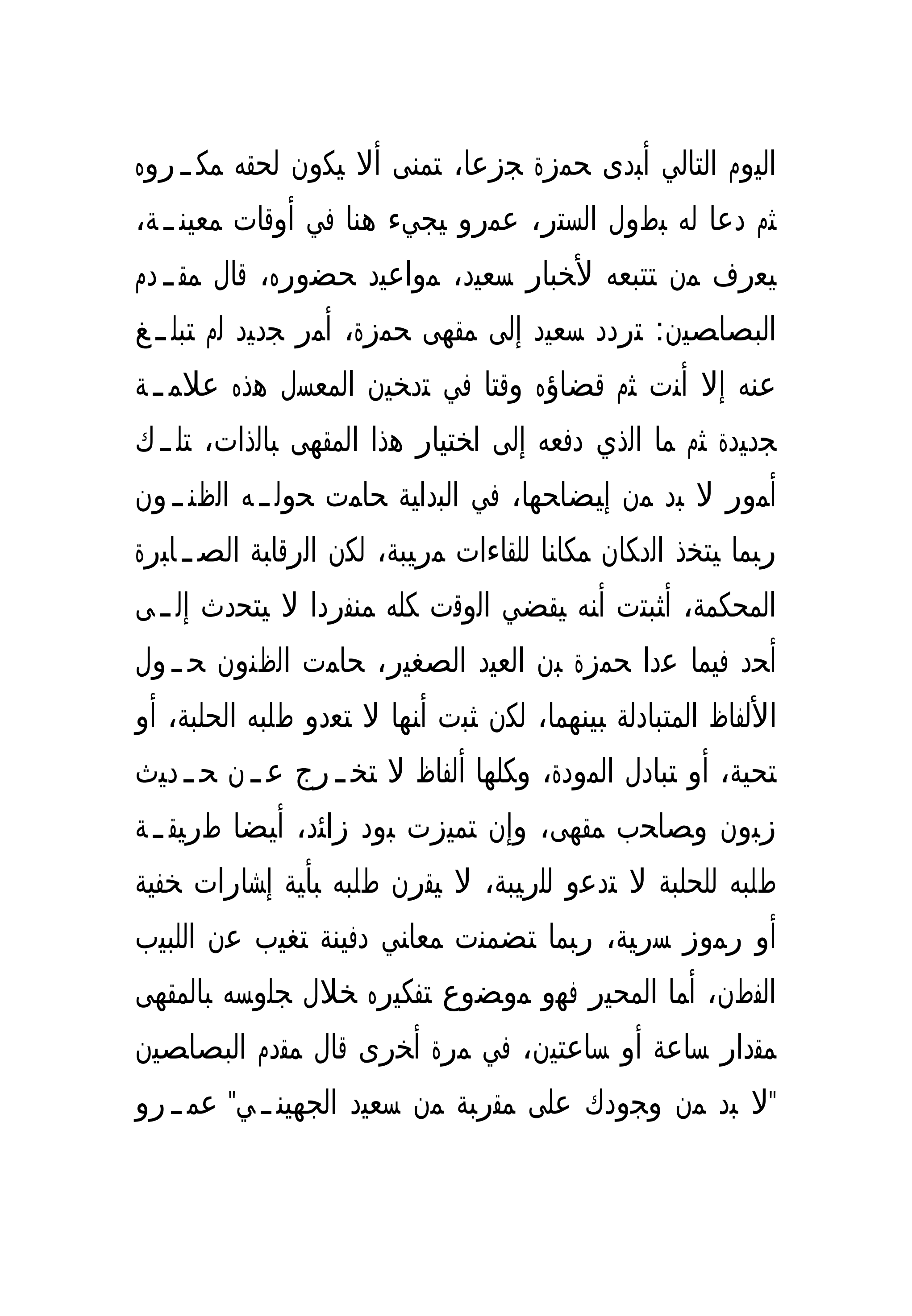
والي القاهرة

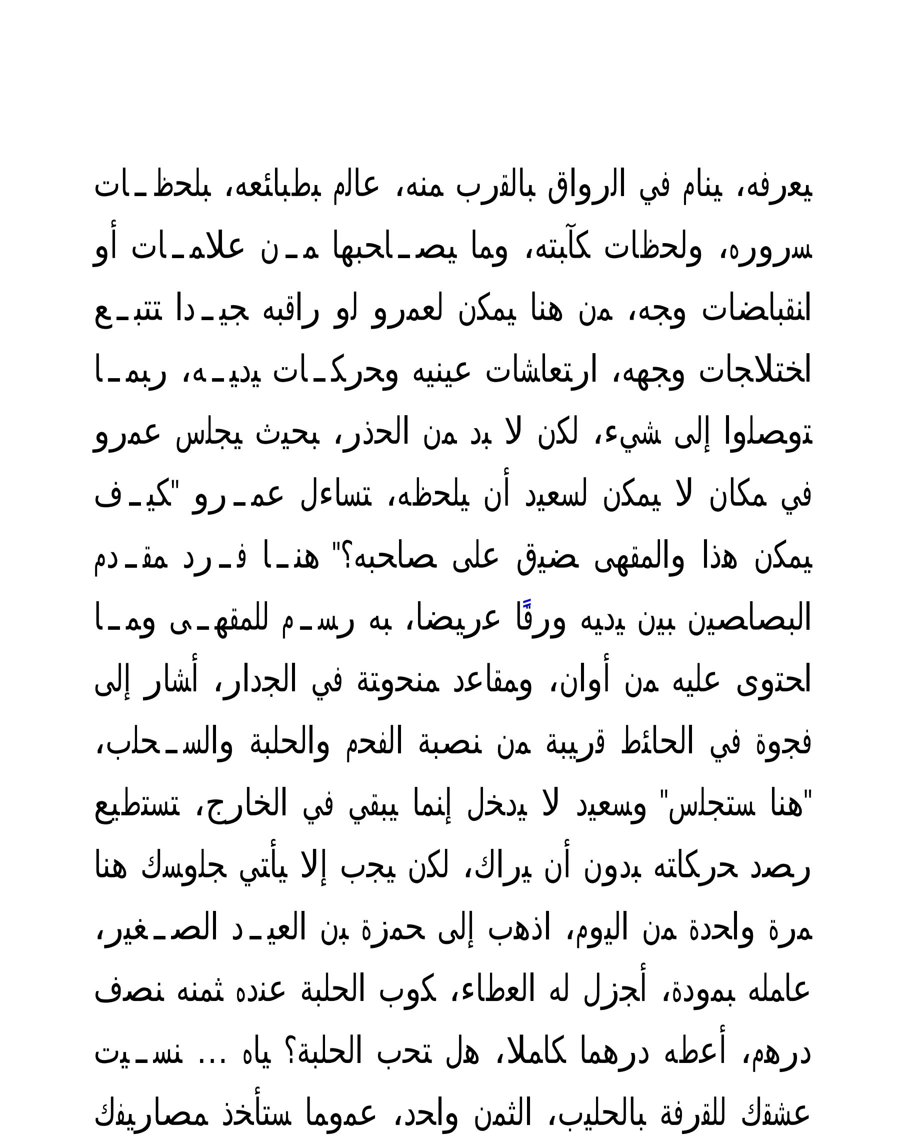
الزيني بركات بن موسى

عمرو بن العدوي

لا يدعه يغيب عن عينيه، إذا بعد عنه، عرف أخباره من أصحابه المجاورين، يجلس هادئًا بينهم ثم يسـأل عنـه سؤالا عارضا بلهجة يعرف الآن كيف يلونها تماما "ألم يـر أحدكم سعيد الجهيني؟" يقول أحدهم "خرج منـذ الصـباح"، يجيب آخر "سعيد تعود الجلوس في مقهى قريب من جـامع قلاوون" يقول عمرو "سعيد ابن حلال " يسكت" منذ أيام خرج عمرو إلى الطرقات يرى أياما نائيات يمسك فيهـا بجلبـاب أمه، خرجا إلى الحقول لينتزعا البطاطا، رائحة الضباب لـم تفارق أنفه رائحة الخبيز ساعة الظهيـرة، البـوص، وهـج الأفران، جريه مع الأولاد عند مجـيء نائـب المحتسـب، نظرات الحريم المذعورة من الطيقان الضيقة، خوف يضـم القلوب، عند سوق النحاسين يشم دخان المسـتوقد المجـاور لحمام قلاوون تسوى فيه قدور الفول المدمس.

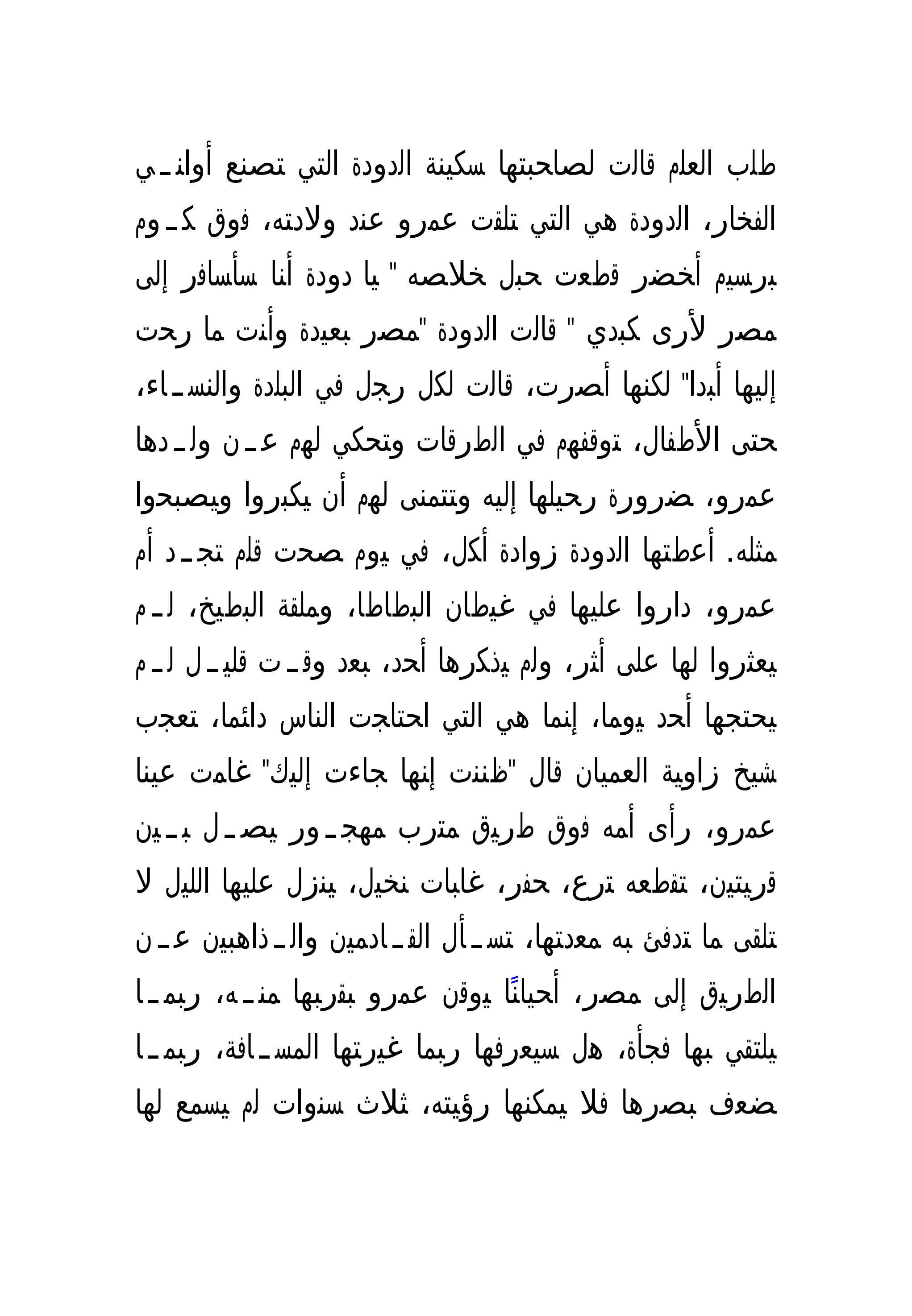
صباح الخير ... يرفع حمزة بـن العيـد الصـغير يده ... " أهلا ... أهلا بالقمر ... " منذ ثلاثة أسـابيع يمـر يوميا على حمزة، يشرب القرفة بالحليب، يدفع درهما كاملا بدلا من نصف درهم، في أحد الأيام تغيب عن المجيء فـي


اليوم التالي أبدى حمزة جزعا، تمنى ألا يكون لحقه مكـروه
ثم دعا له بطول الستر، عمرو يجيء هنا في أوقات معينـة،
يعرف من تتبعه لأخبار سعيد، مواعيد حضوره، قال مقـدم
البصاصين: تردد سعيد إلى مقهى حمزة، أمر جديد لم تبلـغ
عنه إلا أنت ثم قضاؤه وقتا في تدخين المعسل هذه علامـة
جديدة ثم ما الذي دفعه إلى اختيار هذا المقهى بالذات، تلـك
أمور لا بد من إيضاحها، في البداية حامت حولـه الظنـون
ربما يتخذ الدكان مكانا للقاءات مريبة، لكن الرقابة الصـابرة
المحكمة، أثبتت أنه يقضي الوقت كله منفردا لا يتحدث إلـى
أحد فيما عدا حمزة بن العيد الصغير، حامت الظنون حـول
الألفاظ المتبادلة بينهما، لكن ثبت أنها لا تعدو طلبه الحلبة، أو
تحية، أو تبادل المودة، وكلها ألفاظ لا تخـرج عـن حـديث
زبون وصاحب مقهى، وإن تميزت بود زائد، أيضا طريقـة
طلبه للحلبة لا تدعو للريبة، لا يقرن طلبه بأية إشارات خفية
أو رموز سرية، ربما تضمنت معاني دفينة تغيب عن اللبيب
الفطن، أما المحير فهو موضوع تفكيره خلال جلوسه بالمقهى
مقدار ساعة أو ساعتين، في مرة أخرى قال مقدم البصاصين
"لا بد من وجودك على مقربة من سعيد الجهينـي" عمـرو

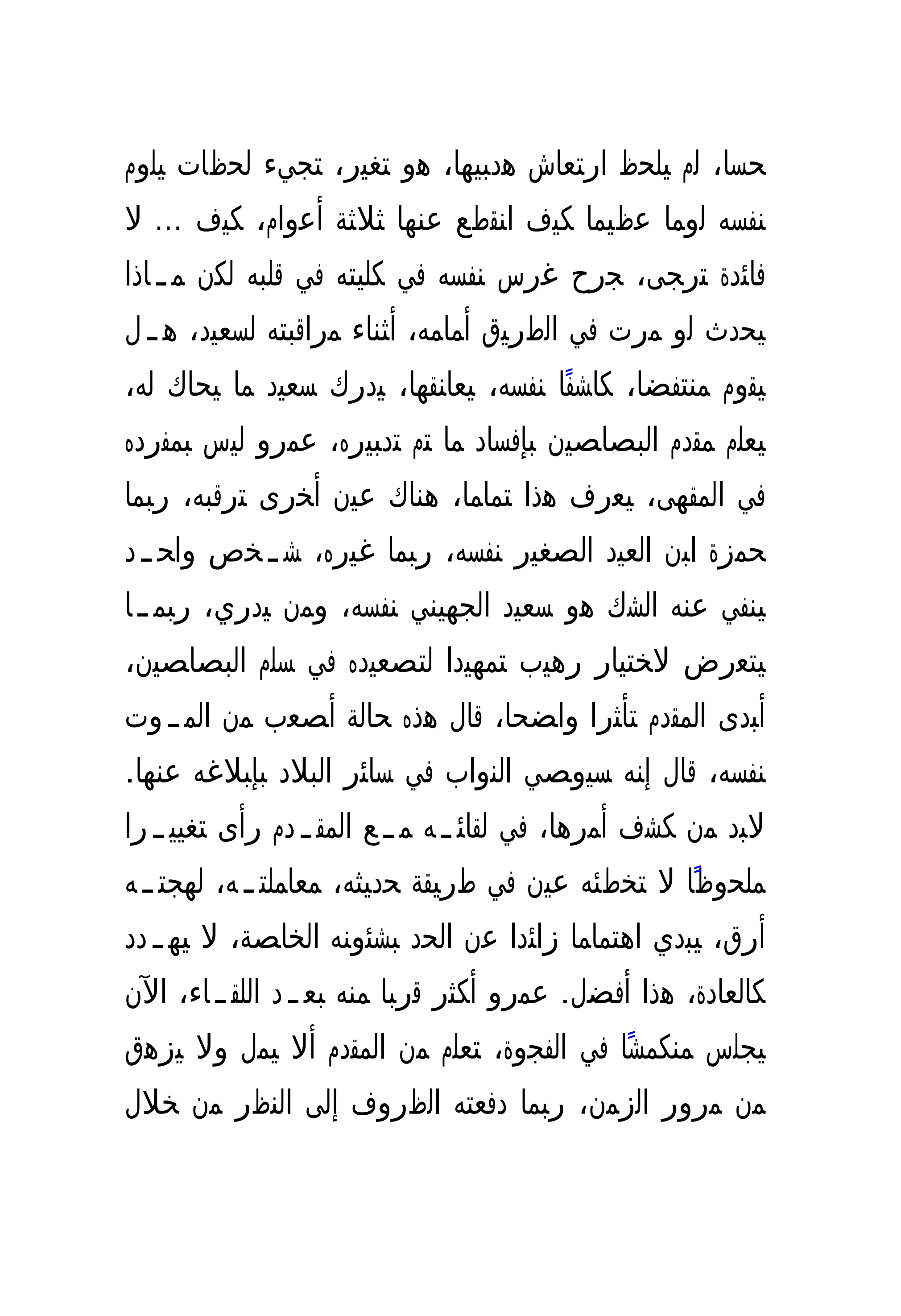


يعرفه، ينام في الرواق بالقرب منه، عالم بطبائعه، بلحظات سروره، ولحظات كآبته، وما يصاحبها من علامات أو انقباضات وجه، من هنا يمكن لعمرو لو راقبه جيدا تتبع اختلاجات وجهه، ارتعاشات عينيه وحركات يديه، ربما توصلوا إلى شيء، لكن لا بد من الحذر، بحيث يجلس عمرو في مكان لا يمكن لسعيد أن يلحظه، تساءل عمرو "كيف يمكن هذا والمقهى ضيق على صاحبه؟" هنا فرد مقدم البصاصين بين يديه ورقًا عريضا، به رسم للمقهى وما احتوى عليه من أوان، ومقاعد منحوتة في الجدار، أشار إلى فجوة في الحائط قريبة من نصبة الفحم والحلبة والسحاب، "هنا ستجلس" وسعيد لا يدخل إنما يبقي في الخارج، تستطيع رصد حركاته بدون أن يراك، لكن يجب إلا يأتي جلوسك هنا مرة واحدة من اليوم، اذهب إلى حمزة بن العيد الصغير، عامله بمودة، أجزل له العطاء، كوب الحلبة عنده ثمنه نصف درهم، أعطه درهما كاملا، هل تحب الحلبة؟ ياه ... نسيت عشقك للقرفة بالحليب، الثمن واحد، عموما ستأخذ مصاريفك كاملة أول كل أسبوع، من اليوم ستذهب إلى الدكان لمدة خمسة عشر يوما، بعد صلاة المغرب في أي وقت بعد

العشاء يمكنك أن تجلس في أي مكان تشاء، سعيد لا يأتي في هذه الأوقات، في اليوم السادس عشر أذهـب مبكـرا إلـى الدكان، أطلب إلى حمزة بن العيد الصغير أن يبقيك جالسـا في هذه الفجوة، هنا ... ابق ولا تتحرك، أظهر الحزن، وعدم الرغبة في الكلام سيجيء سعيد ... سيجلس هنا، هل تـرى؟ ومن مكانك ستراه تماما، لن يتمكن مـن رؤيتـك ... هـل فهمتني؟ أبدى عمرو تعجبا لدقة التفاصيل. سـخط الـدكان ومسخ ليبقى بهذا الحجم فوق الورق، قال المقدم " توكل على بركة ا ... اسمع ... هل تحتاج نقودا؟ "هز عمرو رأسـه "خيرك يغرقني" بقيت يده معلقة بين يدي المقدم، "ما أخبـار الوالدة؟ " كأن فصا مر الطعم ذاب في ريقه، لا يعرف لهـا خبر، عندما رجع شيخ زاوية العميان، أسرع إليـه، يعـرف إنها لابد سترسل إليه شيئًا من البلد، ربما أرغفة بتاو، قـدر مليء بالمش والجبنة القديمة تصل به الـزمن الـذي قطـع المسافة بينهم، عمرو لن ينسى أبدا صوت الرجل قال " لـم أعثر لها على أثر، قالوا في البلدة إنها لم تمت، منذ مدة بدأت تتحدث عن مجيء هاتف في المنام أنذرها بقلة ما تبقى مـن عمرها، لابد من رؤية عمرو ولدها، وحتى لا تشـغله عـن



طلاب العلم قالت لصاحبتها سكينة الدودة التي تصنع أواني الفخار، الدودة هي التي تلقت عمرو عند ولادته، فوق كوم برسيم أخضر قطعت حبل خلاصه " يا دودة أنا سأسافر إلى مصر لأرى كبدي " قالت الدودة "مصر بعيدة وأنت ما رحت إليها أبدا" لكنها أصرت، قالت لكل رجل في البلدة والنساء، حتى الأطفال، توقفهم في الطرقات وتحكي لهم عن ولدها عمرو، ضرورة رحيلها إليه وتتمنى لهم أن يكبروا ويصبحوا مثله. أعطتها الدودة زوادة أكل، في يوم صحت قلم تجد أم عمرو، داروا عليها في غيطان البطاطا، وملقة البطيخ، لم يعثروا لها على أثر، ولم يذكرها أحد، بعد وقت قليل لم يحتجها أحد يوما، إنما هي التي احتاجت الناس دائما، تعجب شيخ زاوية العميان قال "ظننت إنها جاءت إليك" غامت عينا عمرو، رأى أمه فوق طريق مترب مهجور يصل بين قريتين، تقطعه ترع، حفر، غابات نخيل، ينزل عليها الليل لا تلقى ما تدفئ به معدتها، تسأل القادمين والذاهبين عن الطريق إلى مصر، أحيانًا يوقن عمرو بقربها منه، ربما يلتقي بها فجأة، هل سيعرفها ربما غيرتها المسافة، ربما ضعف بصرها فلا يمكنها رؤيته، ثلاث سنوات لم يسمع لها

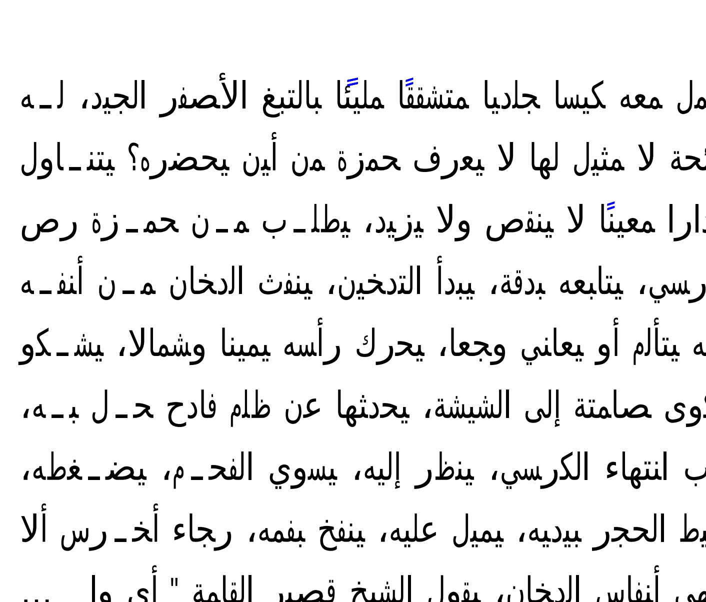


حسا، لم يلحظ ارتعاش هدبيها، هو تغير، تجيء لحظات يلوم نفسه لوما عظيما كيف انقطع عنها ثلاثة أعوام، كيف ... لا فائدة ترجى، جرح غرس نفسه في كليته في قلبه لكن مـاذا يحدث لو مرت في الطريق أمامه، أثناء مراقبته لسعيد، هـل يقوم منتفضا، كاشفًا نفسه، يعانقها، يدرك سعيد ما يحاك له، يعلم مقدم البصاصين بإفساد ما تم تدبيره، عمرو ليس بمفرده في المقهى، يعرف هذا تماما، هناك عين أخرى ترقبه، ربما حمزة ابن العيد الصغير نفسه، ربما غيره، شـخص واحـد ينفي عنه الشك هو سعيد الجهيني نفسه، ومن يدري، ربمـا يتعرض لاختيار رهيب تمهيدا لتصعيده في سلم البصاصين، أبدى المقدم تأثرا واضحا، قال هذه حالة أصعب من المـوت نفسه، قال إنه سيوصي النواب في سائر البلاد بإبلاغه عنها. لابد من كشف أمرها، في لقائـه مـع المقـدم رأى تغييـرا ملحوظًا لا تخطئه عين في طريقة حديثه، معاملتـه، لهجتـه أرق، يبدي اهتماما زائدا عن الحد بشئونه الخاصة، لا يهـدد كالعادة، هذا أفضل. عمرو أكثر قربا منه بعـد اللقـاء، الآن يجلس منكمشًا في الفجوة، تعلم من المقدم ألا يمل ولا يزهق من مرور الزمن، ربما دفعته الظروف إلى النظر من خلال

ثقب مشربية يوما كاملا، يرقب وصول إنسان بعينـه قـد لا يجيء، عليه ألا يدع للضـيق سـبيلا إلا روحـه، بـالفجوة رطوبة، وفي القلب حنين إلى عجوز لا يعرف مكانها، إلـى أي أرض تمضي، بأي أرض تموت، لكن الحنين يجـب أن يتوارى، الآن يعمل، يسعى من أجل عيشه، لم يقربه حمـزة كما رجاه، جاء ثلاثة من مشايخ الكتاتيب التي تحفظ القـرآن للصبية، أحدهم يرشف السحاب بصوت مسموع ... تضـايق عمرو، ترحم أكبرهم سنا على أيام زمان عندما كان الصبية يسعون بأرواحهم إلى حفظ القرآن وتلاوته، لكن الزمن مـا عاد الزمن، الصبي ابن العاشرة يجلس أمامك وكأنـه قاعـد على فرخ جمر، ما يصدق الحصة تخاص حتى يهـج، قـال أحدهم " والشقاوة ... أعوذ با منها ..."، قال ثالث " هـذه علامات الساعة" تساءل عمرو بينه وبين نفسه " مـا الـذي يقصده بعلامات الساعة؟ " لينتبه، صحيح أنه هنا من أجـل سعيد، لكن لابد من الإصغاء إلى ما يجـري، ربمـا طلـع بحديث له قيمته، ربما وقع مصادفة على ما لن يقـع عليـه بالترتيب والتدبير. قال أكبرهم" أي وا ... لا أعجـب لـو أخبرني أحد عن بغلة أنجبت "، قال الثالث- أقصرهم قامـة

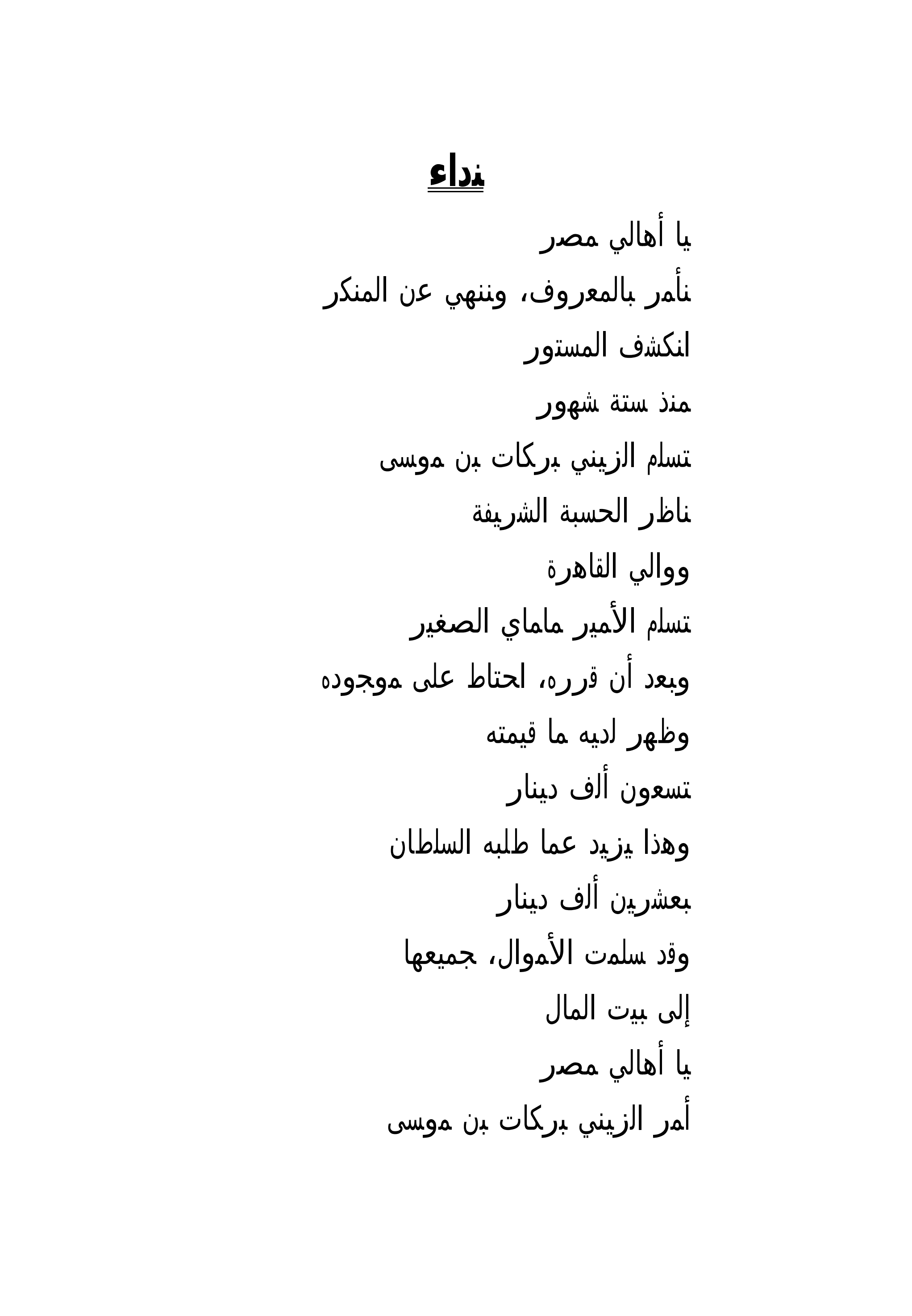
"نستعيذ بالله يا مولانا ... لو حملت بغلة وأنجبت لكان هـذا علامة على انتهاء عمر الدنيا " قال غليظ الصـوت، " ومـا أدراك أنها لا تنتهي" أصغى عمرو، حديث طريف لكن لـه مغزى ... بأي سيم يتخاطب العجائز؟؟، ليفتح آذنيه تمامـا، عندما قابل مقدم البصاصين أول مرة قال لـه، " البصـاص المكين عبارة عن أذنين وعينين، يسمع ويرى، يحفظ وينقل، حتى في ساعات نومه"، عشنا وشفنا بدعا لها العجب، يعنـي الآن لا يقدر إنسان على الحركة من بيته إلـى الجـامع إلا بقطعة الجلد هذه ... والله عجيب"، قال قصير القامـة " لـم نسمع بهذا من قبل " آه لـو يعـرف عمـرو أي الكتاتيـب يديرون؟؟ سيسأل حمزة عنهم آخر النهار أو غـدا حتـى لا يثير ريبته، وحتى يثبت التزامه بقواعد البصاصة الصحيحة، لو صح أن حمزة عين ترقبه، انتبه عمرو إلى وصول رجلين من التجار، دخل أولهما، أشيب الشعر وهو يسأل؟ " يا ترى هل خلع السلطان عمامته الخفيفة، ولبس الكبيرة" قال الثاني، "لو تم هذا فمعناه شفاؤه من مرضه لكن البشائر لم تدق بهذا" تساءل عمرو، من أي حي هما؟؟ في الناحية الأخرى أكبـر الشيوخ "ومن علامات الساعة ظهور المسيخ الدجال"، التاجر

أشيب الشعر " أنا متأكد أنه ارتدى العامـة الكبيـرة وقابـل الأمير طومانباي" يقول ثاني المشايخ " وا أشعر أن المسيخ الدجال يسعى بيننا، يدق قلب عمرو، هذا خطيـر، التـاجر الصغير: لا أصدق أبدا أن السلطان ارتدى العمامة الكبيـرة، وإلا ... فأين البشائر آه ... أين البشـائر؟؟" الشـيخ أشـيب الشعر، " أي وا ينقصنا طلوع الشمس من المغرب" التاجر الصغير "عموما ... أنا لا أستبعد هذا ... ربما، دخل رجـل رفيع أسمر حول رأسه عمامة صغيرة زرقاء نصراني مـن أهل الذمة، حمزة بن العيد الصغير حدث عمـرو عنـه، لا يتحدث كثيرا انتظار الكلام منه كنزول المطر في بؤونة، كل يوم يجيء أربع مرات، مرة بعد طلوع الشمس بمجرد فـتح الدكان، وفي الضحى، ثم العصر، وقبيـل إغـلاق الـدكان، آه ... يضحك المشايخ، هل فاته شيء؟ أشيب الشعر يقـول "سيمد ا في أجلي حتى أشمت في زمني" يضحكون، لابـد أن يتذكر الجملة جيدا، التـاجر الصـغير "اشـترينا الأردب بدينار ونصف اضطررنا إلى هـذا ... " تغيـر موضـوع حديثهما، النصراني في كل مرة يشرب كوبا من اليانسون بلا سكر، يدخن كرسيين من الدخان، لا يدخن تبغ الدكان، إنمـا



يحمل معه كيسا جلديا متشققًا مليئًا بالتبغ الأصفر الجيد، له رائحة لا مثيل لها لا يعرف حمزة من أين يحضره؟ يتناول مقدارا معينًا لا ينقص ولا يزيد، يطلب من حمزة رص الكرسي، يتابعه بدقة، يبدأ التدخين، ينفث الدخان من أنفه كأنه يتألم أو يعاني وجعا، يحرك رأسه يمينا وشمالا، يشكو شكوى صامتة إلى الشيشة، يحدثها عن ظلم فادح حل به، قرب انتهاء الكرسي، ينظر إليه، يسوي الفحم، يضغطه، يحيط الحجر بيديه، يميل عليه، ينفخ بفمه، رجاء أخرس ألا تنتهي أنفاس الدخان، يقول الشيخ قصير القامة " أي وا ... أي وا "، يرد أشيب الشعر" لكنني لم أصدقه قط ... أقسم الأيمان المغلظة لكنني لم أصدقه" حمزة حكى ما يعرفه عنه، يسكن في وكالة الفراخ، قرب خان الخليلي، لا زوجة عنده ولا أولاد. مرة رآه حمزة يبكي، يبكي بدموع تنسال من عينيه سهلة لينة بلا مانع، بلا نشيج، تساءل عمرو، من أين يأتي بالتبغ؟؟ ما الذي يجعله مهموما؟؟ كأنه يتحدث إلى رجال اختفوا عن العيون كلها إلا عينيه هو، آه ... سعيد يجلس أمام الدكان، حضور مفاجئ لم ينتبه إليه، لم يذكر رؤيته المفاجئة، هذا أمر يحسب عليه، يقعد فوق الدكة،

أطرق، عمرو يحاول تهدئة دقات قلبه، حقا لا يزال الشـوط بعيدا حتى يصل إلى حد الكمال، أن يرى مهما يرى، لكـن مشاعره لا تتغير، لا تتبدل، هذه درجة راقية لا يصل إليهـا إلا كل بصاص مكين، آه لو هناك حيلة ينفذ بها الإنسان إلى ما يدور في عقل الآخر، لعرف البصاصون دلالـة رعشـة العين، أي الخواطر دفعت الأنف إلى اختلاجة سريعة، تراجع عمرو حتى ألصق ظهره بجدران الدكان.



نداء

يا أهالي مصر

نأمر بالمعروف، وننهي عن المنكر

انكشف المستور

منذ ستة شهور

تسلم الزيني بركات بن موسى

ناظر الحسبة الشريفة

ووالي القاهرة

تسلم الأمير ماماي الصغير

وبعد أن قرره، احتاط على موجوده

وظهر لديه ما قيمته

تسعون ألف دينار

وهذا يزيد عما طلبه السلطان

بعشرين ألف دينار

وقد سلمت الأموال، جميعها

إلى بيت المال

يا أهالي مصر

أمر الزيني بركات بن موسى

ناظر الحسبة الشريفة

ووالي القاهرة

بفرض ضريبة على بيوت الخطأ

ومنع تردد من هم دون العشرين عليها

حفاظا على الخلق، والشريعة

يا أهالي مصر

بعد يومين، يسافر الزيني

إلى جهات دمياط، والدقهلية

لكشف أمورها

ودفع العربان عنها

وإقرار النظام بها

وسوف يقوم بأعماله في غيبته

عبد العظيم الصيرفي

صراف الحسبة

ونائبها لشئون الأموال

وجميع الأمور ستبقى على حالها

وسيعاقب المخالف

يا أهالي مصر

تعهد الزيني بركات بن موسى

ناظر الحسبة الشريفة

ووالي القاهرة

إلى مولانا السلطان

باستلام الأمير بكتمر الساقي أمير عشرة

واستخراج أموال المسلمين منه

ويقدرها الزيني بخمسين ألف دينار خالصة

غير ما يظهر

من المخبأ ...

***

عاجل:

إلى مقدم بصاصي القاهرة

في يوم الاثنين، في الصباح، حيـث خـرج الخلـق يحتفلون بشم النسيم، يمارسون اللهو والفرجة، رأيت سـعيد الجهيني، وفي الحال تواريت عنه، لم يكـن بمفـرده، إنمـا تصحبه امرأتان، إحداهما كبيرة السن، اقتفيت خطواتهم، من باب الخلق إلى حدائق بولاق، وهناك لحق بهما شيخ معمـم اسمه ريحان البيروني، أعلم بتردد سعيد على بيتـه، وبـدا سعيد – وأنا أقطع الشك باليقين، والتردد بالثبات – مولهـا، مدلها، غارقًا حتى أذنيه في عشق ابنة الشـيخ البيرونـي، وعرفت من أصحابي المجاورين أنه كثيرا ما يلفـظ باسـم "سماح" أثناء نومه وسماح هي ابنة الشيخ وقد أمضيا اليـوم كله في حدائق بولاق، انفرد سعيد بها مرتين، حدثها وحدثته، وسوف أتابع ما يستجد.

عمرو ......

نداء

يا أهالي مصر

يعلن عبد العظيم الصيرفي

صراف الحسبة

إن كل شيء على حاله

والأسعار كما قرر الزيني

وأي تاجر يتلاعب

دمه مباح

حتى يرجع الزيني من غيبته

***

نداء

يا أهالي القاهرة

أمر عبد العظيم الصيرفي

بشنق بائع بيض على باب دكانه

لأنه زاد سعر البيض

***

نداء

يا أهالي القاهرة

أمر عبد العظيم الصيرفي

بقطع ألسنة ثلاثة شبان

ضبطوا يشيعون البلبلة

***

نداء

يا أهالي القاهرة

أمر عبد العظيم الصيرفي

بتسليم ثلاثة مغاربة

إلى الشهاب الأعظم زكريا

النائب الأول للحسبة، ولوالي القاهرة

بعد ثبوت اتصالهم بابن عثمان

***

نداء

يا أهالي القاهرة

يأمر عبد العظيم الصيرفي

بأن يفتح كل إنسان أذنيه

ويدل على من شك في أمره

بوجود صلة له مع ابن عثمان

وله مكافأة

يا أهالي القاهرة

غدا ...

يتوجه الشهاب الأعظم زكريا

إلى جامع شيخون

ليؤم الصلاة

ويخطب في المؤمنين

والجامع مفتوح أمام الراغبين

***

بسم ا   الرحمن الرحيم

اللهم اجعل هذا البلد آمنا

"ديوان سر الشهاب زكريا بن راضي"

نبذة مرسلة بالحمام الزاجل

إلى الزيني بركات بن موسى متولي حسبة القـاهرة والديار المصرية، ووالي القاهرة. إلى دمياط.

١- من هو الشيخ ريحان البيروني؟؟

هو الشيخ ريحان بن زيد محمد الأسيوطي بن عامر الفاضل أحمد بن إبراهيم، أما البيروني فلقب لصق بالشـيخ، منذ أن درس علوم المنطق على يدي شيخ ضرير أتى إلـى الجامع العتيق في أواخر عام ٨٠٥ هـ جاء من بلاد الشـاه إسماعيل الصوفي، اسمه الشيخ البيروني ولم يكن شيعيا، أو منتميا إلى أي طائفة من طوائف الرافضة، إنما هـو سـني متعمق، عاش بمصر ولم يتزوج حتى مات عام ٨٨٣ هـ . دفن بالقرافة الشرقية مع العلماء الصالحين.

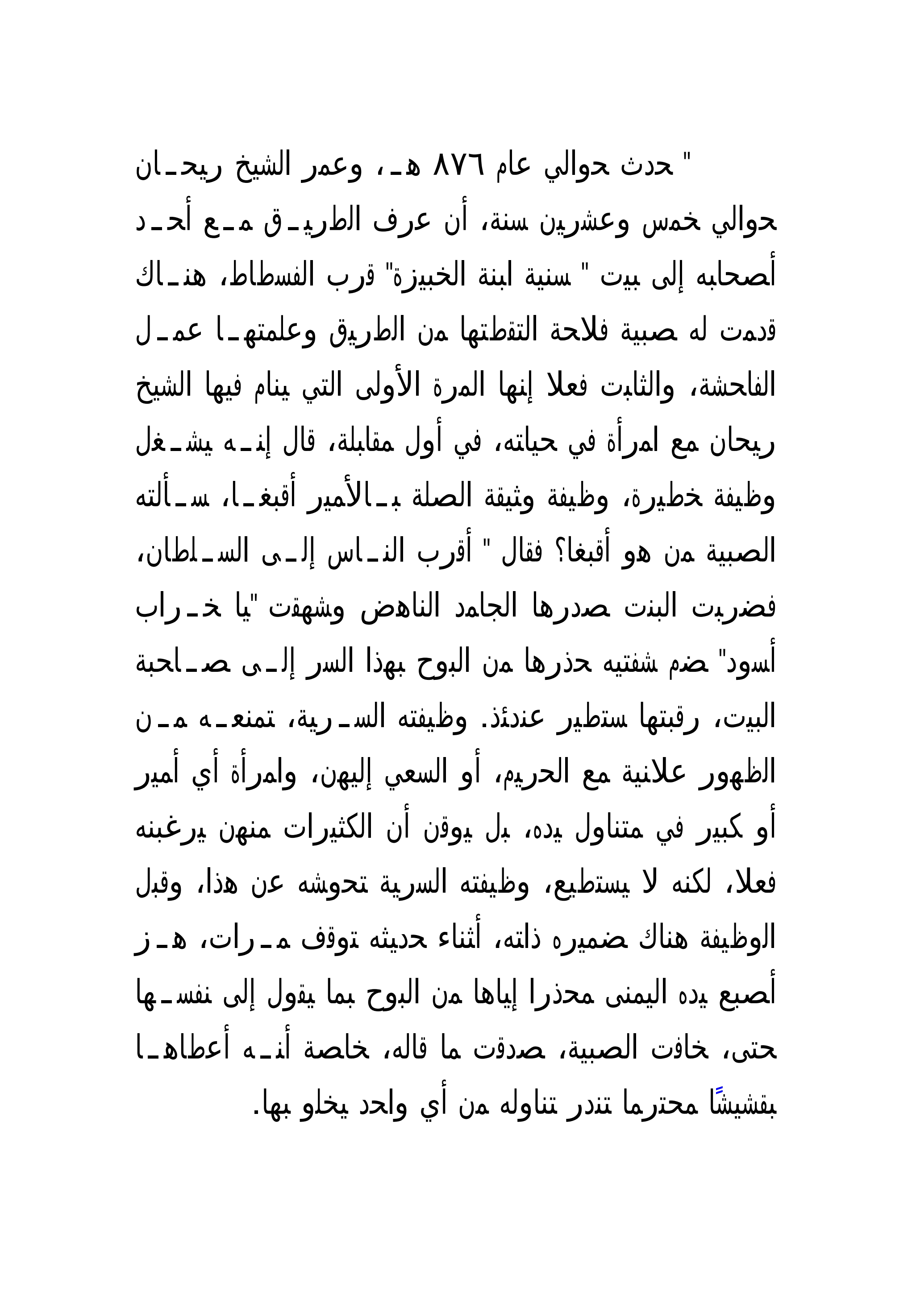
عمل الشيخ ريحان كاتبا صغيرا بديوان سر قاضـي القضاة، وفي هذه المدة قام بصياغة الحجج والفتـاوى التـي تصدر عن قاضي القضاة، وأتقن عمله، كما أتاح لـه هـذا

فرصة مشاهدة الأمراء وكبار رجال السلطنة عن قرب، ومن قبل لم يرهم إلا في المواكب، وعندما كان يلمحهم يتسـاءل ويروح عقله إلى بعيد، هل يضحك هـؤلاء الأكـابر كبقيـة الناس، هل يتبادلون النكات، والقفشات، هل يداعب الواحـد منهم صاحبه، يناديه بألفاظ الألفة والمودة، تساءل كثيرا عن طريقة أكلهم وكيف يقدم لهم الطعام، يغمض عينيـه، يـرى نفسه مقربا إلى أمير كبير، وقريب من مجلس السلطان نفسه، لكنه لا يدري ما يقوله لهم، بل من الثابت فعلا، وهذا دلـت عليه شواهد وقرائن، إنه تساءل إلى أحـد أصـحابه – فـي الفترة ما بين عامي ٨٦٣ هـ و ٨٧٥ هـ - عما إذا كـان شخص مثل الأمير تمر بغا أتابك العساكر وقتئذ، يبول ويفعل كبقية الناس؟؟ بل قال لصاحبه، كيف يتعرى السلطان ويلفـج الفراغ مؤخرته الضخمة عندما يعلو امرأة من حريمه، يسيل ريقه، يغمض عينيه وترتعش أطراف حنكه شهوة ورغبـة، واعتبر البيروني مثل هذه الأسئلة أمورا كبيرة، تستحق مؤلفًا ضخما، تمنى لو نفذ إلى الأكابر العظام، صـاحبهم بـادلهم الرأي في الزمان، ما يأملون فيه، ما يحلمـون، رأى نفسـه يجلس إلى أتابك العسكر، يدخنان سويا بعد عشـاء هنـيء،

يميل عليه الأتابك، يسر إليه بسر لا يعلمه إلا هو، أو الأمير الجوكندار المحمدي، يقص عليه حكاية خاصة جـدا تتعلـق بالسلطان، ثم يطلب منه ألا يفضي بها إلى أحد من النـاس، لأن السلطان لو عرف بتسربها لأطاح برقبة من حكاها ومن سمعها، لا يتخيل مدى سروره وفرحته وعظمة بهجته عندما تفضى إليه أسرار لم يسمعها غيره، أن يمشي فـي شـارع الصليبة، سوق الليمون تحت باب الفتوح، حوله الخلق، باعة ومشترون، في عقولهم مشاغل الدنيا الصغيرة والتافهة. أمـا دماغه هو فيعج بالأسرار، وعندما يجلس بأحـد الـدكاكين، يشرب الحلبة أو السحلب المخلوط باللبن، يرى نفسـه وقـد قضى الليل كله في قصر أمير كبير، لم ينم، لم يأخذ راحتـه وحقه في النوم، يضطر مع هذا إلى الـذهاب إلـى ديـوان المكاتبات، يصوغ الفتاوى والحجج، هنـا، يشـعر بعينيـه مجهدتين فعلا، بل يتثاءب عدة مرات ينظر إلى المحيطـين به، يلحظون كسله وتراخيه، لو سألوه فسيوضح لهـم فـورا طوال الليل يجالس الأمراء، ينادم الكبار العظام، فيعذرونـه، ينتهزون لحظات راحته فيسعون إليه، يطلبـون منـه رفـع

أمرهم إلى ذوي الشأن الذين يعرفهم، يرجونه في الوساطة وقضاء شئونهم، فهو طيب القلب لا يرد محتاجا عن بابه.

تتكاثر عنده الفتاوى التي يعمل في صياغتها، يضيق بطلبات عبد البر أن يسرع، يرى نفسه داخلا على الشيخ عبد البر قاضي القضاة، يقف أمامه، عبد البر تأخذه الدهشة، ما الذي غير حال مستخدمه، نظراته جامدة، عامته كبيرة، عطر وطيب يفوحان منه، بهدوء يميل عليه الشيخ ريحان يطلب منه ببساطة ألا يتعجله، حسه منخفض، لا بل مرتفع، أبدا الأفضل أن يكون منخفضا واثقًا، ألفاظه بليغة، سيقول لعبد البر أنه يطيل السهر مع الأمراء، إنه من خاصة الأمير بكتمر، ونديم منطاش، ومستودع سر الأمير طومانباي نفسه، أما الأمير تمر بغا فلا يتوكأ إلا على كتفه، سيفزع عبد البر، تغشاه رهبة، يخشى على نفسه، يأمر الشيخ ريحان بأن يعمل على مهله ألا يتعجل أبدا، أن يحل ويربط على هواه، ليس بعيدا أن يأمر السلطان بخلع القاضي عبد البر، فيسعى عبد البر إلى الشيخ ريحان ليرجوه أن يشفع له عند السلطان حتى يرده قاضيا.



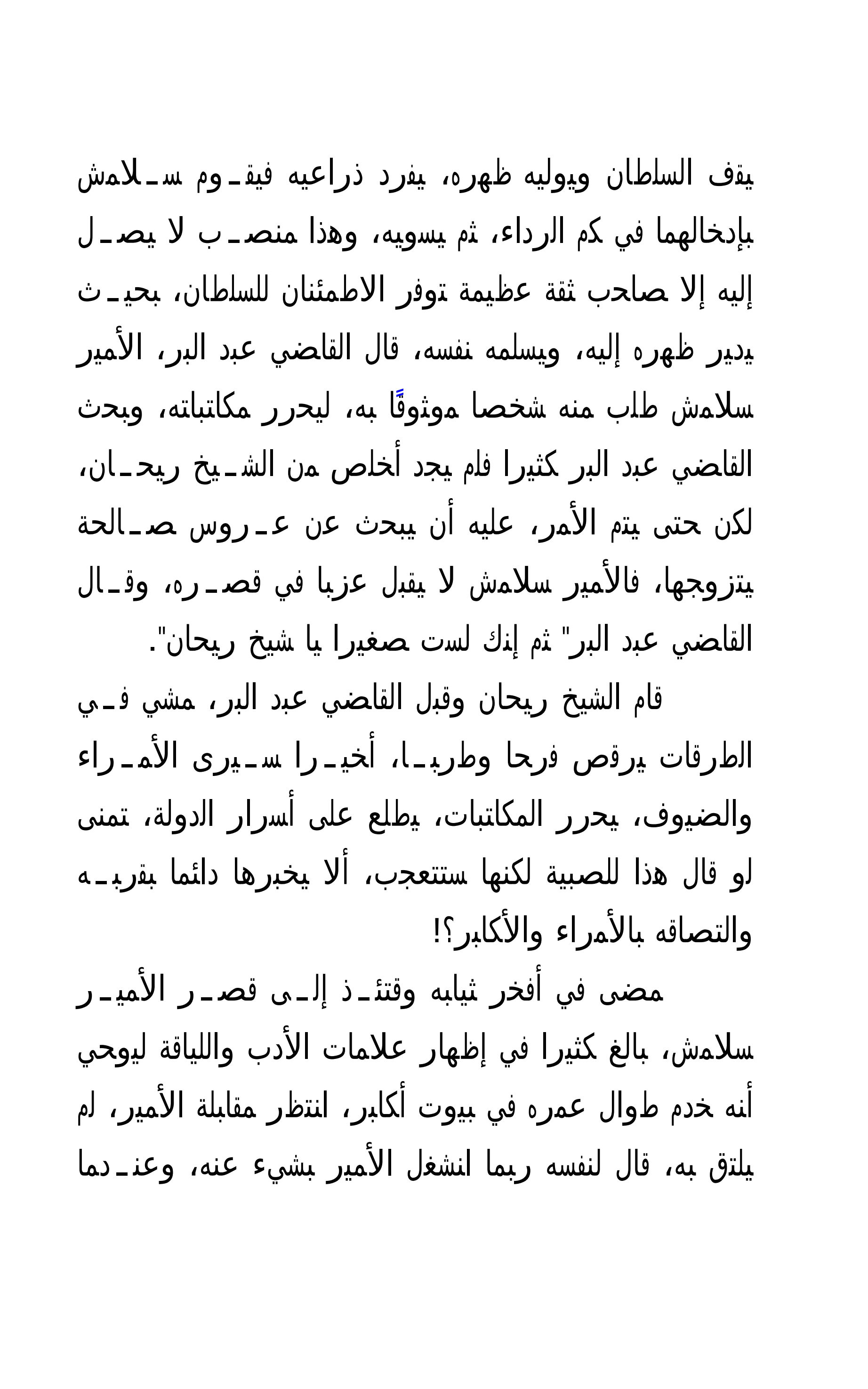
" حدث حوالي عام ٨٧٦ هـ، وعمر الشيخ ريحـان حوالي خمس وعشرين سنة، أن عرف الطريـق مـع أحـد أصحابه إلى بيت " سنية ابنة الخبيزة" قرب الفسطاط، هنـاك قدمت له صبية فلاحة التقطتها من الطريق وعلمتهـا عمـل الفاحشة، والثابت فعلا إنها المرة الأولى التي ينام فيها الشيخ ريحان مع امرأة في حياته، في أول مقابلة، قال إنـه يشـغل وظيفة خطيرة، وظيفة وثيقة الصلة بـالأمير أقبغـا، سـألته الصبية من هو أقبغا؟ فقال " أقرب النـاس إلـى السـلطان، فضربت البنت صدرها الجامد الناهض وشهقت "يا خـراب أسود" ضم شفتيه حذرها من البوح بهذا السر إلـى صـاحبة البيت، رقبتها ستطير عندئذ. وظيفته السـرية، تمنعـه مـن الظهور علانية مع الحريم، أو السعي إليهن، وامرأة أي أمير أو كبير في متناول يده، بل يوقن أن الكثيرات منهن يرغبنه فعلا، لكنه لا يستطيع، وظيفته السرية تحوشه عن هذا، وقبل الوظيفة هناك ضميره ذاته، أثناء حديثه توقف مـرات، هـز أصبع يده اليمنى محذرا إياها من البوح بما يقول إلى نفسـها حتى، خافت الصبية، صدقت ما قاله، خاصة أنـه أعطاهـا بقشيشًا محترما تندر تناوله من أي واحد يخلو بها.

"في كل يومي اثنين وخميس يمضي الشيخ ريحـان إلى الفسطاط، ومرة وجد الصبية متغيبة، رفض مضـاجعة أخرى برغم تحايل المعلمة سنية ابنة الخبيـزة، عـاد ليجـد الصبية متزينة في انتظاره، عندما تجرد مـن ثيابـه، تمـدد بجوارها خبط جبهته بيده، قال ... ياه ... خافـت الصـبية، مالك؟ أجاب، نسيت أمرا مهولا كلفني به الأميـر منطـاش، يسكت لحظات، مجرد سماعها هذه الأسماء، طريقته البسيطة في النطق بها، تخشى وتخاف، يتأسف قائلا وا أخطأت في حقه، منطاش كريم معي جدا، جدا تصوري، ويراعي حقـي لكنني لا أعيره التفاتا، لا أهتم به، لكنه يجـب أن يعـذرني، مشاغلي لا تحصى، أي وا لا تحصى ... ويـنفخ بفمـه، يضرب ركبته بقبضته، الصبية لا تعرف ما تقوله، وعنـدما تأخذها الحيرة تزحف إليه تلتصق به تقـول " لا عليـك يـا حبيبي ما تغتم يا حبيبي " مرة ثانية يتمدد جوارهـا راضـيا يضحك " يا سلام على طومانباي ... أما ولد" تتسع عيناهـا، يحكي عن الأمير الدوادار كأقرب الناس إليه، يذكر اسمه بلا تفخيم أو تعظيم، تسأله " ماله يا حبيبي؟؟ " فيقول "سهر معي طوال الليل ... يا سلام ... أما حكايات غريبة جـدا،

يصمت لحظات، يقول " لكنني لا أعرف كيف جـرى هـذا، كيف؟" وفي مرة تلقى حلمة ثديها الأيسر، يمر على حوافـه بشفتيه، عادته المفضلة، قالت الصبية وجسدها يختلج: سـنية ابنة الخبيرة تعاني ضيقًا وعسرا من متولي الحسبة – كـان في هذا الوقت علي بن أبي الجود – قرر عليها زيـادة فـي الضريبة، وتمنت لو أن الشيخ ريحـان تحـدث إلـى أحـد أصحابه المقربين الأكابر العظام، هنا انتفض الشيخ ريحـان عاريا، وعرق الغضب يطق من جبينه، "أنـت مجنونـة ... ضاعت رقبتنا الآن، هل قلت شيئًا يا مجنونة مما أقوله لـك لابنة الخبيزة، ارتعش جلدها وقفقفت، أقسمت بحياته عندها، بآل البيت، برحمة أبيها الذي لم تره قط إنما الصـحيح أنهـا فكرت فيه، هي لا تعرف من الأكابر غيره، وبكت بين يديه، حتى هدأت ثورته، وخفت حدته، فقال أنا لا أمانع ولو كـان الأمر معقولا لا يمسني، لكنني ماذا أقـول لأي أميـر مـن أصحابي؟ هل أقول له إنني أريد إنصافًا لابنـة الخبيـزة ... سيسألون، وما الذي عرفك بابنـة الخبيـزة؟؟ آه ... عنـدما يتعلق الأمر بالعظام الأكابر أصحابي لا بد أن توزن الأمور.

ألا تؤخذ كما هي ..." وبقي الشيخ ريحـان مبلبـل الخاطر، عندما يقابل ابنة الخبيزة ينظر إليها، يحاول تلمـس أي دلالة على معرفتها بما يقوله، يخشى مفاجأتـه بسـؤال ترجوه فيه التوسط لدى الأكابر، ويفلت لسانها بحديث أمـام المترددين عليها، يفهم منه شيء عن أحاديثه المستمرة إلـى الصبية، عرف منها شخصيات بعض المترددين هنا، موظفين في دواوين الأمراء عند المحتسب، مشايخ، بعض الأمـراء الصغار يجيئون خفية.

حدث في هذه الفترة أن استدعاه القاضي عبد البـر، وعندما مضي إليه دارت في رأسه الدوائر، ربمـا وصـلت أخبار أحاديثه إلى عبد البر، يجازيـه القاضـي مـرتين ... الأولى لذهابه إلى بيت من بيـوت الخطـأ، الثانيـة لكثـرة تخريفه، راح يجهز ما سيقوله، سيرجو القاضي العفو عنـه بسبب التردد على البيت فالألسن لا ترحم، لكن ماذا يقول عن الأحاديث، واختلاق الحكايات حول الأمراء، قابله عبد البـر مرحبا، ابتسم في وجهه، طيب خاطره، وهذا مـا لا يحـدث أبدا، فعبد البر عبوس دائما، فظ اللسان، غليظ القلب، أخبـره بمجيء الأمير سلامش الجمدار المختص بإلباس السلطان، إذ



يقف السلطان ويوليه ظهره، يفرد ذراعيه فيقوم سلامش بإدخالهما في كم الرداء، ثم يسويه، وهذا منصب لا يصل إليه إلا صاحب ثقة عظيمة توفر الاطمئنان للسلطان، بحيث يدير ظهره إليه، ويسلمه نفسه، قال القاضي عبد البر، الأمير سلامش طلب منه شخصا موثوقًا به، ليحرر مكاتباته، وبحث القاضي عبد البر كثيرا فلم يجد أخلص من الشيخ ريحان، لكن حتى يتم الأمر، عليه أن يبحث عن عروس صالحة يتزوجها، فالأمير سلامش لا يقبل عزبا في قصره، وقال القاضي عبد البر" ثم إنك لست صغيرا يا شيخ ريحان".

قام الشيخ ريحان وقبل القاضي عبد البر، مشي في الطرقات يرقص فرحا وطربا، أخيرا سيرى الأمراء والضيوف، يحرر المكاتبات، يطلع على أسرار الدولة، تمنى لو قال هذا للصبية لكنها ستتعجب، ألا يخبرها دائما بقربه والتصاقه بالأمراء والأكابر؟!

مضى في أفخر ثيابه وقتئذ إلى قصر الأمير سلامش، بالغ كثيرا في إظهار علامات الأدب واللياقة ليوحي أنه خدم طوال عمره في بيوت أكابر، انتظر مقابلة الأمير، لم يلتق به، قال لنفسه ربما انشغل الأمير بشيء عنه، وعندما

سأله نائب الأمير عن زواجه أخبره " تزوجت منذ أسبوعين " وفعلا كان قد مضى إلى أحد أقاربه واسمه المعلم محمود بن سلامة، أحد تجار العدس في أثر النبي يمتلك ثلاثة مراكـب سارحة في النيل تنقل له المحصول من الصعيد، غير القلـل والأزيار (مات عام ٩٠٩ هـ) المهم أثنى المعلم محمـود على الشيخ ريحان حافظ كتاب ا وحارس البخاري، وبعـد أسبوع دخل على ابنة المعلم في داره بالفسطاط حتى يبحـث له عن بيت يستقر به وصار المعلم يقول " زواج ابنتي رئيس عند الأمير الجمدار"

في قصر الأمير سلامش اتخذ الشيخ ريحان حجـرة صغيرة في مبنى منعزل عن بناء القصر الأصـلي، حجـرة مظلمة تضاء بقنديل ليلا ونهارا، ثاني وثالث يوم لـم يقـف الشيخ بين يدي الأمير، كذا الأسبوع الأول، والثاني والشـهر الأول والثابت فعلا عدم مثوله بين يدي الأمير قط.

عندما يلتقي به المعلم محمود بن سلامة يسأله عـن صحة الأمير الجمدار وأحواله، يهز يـده، يقـول " وا ... صحته بالأمس كانت على غير العادة ... صحا مـن نومـه فوجد عينه اليمنى ترف ... وهذا عنده فأل سيئ فقضى بقية

يومه مغتما ..." يبدي المعلم جزعا، يزعق بصوته ليسـمعه زملاؤه التجار يتحدث عن أمير كبير، يتساءل: " ألم يقصـده الطبيب؟ " يقول الشيخ ريحان "وجاءه وفصد دمـه ..." هنـا يطلب المعلم محمود – بصوت عال – من زوج ابنته أن يبلغ سلامة إلى الأمير، أن يخبره بدعواته الصالحات مـن أجـل شفائه، فيهز الشيخ ريحان رأسه ويجيبه – بصوت عال أيضا فهو يعرف قصد المعلم " سأقول له ... وا حملني سـلاما خاصا إليك ... أي وا ".

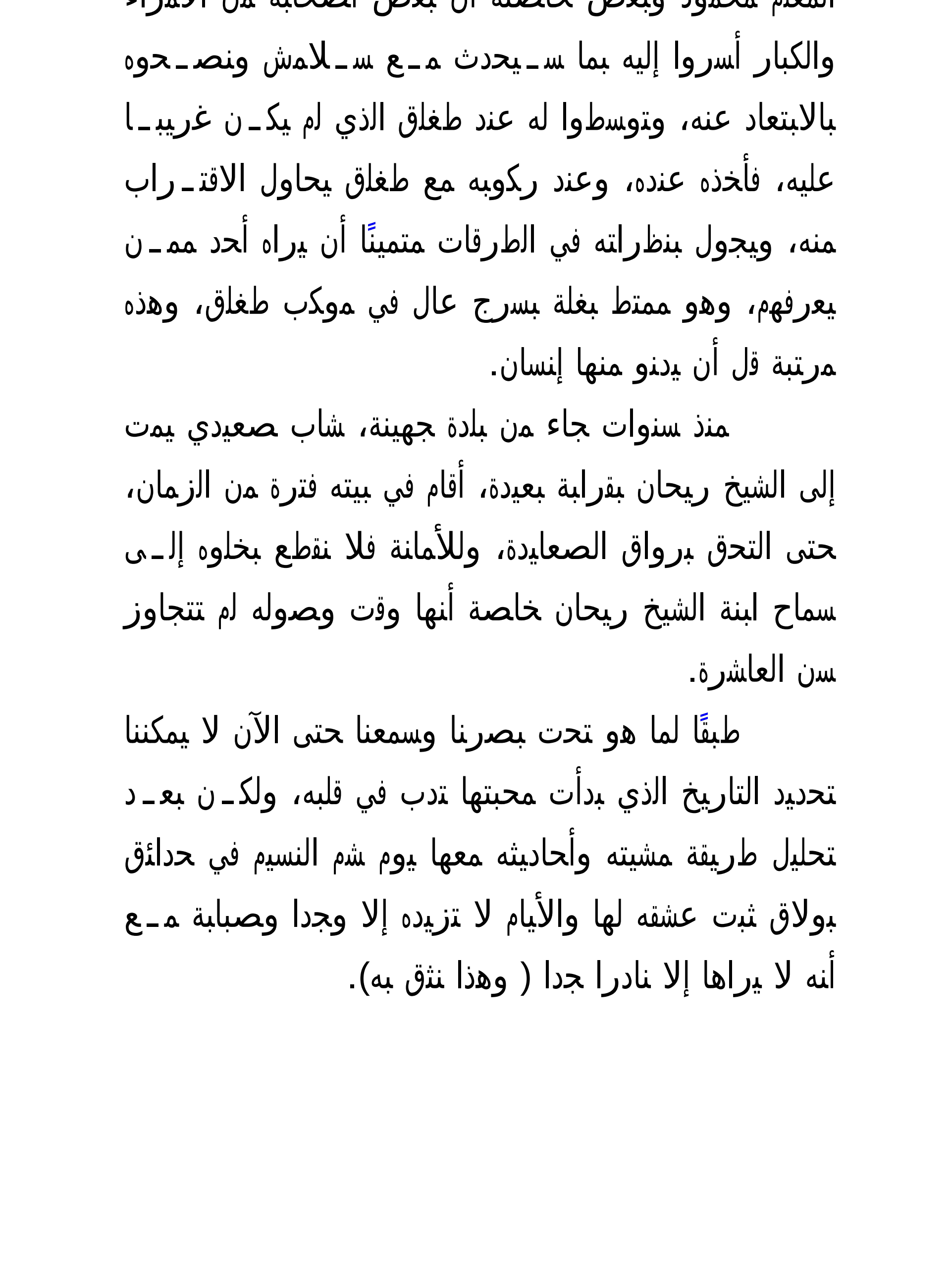
كثيرا ما يجيء إلى المعلم، يزعق من بعيد " الأميـر سلامش يهديك سلام الإسلام ..." يشرق وجه المعلم، يبـرم شاربه، يتخلل لحيته بأصابعه، " وا عندما ترى الأمير أبلغه سلامي ".

بدأ هذا القول يؤلم الشيخ ريحان ويورثه حسرة، لـم ير سلامش بعينيه، حتى نائبه لم يلتق به إلا مـرة واحـدة، عندما تسلم وظيفته، كل المكاتبات تجيئه يوميـا مـع أحـد الطواشية، والثابت فعلا أنه لم ير الأمير قط حتـى عنـدما أنجب ابنته الأولى "سماح" (أنجبها عام ٩٠٢ هـ بعد ثلاث سنوات من زواجه لم ينجب بعدها، وهذا أمر يتكرر وقوعـه

بين قلة من الرجال) بل أرسل إليه الأمير سلامش مع نائبـه دنانير وكسوة (بالضبط عشرة دنانير أشرفية وقماش أطلس، وقميص زركش لطفلة صغيرة).

بعد مجيء سماح بعـامين (٩٠٤ هـ ـ) غضـب مولانا على الأمير سلامش – وهذه واقعة معروفة – عنـدما لم يحكم لف الشاش حول العمامة السلطانية الكبيرة مما أدى إلى فكه لحظة جلوس مولانا السلطان إلى قصاد الحبشة مما أوقعه في حيرة، وتسبب في حصول كسفة للسلطان مما جعله يستدعي سلامش وحقق معه، وبطحه أرضا وضربه حتـى كاد يهلك لظنه أن واقعة عدم إحكام لف الشاش أمر مـدبر، وأمر بإلقائه في المقشرة، ولا يزال سلامش محبوسـا حتـى الآن بعد مضي ما يقرب من عشرين عاما على الحادثة.

يشاء حظ الشيخ ريحان، أن الأمير سلامش أرسل – قبل حدوث واقعته – إلى الأمير طغلـق ليحـرر مكاتيـب صادرة إلى بلاد اليمن. وأثناء تواجد الشيخ ريحـان عنـده، وقعت حادثة الشاش، هنا عرض عليه طغلق البقـاء عنـده، وارتضى الشيخ ريحان بالحال، وتزايد سـروره، لاتصـاله مباشرة بطغلق، وخروجه معه أكثر من مرة وأفضـى إلـى


المعلم محمود وبعض خاصته أن بعض أصحابه من الأمراء والكبار أسروا إليه بما سـيحدث مـع سـلامش ونصـحوه بالابتعاد عنه، وتوسطوا له عند طغلاق الذي لم يكـن غريبـا عليه، فأخذه عنده، وعند ركوبه مع طغلاق يحاول الاقتـراب منه، ويجول بنظراته في الطرقات متمنيًا أن يراه أحد ممـن يعرفهم، وهو ممتط بغلة بسرج عال في موكب طغلاق، وهذه مرتبة قل أن يدنو منها إنسان.

منذ سنوات جاء من بلدة جهينة، شاب صعيدي يمت إلى الشيخ ريحان بقرابة بعيدة، أقام في بيته فترة من الزمان، حتى التحق برواق الصعايدة، وللأمانة فلا نقطع بخلوه إلـى سماح ابنة الشيخ ريحان خاصة أنها وقت وصوله لم تتجاوز سن العاشرة.

طبقًا لما هو تحت بصرنا وسمعنا حتى الآن لا يمكننا تحديد التاريخ الذي بدأت محبتها تدب في قلبه، ولكـن بعـد تحليل طريقة مشيته وأحاديثه معها يوم شم النسيم في حدائق بولاق ثبت عشقه لها والأيام لا تزيده إلا وجدا وصبابة مـع أنه لا يراها إلا نادرا جدا (وهذا نثق به).

الثابت أيضا جهل الشيخ بما يكنه سعيد لابنته، وجار الآن لم تفاصيل أدق تصل بنا إلى لب الحقيقـة وجوهرهـا الخفي.

(ديوان سر كبير البصاصين ونائب المحتسب ونائب والي القاهرة

" ختم "

(زكريا بن راضي)

حد تجار العدس فـي أثـر النبي يمتلك صثلاثة مراكب

نداء

يا أهالي القاهرة

يعلن عبد العظيم الصيرفي

عن قرب وصول

الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة الديار المصرية

ووالي القاهرة

بعد عودته من بلاد الصعيد

فعلى أصحاب الدكاكين

والمغنيين

وأصحاب الربابة، والرقاصين

الخروج لمقابلته

عند دخوله من الجيزة

ظهر يوم الثلاثاء بعد غد

ومن تخلف، وقع عليه عقاب شديد



كوم الجارح

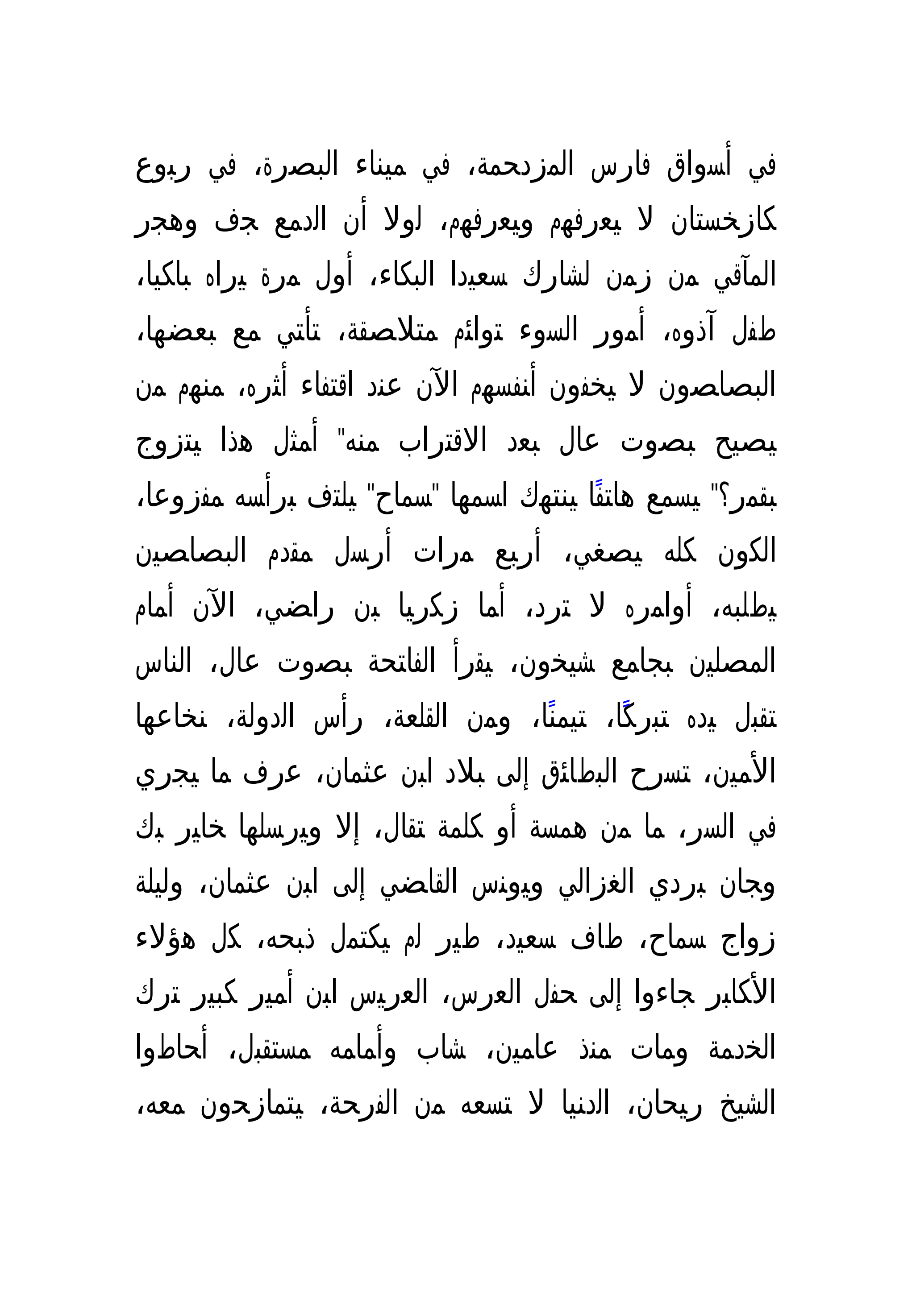
مسافات لا أول لها ولا آخر في عيني الساعي، والمسافر على قدميه، زاده عشق الذات العليا، وجد يشده إلى أقاصي الأرض يعبرها متأملا العبر، يرثي المبتدأ والخبر، ما أوجع أحزان القلب في بيوت خراب، في بلاد عامرة نسى أهلها الأول والآخر، ما أعذب وقفة الملاح عند رأس قارب مفرود القلوع، الكون بحر، كله بحر، المركب يميل ليعتدل، يعتدل ليميل، يزعق الملاح زعقة نابعة من فص الحنجرة، أعمق الأصوات، خلاصة الآمال، ونهاية الآلام، صرخة ملاح في وجه خلاء لا بر له، ولا يابسة تبدو، لا يذكر الشيخ أين غالب الدوار، أحاط فمه بيديه، ومن شرايين القلب، من حدقتي العين، من خلاصة سر الكبد، من لوعة المشتاق إلى آخر الآفاق، من سني العمر من بئر القلب الدفين، من عذابات وجد قديم، من بقايا عشق يتيم، صاح زعقة واحدة، ألغت الحشا، خففت حمل البدن، ولاح سر الباطن، وكادت الحقيقة الأولية أن تفصح عن نفسها، وسوست النجوم، وألقت السماء دمعا ضنينا

يا واحد ... يا أحد ... أين أنت ... نجني ...

نجني ...

لا يذكر اسم البحر، عند طوافه بالدنيا لا تعنيه معرفة أسماء البلاد، الدار كبيرة، لا عرض باديا لها ولا طول، وتعليل النفس بالوصول إثم عظيم، لا هذا العام، ولا العام الذي يليه يحمل البشرى، في زعقته طرح السؤال، عبر البحار السبعة، الأراضي السبع، تجاوز قاف، واق الواق، جزائر النساء، ونفذ عبر بطن الحوت، يرى بعيني وجده سدرة المنتهى، غاية الأمل، صوته الضعيف المخزون سمع هناك، آه لو حوله بحر الآن، آه لو يقف فوق الصاري الكبير يزعق ملتاعا، تتجسد صرخته في الهواء حبلا طويلا من هيام ووجد لكنها الآن همسة، حيرة مقطرة، استغاثة نجاة يهمس بها طائر ضعيف الجناحين، هاجر وحيدا فارتمى بلا رفقة، لحظات كثيرة رآها في حياته ظن الخلاص وشيكا وما يفصله عن الحقيقة الأولية، خطوات قصار، لكن الأحداث تميل فتعكر صفو الرؤية، تخدش حياء النفس، عبثًا، تلوح الأنوار الإلهية في زمان كهذا، محال أن يرق الجسد حتى يخف، يشف، الآن يرى أيامه البعيدة، عندما رأى العالم مال بخده على الحجر الأسود، داعب النمور الوحشية، مص

الزاط متلمسا رشفة رطوبة تنزع حراشيف العطش عن حلقه، حديثه إلى برابرة غزاة يحلون لحم الإنسان، آه لو يودع الثبات إلى الحركة، يترك الركود إلى ديمومة لا تنتهي، طوال عمره لم تلجئه الأحداث إلى الخلوة الطويلة وهاهي ذي سنوات قليلة في موطنه تدفعه إلى حفر سرداب حفره بأصابعه، فيه يغمض عينيه عن رؤية السجن، يسد أذنيه عن أصوات البشر، في أول العمر يكشف الإنسان عوج الدنيا فيحاول تقويمها، لكن في آخره، عندما يبدو كل شيء على حاله، ولا أمل في تحول، في انقلاب، حتى أولاده لا يدركهم، عندما يربت ظهر سعيد الباكي، يراه واحدا منهم، لم ير أحدهم شابا، في أول خطى الحق تزوج في خوارزم، لم يكمل العام، إنما رحل في وجه الجبل مخلفًا وراءه أثرا، لا يدري، هل جاء الدنيا أولا؟ في مدينة بشرق الصين، في قرية فوق جبل شاهق العلو في الهند، في جزيرة صغيرة في المحيط الشرقي الكبير، كل ساكنيه أربعون نفسا ذكرا وأنثى لم يضم واحدا من بنيه إلى صدره، لا يعرف تعدادهم لكن قلبه خفق بحبهم، بأي أرض مر عنده ثقة، أنه عالم بأحوالهم يعرفون بأي أرض هو، فالعالم كله واحد، ربما رأى أحدهم



في أسواق فارس المزدحمة، في ميناء البصرة، في ربوع كازخستان لا يعرفهم ويعرفهم، لولا أن الدمع جف وهجر المآقي من زمن لشارك سعيدا البكاء، أول مرة يراه باكيا، طفل آذوه، أمور السوء توائم متلاصقة، تأتي مع بعضها، البصاصون لا يخفون أنفسهم الآن عند اقتفاء أثره، منهم من يصيح بصوت عال بعد الاقتراب منه" أمثل هذا يتزوج بقمر؟" يسمع هاتفًا ينتهك اسمها "سماح" يلتف برأسه مفزوعا، الكون كله يصغي، أربع مرات أرسل مقدم البصاصين يطلبه، أوامره لا ترد، أما زكريا بن راضي، الآن أمام المصلين بجامع شيخون، يقرأ الفاتحة بصوت عال، الناس تقبل يده تبركًا، تيمنًا، ومن القلعة، رأس الدولة، نخاعها الأمين، تسرح البطائق إلى بلاد ابن عثمان، عرف ما يجري في السر، ما من همسة أو كلمة تقال، إلا ويرسلها خاير بك وجان بردي الغزالي ويونس القاضي إلى ابن عثمان، وليلة زواج سماح، طاف سعيد، طير لم يكتمل ذبحه، كل هؤلاء الأكابر جاءوا إلى حفل العرس، العريس ابن أمير كبير ترك الخدمة ومات منذ عامين، شاب وأمامه مستقبل، أحاطوا الشيخ ريحان، الدنيا لا تسعه من الفرحة، يتمازحون معه،

يتباسطون، والزيني بركات يمد مدة حافلة لعشاء الفرح، أما برهان الدين بن سيد الناس، فهو محتكر الفول الوحيد في مصر، إذا سأل إنسانًا قيل له، وهل تأثر سعر الفول، لم يزد طفافة من درهم، ما من سؤال صعب إلا ورده المقنع جاهز عند الزيني، وتبدو الأمور معقولة، وما الإنسان إلا خلاصة زمانه، لكن يحدث أن تتركز خلاصة الزمان في شخص بعينه، يجمع الحسنات والسيئات، الشيخ يرى خلاصة العكارة، عندما بث أشجانه للشيخ الزاهد العابد بهاء الحق علوان (لم يتوقف بعد، ومازال طوافا عظيما، في كل ليلة يذكر اسم ا كل ليلة في موضع مختلف بين آخرين، السكون عند موته) قال الشيخ بهاء الحق كلما ظن نفسه تخفف من الأحمال والأثقال، يرى الوهم، كثيرا ما فكر في اعتزال الكون، قضاء ما تبقى من عمره في السرداب، لكنه يلوم روحه، كيف يحوم الأذى في أرض هي أول ما لامست رأسه، اختارها راضيا لقضاء وقت ما قبل الخلاص الأبدي، أن يرى البلاد آمنًا، محال، ما يراه بسيطًا كالحروف، مشروعا كالأنفاس، في حقيقته محال، هز الشيخ بهاء الحق رأسه.

" كلنا نحترق ... أنت في ثيابك، وأنا في طوافي، لكن إن مالت الروح عما رماه بها الزمان فقل علينا السلام ...".

***

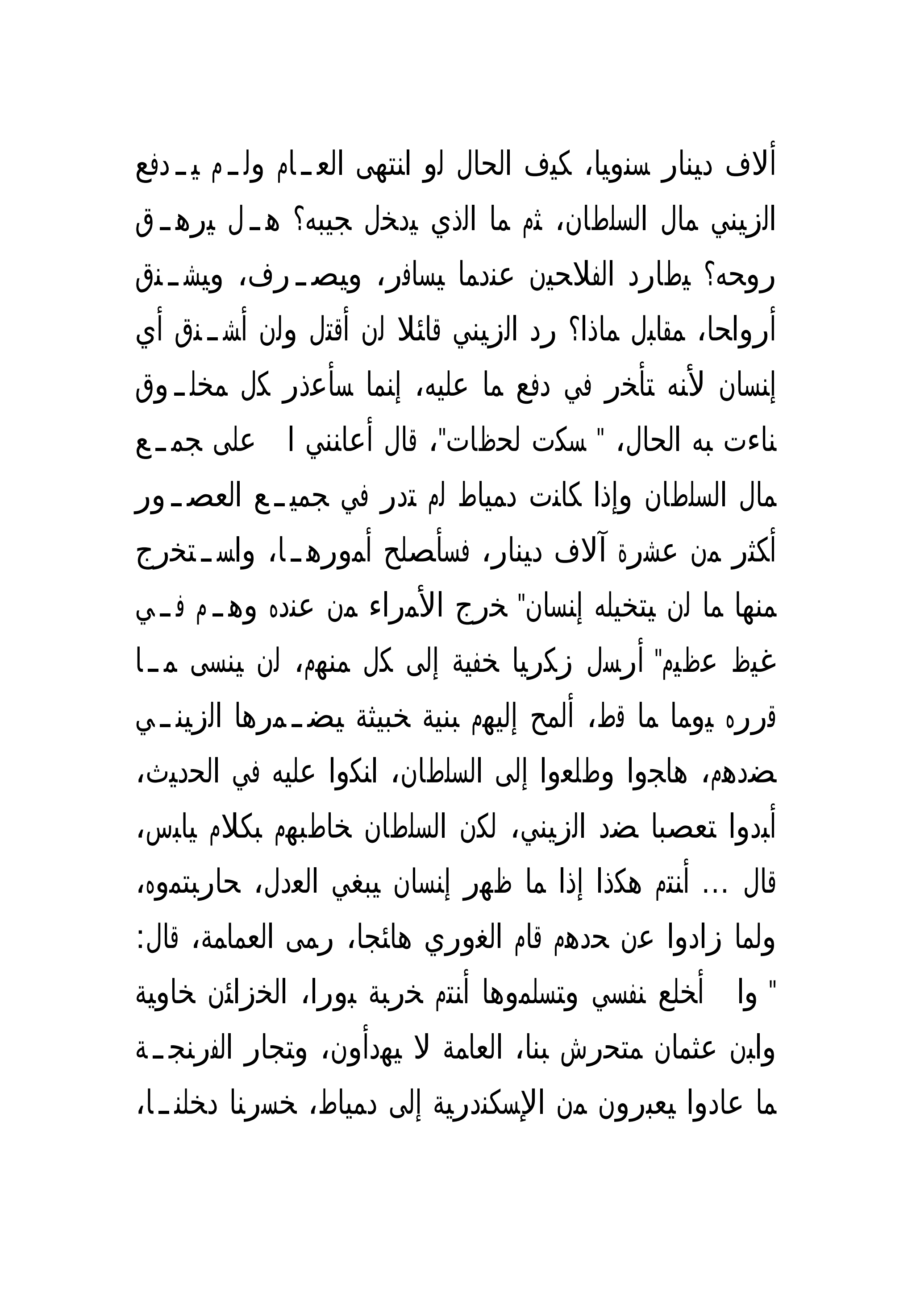
السرادق الرابع

وفيه يدبر الزيني والشهاب زكريا أمورا شتى !

زكريا بن راضي:

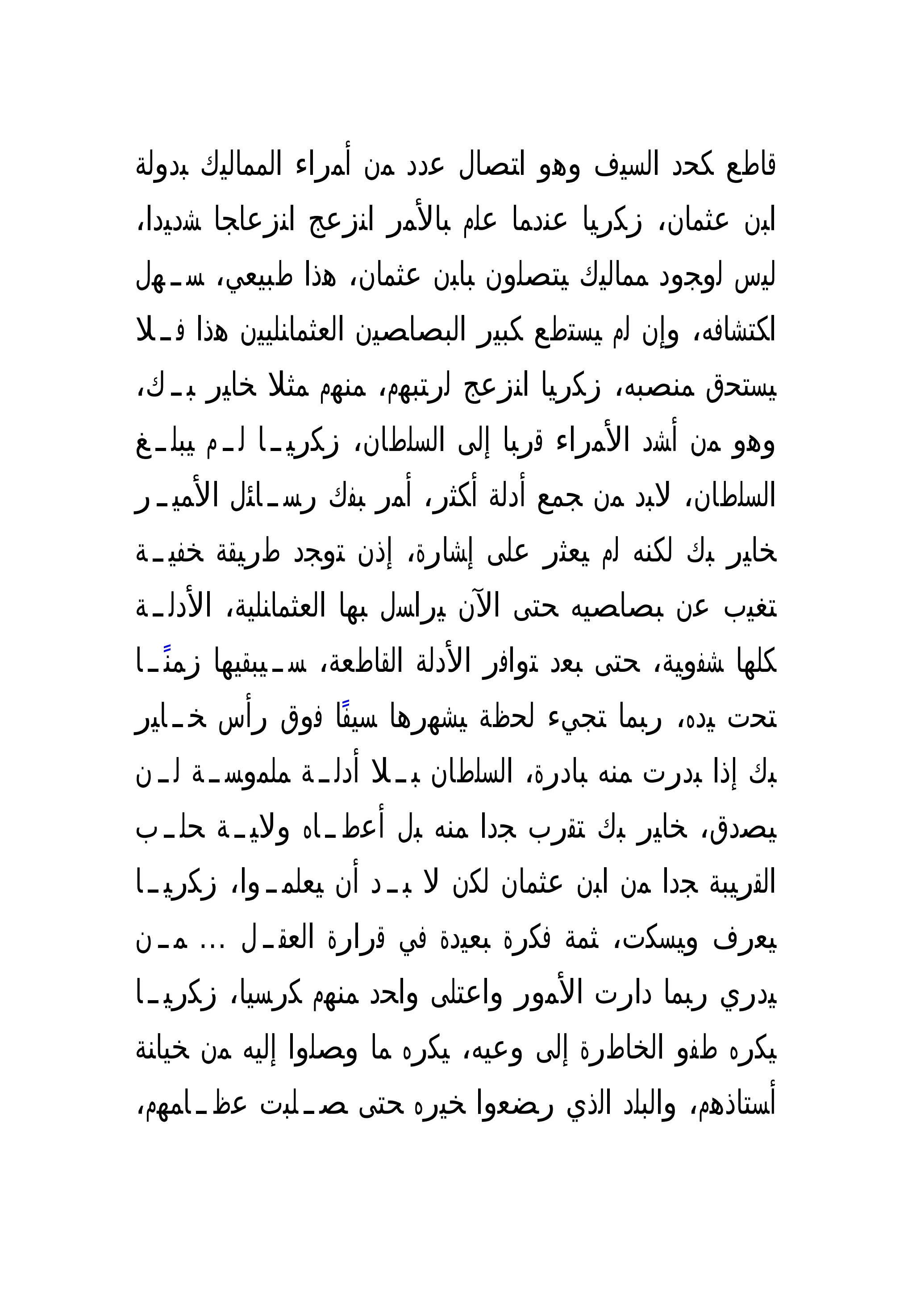
سرح البريد بالبطائق والرسائل، إلى بلاد المغـرب، وصاحب فاس، وملك الحبشـة، وأميـر البندقيـة، والهنـد، والصين، فيما عدا دولة ابن عثمان، الأمور الآن لا تسـمح لكبير البصاصين هناك بالمجيء إلى القاهرة ليحضر اجتماعا كبيرا يضم كافة كبار البصاصين العتاة في هـذه الـبلاد، إذ يجتمع شملهم هنا، يتدارسون الأمور والواجبات، يتبادلون ما جرى لكل منهم، ستتحدث كتب التاريخ عن هذا الاجتمـاع، سيذكر في سطر، ما يدور به، سيظل خفيا مسـتورا، لكـن آثاره ستعم العالمين، لا يعلم أخبار الاجتماع في مصـر إلا اثنان، زكريا بن راضي، والزيني بركات بن موسي، صاحب الفكرة، لأول مرة يحدث أمر كهذا، لم يخف زكريا فرحتـه، الزيني ألمح إلى أنه سيتعرف عند جلوسه إليهم، طريقة كـل منهم، وأسلوبه، طبعا لن يقول أي واحد مـنهم عمـا يتبعـه ويطبقه، على زكريا استكشاف خباياهم بما يروق لـه مـن طرق، حتى إذا ما دب العداء بين الديار المصرية وصـاحب أي مملكة منهم، يجد زكريا نفسه عليما بأدق أسرار الـبلاد التي يعمل فيها، مطلعا على طريقة بصاصيها، مما يتيح لـه

النفاذ إلى أدق الأمور، وهو بمجلسه هنا، بالقـاهرة، عنـدما سمع زكريا أفكار الزيني تساءل، من أين له هذه الخواطر؟؟ لكنه قال بعد إطراقة قصيرة، هل تعـرف ... منـذ عـامين انتويت تنفيذ هذا. أن أجمع كبار البصاصين في العالم، لكـن المشاغل ألهتني، خبط الزيني ركبة زكريا، طبعـا ... أمـر كهذا لن يفوتك أبدا ... الآن يطوف الزيني بـلاد الصـعيد، ينزل كل قرية في جمع من رجاله الأشداء ونوابـه حـاملا الميزان والصنج. الزيني الآن يحتسب على الديار المصـرية كلها، يقيم العدل فيها، أخبار جولاته تصله يوما بيوم، نجـح في ضم رجلين من رجال الزيني، لكنه لم يعثر على مخلوق واحد من بصاصي الحسبة، بعد جولة الزيني في الصـعيد، سيسافر إلى دمياط، من شهور تعهد للسلطان بدفع مبلغ معين من المال، عن دمياط والمنصورة، لا يذكر زكريـا مقـداره الآن، إنما في حدود ثلاثين ألف دينار، بعد التعهد توجه عدد من الأمراء إلى الزيني، قالوا فيما بينهم، لو نجـح الزينـي وجمع الثلاثين ألفًا لأظهر لنا السلطان عين الغضب وقـال: أنظروا إلى ذمم المسلمين وكيف تكون؟؟ قابلوا الزيني، أبدوا إشفاقهم عليه، دمياط والمنصورة لا تدر أكثر مـن عشـرة



ألاف دينار سنويا، كيف الحال لو انتهى العـام ولـم يـدفع الزيني مال السلطان، ثم ما الذي يدخل جيبه؟ هـل يرهـق روحه؟ يطارد الفلاحين عندما يسافر، ويصـرف، ويشـنق أرواحا، مقابل ماذا؟ رد الزيني قائلا لن أقتل ولن أشـنق أي إنسان لأنه تأخر في دفع ما عليه، إنما سأعذر كل مخلـوق ناءت به الحال، " سكت لحظات"، قال أعانني ا على جمـع مال السلطان وإذا كانت دمياط لم تدر في جميـع العصـور أكثر من عشرة آلاف دينار، فسأصلح أمورهـا، واسـتخرج منها ما لن يتخيله إنسان" خرج الأمراء من عنده وهـم فـي غيظ عظيم" أرسل زكريا خفية إلى كل منهم، لن ينسى مـا قرره يوما ما قط، ألمح إليهم بنية خبيثة يضـمرها الزينـي ضدهم، هاجوا وطلعوا إلى السلطان، انكوا عليه في الحديث، أبدوا تعصبا ضد الزيني، لكن السلطان خاطبهم بكلام يابس، قال ... أنتم هكذا إذا ما ظهر إنسان يبغي العدل، حاربتموه، ولما زادوا عن حدهم قام الغوري هائجا، رمى العمامة، قال: " وا أخلع نفسي وتسلموها أنتم خربة بورا، الخزائن خاوية وابن عثمان متحرش بنا، العامة لا يهدأون، وتجار الفرنجـة ما عادوا يعبرون من الإسكندرية إلى دمياط، خسرنا دخلنـا،

وعندما يظهر إنسان يتفنن في جلب المـال، نقـف ضـده، ونمانعه، وا هذا كلام لا يرضي مؤمنًا ولا كافرا، زكريـا نفسه حار، كيف يجمع الزينـي ثلاثـين ألفًـا مـن دميـاط والمنصورة، في الليلة نفسها قرر أن يمد مقدم البصاصـين بدمياط برجال أكفاء يرصدون أساليب الزيني، وما يسـتحدثه من بدع، في الشهور الأخيرة، لا ينكر زكريا إعجابه الخفـي بخطط الزيني وتدبيره، زكريا يقدر الناس حق قدرهم، مهما بلغ كرهه لبعضهم، كبير البصاصين في بلاد ابـن عثمـان مثلا، عدوه الأول الآن، لم يره قط، لكن عنده أوصافه كلها، ومزاجه، درجة عشقة للغلمان والنساء، قدرته علـى اتخـاذ القرارات فيما يتعلق بالمصائر، في ديوان السر دفتر كامـل عنه، كان زكريا صاحبه دهرا طويلا مع أنه لم يره، زكريـا يراه بصاصا من أعظم البصاصين قدرة، منذ عـامين أنشـأ فرقة خاصة، بعضهم يتحدث بلسان العثمانية، كأنهم ولدوا في القسطنطينية نفسها، قسمهم إلى فروع، مـنهم مـن اخـتص بتاريخ أبناء عثمان وأمزجتهم وأحوالهم، آخر تخصص فـي أمور الجيش العثمانلي وما يستجده من أسلحة، زكريا يقـدر تماما كبير بصاصي الدولة العثمانية خاصة بعد ثبوت أمـر

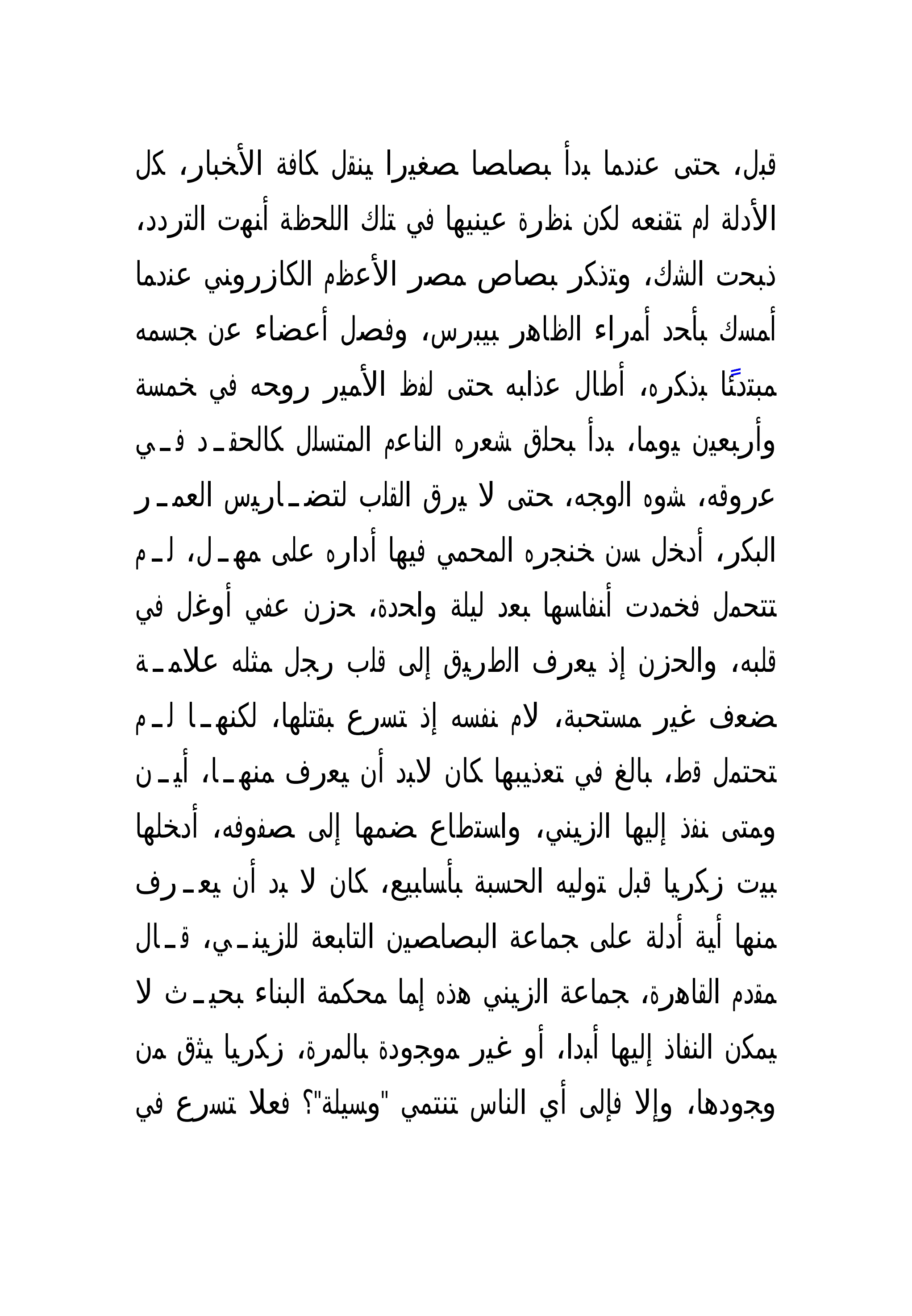


قاطع كحد السيف وهو اتصال عدد من أمراء المماليك بدولة ابن عثمان، زكريا عندما علم بالأمر انزعج انزعاجا شديدا، ليس لوجود مماليك يتصلون بابن عثمان، هذا طبيعي، سهل اكتشافه، وإن لم يستطع كبير البصاصين العثمانليين هذا فلا يستحق منصبه، زكريا انزعج لرتبهم، منهم مثلا خاير بك، وهو من أشد الأمراء قربا إلى السلطان، زكريا لم يبلغ السلطان، لابد من جمع أدلة أكثر، أمر بفك رسائل الأمير خاير بك لكنه لم يعثر على إشارة، إذن توجد طريقة خفية تغيب عن بصاصيه حتى الآن يراسل بها العثمانلية، الأدلة كلها شفوية، حتى بعد توافر الأدلة القاطعة، سيبقيها زمنًا تحت يده، ربما تجيء لحظة يشهرها سيفًا فوق رأس خاير بك إذا بدرت منه بادرة، السلطان بلا أدلة ملموسة لن يصدق، خاير بك تقرب جدا منه بل أعطاه ولاية حلب القريبة جدا من ابن عثمان لكن لا بد أن يعلموا، زكريا يعرف ويسكت، ثمة فكرة بعيدة في قرارة العقل ... من يدري ربما دارت الأمور واعتلى واحد منهم كرسيا، زكريا يكره طفو الخاطرة إلى وعيه، يكره ما وصلوا إليه من خيانة أستاذهم، والبلاد الذي رضعوا خيره حتى صلبت عظامهم،

يقدمون ما فيه مطبوخًا جاهزا ليأكله ابن عثمان، هذا جـرم يعلم به زكريا، قليلة المعلومات التي تثير في نفسه شـعورا معينًا بعينه، طالما تمنى دخول واحد من أمراء ابن عثمـان في خدمته، سيرحب به، يجزل له العطاء لكنه بينـه وبـين نفسه سيحتقره، لكن حتى الآن، يتفوق عليه كبير البصاصين العثمانليين في هذا، ضم من عنده أكثر من أمير، وزكريا لم يضم أميرا واحدا مشابها لخاير بك وغيره، عندما وصل إليه ما يفيد باجتماع الأمراء الباغضين للزينـي، تسـاءل عمـا يريدون، هل يلتقون مع زكريا فيما قدره، ما يسعى إليه بتأن عظيم، لكن الخلاص من الزيني لا يتحقق بضربة خنجر، ولا سائل يدس في طعامه، ولا فرسان يقطعون عليه الطريق في الصعيد، أو فوق مدق زراعي بدمياط، أبدا، الزيني تحـدى عمره، ما أسهل أن يتخاص منه الزيني بنفس الطريقة، أمـر لن تمنعه احتياطات زكريا عندما قرر القضاء على الزيني لم يقصد ذبحه، قتله، إنما الخلاص منه وهو حي يرزق، يأكـل وجباته ويضاجع نساءه، يقتله لكن يبقي على حياته في الوقت نفسه، هذا أشق وربما استنفذ عمرا، لكن الخلق لا يعـاملون كلهم هكذا، رجل مثل الزيني لا يجود الزمان بمثله، زكريـا

يزن قدره تماما، يدرس أساليبه ويأخذ ما يخدمه منها، حتـى لو استعملت هذه الأساليب ضده هـو، راح زكريـا يرقـب الأمراء، أطلق البصاصين في ركـاب كـل مـنهم، كيـف سيتخلصون من الزيني، الآذان تنقل إليه أحاديـث القاعـات المغلقة، العجائز يسعين إليه بالأخبار، تزايد ضيق الأمـراء عندما تسلم الزيني الأمير أردمر الصغير، تعهد باسـتخراج مائة ألف دينار ذهبا خالصا منه، فيما بينهم قالوا، لو تركنـاه يفعل ما يشاء لدار علينا واحدا واحدا. ننفضح فـي عيـون العامة، وتنزل هيبة المماليك في مصر. وتـذهب حـرمتهم. أيقن زكريا بخطورة الحال في الليل التالي. خرج متخفيا إلى بركة الرطلي. وقتها كان الزيني يستعد لبدء رحلته الثانية إلى بلاد الصعيد. عند باب الفتوح. تلكأت خطواته. كيـف قـرر هذا؟ أحقًا يمضي إلى الزيني يحذره من القتل؟ يقترح عليـه تغيير أماكن نومه كل ليلة في بيت يحدده زكريا. يبث حولـه العيون والأرصاد. في الوقت الذي يرصـد فيـه حركـات الأمراء وسكناتهم. لا ينسى مـا ألحقـه الزينـي بـه مـن مضايقات. هل ضعف أمامه أليست فرصته؟ أبدا هذه طريقة سريعة الخلاص إذا ما ذبحـه الأمـراء فسـتبكيه العامـة

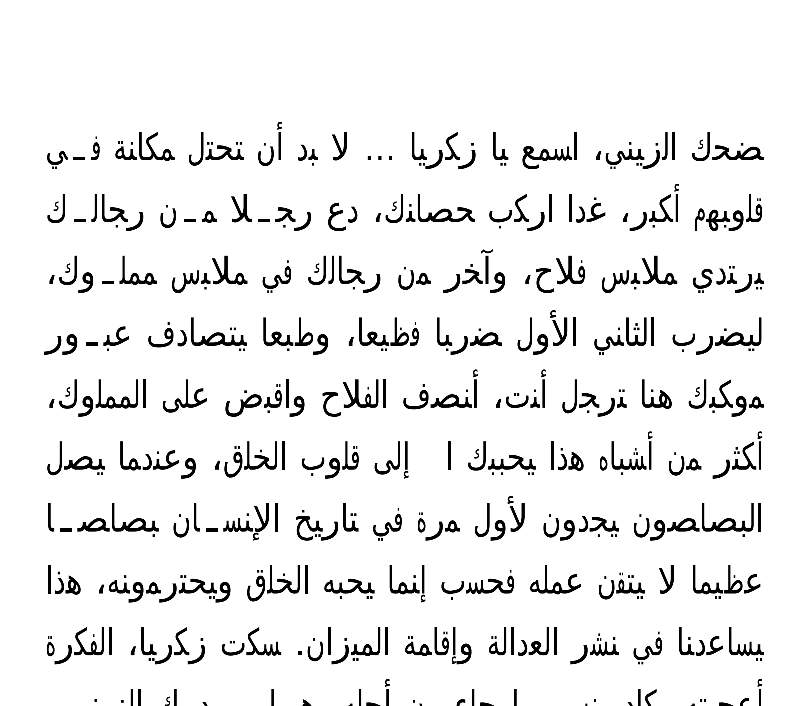
ويتحسرون عليه. سيخطو بينهم ميتا أكثر من خطـوه حيـا يرزق. عندما قام الأمير طيبغا في زمن الناصر بن قلاوون. ونادى بالعدل وصار ينصر الفقيـر علـى الغنـي. ضـايق الأمراء مضايقة شديدة. دسوا له السم البطيء. لم يخف الأمر على العامة. بكوه بكاء مرا. لطموا الخدود. شـقوا الثيـاب زمنا. صاروا يقولون في كل صغيرة وكبيـرة. لـو طيبغـا موجود بيننا. حتى عندما قام كبير البصاصين في ذلك الوقت بتكليف العلماء لوضع كتيب ورسائل تذم فيه. ازداد العامـة تمسكًا به صنعوا له بلاليق من الحلوى، تباع في الموالد ولا تزال بلاليق طيبغا ترص في دكاكين الحلوى كلما أقيم مولـد لسيدنا الحسين. أو سيدي إسماعيل الإمبابي أو سيدي الليـث أو أي ولي آخر لكن الأمراء أغبياء مناكيد لا يدركون هـذا، هل ألحق الزيني ضررا بأحدهم كما ألحق بزكريا؟ زكريا لا ينسى أبدا ليلة تجمع الأدلة القاطعة حول أمر طال تردده في قبوله، رفضه الاقتناع بصحته. ليلتها دخـل عليهـا القاعـة مكروش النفس. مبهدل الثياب، وعندما واجهها فـي ضـوء النهار الخائن المتسلل من ثقوب المشربية، أيقن صـحة مـا تردد في الاقتناع به، عرف أنه خدع، هذا شعور لم يطأه من



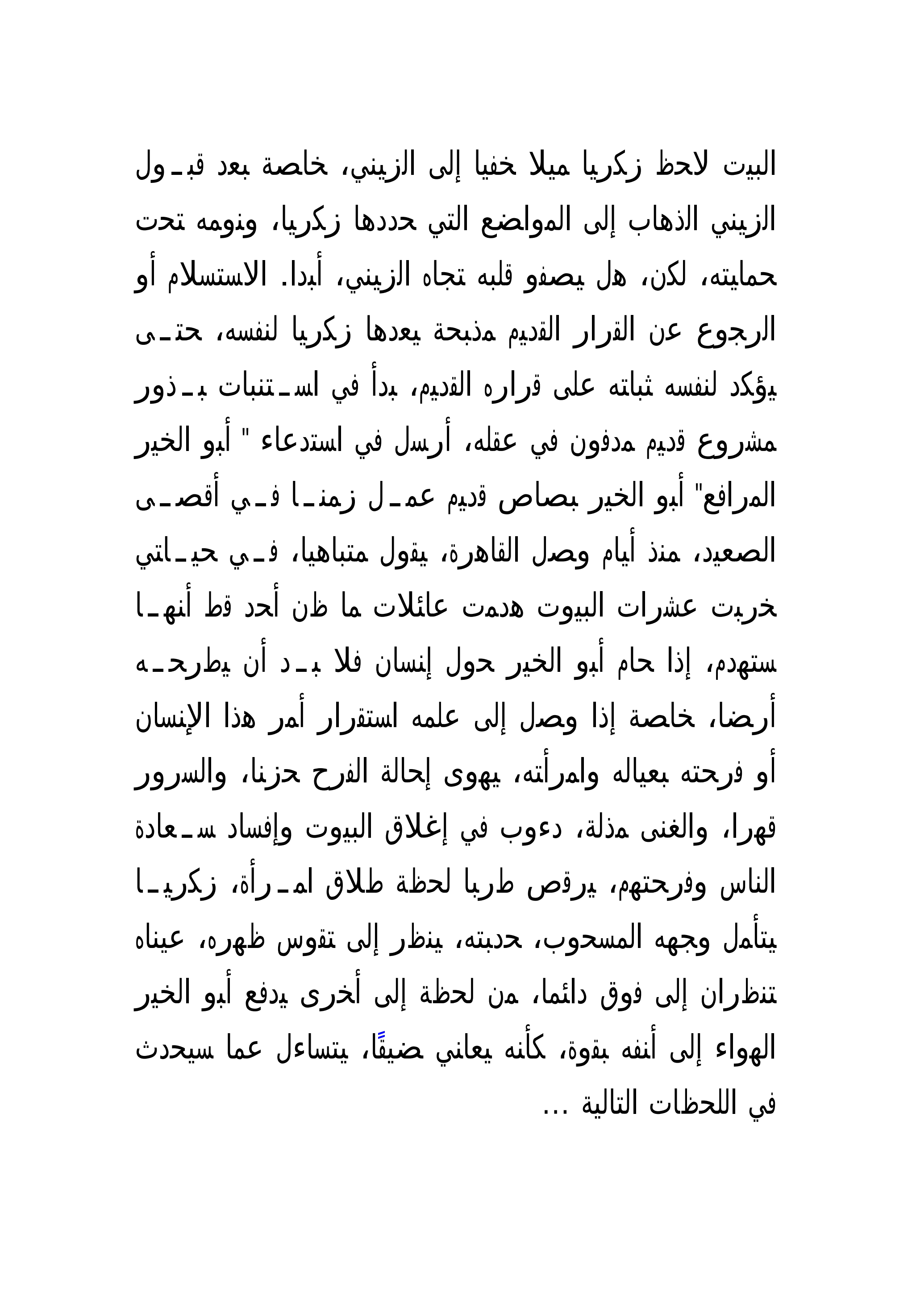
قبل، حتى عندما بدأ بصاصا صغيرا ينقل كافة الأخبار، كل الأدلة لم تقنعه لكن نظرة عينيها في تلك اللحظة أنهت التردد، ذبحت الشك، وتذكر بصاص مصر الأعظم الكازروني عندما أمسك بأحد أمراء الظاهر بيبرس، وفصل أعضاء عن جسمه مبتدئًا بذكره، أطال عذابه حتى لفظ الأمير روحه في خمسة وأربعين يوما، بدأ بحلق شعره الناعم المتسلل كالحقـد فـي عروقه، شوه الوجه، حتى لا يرق القلب لتضـاريس العمـر البكر، أدخل سن خنجره المحمي فيها أداره على مهـل، لـم تتحمل فخمدت أنفاسها بعد ليلة واحدة، حزن عفي أوغل في قلبه، والحزن إذ يعرف الطريق إلى قلب رجل مثله علامـة ضعف غير مستحبة، لام نفسه إذ تسرع بقتلها، لكنهـا لـم تحتمل قط، بالغ في تعذيبها كان لابد أن يعرف منهـا، أيـن ومتى نفذ إليها الزيني، واستطاع ضمها إلى صفوفه، أدخلها بيت زكريا قبل توليه الحسبة بأسابيع، كان لا بد أن يعـرف منها أية أدلة على جماعة البصاصين التابعة للزينـي، قـال مقدم القاهرة، جماعة الزيني هذه إما محكمة البناء بحيـث لا يمكن النفاذ إليها أبدا، أو غير موجودة بالمرة، زكريا يثق من وجودها، وإلا فإلى أي الناس تنتمي "وسيلة"؟ فعلا تسرع في

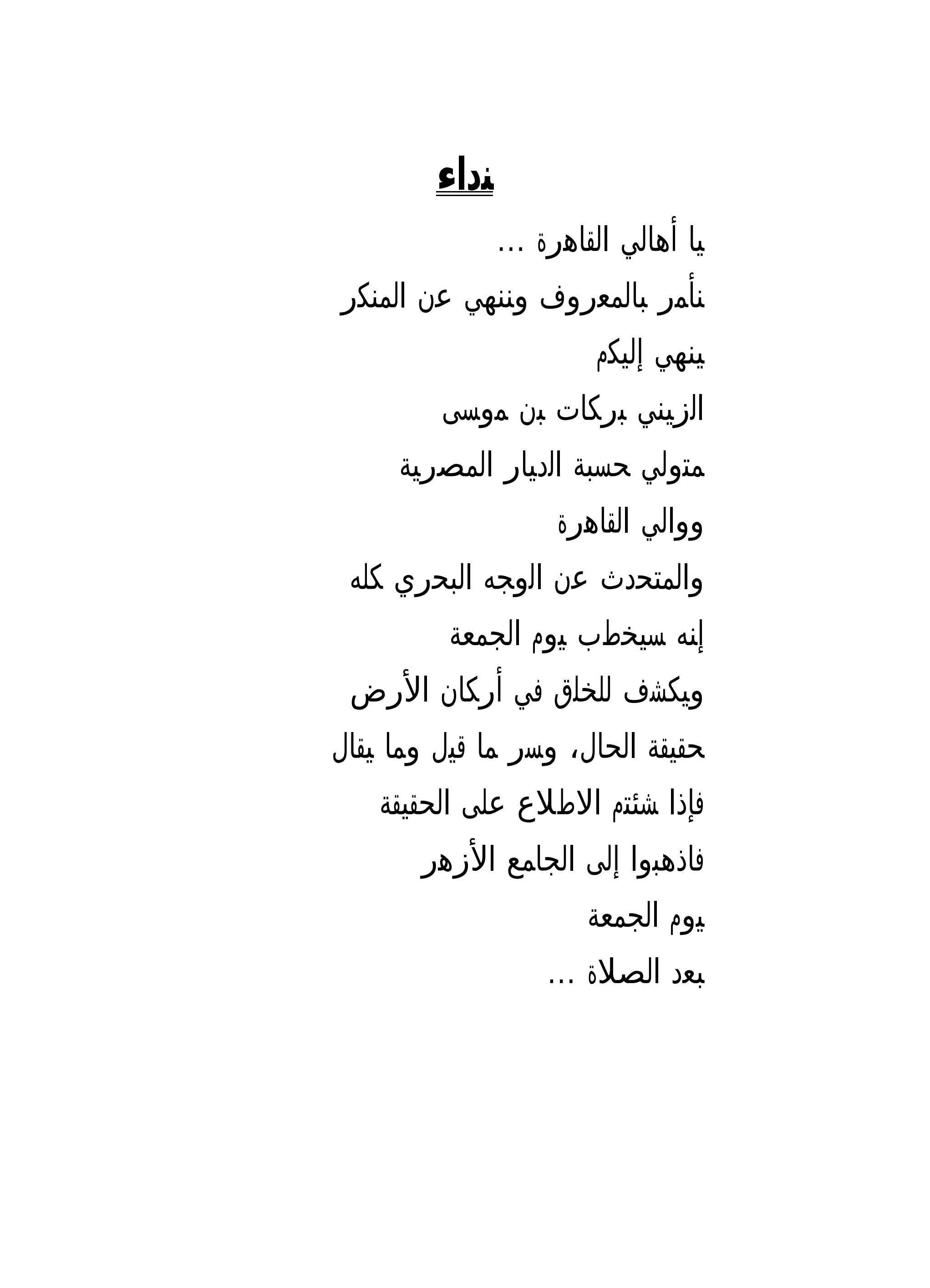
ذبحها، هل يوجد آخرون في البيت يسهلون اتصالها بالزيني، كيف كانت تنقل المعلومات إلى الزيني، لا بد من رصد أهل البيت، مراجعة المرات التي خرجت فيها وسـيلة، محاولـة التعرف على دكاكين القماش والعطور التي قصدتها، مع أي الباعة تحدثت؟ أمور كلها سيتابعها زكريا بنفسه، أمر "وسيلة" يجب ألا يشيع، سبة في تاريخه. سيصير نـادرة لبصاصـي الأزمنة المقبلة، آه لابد أنها أخبرت الزيني بطريقـة نومـه معها، فشعريرة سرت في ظهره، كان الزيني ثالثهما في كل خلوة، عيناه اللامعتان تتأملان مؤخرته العارية، من يدريـه، ربما واحدة من حريمه الآن على اتصال بالزيني، كلما خطر له هذا لا يقربهن. يتراجع عنهن، هل ألحق الزيني أذى بأحد مثلما ألحق به، مع هذا يطرق بابه ليخبـره بمـا دار بـين الأمراء ليحميه، عندما يقدم على حمايته يسن نصـلا خفيـا، نصل لا ينثني، إلى قلب الزيني، قابلـه الزينـي بـذراعين مفتوحين، بدأ الحديث عـن أمـور تحـدث فـي الأزهـر، مجاورون كثيرون يجهرون بكلام في حـق السـلطان، بـل يتحرشون بسمعة زكريا والزيني نفسه، قال الزيني "سأرسل لك أسماء المجاورين المشاغبين، وبهذه المناسبة مـا آخـر

أخبار هذا الولد ... اسمه. قال زكريا (سـعيد الجهينـي) صاح الزيني "تمام ... تمام ..." ابتسـم زكريـا " لا تفوتنـا حركاته، نحن أدرى به من نفسه، بعد زواج حبيبتـه كـان حزينًا جدا، قلنا إنه سيلقي نفسه في النيل، أو يشـرب فصـا ساما، ثم بدأ يكثر من الخلوة إلى نفسه فـي مقهـى حمـزة، أحيانًا يجلس معه واحد. الزيني: " منصور؟ " قـال زكريـا "منصور الركايبي، عندي معلومات كافية عنه، إنه أكثر تعقلا من صاحبه، ويجيء منه الخيـر ..." أشـار الزينـي بيـده "المهم ... لنرجع إلى الولد سعيد " قال زكريا " إدمان الدخان والمشروب الجديد الذي وصلنا من اليمن ... القهوة، وبعـد زواج حبيبته بشهور بدأ يتـردد علـى بيـت سـنية ابنـة الخبيزة ... يروح هناك كل يوم ثلاثاء. ولا ندري السر فـي هذا" مال الزيني وأسند ذقنه إلى يده، " أكثـر مـن إطـلاق رجالك في أثره بحيث لا يكون الهدف رصد حركتـه، إنمـا إشعاره أن هناك من يرصدها ..." هز زكريا رأسه " فعلنا ما هو أكثر ... أمرت رجالي باقتفاء أثره ثم النداء باسم سـماح بصوت عال، كاد يجن ..." ضحك الزيني " عال ... عال ... وأخبار الصلاة؟ " ابتسم زكريا، " يدي قبلة الشفاه ..." تزايد



ضحك الزيني، اسمع يا زكريا ... لا بد أن تحتل مكانة في قلوبهم أكبر، غدا اركب حصانك، دع رجلا من رجالك يرتدي ملابس فلاح، وآخر من رجالك في ملابس مملوك، ليضرب الثاني الأول ضربا فظيعا، وطبعا يتصادف عبور موكبك هنا ترجل أنت، أنصف الفلاح واقبض على المملوك، أكثر من أشباه هذا يحببك ا إلى قلوب الخلق، وعندما يصل البصاصون يجدون لأول مرة في تاريخ الإنسان بصاصا عظيما لا يتقن عمله فحسب إنما يحبه الخلق ويحترمونه، هذا يساعدنا في نشر العدالة وإقامة الميزان. سكت زكريا، الفكرة أعجبته، كاد ينسى ما جاء من أجله، هل يدرك الزيني غرضه فآثر شغله بالحديث، هل يؤجل الحديث عن الأمراء. وإذا جهل الزيني قصة مجيئه سيضطرب ويحار، ويتساءل عن السبب في مجيء زكريا، تأخذه ظنون شتى، غير أنه قال فجأة بعد لحظات صمت أثقلها ضوء خافت من شمعدان وحيد، أنت يا زيني ستقتل ..." أصغى الزيني، بعد يومين، عندما تجول زكريا في حديقة بيته، تراءى له وجه الزيني، ثم قيامه المفاجئ. عناقه لزكريا، لمح فعلا دموع التأثر في ركني عينيه، قال "مثلي لا يمكنه العيش بدونك يا زكريا" في


البيت لاحظ زكريا ميلا خفيا إلى الزيني، خاصة بعد قبـول الزيني الذهاب إلى المواضع التي حددها زكريا، ونومه تحت حمايته، لكن، هل يصفو قلبه تجاه الزيني، أبدا. الاستسلام أو الرجوع عن القرار القديم مذبحة يعدها زكريا لنفسه، حتـى يؤكد لنفسه ثباته على قراره القديم، بدأ في اسـتنبات بـذور مشروع قديم مدفون في عقله، أرسل في استدعاء " أبو الخير المرافع" أبو الخير بصاص قديم عمـل زمنـا فـي أقصـى الصعيد، منذ أيام وصل القاهرة، يقول متباهيا، فـي حيـاتي خربت عشرات البيوت هدمت عائلات ما ظن أحد قط أنهـا ستهدم، إذا حام أبو الخير حول إنسان فلا بـد أن يطرحـه أرضا، خاصة إذا وصل إلى علمه استقرار أمر هذا الإنسان أو فرحته بعياله وامرأته، يهوى إحالة الفرح حزنا، والسرور قهرا، والغنى مذلة، دءوب في إغلاق البيوت وإفساد سـعادة الناس وفرحتهم، يرقص طربا لحظة طلاق امـرأة، زكريـا يتأمل وجهه المسحوب، حدبته، ينظر إلى تقوس ظهره، عيناه تنظران إلى فوق دائما، من لحظة إلى أخرى يدفع أبو الخير الهواء إلى أنفه بقوة، كأنه يعاني ضيقًا، يتساءل عما سيحدث في اللحظات التالية ...



نداء

يا أهالي القاهرة ...

نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر

ينهي إليكم

الزيني بركات بن موسى

متولي حسبة الديار المصرية

ووالي القاهرة

والمتحدث عن الوجه البحري كله

إنه سيخطب يوم الجمعة

ويكشف للخلق في أركان الأرض

حقيقة الحال، وسر ما قيل وما يقال

فإذا شئتم الاطلاع على الحقيقة

فاذهبوا إلى الجامع الأزهر

يوم الجمعة

بعد الصلاة ...

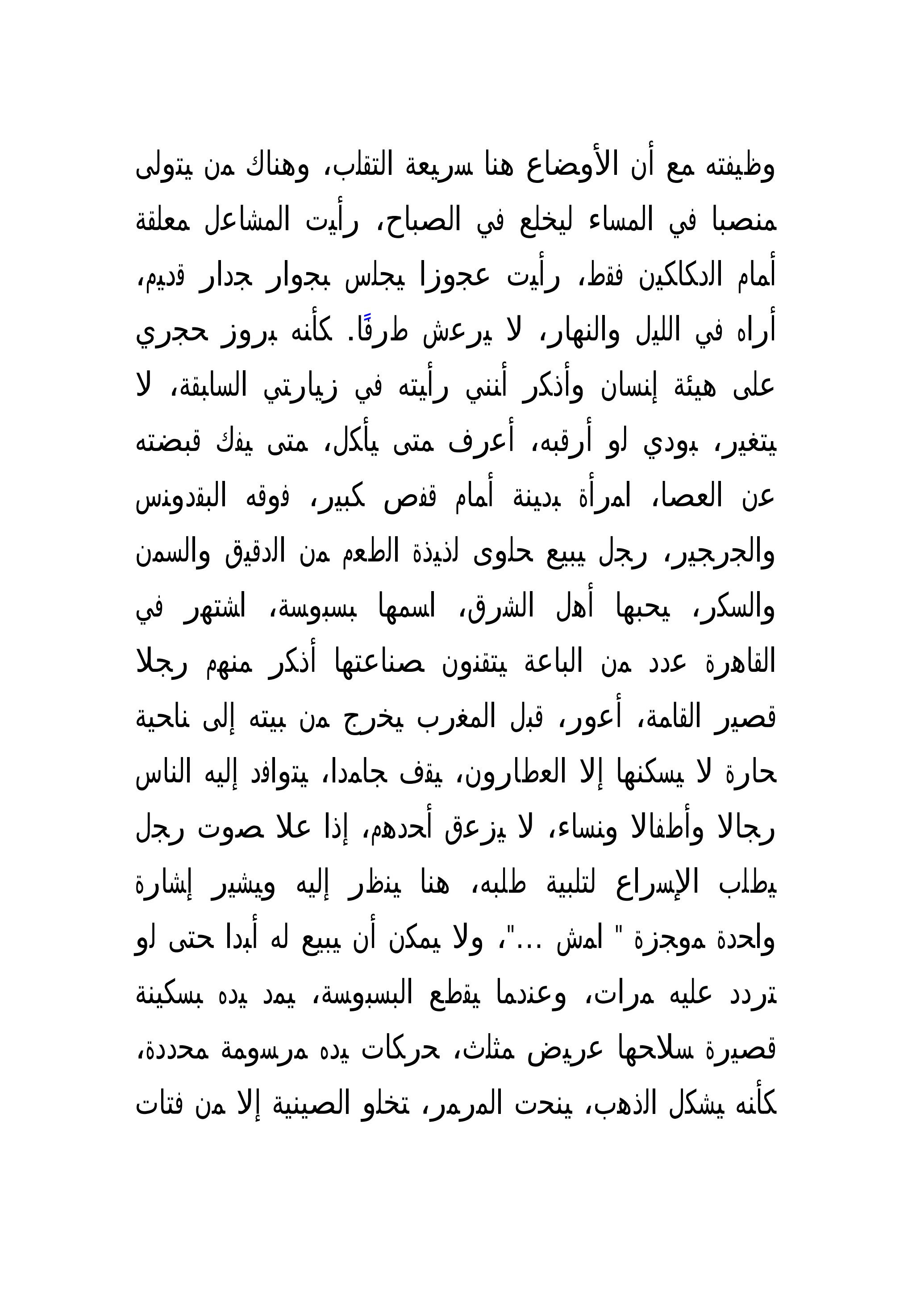
ذو القعدة: ٩٢٠ هـ

مقتطف " حـ"

من مشاهدات الرحالة البندقي، فياسكونتي جانتي، الذي وصل القاهرة للمرة الثانية عام ٩١٧ هـ وأقام بها ثم رحل إلى الشام وبلاد الحجاز، ثم عاد إلى القاهرة، وأقام بها، وفي هذه المرة كان قد تعلم لغة أهل البلاد، فلم يعد بحاجة إلى مترجم عربي.

***

" لم أرتد ملابس تاجر تركي، خاصة أن الأهالي والشرطة يتعقبون كل عثماني ربما أمسكوه، يسلمونه في أحسن الأحوال إلى كبير بصاصي الدولة ليعاقبه عقابا مريرا، ليقر أي معلومات كاف بجمعها وإرسالها إلى ابن عثمان، نزلت ممسكا عصا قصيرة أدفع بها أذى الكلاب عني، رأيت المدينة تغلي، من النادر جدا تواجد الأهالي خاصة النساء بعد العشاء في طرقات المدن الشرقية خاصة القاهرة التي يشرف على نظامها رجل قوي، متمسك بالدين وفروضه، له هيبة عظيمة عند الناس، وهو محور هذا الغليان، لا أقصد الزيني بركات، لم يعمر رجل مثله في


وظيفته مع أن الأوضاع هنا سريعة التقلب، وهناك من يتولى منصبا في المساء ليخلع في الصباح، رأيت المشاعل معلقة أمام الدكاكين فقط، رأيت عجوزا يجلس بجوار جدار قديم، أراه في الليل والنهار، لا يرعش طرفًا. كأنه بروز حجري على هيئة إنسان وأذكر أنني رأيته في زيارتي السابقة، لا يتغير، بودي لو أرقبه، أعرف متى يأكل، متى يفك قبضته عن العصا، امرأة بدينة أمام قفص كبير، فوقه البقدونس والجرجير، رجل يبيع حلوى لذيذة الطعم من الدقيق والسمن والسكر، يحبها أهل الشرق، اسمها بسبوسة، اشتهر في القاهرة عدد من الباعة يتقنون صناعتها أذكر منهم رجلا قصير القامة، أعور، قبل المغرب يخرج من بيته إلى ناحية حارة لا يسكنها إلا العطارون، يقف جامدا، يتوافد إليه الناس رجالا وأطفالا ونساء، لا يزعق أحدهم، إذا علا صوت رجل يطلب الإسراع لتلبية طلبه، هنا ينظر إليه ويشير إشارة واحدة موجزة " امش ..."، ولا يمكن أن يبيع له أبدا حتى لو تردد عليه مرات، وعندما يقطع البسبوسة، يمد يده بسكينة قصيرة سلاحها عريض مثلث، حركات يده مرسومة محددة، كأنه يشكل الذهب، ينحت المرمر، تخلو الصينية إلا من فتات

حلو متناثر يلمع فوق طبقة رقيقة من السمن كالأشعة الصفراء، بالسكين يجمع الفتات، يلمه إلى حافة الصينية، في اللحظة التي ينتهي من تجميعه، يجيء رجل عجوز طويل معصوب العينين.

يمشي منسربا لا حس له، يحمل طفـلا صـغيرا لا يبكي، يعطيه البائع الفتات ملفوفة في ورقة صـغيرة، يضـم الحامل الخشبي المثلث تحت أبطه ينصرف، أحببت الوقوف قريبا منه، أراقب يديه، وجهه الجامد، لم أذهب إليـه بعـد، محلات الأكل كلها مفتوحة، تسـمع وأنـت تسـير أمامهـا اصطدام الأطباق والأوعية، تتصاعد روائح الطعام. السـمك المقلي، الفراخ المحشوة بالبصل، السنبوسك، وهو نوع رقيق العجين. يشكل في مثلثات محشوة باللحمة. تقلى في السـمن حتى يحمر العجين، من بعيد ترتفع أصوات، تـدور وتتجـه جماعة نجارين يركبون عربات تجرها الدواب. يصـفقون. يكبرون مهللين. يرددون في إيقاع منتظم" ابن موسى ... ابن موسى" لم أميز بقية ما يقولون. من آن إلـى آخـر ترتفـع صيحات هادرة عن جماعة تبتعد كلماتهم شائهة مضـطربة. تغيب فجأة سمعت من يقول: " ابن موسى لا يأتي مرتين في

زمن واحد" رد آخر " لو جاءهم من يصلح أمرهم لابـد أن يخلقوا فيه العيوب" العجيب أنني سـمعت بـالأمس رجـلا عجوزا يقول عند دكان عطور قديم في الحمزاوي " ظهـور ابن موسى علامة من علامات خراب الدنيا ... أنا أعـرف عنه ما يقشعر الأبدان" لكن الحضور نظروا إليـه، سـكتوا لحظة. تسابقوا في الثناء على ابن موسى. كأنهم يدفعون عن أرواحهم أذى مكتوما. ينفون استماعهم إلى العجوز. أي أمر محير هذا لم أر مثله في أي البلاد. النـاس تحـب شخصـا بعينه، كل لسان يحمد سيرته يثني عليه، في الوقـت نفسـه يسري شيء خفي. شعور لا يبين في الأرواح والجماد رهبة خفية من الزيني، لا تبدو على وجه بشر إنما تـرى بعيـون خفية. هذا أمر حيرني فعلا وأربكني، سمعت طبل المنـادي، إذن سيخطب ابن موسى في الناس غدا. المدينة ساهرة، لـم أر فارسا مملوكيا واحدا، عرفت من خادمي أن ضررهم بلغ حدا فظيعا لا يحتمل، منذ عام كامل الخروج بعـد العاشـرة مغامرة، أهالي الحارات يغلقون أبوابها ويعينون مـنهم مـن يجلس وراءها، وعندما تزايد الأذى، طلع ابن موسـى إلـى السلطان وشفع في الناس، قال: " الدنيا ستخرب إذا اسـتمر

الحال على ما هو عليه، من خطف نساء وذبح أبرياء " واستجاب السلطان لرجاء الزيني وأمر بمنع المماليك من مغادرة ثكناتهم العسكرية والنزول بعد العشاء إلا بإذن خاص، أمر بمنع أي مملوك من ارتداء لثام حول وجهه، لم أعاصر هذه الفترة في مصر، لكن أخبرني خادمي باستمرار الدعاء ثلاثة أيام فوق منابر الجوامع للزيني بركات، ولم يحدث هذا لأي إنسان من قبله، حتى أمر ابن موسى بمنع هذا. أخبرني خادمي بذبح ثلاثة شبان في هذه الفترة بسبب ذمهم ابن موسى، ذبحهم العامة بأيديهم عندما قال الشبان ما يفعله الزيني مشكوك فيه، هو الذي أثار المماليك، حتى يطلع إلى السلطان ويشفع في الخلق، وعندما يمنع السلطان مماليكه، ينادي ابن موسى بالكف عن الدعاء له. رجعت إلى بيتي وفي رأسي دوار. بلا شك هناك أمان يعيش بين الناس وادعا. لم تفارقني ضجة الناس، لهوهم في اليوم التالي قمت من نومي مبكرا. صعب علي دخول الجامع. لو فرض وأمسكوني فسأطلب عون الزيني. ما من أجنبي خاصة الفرنجة يدخل مصر إلا ويسجل اسمه والناحية القادم منها. هذا نظام جديد لم يتبع في زيارتي الأولى. لو سألني عما

أفعله في المسجد سأخبره بطوافي. برغبتي في رؤية الـدنيا. ابن موسى سيفهمني. لابد من لقائي به هذه المرة. لم أره إلا في موكبه يوم مشيه في موكب إعدام سلفه بأغرب طريقـة قتل رأيتها. الرقص حتى الموت. قلت لن يفـوتني سـماعه. فلأدخل المسجد. لمحت رجالا يرتدون ملابس زرقاء ياقاتها صفراء. يقفون بين المصلين، يرقبون حركاتهم، يزداد عددهم كلما اقتربوا من الصفوف الأمامية، وحتى آمن على نفسـي جلست ملاصقًا لأحدهم لم أخطئ في القيام والركوع، أعرف الصلاة هنا أهون من قرى الهند والمعابد والعادات التـي لا تنتهي، بين الناس سرت همهمة. دوائر تتسع، تتسع بعد إلقاء حجر في مياه ساكنة، تعلقت العيون بالمنبر الخشبي، وفـوق السلالم الخشبية طلع حاكم القاهرة، محتسب الديار المصرية، الزيني بركات بن موسى، أصغيت مرهفـا، حديثـه عـامي اللهجة، وهذا يخالف الأصول على حد علمـي، اضـطررت إلى إحاطة أذني حينا بيدي حتى أسمع ما يقول. بدأ لينا ثـم علا، سمعت مجيء الزيني إلى وظيفته، حرصه على إقامـة العدل، وإقامة العدل في العالم أمر محبوب للبعض، مكـروه لآخرين، كانت الفرصة مفتوحة أمامه. ينهب الأموال ويكدس

اليواقيت. اللؤلؤ والمرجان. كما فعل الأولون، وكمـا يفعـل الآخرون. لكنه أبى خوفا منه وحده (يقصد ا) وها هو ذا لا يمتلك أكثر مما يقيم أوده. وقال إنه تعهد بتقديم المال عن جهات معينة. وتمكن من استخراج أضعاف الأمـوال التـي تدرها هذه الجهات عادة ولم يشك إنسـان أو يتضـرر. لـم يصادر فلاحا فقيرا يعمل بها. لم يتسبب في خروج بعضـهم عن بلاده، وضع حدا لهجمات العربان على بيوت الفلاحين، هذا ما تم في الريف، أما الضرائب هنا فهـل شـكا منهـا مخلوق؟ لقد ألغى العديد من الضرائب، وهنا تمهل صـوت الزيني، استمع الناس إلى سر من أسرار السلطنة لا يجـرؤ مخلوق على قوله. كان السلطان ينوي فرض ضريبة جديـدة (وهنا علا صياح الناس، حماك ا ... حمـاك ا)، لقـد شاءت رحمة السلطان وعدله أن يستجيب لشفاعة ابن موسى، فيلغي ما عزم عليه، (حماك ا ... حماك ا) وما قيمـة الشفاعة إذا لم تجد صدرا رحيما كصدر السـلطان يتقبلهـا، وبعد نزول الزيني من القلعة، نزوله يوم سبت وسفره إلـى الصعيد للاطمئنان على الأحوال (هنا توقف الحـديث وبـدأ التأثر في لهجة الزيني)، سرى هياج بين الناس، لاحظـت

صدور أصوات من مكان قصي في المسجد، أمـا الرجـال المرتدون الملابس الزرقاء فبدأوا يقتربـون مـن بعضـهم البعض، ثم يتفرقون، لكن ليقفوا في مواضع غيـر أمـاكنهم الأولي فى الظهيرة، ظهيرة السبت طلع إلـى القلعـة هـذا الرجل، سامحه ا أبو الخير المرافع، أبو الخير الذي خرب في عام واحد ثلاثًا وثلاثين أسرة، ابن موسـى لا يـذم أبـا الخير، إنما يذكر وقائع مدعومة بدلائل لا تقبل الشك، الـذين خربت بيوتهم أحياء يرزقون، أما اليتامى فيشهدون على آباء رحلوا قبل الأوان، من أخبره بهذه التفاصيل، من أوضح لـه حقيقة أبي الخير المرافع؟ إنه نائبه المخلص الأمـين، نائبـه الذي يغار على العدل كما يغار على أهل بيته(أشار بيده إلى أول الصفوف) أنه زكريا بن راضـي، وتطاولـت أعنـاق الناس ليلمحوا زكريا لكنهم لم يستطيعوا فزعقوا (أبقـى ا زكريا. أبقى ا زكريا) اقترب الرجال ذوو الأردية الزرقاء من ركن المسجد، يبدو أن شغبا يجري، علا صـوت ابـن موسى، رأيته يضرب صدره بيده. أبو الخير المرافع افترى عليه، تعهد أمام السلطان باستخراج ستين ألف دينـار مـن الزيني بركات، بعد أن يتسلمه ويجري عليه العذاب (زعـق

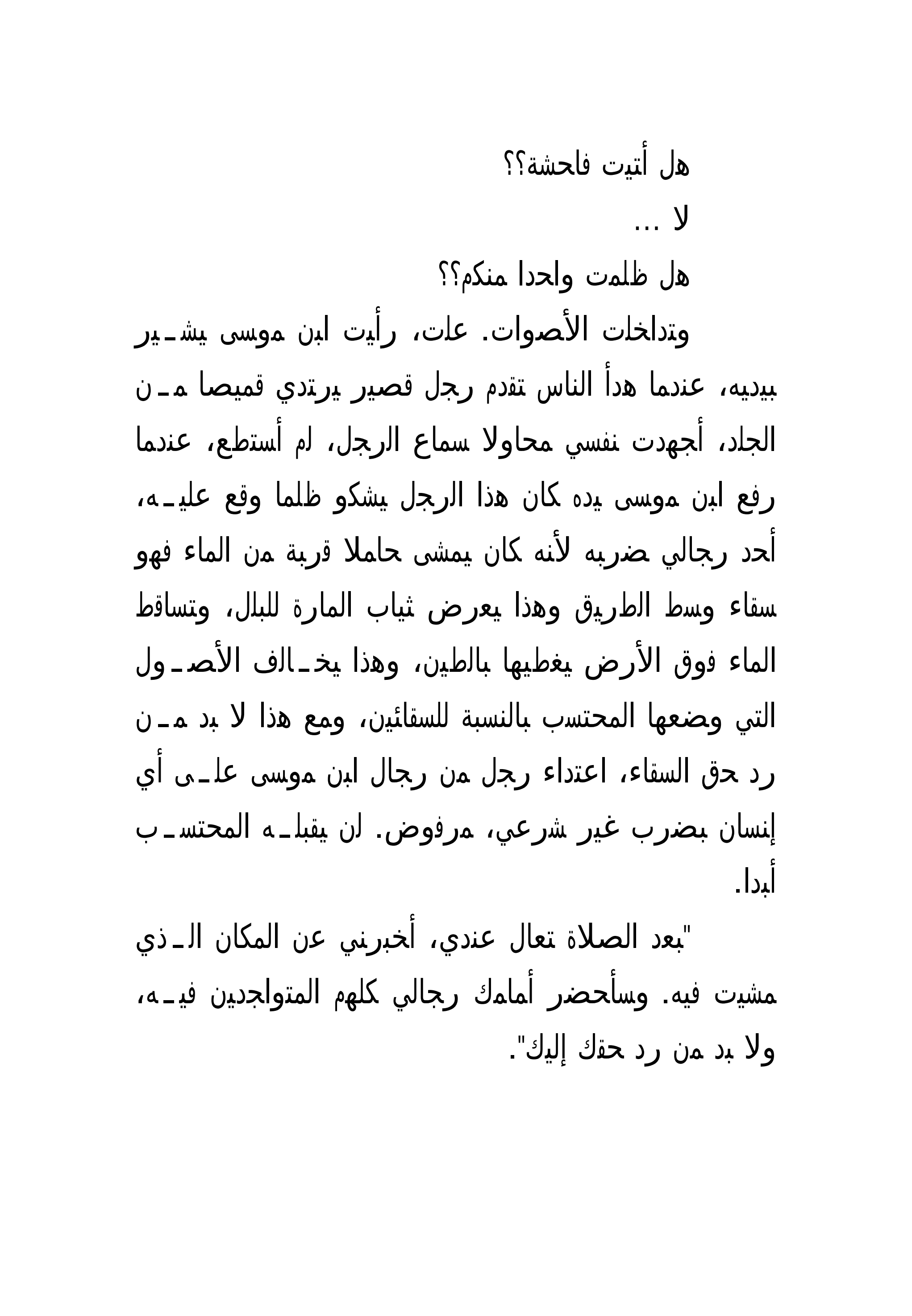
الناس ... لعن ا أبا الخير ...لعن ا أبـا الخيـر) لكـن السلطان بما أوتي من قوة بصيرة ونفاذ سريرة. هل يـدري الناس ما قاله السلطان. أولا ... أمر بزج أبي الخير المرافع في القيد الحديدي، قال له هل تظن أنني لا أدري ما يمتلـك ابن موسى. سأحكي لك حادثة بسيطة. عندما انعقد مجلـس السمر الليلي. تأسف الأمير ماماي الطبـردار (أي حامـل الطبر والفأس) وقال، حتى اليوم كنت أظن ابن موسى واحدا من الأثرياء والمال عنده كاللولب يديره كيفمـا شـاء لكنـه جاءني. وكان مضطربا زائغ العينين طلـب منـي قرضـا قيمته ... تساءل السلطان عن قيمته. تأسف السـلطان ثانيـة وقال خمسة دنانير ... أي وا خمسة دنانير. قال السلطان: هل تظن شخصا يرسل في طلب قرض كهذا تستطيع إخراج آلاف الدنانير منه. ثم لماذا ستون ألف دينـار. آه ... ابـن موسى أدخل إلى خزائني آلاف آلاف الدنانير. لم يأخذ منهـا درهما لنفسه وعندي عيوني التـي تخبرنـي بكـل كبيـرة وصغيرة في بيته(هنا علت همهمات من أقصـى المسـجد، وسرت همسات بين الناس) فوق المنبر وقف ابـن موسـى صامتًا ... رأسه مطرق، يداه تضامن طرف عباءته السوداء.

وصاح الناس مطالبين بعضهم بالسكوت، رأيت الناس فـوق سطح المسجد المطل على الصحن الداخلي يروحون ويجيئون ثم ظهر ثلاثة رجال يلبسون الملابس الزرقاء يدفعون الرجال الذين يختلسون النظر إلى أعلى. أيقنت جمال المنظـر لـو صعدت فوق المئذنة الجديدة التي بناها السلطان الحالي هنـا، تشبه مئذنة ذات الأربع رءوس والمنبثقة من جامعة الجديـد في أول سوق الشرابشيين. هذه المئذنة أدمنت النظر إليهـا. المرور من تحتها. يتساقط فوق روحي وهج رخامها الملون. عصور سحيقة أراها في الصباح أعود إليها وغبار العصـر يغطيها فألقي منظرا جديدا. أجلس في دكان مشروبات قريب من الأزهر، أرقبها تغوص بقمتها، برءؤسها الأربع في الليل حتى تندمج بظلامه. أخشى عليها من ضياع. أرجع إليها من جديد. لم يتحدث ابن موسى إلا بعد هدوء الضجة " أعذروني إذا رويت لكم فيما رويـت بعـض أسـرار بيتـي. " أنـتم أخوتي ... يا أخوتي ...

هل سرقت واحدا منكم؟؟

(تآلفت الحناجر ... تسد الفراغ ...)

حاشا ...



هل أتيت فاحشة؟؟

لا ...

هل ظلمت واحدا منكم؟؟

وتداخلت الأصوات. علت، رأيت ابن موسى يشـير بيديه، عندما هدأ الناس تقدم رجل قصير يرتدي قميصا مـن الجلد، أجهدت نفسي محاولا سماع الرجل، لم أستطع، عندما رفع ابن موسى يده كان هذا الرجل يشكو ظلما وقع عليـه، أحد رجالي ضربه لأنه كان يمشى حاملا قربة من الماء فهو سقاء وسط الطريق وهذا يعرض ثياب المارة للبلل، وتساقط الماء فوق الأرض يغطيها بالطين، وهذا يخـالف الأصـول التي وضعها المحتسب بالنسبة للسقائين، ومع هذا لا بد مـن رد حق السقاء، اعتداء رجل من رجال ابن موسى علـى أي إنسان بضرب غير شرعي، مرفوض. لن يقبلـه المحتسـب أبدا.

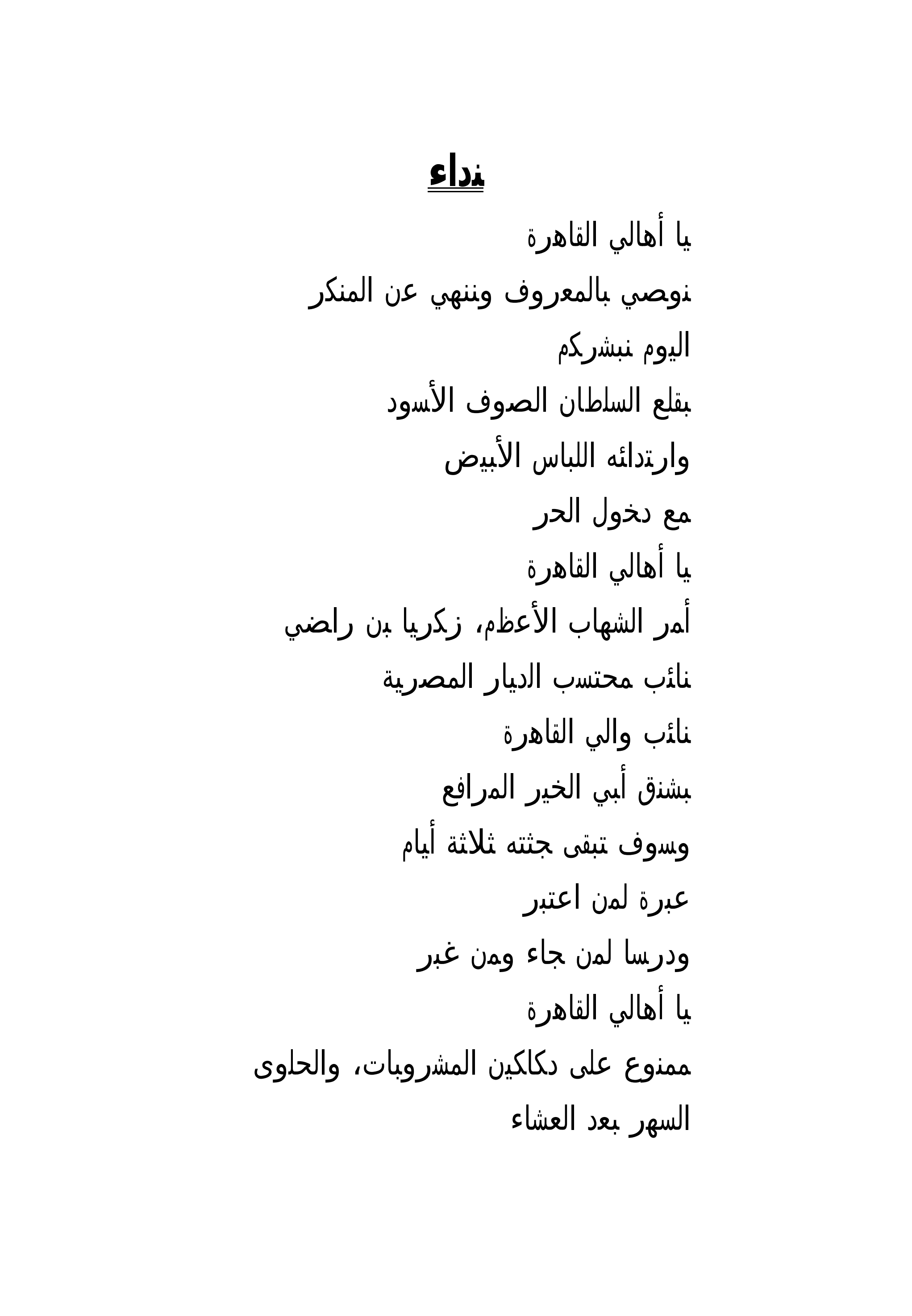
"بعد الصلاة تعال عندي، أخبرني عن المكان الـذي مشيت فيه. وسأحضر أمامك رجالي كلهم المتواجدين فيـه، ولا بد من رد حقك إليك".

وفي لحظة بعينها، قبل تهليل الناس، انطلقت صيحة من أقصى المسجد، انطلقت في هفوة صمت، تخللت حـديث الزيني ...

"كذاب ..."

هنا لم يصدق ابن موسى، صوت نشاز، لـم أخـف تعجبي، الحق أنني لم أر مثل الرجل طوال سني عمري التي قضيتها راحلا عبر البلاد، تزايد إعجابي بابن موسى، عندما عاد إلى إطراقته، لا يتكلم إلا إذا ساد هدوء، لمحـت ضـيقًا خفيا حل به، طبعا لابد أن يضيق بهذه الصفاقة، ربما وصل أعداؤه ليفسدوا عليه حديثه إلى الناس، مرة ثانية أشار بيـده إلى الصف الأول، تابعه المخلص الأمين الشهاب زكريا بـن راضي (دام زكريا ... دام زكريا) هو الذي قبض بنفسـه على أبي الخير المرافع تسلمه وحبسه، لا لأنه طلع وترافـع في حق الزيني، ابن موسى فكر في العفو عنه يكفيه معرفـة السلطان بالحق وأهله، لكن الشهاب الأعظم سيذيقه مـا أذاق الآخرين، ابن موسى لن ينثني. لن يتراجع عما يراه عـدلا، السلطان معه، وقلوب الناس تحميـه، فليـأت أعـداؤه بمـا يشاءون. كل ما يرجوه. أن يمضي إليه صاحب المظلمة وإذا

ثبت أنه ظالم مخلوقًا. فسيقبل أي قصاص يقـع عليـه كـأي مخلوق (علت ضجة من نفس المكان الـذي انطلقـت منـه الصيحة) بدأ ابن موسى في نزول درجات المنبر الخشـبي. صاح البعض "ا أكبر. ا أكبر. الزيني. زكريا. قـواك ا وحماك"، دق بعض الدراويش كئوسـا نحاسـية وضـاعت الأصوات التي علت تشوش على الزيني. لم أخف بهجتـي. وازداد إصراري. لابد من لقائي به قبل سفري ...



نداء

يا أهالي القاهرة

نوصي بالمعروف وننهي عن المنكر

اليوم نبشركم

بقلع السلطان الصوف الأسود

وارتدائه اللباس الأبيض

مع دخول الحر

يا أهالي القاهرة

أمر الشهاب الأعظم، زكريا بن راضي

نائب محتسب الديار المصرية

نائب والي القاهرة

بشنق أبي الخير المرافع

وسوف تبقى جثته ثلاثة أيام

عبرة لمن اعتبر

ودرسا لمن جاء ومن غبر

يا أهالي القاهرة

ممنوع على دكاكين المشروبات، والحلوى

السهر بعد العشاء

ومن ضبط مخالفًا

عوقب بخمسين جلدة

يا أهالي مصر

جاءت الأخبار

بوقوع معركة

بين فرساننا الأشاوس

ورجال ابن عثمان

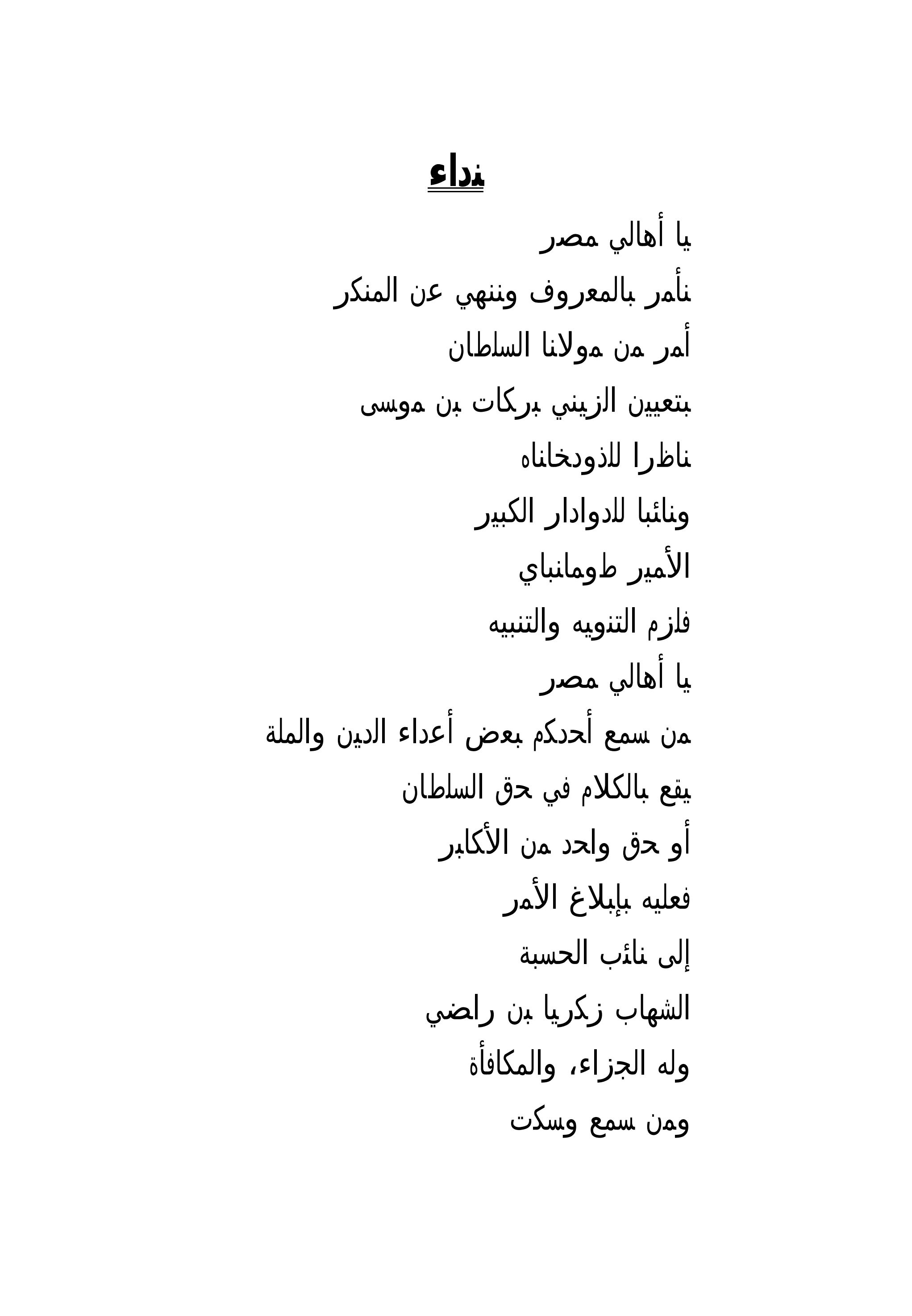
وقتل فرسان سلطاننا

أربعين فارسا عثمانيا

وهذا أول دم يسيل

فانتبهوا يا أهالي مصر

يا أهالي مصر



نداء

يا أهالي مصر

نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر

أمر من مولانا السلطان

بتعيين الزيني بركات بن موسى

ناظرا للذودخاناه

ونائبا للدوادار الكبير

الأمير طومانباي

فلزم التنويه والتنبيه

يا أهالي مصر

من سمع أحدكم بعض أعداء الدين والملة

يقع بالكلام في حق السلطان

أو حق واحد من الأكابر

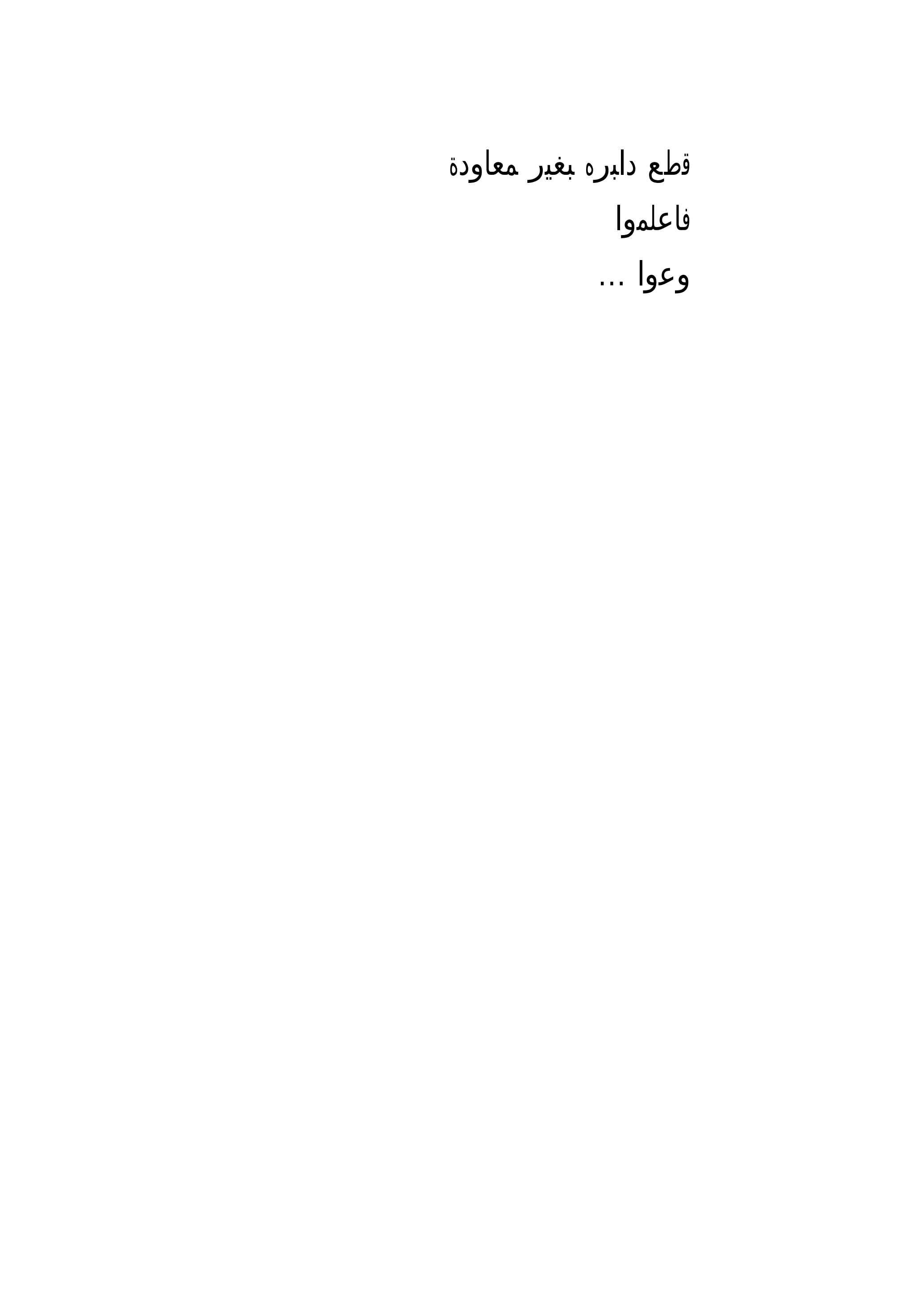
فعليه بإبلاغ الأمر

إلى نائب الحسبة

الشهاب زكريا بن راضي

وله الجزاء، والمكافأة

ومن سمع وسكت



قطع دابره بغير معاودة

فاعلموا

وعوا ...

سعيد الجهيني

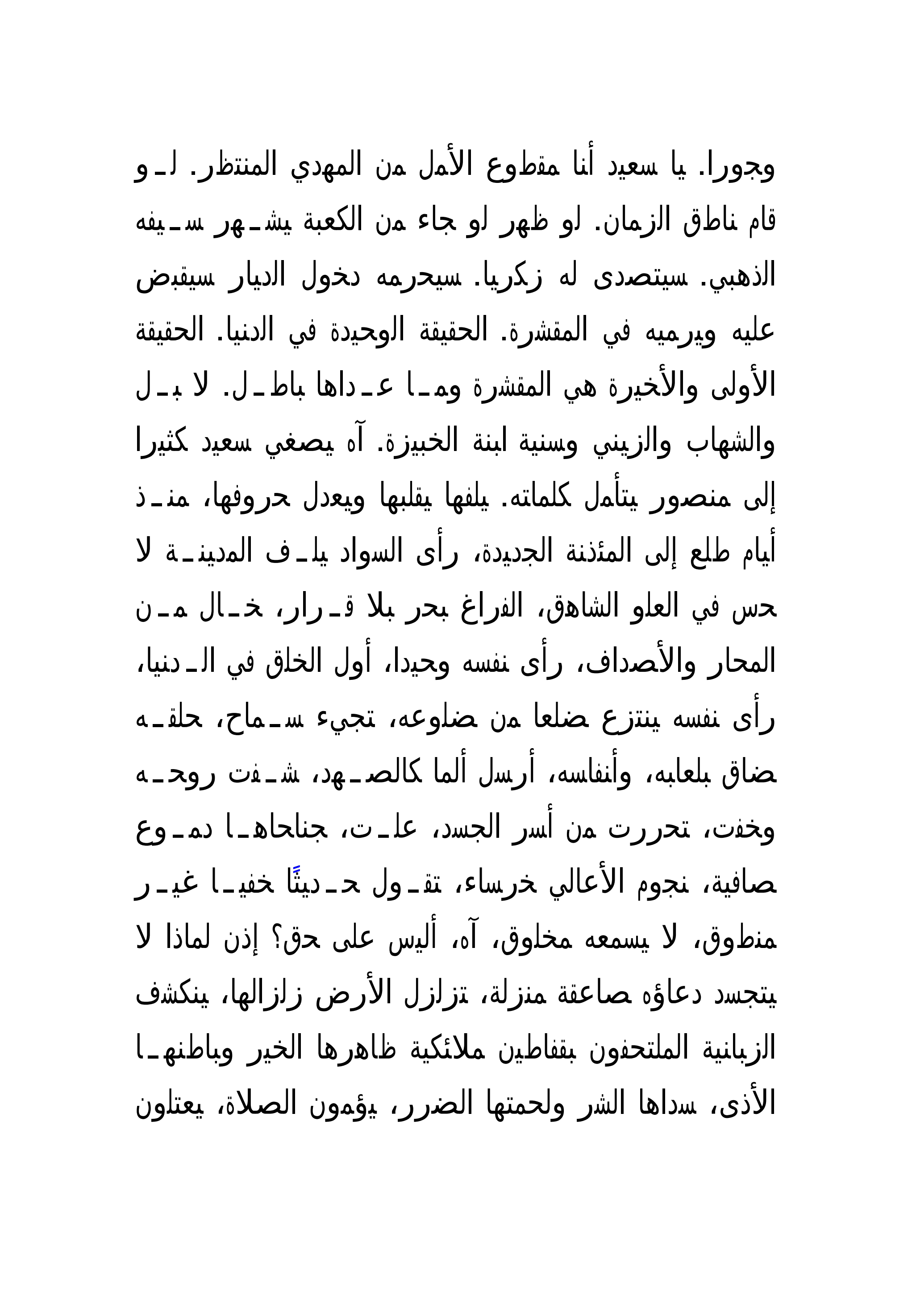
في القلب جراح صعبة الاندمال، النفس غابة أسـنة وحراب مرشوقة لا تنتزع، لا سد يوقف الأسـى المنثـال، يذوي الأول والآخر، يضيع المثنى والمفرد، التاء المفتوحـة نهاية النهاية، موت الآمال وليد فراق الأحبة، أمـا الأمـاني فتنأى، في أول العمر يهتف خاطر خفي دفين، جبينـك لـم تدركه الغضون، صدى وسوسات النجوم، يشد الأرض إلـى السماء. قلوب الخلق تنهج بالمر والبلوى. لكن صبرا. مهلا. بعد سنوات ستجيء الأيام السعيدة. لن يستقر الأمـر علـى حاله. أول العمر يغمض عينيه فيرى أياما مقبلة. وربيعا فتيا يخرج الخلق بمأمن من عبث المماليك. لا يدركهم خوف من هجوم المنسر. أو كبسة مفاجئة من بصاصين يسعون في أثر إنسان. لا يحب الإنسان مرتين. أول من يخفق لها القلب. لا تنفى ضرباته. لا تصرع خفقاته. لا تنتزعـه مـن الصـدر وتسلمه إلى منقار طير جارح. يلهى به أفراخه الصغار. في الزمان المرتجى أطفال صغار لا تعرف لغاتهم لفظ الخوزقة. قطع رقبة. وباء. في الوجوه صفاء اعتاد رؤيته فـي وجـه مولاه الشيخ أبي السعود. لن يطول انتظار هذا. يقول لنفسـه

خمس سنوات ... خمس سنوات لا غير. وتمضـي الأيـام وتنأى. يسأل ملتاعا. ألم تمض السنون الخمس؟ ربمـا بعـد خمس أخرى، أبد أبدا. حتى أمنيته العذبة. أن يصبح له سكن مستقل يغلق ضبة بابه. دورة مياه لا يشاركه فيها أحد. حتى هذا صعب ومحال. يقول منصور صاحبه: جئنا إلى الـدنيا وسنمضي عنها فنحن لسنا بمعمرين وسنترك آخرين يأملون في قدوم الأيام السعيدة. يا سعيد لماذا نخدع أرواحنا؟ لمـاذا نصدم رءوسنا بالصخر. يا سعيد إنما نأتي شيئًا إمرا. بعـد خمس ثم خمس أخرى الأصابع تنثني لا تلاحق ما يمضـي. وسبع وعشرون سنة مضت. عطن الدنيا أبدي. عبث الجـان بالخلق لا ينتهي. الظلم كنيران المجوس لا ينطفئ.

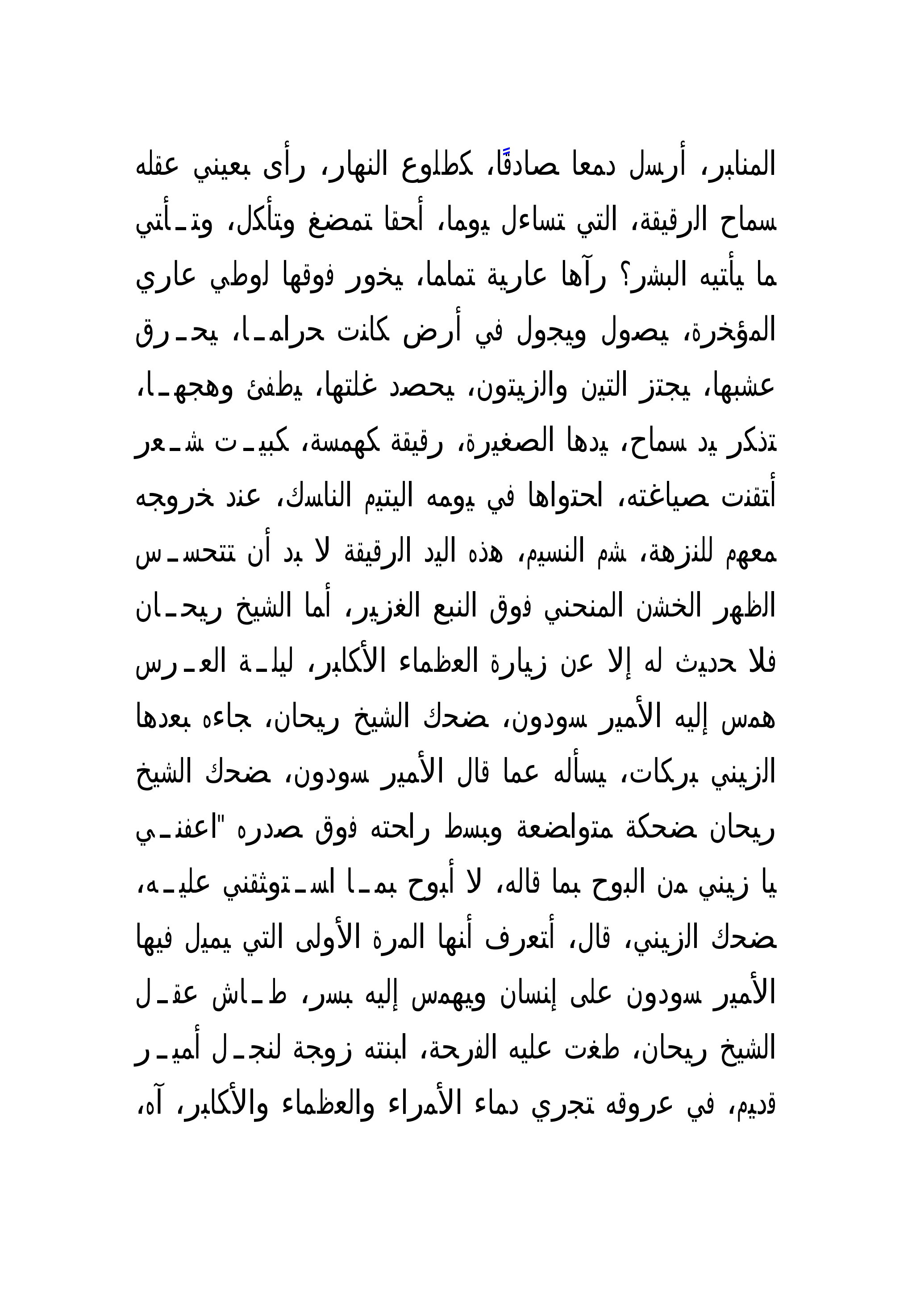
***

الطريق إلى بيت الشيخ ريحان لا يعرفه الآن. فـي الأيام الضائعة انغلق. ضبة المفتاح تلـغ فـي قلبـه. قـال منصور: في الزمان دواء عظيم اسمه النسيان. أحيانًا تمضي أيام معدودات تخف فيها حدة الأسى. يهتف بالـه المكـدود. هاهو ذا الدواء يسري لكن في لحظة بعينها أي وقـت مـن أوقات النهار أو الليل. ربما في جلسته الصباحية المعتادة عند

حمزة بن العيد الصغير. في رشفة معينة من كوز الحلبة. في صحن الجامع عند إصغائه إلى الدرس. فجأة يحط عليه ثقـل عظيم، أوردة قلبه يندفق منها دم معتم يظلم الـروح، يـذكر لحظة بعينها تنفر آلامه جامحة. يهب واقفـا مـا العمـر إلا حلقات نحاس محمية. تكوي النفس. مـا العمـر إلا ذكـرى طويلة أليمة تدثره. تزمله. ترى في أي الأفلاك منقـذه؟ أي العوالم الأرضية تخفيه؟ أي النجوم تخفف البلوى. أو تنبئـه بها قبل مجيئها من بعد قصي. أي قمقم يغوص فيه هربا من عصره. من دنياه. لا يفتح إلا في الزمن السعيد الآتي. يفتحه صياد بسيط فيخرج منه شعاعا. يخرج منه روحا وصـفاء. يهبه الحياة. والحب الضائع. يؤويه الصياد، تضمهما الأبدية. لا يضل الطريق إلا من أحب. أما زمانه هذا فلا يقبـل مـا يجود به القلب الحنون. لا يجفف دمعة أم على ابنها القتيـل. لا يبدد الهجر، لا يحيي موات الأمـل. لا يجفـف الجـراح الطرية. أبدا. يقول سعيد سـتأتي الأيـام السـعيدة. يصـيح منصور. متى؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر العنيد؟ يا سعيد لا شفاعة للخلق ترجى. حتى لو أتانا الحبيـب المصـطفى. وحاول ملء الأرض عدلا وسلاما. من بعد أن ملئت ظلمـا



وجورا. يا سعيد أنا مقطوع الأمل من المهدي المنتظر. لـو قام ناطق الزمان. لو ظهر لو جاء من الكعبة يشـهر سـيفه الذهبي. سيتصدى له زكريا. سيحرمه دخول الديار سيقبض عليه ويرميه في المقشرة. الحقيقة الوحيدة في الدنيا. الحقيقة الأولى والأخيرة هي المقشرة ومـا عـداها باطـل. لا بـل والشهاب والزيني وسنية ابنة الخبيزة. آه يصغي سعيد كثيرا إلى منصور يتأمل كلماته. يلفها يقلبها ويعدل حروفها، منـذ أيام طلع إلى المئذنة الجديدة، رأى السواد يلـف المدينـة لا حس في العلو الشاهق، الفراغ بحر بلا قـرار، خـال مـن المحار والأصداف، رأى نفسه وحيدا، أول الخلق في الـدنيا، رأى نفسه ينتزع ضلعا من ضلوعه، تجيء سـماح، حلقـه ضاق بلعابه، وأنفاسه، أرسل ألما كالصـهد، شـفت روحـه وخفت، تحررت من أسر الجسد، علـت، جناحاهـا دمـوع صافية، نجوم الأعالي خرساء، تقـول حـديثًا خفيـا غيـر منطوق، لا يسمعه مخلوق، آه، أليس على حق؟ إذن لماذا لا يتجسد دعاؤه صاعقة منزلة، تزلزل الأرض زلزالها، ينكشف الزبانية الملتحفون بقفاطين ملائكية ظاهرها الخير وباطنهـا الأذى، سداها الشر ولحمتها الضرر، يؤمون الصلاة، يعتلون



المنابر، أرسل دمعا صادقًا، كطلوع النهار، رأى بعيني عقله سماح الرقيقة، التي تساءل يوما، أحقا تمضغ وتأكل، وتـأتي ما يأتيه البشر؟ رآها عارية تماما، يخور فوقها لوطي عاري المؤخرة، يصول ويجول في أرض كانت حرامـا، يحـرق عشبها، يجتز التين والزيتون، يحصد غلتها، يطفئ وهجهـا، تذكر يد سماح، يدها الصغيرة، رقيقة كهمسة، كبيـت شـعر أتقنت صياغته، احتواها في يومه اليتيم الناسك، عند خروجه معهم للنزهة، شم النسيم، هذه اليد الرقيقة لا بد أن تتحسـس الظهر الخشن المنحني فوق النبع الغزير، أما الشيخ ريحـان فلا حديث له إلا عن زيارة العظماء الأكابر، ليلـة العـرس همس إليه الأمير سودون، ضحك الشيخ ريحان، جاءه بعدها الزيني بركات، يسأله عما قال الأمير سودون، ضحك الشيخ ريحان ضحكة متواضعة وبسط راحته فوق صدره "اعفنـي يا زيني من البوح بما قاله، لا أبوح بمـا اسـتوثقني عليـه، ضحك الزيني، قال، أتعرف أنها المرة الأولى التي يميل فيها الأمير سودون على إنسان ويهمس إليه بسر، طـاش عقـل الشيخ ريحان، طغت عليه الفرحة، ابنته زوجة لنجـل أميـر قديم، في عروقه تجري دماء الأمراء والعظماء والأكابر، آه،

أي فائدة ترجى من اجتلاب هوام الأفكار؟ أي نفس خربـة، معطبة يضمها بين ضلوعه، أهذه روح لم تعـش إلا سـبعة وعشرين.

***

لا يبالغون في إخفاء أنفسـهم، يجهـرون بـالظهور أمامه، يعبرون الطريق أمام دكان حمزة. كثيرون يروحـون ويجيئون، لكن سماتهم الخفية لا يخطئها إنسان، ربما ظهروا فجأة، ربما في هيئة عجوز فلاح فقير يمشي الهوينى، نظرة خاطفة من عينيه، تشي بحقيقته، تقول من هو؟ ما الذي دفعه إلى المرور من هذا المكان بالذات؟ ربما امرأة شابة، ربمـا عجوز بلغت من العمر قصيا، الأطفال حتى أطفال لا حصر لهم ولا عد يخدمون الشهاب، يفسد الابن على أبيه، لا يصدق إلا شهادة الطفل، من هو دون الخمس السنوات، وهذا أمـر مستجد لم يعهده أحد من قبل، سعيد لا يمشي مـع صـاحبه منصور، سيقتفون أثره، يجهدون أنفسهم في النفاذ إليه، سعيد يعلم تماما، حركاته ترصد، أنفاسه تحصى، يتحدث كثيرا في الرواق في المسجد، ربما فسروا حديثه أضافوا إليه مـا لـم يقصده، الغريب أنه سمع بعض المجاورين يسـبون الأميـر

طشتمر جهارا. قال: ربما من البصاصين. لكنه سمع مجاورا شاميا من أهالي حلب يقسم بصحيح البخـاري، أن الأميـر خاير بك يراسل السلطان العثماني في الباطن يخبره بأحوال الخلق في الشام ومصر. ينقـل إليـه الصـغيرة والكبيـرة. وارتفعت الأصابع تتخال اللحى. في العيون حيرة. أي بـلاء قادم أي مصائب تحوم؟ ما أدهش سعيد ليس اتصال خاير بك بالعثمانية. ربما فكر في واقعة كهذه. أمر قريب ممن لا أهل له ولا يد. لكن ما روعه اللهجة التي قيل بهـا الكـلام. أي الخواطر ترقب عقولهم. في وقت طويل رأى نفسـه حامـل الثقل الفادح لا أحد يعينه عليه. حتى منصـور صـاحبه. إذا سئل عن أصحابه وزملائه قال لا فائدة منهم ترجى. أتـاهم المماليك على غفلة فعملوا فيهم ما أحالهم إلى طواشـية لـم يعرف مثلهم على مر الأزمان. طواشية ينجبـون خصـيانا. يعمرون بطون النساء لكنهم بلا ألسـنة. معلمهـم بصـاص ومربيتهم سنية ابنة الخبيزة. الآن يسمعهم يجهرون بما يتردد هو في التصريح به. ما الذي جرى؟ هل أدركته الشـيخوخة هل يمتد مشفر الموسى إلى فؤاده. إلى وجدانه إلـى لسـانه يروح بين حلقاتهم ويجيء يصغي، الأخبار تـدور، رسـل

السلطان يعودون من بلاد ابـن عثمـان، بهـدلهم. انتهـك حرمتهم، حلق شعر كبيرهم الأميـر مغلبـاي وشـكه فـي الزناجير، كاد يقتله لولا شفاعة بعض عقلاء العثمانلية فيـه. الحرب أمر لا جدال فيه. قصاد ملك الحبشة يطلعون القلعة. الناس يتفرجون عليهم لغرابة هيئتهم. جان بـردي الغزالـي يسافر إلى نواحي الشرقية يلعب بالسيف في رقاب الفلاحين، يقتل الآلاف حتى تسد الترع بالجثث، موت رجل عجوز كان فريدا في صنع البسبوسة، بموته اختفى صنف لا يعوض، لم يعط سره لإنسان. الزيني بركات ينوي الخطبة في النـاس، هل تعرفون ربما كان بعض الأمراء وراء طلوع أبي الخير المرافع إلى السلطان وطعنه في الزيني.



الجامع يفيض بالمصلين. عبير الوضوء والحصـير القديم، يطلع الزيني المنبر، لحظة بعينها تجيء فتغيـر كـل شيء إلى مسار مخالف، فوق المنبر الخشبي يرى خروجـه مع سماح يوم شم النسيم. إدراكه نهاية فرحته، يـوم كامـل تحدث إليها، لم تغب شمسه، يراه الآن معطلا مـن الأمـل، تضج في أذنيه الكلمات، يصغى إلى أصوات العرس، ليلة أن

ذبح ذبحا ولم يفتده جبريل عليه السلام، لم يبكه قلبه. بل هام كالأبرص، يرى الدنيا ثقبا ضيقًا، تقدم له جرعة ماء، عندما حالوا بينه وبين الجري، سفكت دماؤه فوق صحراء، أجتـز البوح من صدره، الزيني يتحدث من فوق المنبر، ابن سـيد الناس يتجر في الفول كما يهوى، الشفاه تتسابق فـي تقبيـل زكريا، لمس طرف عباءته، الرجال أمام الـدكاكين يهـزون رءوسهم، يضيقون عيونهم، يا سلام هل رأت القاهرة رجـلا مثله، أنظروا إلى ورعه، إلى تقواه، لن يأتي الزمان ببصاص كهذا، الزيني يخطب الناس، في صوته لين ومسـكنة، هـل تسعى في زواج سماح، لماذا حضر العرس، بأي غـرض؟ أين المرأة العجوز التي تطلع بين الناس تصيح بكلمتين فقـط في وجهه، منذ مدة طويلة لم يرها أحد، لـم يسـمع عنهـا مخلوق، ربما قتلها، ربما نفاها عن الدنيا، قالوا إنها تـذهب إليه في المساء ويبكي بين يديها أمام باب بيته، وإنها تخبـره بما جرى وما سيجري، بما سيأتي به الزمن، لكنها الوحيـدة التي تصرخ فيه، سعيد سمعها بأذنيه في أول موكـب، منـذ سنوات عندما رقص طربا، مال فرحـا، النـاس يجـأرون بالدعاء (حماك ا ، دام زكريا ... زكريا)، فليقل سعيد مـا

قالته هي، كتفاه تنوءان بحمل هم عظـيم، الحجـارة تثقـل صدره، لكنه لا يرقد في هجير مكة، لا تلسعه نيران الرمال، لا يهتف كبلال، كعمار بن ياسر، أحد، أحد، مصر لا يئـين كزرد الحديد وعنف السلاسل، أحد أحد، قلها وأطلق صـيحة الشهادة (عاش زكريا دمت يا زيني)، ما الذي بقي ليحـرص عليه، زمن إمامه الزيني وشيخه زكريا، سدنته البصاصون، كاتم سره عمرو بن العدوي، ليطرد كهولة ما قبـل الأوان، ليسترد شباب العمر، ليرفع المشفر الحامي عن اللسان.

"كاذب"

لحظة هينة طنت في أذنيه، ذوو الأرديـة الزرقـاء والياقات الصفراء، زرقاء، صفراء، نفذ السهم، وتجمدت اليد في الهواء، فوق المنبر.

" كاذب "

لا يخاف الهجير، لتغرقه نظرات الاستياء، السقائين، الحدادين، المرخمين، البنائين، الفحامين، النجارين، الخبازين، البصاصين، ليزحفوا إليه، هم لا يعلمون، تتـدحرج حجـارة الصخر والجبل، لا يهم، لو ذبحوا ابنه بين يديه، ولـو، لـو

منعوا الماء عنه، لو أخذوا الرأس وعبثوا بالشفتين. ولو سبقه الحسين إلى احتمال شرف العذاب.

" أنت تكذب " ..."

أهو الصدى؟؟ أبدا. ربما. عجيب. محير. أصـوات أخرى حز الخوف فيها لكنها تنطق معه فـي حـس موحـد شهيد ...

" أنت تكذب."

" أنت تكذب."

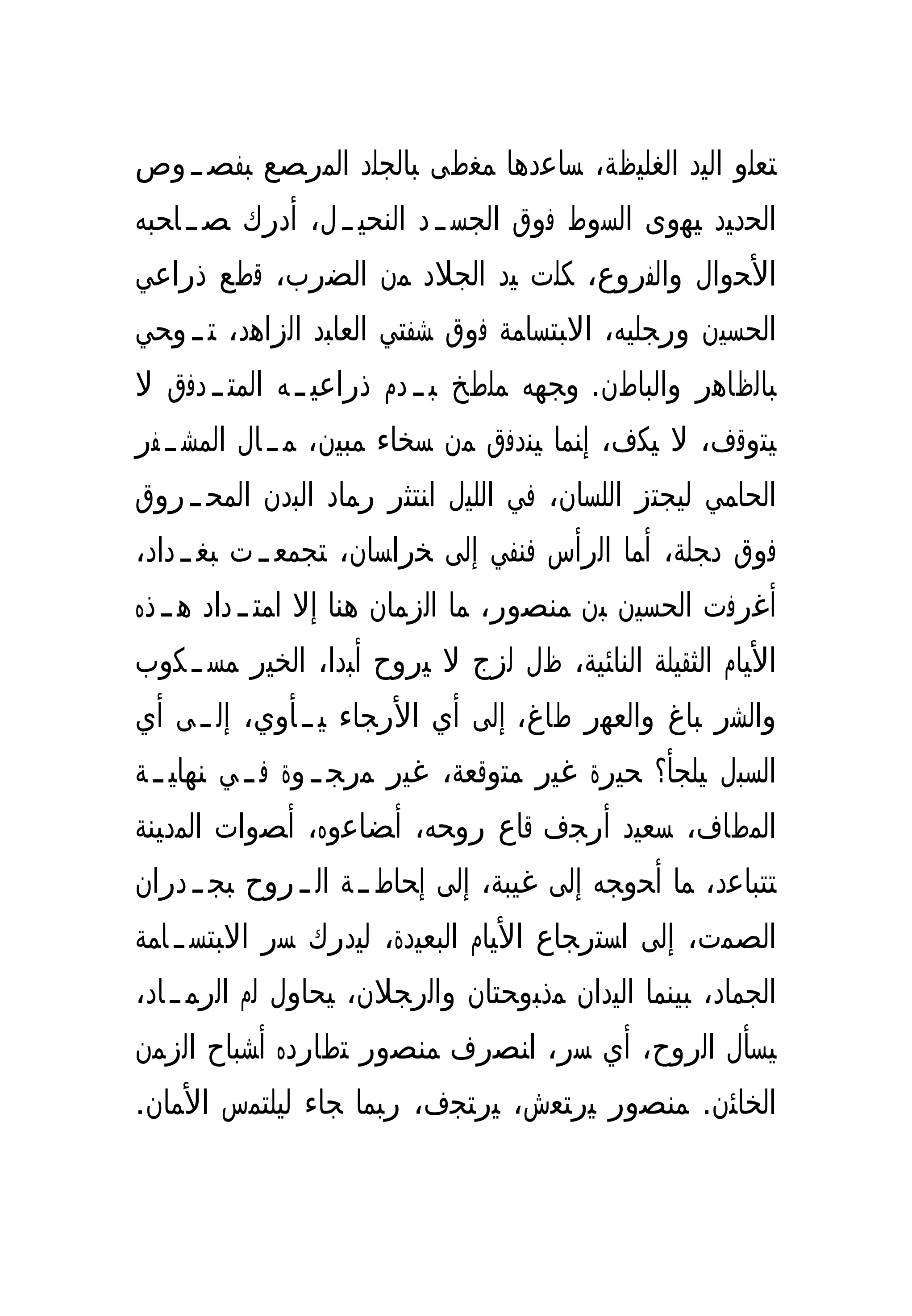
***

مقدم بصاصي القاهرة

الآن لا يرى ما يقوم به رجاله. لكنـه يعـرف مـا يجري. لم ير وجه سعيد ويعرفه تماما. لكثرة ما قرأ عنـه. يعلم أمورا تخصه لا يدري بها سعيد نفسه. يود لـو أسـرع الوقت حتى يراه. الوجه الذي قرأ كثيرا عـن صـمته هنـا سيعرف كل اختلاجة طافت به. ما الذي يجعل وجهه صامتا دائما. لا يتحدث كثيرا. هوايته القديمة رؤية اللحظات الأولى في وجه إنسان أحيط عمره بقيود. عند الباب الخارجي سيقدم إليه نصف كوب ماء. يشربه معصوب العينـين. أي تـأثير يحدثه هذا؟ يقول الشهاب الأعظم: يجب أن تكـون الخطـوة التي يعبر فيها الإنسان عتبة أبوابنا حدا فاصلا بين عهـدين. عندهم ينقسم العمر الواحد قسمين بحيث يخرج الإنسان مـن هنا يحمل نفس الاسم لكنه في حقيقة الأمر شخص آخر".

كوم الجارح

جذع دومة قديم عتيد يحاط بسياج من حديد، مدينـة وثنية ترجم ناسكًا، بغداد الإسلام تلتف حول منصـة عاليـة فوقها المنصور، الحسين بن منصور الحلاج، الرجال والنساء يرمونه بالأوحال، اللسان الشهيد لا يكف، أنا الحق، أنا الحق،



تعلو اليد الغليظة، ساعدها مغطى بالجلد المرصع بفصوص الحديد يهوى السوط فوق الجسد النحيل، أدرك صاحبه الأحوال والفروع، كلت يد الجلاد من الضرب، قطع ذراعي الحسين ورجليه، الابتسامة فوق شفتي العابد الزاهد، توحي بالظاهر والباطن. وجهه ملطخ بدم ذراعيه المتدفق لا يتوقف، لا يكف، إنما يندفق من سخاء مبين، مال المشفر الحامي ليجتز اللسان، في الليل انتثر رماد البدن المحروق فوق دجلة، أما الرأس فنفي إلى خراسان، تجمعت بغداد، أغرقت الحسين بن منصور، ما الزمان هنا إلا امتداد هذه الأيام الثقيلة النائية، ظل لزج لا يروح أبدا، الخير مسكوب والشر باغ والعهر طاغ، إلى أي الأرجاء يأوي، إلى أي السبل يلجأ؟ حيرة غير متوقعة، غير مرجوة في نهاية المطاف، سعيد أرجف قاع روحه، أضاعوه، أصوات المدينة تتباعد، ما أحوجه إلى غيبة، إلى إحاطة الروح بجدران الصمت، إلى استرجاع الأيام البعيدة، ليدرك سر الابتسامة الجماد، بينما اليدان مذبوحتان والرجلان، يحاول لم الرماد، يسأل الروح، أي سر، انصرف منصور تطارده أشباح الزمن الخائن. منصور يرتعش، يرتجف، ربما جاء ليلتمس الأمان.

لكن أي أمان، في قفاه عينان لا يراهمـا مخلـوق، تكـبلان رؤيته، تحددان طريقه، منصور نقل ما يقوله الناس" مولانـا اختار الزيني وثبت أركانه، فأي شفيع له يرتجـى؟" آه لـو يطلق صيحة الخلاص ويمضي، لكن إلى أين؟ حتما سـيلقى المسيخ الدجال، إلى أين؟ إلى السرداب الذي حفره بأظفـاره، أهذه نهاية المطاف؟؟ آه ... سقط في كمين متقن. أعده بـاغ بعناية.

مقتطف من مذكرات الرحالة الإيطالي

فياسكونتي جانتي

١٥١٧ م ٩٢٢ هـ

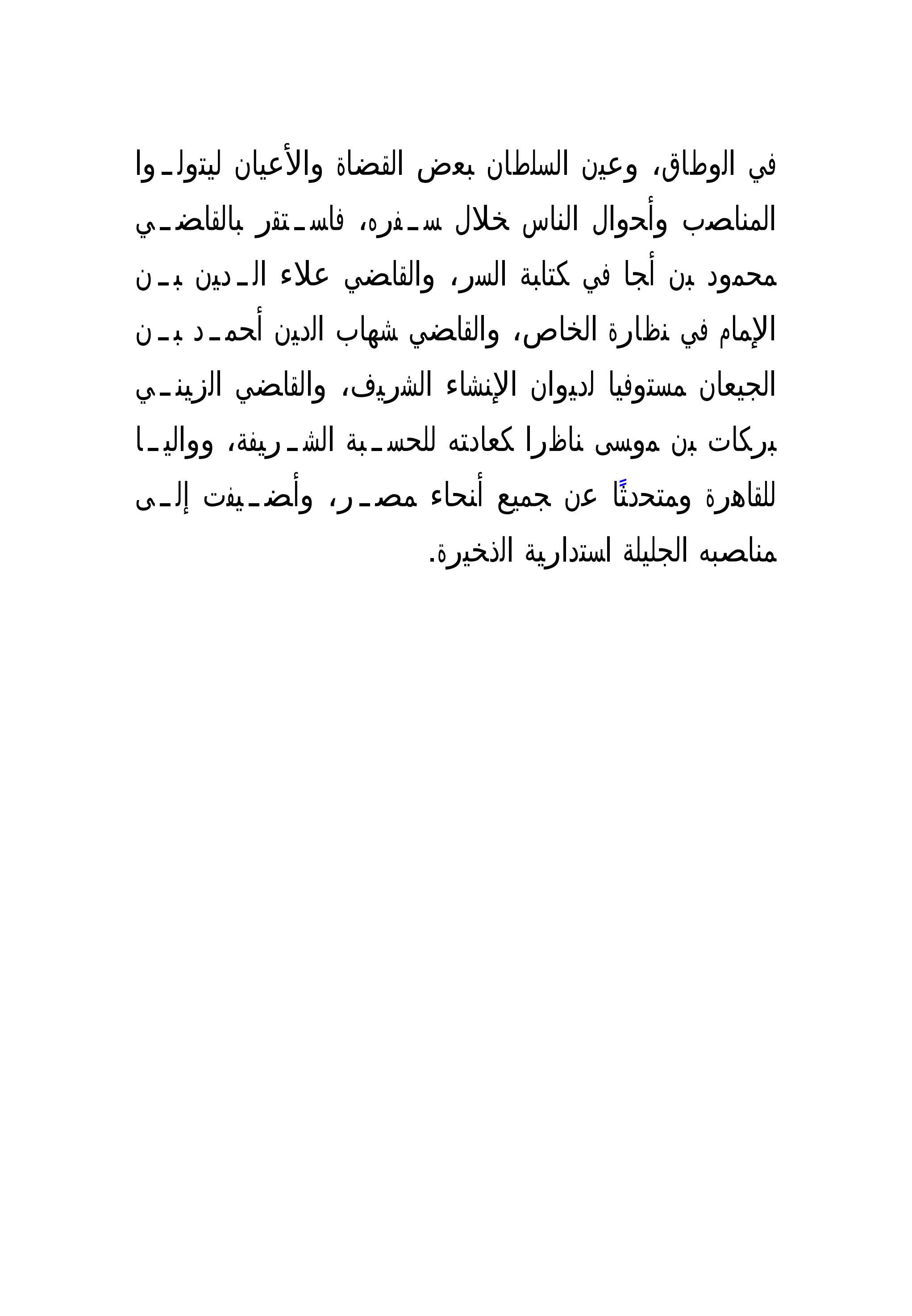
فيما يبدو، قدر لي أن أشاهد خلال هـذه الرحلـة - الثالثة – إلى الديار المصرية، أحداثًا كبيرة، بعد وصولي من بلاد السودان بأيام ثلاثة، نزلت المدينـة، عرفـت خـروج السلطان إلى الشام لمحاربة سلطان الديار العثمانية، سـمعت المؤذنين يدعون لسلطان البلاد بالنصر، وقيل لي إن القاهرة ارتجت رجا مهولا يوم السبت، وتحسرت فعلا لوصولي بعد خروج موكب السلطان على رأس جيشه قاصدا الشام، وحتى لا يفوت أهل بلادي وصف الموكب، وللأمانة فإنني أنقل عن

صديقي الشيخ محمد أحمد بن إياس. وهو مـن أهـل العلـم المعروفين في القاهرة وصاحب تاريخ طويل عـن الـديار المصرية، أتمني لو أتيحت لي فسحة وقت أعرف بـه أهـل وطني، وحضر ابن إياس – بـرغم كبـر سـنة – خـروج السلطان ودون ما رآه، وسمح لي بنقل مـا كتـب، يقـول صاحبي، ابن إياس ...

(... أقبل السلطان الأشرف أبو النصـر قانصـوه الغوري، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطـوة، وكـان السلطان راكبا على فرس أشقر عال، بسرج ذهب وكنبـوش وهو لابس عباءة بعلبكية بيضاء مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة، وكان ذلك اليوم غاية في الأبهة والعظمة، فإنه كان حسن الهيئة، تمـلأ منه العيون، مبجلا في المواكب، ثم أقبل السنجق السـلطاني، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثمانلي وصـحبته السـلحدارية بالشاش والقماش، فدخل من باب زويلة، وشق القاهرة فـي ذلك الموكب الحافل، فارتجت له القاهرة فـي ذلـك اليـوم، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام الذين خرجوا كلهم. ولم يبق منهم إنسان في بيته. وبدت وجوههم مرعوشة تأثرا

وانفعالا. وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان، فاستمر في ذلك الركب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا.

وفي أعقاب ذلك نزل حوايج خاناه، فيها مال وذهب وفضة قيل إن ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال التي جمعها من أوائل سلطنته إلى أن خرج في هذه التجريدة. وفرغ أيضا حواصل الذخيرة عن آخرها. وأخذ ما فيها من التحف والهدايا. وآلات السلاح الفاخرة مما كان بها من ذخائر الملوك السالفة. من سرج ذهب وبلور وعقيق. وكنابيش زركش. وغير ذلك من التحف الملوكية. فنزل جماعة من كتاب الخزانة صحبة الحوايج خاناه وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش. فكانت تلك الحوايج محملة على خمسين جملا قيل إن جميع هذه الأموال أودعها الغوري بقلعة حلب. وفي يوم الأحد سادس عشر أرسل السلطان مناديا للعسكر في القاهرة بأن السلطان يرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرين ربيع الآخر (طبقا للتقويم الإسلامي) فلا يتأخر أحد من العسكر الذين عينوا للسفر، ولا يحتج أحد بحجة أو عذر، فلما أقام السلطان



في الوطاق، وعين السلطان بعض القضاة والأعيان ليتولـوا المناصب وأحوال الناس خلال سـفره، فاسـتقر بالقاضـي محمود بن أجا في كتابة السر، والقاضي علاء الـدين بـن الإمام في نظارة الخاص، والقاضي شهاب الدين أحمـد بـن الجيعان مستوفيا لديوان الإنشاء الشريف، والقاضي الزينـي بركات بن موسى ناظرا كعادته للحسـبة الشـريفة، وواليـا للقاهرة ومتحدثًا عن جميع أنحاء مصـر، وأضـيفت إلـى مناصبه الجليلة استدارية الذخيرة.

وتوافد كبار البصاصين من أركان المعمـورة إلـى القاهرة. قلب العالم وبستان الكون.

السرادق الخامس

" اللهم اجعل هذا البلد آمنًا

سري لا يطلع عليه مخلوق

القاهرة جمادى الأول ٩٢٢ هـ

(رسالة أعدت؛ بمناسبة اجتماع كبار البصاصين في أنحاء الأرض وأركان الدنيا الأربعة في القاهرة أم الدنيا ؛ وبستان الكون، لتدارس الأحوال؛ والنظر في الأساليب المتبعة، وما يستجد منها ؛ ولتبادل المعرفة والفوائد أعد في ديوان بصاص السلطنة المملوكية؛ وتلاه الشهاب الأعظم زكريا بن راضي عفا ا عنه، وعرفه طرقه؛ ومسالكه)

بسم ا الرحمن الرحيم

قال تعالي: ﴿إِن ربك لَبِالْمِرصادِ﴾

قال تعالي: ﴿وأَن ا علام الْغُيوبِ﴾

قال تعالي: ﴿ما يلْفِظُ مِن قَولٍ إلا لَديهِ رقِيب عتِيدٌ﴾

(صدق ا العظيم)

وقال رسول ا صلي ا عليه وسلم:((**مـن كـان يؤمن با واليوم الآخر، فليقل خيرا، أو ليصمت**))

وقال عمرو بن العاص رضي ا عنـه: " الكـلام كالدواء، إن أكثرت منه قتل وإن أقللت منه نفع "

" أما بعد":

فلم يحدث أن اجتمع كبارنا في أركان الدنيا قط. وهذا حدث جلل وعظيم، إذا كشفت عنه الأزمان المقبلـة فحتمـا ستلقى فيه من الدروس والعبر ما يعرفون منه أننا حملنا عبئا ثقيلا وحملا فادحا، وأننا عانينا، وقاسينا، وضحينا بالكثير من أجل إرضاء ا تعالى، جل شأنه، وما نهدف من وراء لقائنا هذا، إلا استحداث طرق جديدة، وسبل غير معروفة، تعيننـا على مهامنا الصعبة، وهذا يساعدنا في الوصول إلـى لـب الحقيقة، وسوف يسهل الأمر لمن يجيء بعدنا ...

وا   المعين ...

" نشاء بحكم عملنا، وما يتعلق به، أن يحيطنا وضع غريب، وهذا يتطلب من البصاص الكبير المهيمن على أمور الدولة بأكملها، حتى البصاص الصغير الذي يتعقب رجلا أو امرأة، أو ينقل كل ما قيل في مجلس أن يكون صاحب فطنة وذكاء، عليه إيجاد أساليب لا تمكنه من العيش بـين النـاس آمنا، إنما لابد من عيشه محبوبا، ربما بدا هذا صعبا، كيـف يتأتى لرجل قدر عليه بحكم مهنته أن ينفذ إلى حيـاة النـاس وخباياهم – وهذا مكروه – أن يكون محبوبا؟ كيف يقصـده الخلق ليحل لهم أمورهم؟ لكن لنلحظ أولا أمرا هاما ...

مهمة البصاص – بلا لف أو دوران – إقامة العـدل بين الناس، ولكن بأسلوب لا يتقبله الناس، وحيث إن كل أمر في الدنيا لا يتفق عليه اثنان، مثلاو

، هذه القاعة التي نجلس فيها، البعيدة عن أصـوات الدنيا، وضجيج أهلها، لا نراها جميعا في هيئة واحدة، مـثلا كبير بصاصي الهند الأعظم يراني واقفًا هنا، وكبير بصاصي اليمن يراني من الجانب الأيسر، أما كبير بصاصي السودان المبجل فيراني من مكان آخر بصورة مغايرة، حتى التراجمة

يرونني بهيئات مختلفة وينقلون إلى حضراتكم حديثي لـيس بنفس الألفاظ، إنما المعني، ومن هنا تصبح لي أكثـر مـن صورة، والحقيقة أن وضعي واحد لا يتغير، وحديثي يتغيـر على ألسنة التراجمة لكن معناه كما هو، وهكذا ... ما نـراه نحن عدلا يراه الآخرون ظلما وجرما.

البصاص لا يعمل من أجل نفسه أبدا، الغرض الأول والأخير، إرضاؤه سبحانه وتعالى، ثم يأتي السلطان بعد هذا، ثم أركان الدولة، وما دام البصاص مؤمنًا با ، بربه، مسلما كان أو مسيحيا، أو بوذيا، ويؤمن بمولاه، فإنه يعمل جهـده كله علي تثبيت قواعدها، ورفع الأذى عنها.

ما من عاقل يزعم وجود إنسان محبوب مـن كافـة قومه، لم يخلق هذا قط، ألم يكن خاتم المرسلين وسيد البشـر مضطهدا من قومه، ألم يرمه اليهود بالحجارة من فوق أسوار الطائف فألهب الهجير باطن قدميه. وسال دمه. ألم يتـآمروا على قتله؟ ألم يحاربوه وتأكل واحدة منهم كبد عمـه حمـزة نيئة، ومن قبل أن يثقلوا رأس المسيح عليه السلام بالشـوك، ودقوا المسامير في جسده وصلبوه، أما سيدنا يوسف فأخوته هم الذين ألقوه في البئر وحزنوا نفس أبيه يعقوب، حتى البوذا

الأعظم امتلأت حياته بآلام ومواجع. وهـذا حـال الأوليـاء الصالحين، والشهداء والقديسين وخلاصة هذه العبر إنه مـا من إنسان يجتمع الخاصة على حبه، بما فيهم مـن خـوارق واختلافات، وبالتالي فإن حاكم أي بلدة من بلدان ا ، لابد أن يصبح مكروها من جانب آخر، والحاكم الأمثل من نجح في ترغيب الأغلبية فيه، وتقليل أعدائه، إذن، لابد مـن وجـود أعداء يتربصون ويكيدون، ويتحينون الفرصة للانقضـاض، وهؤلاء إما من الخارج، أي مخالفين للجنس، أو الملة، وفـي هذه الحالة لابد من الالتفاف حول الحاكم، ومهنة البصـاص هنا مقدسة، ولا يختلف في هذا اثنان، وإما أعداء في الداخل وهؤلاء يوجدون بين الأمراء والصفوة، وبين عامة الناس.

الدرس العظيم المستفاد من التواريخ، أنه في حالات اندلاع الفتنة فلابد من حياد البصاص، البصاص يعمل للعدل وحده، ورمز العدل هو كرسي السلطنة، كرسـي السـلطنة ذاته.

إذا تآمر بعض الصفوة. أو جماعات من العامة على الكرسي، فلا بد من إبلاغ الأمر إلى صاحب الكرسي، هـذا واجب، لكن لنفترض وصول بعض الصـفوة المتـآمرة، أو

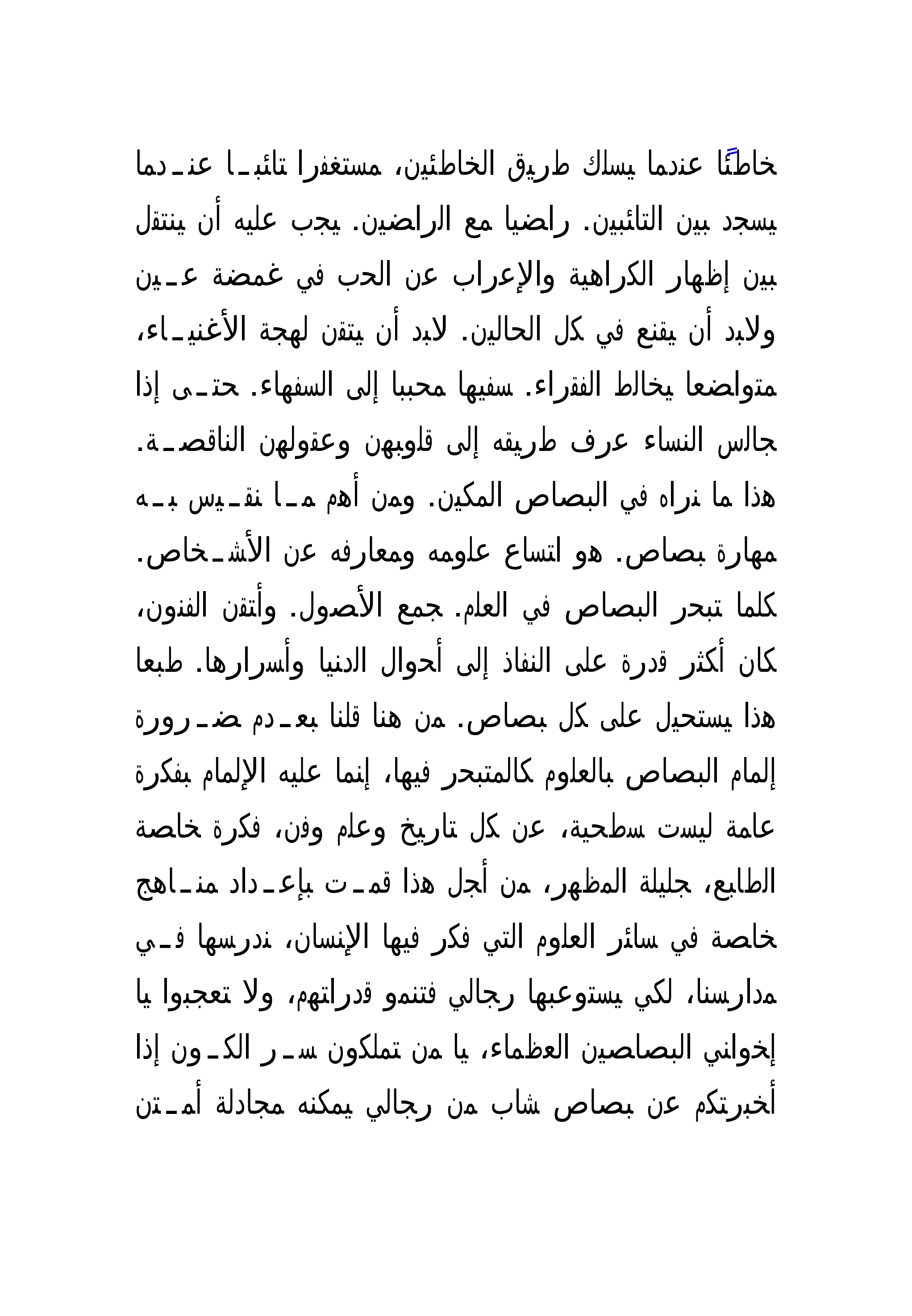
العامة (الفرض الأخير نادر الحدوث) قد وصلوا إلى تقاليد التملك والسيطرة، ما هو موقف البصاص هنا؟؟ نقول ما دام البعض انتزع المقاليد من صاحب الكرسي الأصلي، وتمكـن من اعتلائه فليس هذا إلا دلالة على ضـعف الأول، كيـف يمكنه إقرار العدل إذا كان لا يمكنه حماية روحه.

ربما ثار سؤال، هل يبقي الجديد على القـديم؟ هنـا يمكن للحفاظ على المكانة وضع شروط معينة، يتوقف تنفيذها على مهارة البصاص وقدرته، مهارته في النفاذ إلى جـوهر المكنون وخبايا كل إنسان، وما دام الإنسان يشـعر بوجـود عين ترى منه ما لا تراه بقية العيون وأذن تسمع منه ما لـم تسمعه بقية الآذان، فإنه يخشى هذا الجانب، ويضع له ألـف حساب، لقد ذكر لنا كبير بصاصي دولة المغرب المعظم أنه حدث منذ مائتي عام أن تعصب كبير البصاصين – وقتئذ - للحاكم الموجود، بالغ في إخلاصه له مبالغة تزيد عن الحـد حتى اكتسب عداء الأمراء والعلماء كلهم، وعندما نجح أحدهم في إزاحة الحاكم، وتولى مكانه لم يأخذ كبيـر البصاصـين جانب الحياد، إنما جهر بالعداء للأمراء حتى بعد تيقنه مـن قتل الحاكم، وهذا عين الغباء، تسبب في إيذاء جمـع كبيـر

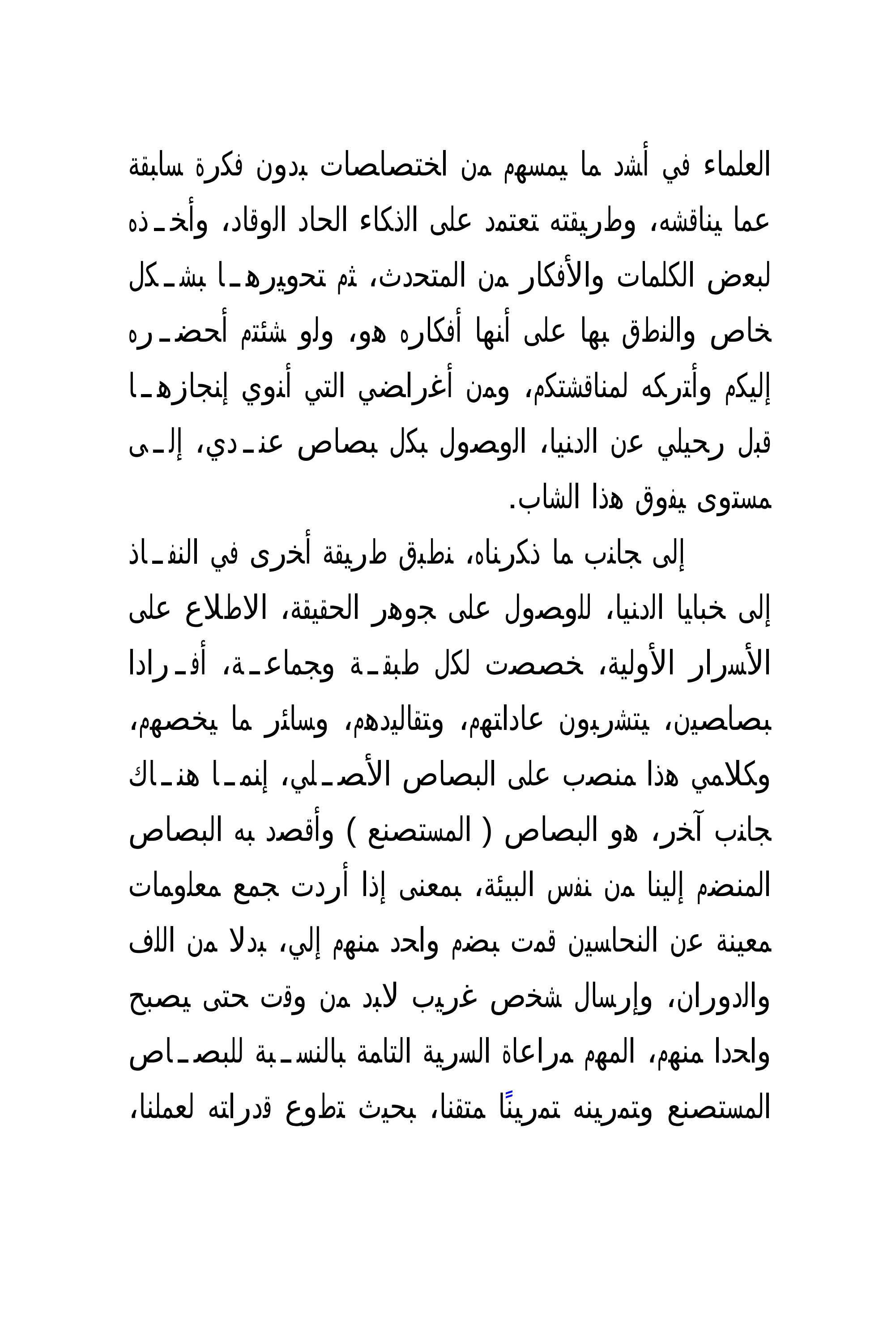
حوله، التصرف الأمثل هنا، الصمت ومراقبة العامة، حتى لا يحشروا أرواحهم فيما يدور من صراع، فينحازوا إلى جانب هذا أو ذاك نضع لهم آلاف الاعتبارات، وسيتحدث كل منـا عنهم في جلسة أخرى، وعندما تستقر الأمور يبدأ ممارسـة عمله، وإقامة ميزان العدالة، وربما عدنا من هذه النقطة إلى نقطة أخرى ابتدأنا فيها، كيف يكون البصاص محبوبـا مـن الناس، برغم كراهية الخلق لمهامه، لعمله.

كيف يكون البصاص محبوبا من الناس؟

من خصائص البصاص الأعظم، البصاص الصفوة، قدرته الفائقة على اكتساب قـدرات الخلـق كلهـم، طبيعـة البصاص تقضي عليه التداخل والتعامل مع جميع الناس، مع عدد كبير من الأجناس، آلاف البشر المختلفون في طبـائعهم ونزعاتهم، لا يوجد شبيه للآخر، والبصاص الحق، البصاص المكين، هو من استطاع جمع خصال البشر أجمعـين وهـذا صعب، ربما يبدو محالا، لكنه سهل علينا يسير، يجب علـى البصاص أن يكون فحاما عندما يتحدث إلى الفحامين، عطارا نابغا في العطارة عند حديثه إلى العطارين. سـاخطًا عنـد استماعه إلى الساخطين، حشاشًا عندما يـأتنس بالحشاشـين،



خاطئًا عندما يسلك طريق الخاطئين، مستغفرا تائبـا عنـدما يسجد بين التائبين. راضيا مع الراضين. يجب عليه أن ينتقل بين إظهار الكراهية والإعراب عن الحب في غمضة عـين ولابد أن يقنع في كل الحالين. لابد أن يتقن لهجة الأغنيـاء، متواضعا يخالط الفقراء. سفيها محببا إلى السفهاء. حتـى إذا جالس النساء عرف طريقه إلى قلوبهن وعقولهن الناقصـة. هذا ما نراه في البصاص المكين. ومن أهم مـا نقـيس بـه مهارة بصاص. هو اتساع علومه ومعارفه عن الأشـخاص. كلما تبحر البصاص في العلم. جمع الأصول. وأتقن الفنون، كان أكثر قدرة على النفاذ إلى أحوال الدنيا وأسرارها. طبعا هذا يستحيل على كل بصاص. من هنا قلنا بعـدم ضـرورة إلمام البصاص بالعلوم كالمتبحر فيها، إنما عليه الإلمام بفكرة عامة ليست سطحية، عن كل تاريخ وعلم وفن، فكرة خاصة الطابع، جليلة المظهر، من أجل هذا قمـت بإعـداد منـاهج خاصة في سائر العلوم التي فكر فيها الإنسان، ندرسها فـي مدارسنا، لكي يستوعبها رجالي فتنمو قدراتهم، ولا تعجبوا يا إخواني البصاصين العظماء، يا من تملكون سـر الكـون إذا أخبرتكم عن بصاص شاب من رجالي يمكنه مجادلة أمـتن



العلماء في أشد ما يمسهم من اختصاصات بدون فكرة سابقة عما يناقشه، وطريقته تعتمد على الذكاء الحاد الوقاد، وأخـذه لبعض الكلمات والأفكار من المتحدث، ثم تحويرهـا بشـكل خاص والنطق بها على أنها أفكاره هو، ولو شئتم أحضـره إليكم وأتركه لمناقشتكم، ومن أغراضي التي أنوي إنجازهـا قبل رحيلي عن الدنيا، الوصول بكل بصاص عنـدي، إلـى مستوى يفوق هذا الشاب.

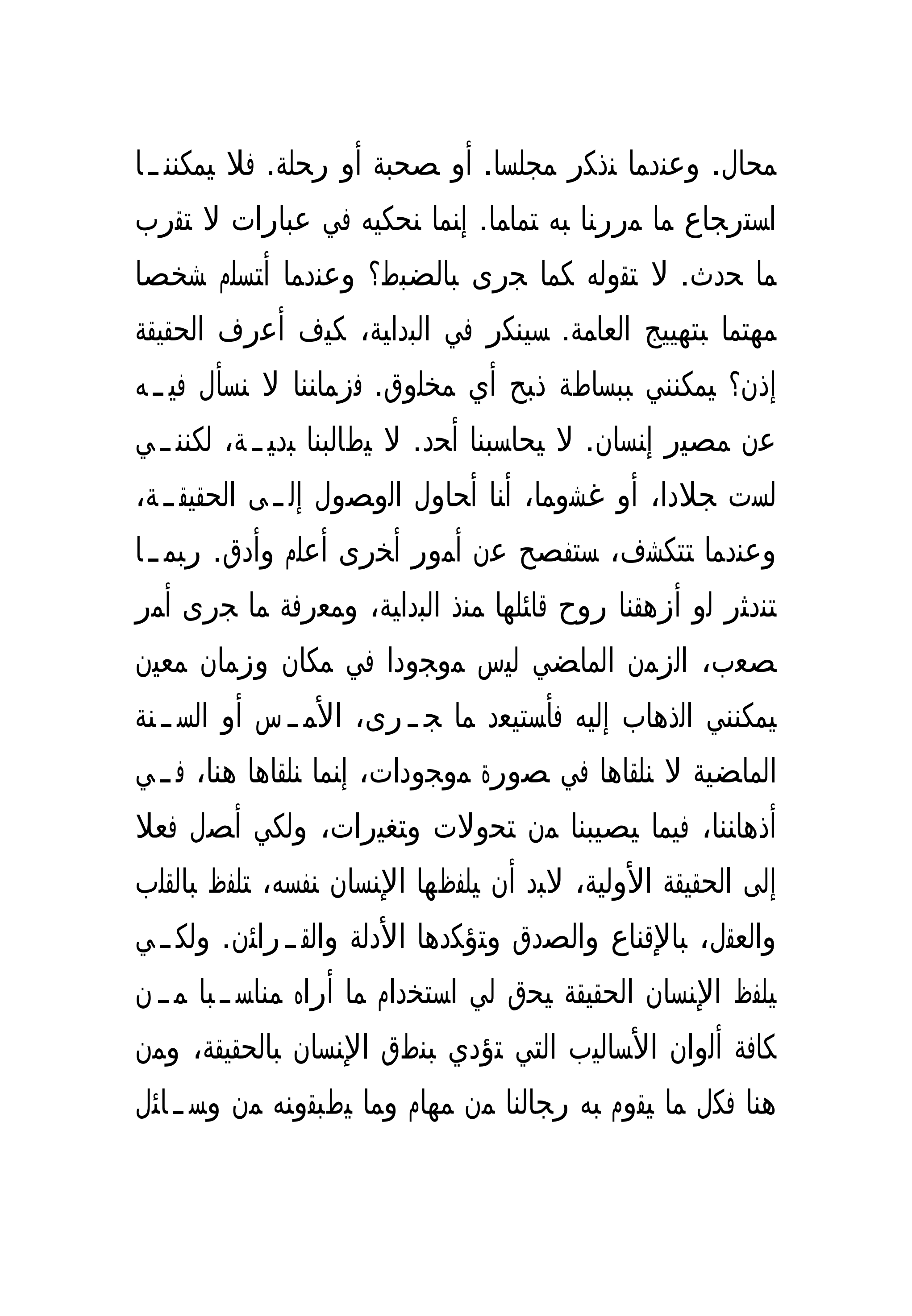
إلى جانب ما ذكرناه، نطبق طريقة أخرى في النفـاذ إلى خبايا الدنيا، للوصول على جوهر الحقيقة، الاطلاع على الأسرار الأولية، خصصت لكل طبقـة وجماعـة، أفـرادا بصاصين، يتشربون عاداتهم، وتقاليدهم، وسائر ما يخصهم، وكلامي هذا منصب على البصاص الأصـلي، إنمـا هنـاك جانب آخر، هو البصاص (المستصنع) وأقصد به البصاص المنضم إلينا من نفس البيئة، بمعنى إذا أردت جمع معلومات معينة عن النحاسين قمت بضم واحد منهم إلي، بدلا من اللف والدوران، وإرسال شخص غريب لابد من وقت حتى يصبح واحدا منهم، المهم مراعاة السرية التامة بالنسـبة للبصـاص المستصنع وتمرينه تمرينًا متقنا، بحيث تطوع قدراته لعملنا،

وبالنسبة للمستصنعين يجب اختيارهم من بين أكثـر النـاس أمانة وثقة واستقامة، إذا نجح البصاص الأعظم في ضم مثل هذا، فإنه نجاح عظيم، أخبرنا كبير بصاصي بـلاد الصـين العظيمة أنه نجح في ضم أكابر العلماء إلى صفه، والأعيان، والكهنة خدمة البوذا الأعظم يعملون معه، يسعون إلى ركابه، وطبيعي أن نلقى من أمثال هؤلاء مقاومة ورفضـا لظـنهم ضعة مهامنا وعدم اتساقها مع الشرف والأمانة، لكنني أقول واثقا أنه ما من إنسان في الدنيا يستعصى علـى البصـاص المكين. لنمسك ظروف كل إنسان وحياته، وننفذ من خلالهـا على ما يمكننا من تطويع وتليين جامد فكره. بشرط أن يـتم هذا كله بهدوء؟ ودون قسوة. وعندي الآن مثال حي. إنسـان هو في أوهج فترات العمر نعد له من سنوات، وسوف أقـوم يوما بكتابة رسالة مفصلة للعملية التي نجريها عليه. عنـدما أصل إلى غايتي التي وضعتها منذ البداية. بـل أوقـن أنـه سيشارك في كتابة جزء من الرسالة، يكشف ما جـرى لـه. وما حدث، بعد أن كان لا يطيق سماع اسمي. ولا هم له إلا تهييج العامة على أولي الأمر. وهنا لابد من تحيـة وسـلام أوجههما إلى زميلنا الأعظم بصاص مملكة الفرنج الغربيـة

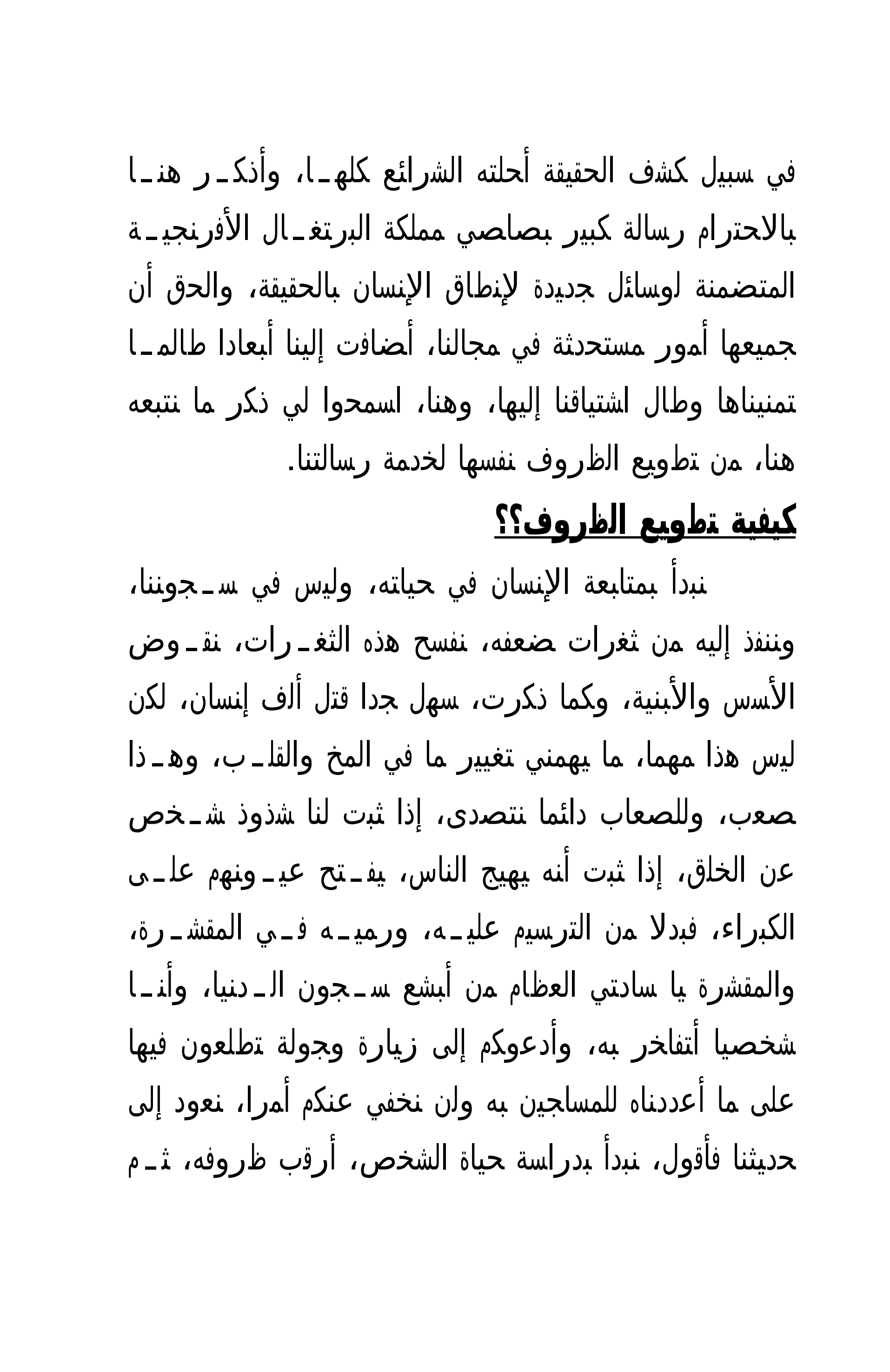
على نجاحه العظيم في ضم أطفال المملكة إلى صفوفه. لقـد زرع روح البص في عقولهم وأطفالهم منـذ تعلمهـم نطـق الكلمات. فلا يسمع الطفل كلمة من أبيه أو أمـه إلا ونقلهـا. وأصدق الخلق هم الأطفال. وشهادتهم لا تكذب أبدا. وهكـذا لو نجح كل واحد منا كما نجح زميلنا الأعظم. لتوصلنا إلـى تحويل البشر أجمعين بعد سنين إلى بصاصين. وهـذا أمـر جليل يتطابق مع كل ملة ودين. ولزميلنا الأعظم الحق فـي الاحتفاظ بأسرار طريقته التي حولت الأطفال إلى بصاصـين فهذا لم يتوصل إليه في غمضة عين ولكن بعد جهـد سـنين وسنين. لكننا نرجو الاستفادة منه واسـمحوا لـي أن أبـدي إعجابي الفائق به. وبأحواله. لنجعل غايتنا وهادينا في دنيانا وهدفنا تحويل البشر أجمعين إلى بصاصين. إن مـا نبغـي الوصول إليه، سر الحقيقة. برهان الحق. وهذا شاق وفظيع. فما أكثر الطرق إليه.

كيف نصل إلى معرفة الحقيقة الأولية؟؟

ما أتلوه الآن تسمعونه حضراتكم. وعند خروجكم من القاعة، إذا اختلى واحد منكم بصاحبه. واستعاد ما قلته هـل سيقوله بنفس اللهجة. نفس الألفاظ التي قلتها أنا. بـالقطع لا.



محال. وعندما نذكر مجلسا. أو صحبة أو رحلة. فلا يمكننا استرجاع ما مررنا به تماما. إنما نحكيه في عبارات لا تقرب ما حدث. لا تقوله كما جرى بالضبط؟ وعندما أتسلم شخصا مهتما بتهييج العامة. سينكر في البداية، كيف أعرف الحقيقة إذن؟ يمكنني ببساطة ذبح أي مخلوق. فزماننا لا نسأل فيه عن مصير إنسان. لا يحاسبنا أحد. لا يطالبنا بدية، لكنني لست جلادا، أو غشوما، أنا أحاول الوصول إلى الحقيقة، وعندما تتكشف، ستفصح عن أمور أخرى أعلم وأدق. ربما تندثر لو أزهقنا روح قائلها منذ البداية، ومعرفة ما جرى أمر صعب، الزمن الماضي ليس موجودا في مكان وزمان معين يمكنني الذهاب إليه فأستيعد ما جرى، الأمس أو السنة الماضية لا نلقاها في صورة موجودات، إنما نلقاها هنا، في أذهاننا، فيما يصيبنا من تحولات وتغيرات، ولكي أصل فعلا إلى الحقيقة الأولية، لابد أن يلفظها الإنسان نفسه، تلفظ بالقلب والعقل، بالإقناع والصدق وتؤكدها الأدلة والقرائن. ولكي يلفظ الإنسان الحقيقة يحق لي استخدام ما أراه مناسبا من كافة ألوان الأساليب التي تؤدي بنطق الإنسان بالحقيقة، ومن هنا فكل ما يقوم به رجالنا من مهام وما يطبقونه من وسائل



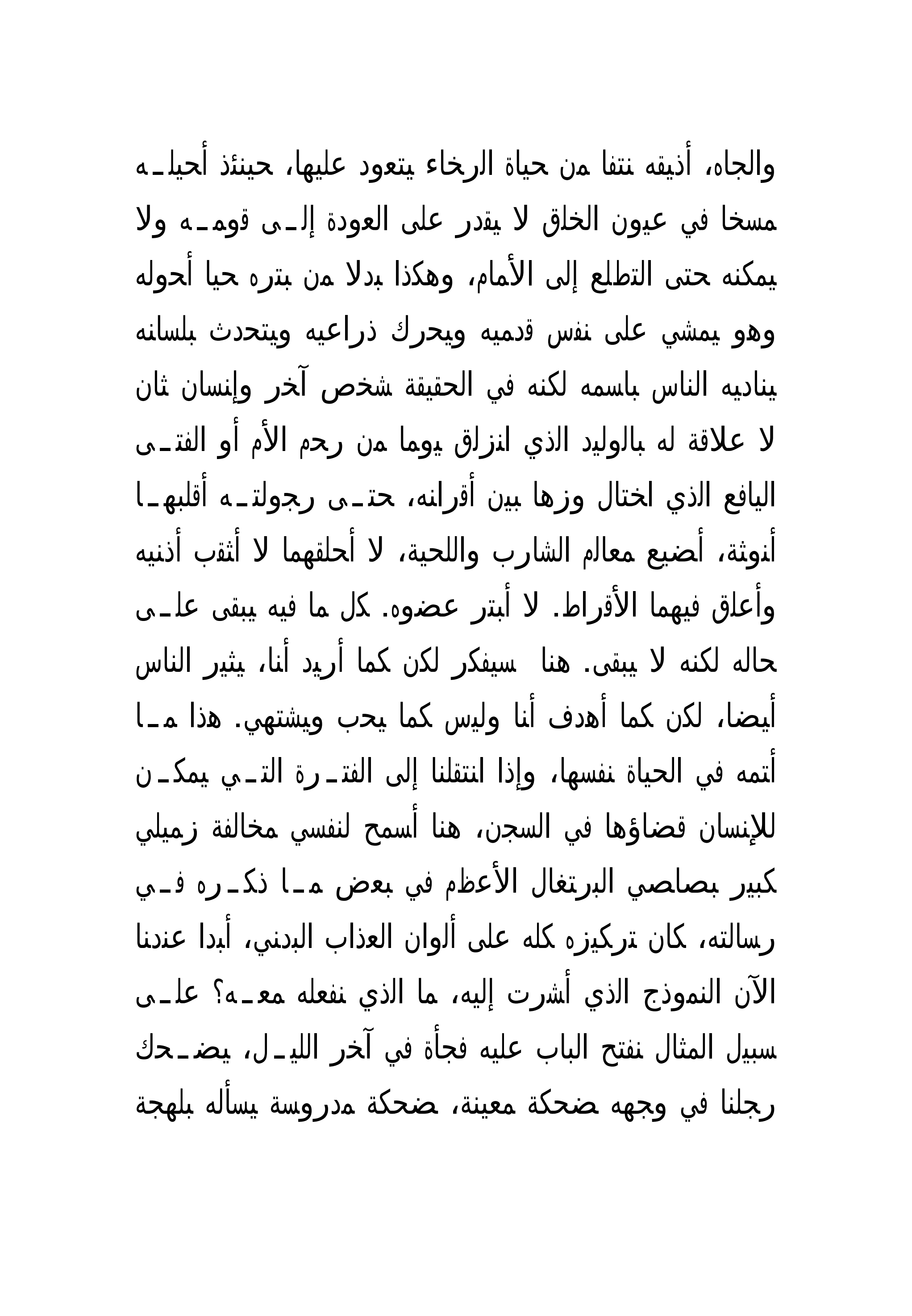
في سبيل كشف الحقيقة أحلته الشرائع كلهـا، وأذكـر هنـا بالاحترام رسالة كبير بصاصي مملكة البرتغـال الأفرنجيـة المتضمنة لوسائل جديدة لإنطاق الإنسان بالحقيقة، والحق أن جميعها أمور مستحدثة في مجالنا، أضافت إلينا أبعادا طالمـا تمنيناها وطال اشتياقنا إليها، وهنا، اسمحوا لي ذكر ما نتبعه هنا، من تطويع الظروف نفسها لخدمة رسالتنا.

كيفية تطويع الظروف؟؟

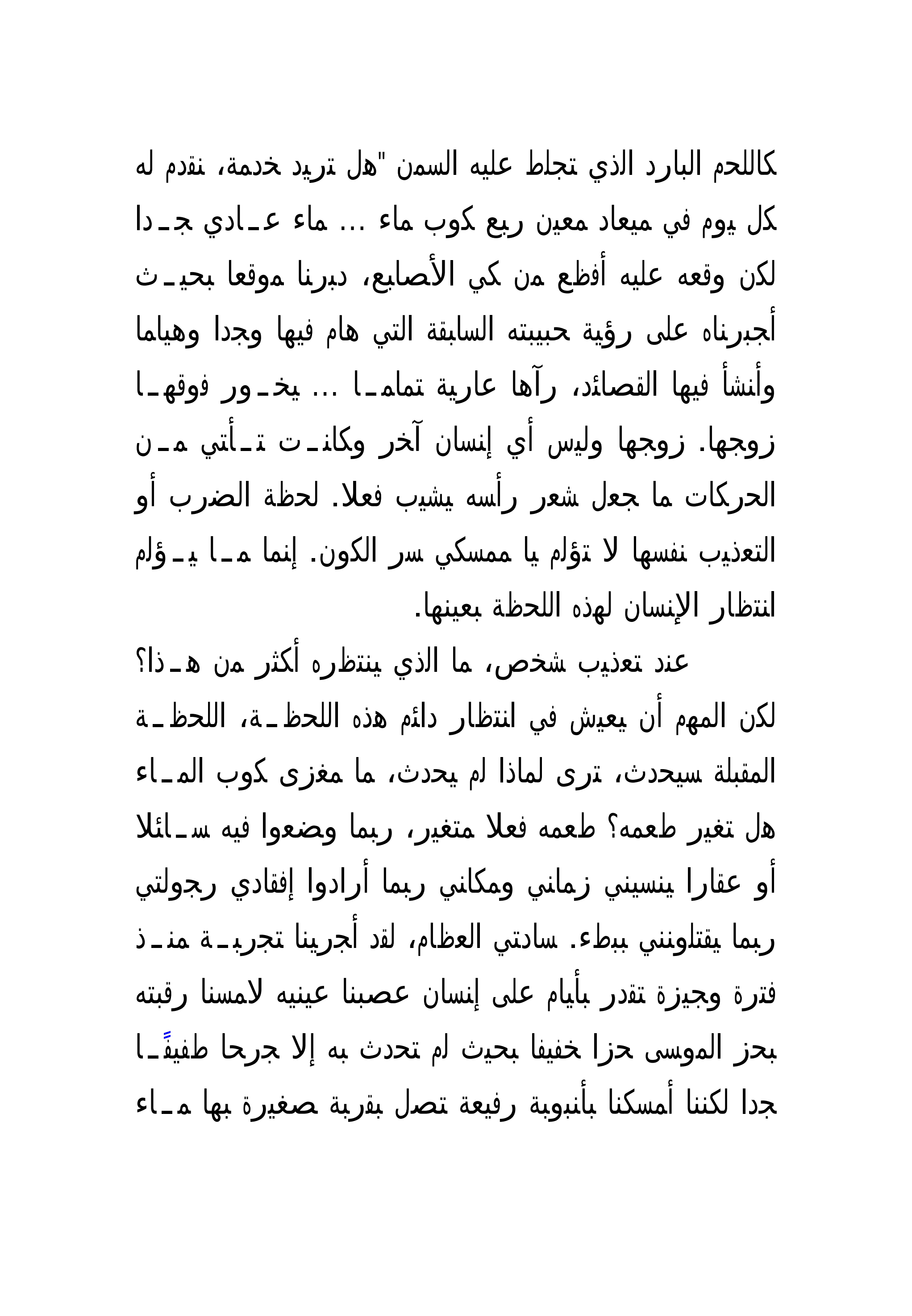
نبدأ بمتابعة الإنسان في حياته، وليس في سـجوننا، وننفذ إليه من ثغرات ضعفه، نفسح هذه الثغـرات، نقـوض الأسس والأبنية، وكما ذكرت، سهل جدا قتل ألف إنسان، لكن ليس هذا مهما، ما يهمني تغيير ما في المخ والقلـب، وهـذا صعب، وللصعاب دائما نتصدى، إذا ثبت لنا شذوذ شـخص عن الخلق، إذا ثبت أنه يهيج الناس، يفـتح عيـونهم علـى الكبراء، فبدلا من الترسيم عليـه، ورميـه فـي المقشـرة، والمقشرة يا سادتي العظام من أبشع سـجون الـدنيا، وأنـا شخصيا أتفاخر به، وأدعوكم إلى زيارة وجولة تطلعون فيها على ما أعددناه للمساجين به ولن نخفي عنكم أمرا، نعود إلى حديثنا فأقول، نبدأ بدراسة حياة الشخص، أرقب ظروفه، ثـم

أصب مائي على نار الهياج فأخفف لسـعتها، وفـي لحظـة بعينها أنفخها فاجتز حرارتها من قلب الرماد، أمـد سـكين الزمن إلى عقله فأنزع منه ما يجعله شاذا عن بقية الخلـق، حتى لا ألقاهم جميعا منطوين يوما تحت كلماتـه، يرجمـون أميرا، أو يحرقون قصرا، أو ينهبون سـوقًا، أو يهـاجمون موكب السلطان، وكما قلت ما من إنسان في الدنيا يستعصى أمره على التغيير والتبديل، يا أصحاب العظمة، يـا كاشـفي الحقيقة، هذا ما نعيه هنا، ونؤصله عندنا، ما من مخلوق يظل على حاله، ما من زهرة تبقى متفتحة، ما من شـجرة تظـل سامقة، ما من امرأة تدوم شابة إلى الأبد، ما من طائر يعلـو بلا حد، ما من نشوة تحيا أبدا، الشمس تشرق لتغيب، النهار يطلع ليشيخ ثم يعتصره الليل، والقمر لا يبقى فـي العيـون مكتملا، النهر يبدأ لينتهي، والغيث بعد حين ينقطع، والمسافة مهما طالت تقصر وتنتهي، سادتي ممسكي سر العالم، ما من إنسان قط يبقي كما هو، والزمن وحده لـيس سـببا، نحـن ندعمه، إذا وجدنا في نفس المرء ثغرة خوف برغم اشـتهاره بالشجاعة، أحوم من بعيد كطائر محلق على ارتفاع شـاهق، كطائر الحدأة عندنا، لا أنقض غارزا منقاري ومخالبي، إنما

أدور، أنزل إلى ارتفاع معين، ثم أطير مرة أخـرى حتـى أختفي، وأعاود النزول سهما خاطفًا، وشهابا ثاقبـا، كلمـح البرق، كصاعقة أنقض، كخاطرة عابرة، هنا تنتهي مرحلـة، وتبدأ أخرى، يا سادتي العظام، ما من إنسان فـي الـدنيا إلا وفي ميدان نفسه حفر وجراح، ثغرات وقلاع ضعيفة متهاوية يقع على عاتقي واجب النفاذ منها، مرة أنفـذ علـى مهـل، متحسبا متسللا لا يسمع لي صوت ولا أنفاس ولا فحيح، فجأة أبذر منجنيقي، أنصب مواقعي. أبث رماحي السـامة أشـهر سيوفي ثم أهجم مرة واحدة، أطوق. أحرق. أهدم. أحيل البناء أنقاضا والعمار خرابا والأمان يأسا والآمال فشلا مـذبوحا. والميناء الصالح لرسو السفن أجعله غير صالح لإيواء ورقة شجر، إذا كان في صرح الشجاعة نقطة خوف أحولها إلـى بركة ثم محيط، لو في قرارة القلب حب مخلوقة ما، أحيلـه إلى كراهية لا تحد أجعله بغضا، لو وجد بين الحبيب ومبتغاة عقبات يأمل هدمها، أجعل منها مستحيلا لا يمكن تخطيه. أقيم الحدود والحواجز. أحفر الخنادق وأبث كمائني فأصيب النفس بجراح تبقى طرية حتى بعد الممات. أبث في الروح عكـارة لا تروق أبدا. إذا سخط الإنسان لفقره بذرت له آمال الغنـى

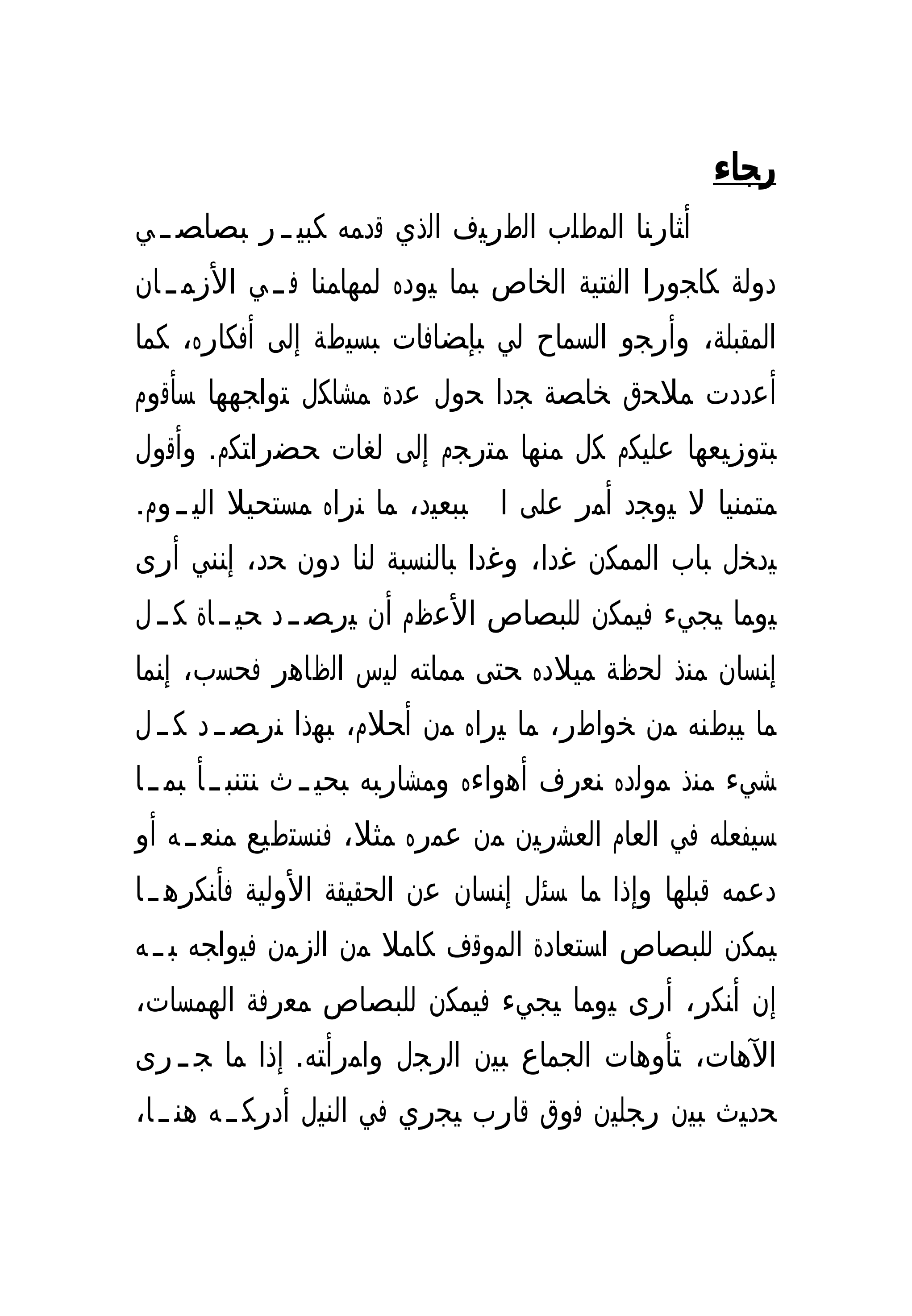


والجاه، أذيقه نتفا من حياة الرخاء يتعود عليها، حينئذ أحيلـه مسخا في عيون الخلق لا يقدر على العودة إلـى قومـه ولا يمكنه حتى التطلع إلى الأمام، وهكذا بدلا من بتره حيا أحوله وهو يمشي على نفس قدميه ويحرك ذراعيه ويتحدث بلسانه يناديه الناس باسمه لكنه في الحقيقة شخص آخر وإنسان ثان لا علاقة له بالوليد الذي انزلق يوما من رحم الأم أو الفتـى اليافع الذي اختال وزها بين أقرانه، حتـى رجولتـه أقلبهـا أنوثة، أضيع معالم الشارب واللحية، لا أحلقهما لا أثقب أذنيه وأعلق فيهما الأقراط. لا أبتر عضوه. كل ما فيه يبقى علـى حاله لكنه لا يبقى. هنا سيفكر لكن كما أريد أنا، يثير الناس أيضا، لكن كما أهدف أنا وليس كما يحب ويشتهي. هذا مـا أتمه في الحياة نفسها، وإذا انتقلنا إلى الفتـرة التـي يمكـن للإنسان قضاؤها في السجن، هنا أسمح لنفسي مخالفة زميلي كبير بصاصي البرتغال الأعظم في بعض مـا ذكـره فـي رسالته، كان تركيزه كله على ألوان العذاب البدني، أبدا عندنا الآن النموذج الذي أشرت إليه، ما الذي نفعله معـه؟ علـى سبيل المثال نفتح الباب عليه فجأة في آخر الليـل، يضـحك رجلنا في وجهه ضحكة معينة، ضحكة مدروسة يسأله بلهجة


كاللحم البارد الذي تجلط عليه السمن "هل تريد خدمة، نقدم له كل يوم في ميعاد معين ربع كوب ماء ... ماء عـادي جـدا لكن وقعه عليه أفظع من كي الأصابع، دبرنا موقعا بحيـث أجبرناه على رؤية حبيبته السابقة التي هام فيها وجدا وهياما وأنشأ فيها القصائد، رآها عارية تمامـا ... يخـور فوقهـا زوجها. زوجها وليس أي إنسان آخر وكانـت تـأتي مـن الحركات ما جعل شعر رأسه يشيب فعلا. لحظة الضرب أو التعذيب نفسها لا تؤلم يا ممسكي سر الكون. إنما مـا يـؤلم انتظار الإنسان لهذه اللحظة بعينها.

عند تعذيب شخص، ما الذي ينتظره أكثر من هـذا؟ لكن المهم أن يعيش في انتظار دائم هذه اللحظـة، اللحظـة المقبلة سيحدث، ترى لماذا لم يحدث، ما مغزى كوب المـاء هل تغير طعمه؟ طعمه فعلا متغير، ربما وضعوا فيه سـائلا أو عقارا ينسيني زماني ومكاني ربما أرادوا إفقادي رجولتي ربما يقتلونني ببطء. سادتي العظام، لقد أجرينا تجربـة منـذ فترة وجيزة تقدر بأيام على إنسان عصبنا عينيه لامسنا رقبته بحز الموسى حزا خفيفا بحيث لم تحدث به إلا جرحا طفيفًـا جدا لكننا أمسكنا بأنبوبة رفيعة تصل بقربة صغيرة بها مـاء

دافئ. صارت القطرات تنزل منسالة ونقول لـه، قـل أيـن أموالك ونوقف الدم، توهم فعلا أن رقبته تنزف دما غزيـرا، قال لنا كل ما نريده، بل أكثر، دلنا على أمير صاحبه اشتهر بظلمه ونهبه للأموال، صار يزعق، أوقفوا الدم أوقفوا الـدم، ونحن نحدث أصواتا نوهمه أننا نحاول فعلا إيقاف الدم، لقـد مات الرجل بعد لحظات، مع أنه لم ينزف دما، لكنـه تـوهم الماء الدافئ دما. وأن شرايينه جفت وخلـت ومـات. إننـي أعصب عيني السجين، يمشي دائما متوقعا ضـربة مفاجئـة تأتيه لكن متى، أين؟ هذا ما يتساءل دائما عنه. وفـي ليلـة معينة أدخل على زنزانته الضيقة النظيفة (هذا نظـام جديـد للسجون ونضعه في سرية تامة) أدخل عليه أحد رجالي على أنه سجين. ولا تمضي ساعات إلا ويـدب الشـجار بينهمـا يتشاجرون على أتفه الأمور هذا ما أجريته على الشاب الذي حدثتكم عنه، أمرت رجلي بالالتصاق به أثناء نومـه، قـام مفزوعا ظنا منه بنية أضمرها الرجل ليزنقه ثم يناله غصبا، وهكذا أحيل الحياة إلى جهنم أبطنها بشوك فيصـبح المـوت أملا مرتجى ومتعة بعيدة المنال.



رجاء

أثارنا المطلب الطريف الذي قدمه كبيـر بصاصـي دولة كاجورا الفتية الخاص بما يوده لمهامنا فـي الأزمـان المقبلة، وأرجو السماح لي بإضافات بسيطة إلى أفكاره، كما أعددت ملاحق خاصة جدا حول عدة مشاكل تواجهها سأقوم بتوزيعها عليكم كل منها مترجم إلى لغات حضراتكم. وأقول متمنيا لا يوجد أمر على ا ببعيد، ما نراه مستحيلا اليـوم. يدخل باب الممكن غدا، وغدا بالنسبة لنا دون حد، إنني أرى يوما يجيء فيمكن للبصاص الأعظم أن يرصـد حيـاة كـل إنسان منذ لحظة ميلاده حتى مماته ليس الظاهر فحسب، إنما ما يبطنه من خواطر، ما يراه من أحلام، بهذا نرصـد كـل شيء منذ مولده نعرف أهواءه ومشاربه بحيـث نتنبـأ بمـا سيفعله في العام العشرين من عمره مثلا، فنستطيع منعـه أو دعمه قبلها وإذا ما سئل إنسان عن الحقيقة الأولية فأنكرهـا يمكن للبصاص استعادة الموقف كاملا من الزمن فيواجه بـه إن أنكر، أرى يوما يجيء فيمكن للبصاص معرفة الهمسات، الآهات، تأوهات الجماع بين الرجل وامرأته. إذا ما جـرى حديث بين رجلين فوق قارب يجري في النيل أدركـه هنـا،

ويمكنني التدخل في الحديث عند الوقت المناسب وتوجيهـه. أرى يوما تنزع فيه الأعضاء من جسم الإنسان لتسأل عمـا فعلته، فلا يمكنها الإنكار، أرى يوما تطلق فيه علي النـاس أرقام معينة، فيحدد البصاص لأهل كل حارة أرقاما. هذا رقم (١) هذا رقم (٢) بحيث لا يحمل شخصان رقمين متشابهين. وهذا أمر ناقشته بتوسع وإفاضة في أحـد ملاحقـي التـي ستوزع عليكم وهذا يساعدنا في حصر الخلق. بدلا من تعدد أسمائهم وتشابهها.

(وبعد)

فما ذكرته أخيرا أخيلة تراودنا، لكن عنـدما يصـير الأمر حقيقة، فسوف يقول بصاصو الأزمان المقبلة أنظروا، كان أسلافنا أبعد نظرا وأشد عزما.

" وعليكم سلام الله وأمانه "

" كبير بصاصي الديار المصرية "

زكريا بن راضي

ذيل (١)

مطلب في كيفية إعداد طعام المساجين وطرق نومهم وأفضل اللحظات اللازمة لإقلاق راحتهم.

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين بعينه

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بالمقر الرئيسي لبصاصي القاهرة
٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م

ذيل (٢)

مطلب في الوسائل المقترحة لترقيم الناس، بدلا من الأسماء، ونص فتاوى شرعية تبيح هذا في سائر الأديان

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين

قام بالترجمة ديوان الترجمة

بالمقر الرئيسي لبصاصي القاهرة

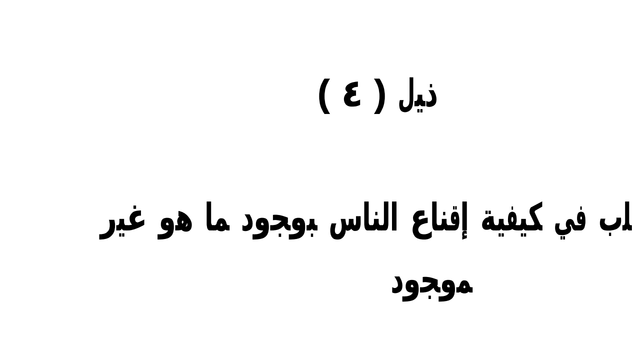
٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م

ذيل (٣)

مطلب في كيفية الرقابة على الرقابة أي كيف يرصد بصاص بصاصا آخر ...

حظر وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بمقر محتسب الديار المصرية
٩٢٢ هـ



ذيل (٤)

مطلب في كيفية إقناع الناس بوجود ما هو غير موجود

حظر وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

قام بالترجمة ديوان الترجمة

بمقر محتسب الديار المصرية

٩٢٢ هـ

كوم الجارح

الوقت ذاته من كل عام، البيت يفتح للمريدين، طلاب الحق الجوابين الساعين حبا في أهل البيت، بعضـهم التقـى فعلا بالنبي إلياس عليه السلام، لم يفن ولم يمت، النبي إلياس شرب من نبع الحياة فما عاد الموت يقربه، عاش الشيخ أبـو السعود على أمل اللقاء به، التزود من حكمته، الاستماع إلى قصص أجيال اندثرت. الشيخ الكرماني حكي له مالا يتطرق إليه الشك، عندما اجتاز في أول الشباب بلاد فارس، حيـث عبد القوم يوما النور والظلام، والتهبت نيران المجوس، عند البحر التقى برجل يلبس البياض، أبيض اللحيـة، والشـارب وشعر الرأس، يمشي فتيا عفيا كأنه ابـن عشـرين، الشـيخ الكرماني كان على وشك النزول في قـارب ليعبـر البحـر الكبير، سلم عليه الشيخ، من عينيه ينسال بهاء غريب، حذره من ركوب البحر، قال " الدردور عمال ومن ركبـه هلـك " ودواب هذا البحر لا ترحم من يلقي به حظه العـاثر إليهـا، رجع الشيخ الكرماني، واختفى الشيخ الأشيب، ذهب الرجل، وبرق الخاطر في عقل الشيخ الكرماني. من التقى به وحذره، هو، هو بعينه، سيدنا الخضر عليه السلام، فيما بعد عـرف

هلاك القارب، انتابته حسرة، كيف لم يبق معه، كيف لم يقتف خطواته، بعد أن قضى ثلاثة شهور يستقطر حسرة لا تنبـت أملا، عزم فتوكل، بدأ طوافه، عسى أن يلتقي به، يصـحبه، لكن محال، المرء لا يرى سيدنا الخضر مرتين، مع هذا لـم يضع منه الرجاء، الشيخ أبو السعود لم ير سيدنا الخضر ولم يشهد النبي إلياس، في السرداب ترق الأحزان، توخز النفس كنصل سيف حاد، النبيان الخالدان هجرا الأرض التي يحيـا فيها، رأى الكثير ولم يرهما، ارتعش قلبه بمنظر الموتى في غزوة بربرية، مدن خيم عليها وباء حصد وأفنى ولم يبـق، عندئذ يطرق باله سؤال الحيرة الأبدي، لماذا يموتـون بـلا ثمن؟ لماذا جاء الإنسان وعاش وعرف الألم والأمل، إذا كان ذهابه بسيطًا هكذا.؟ في السرداب سمع ثقة أهل مصر فيـه، سمع ما أتاه الزيني من رفع بعض الأسعار، من القبض على أشخاص. ارتقاءه في المناصب مبرر معقول، ألا يقول دائما، لولا ثقة مولاي وإمامي الشيخ أبو السـعود الجـارحي لمـا قبلت، أحد المريدين أخبرهم بوقوف الزيني خطيبا في أهالي الصعيد القصي، أخبرهم بأن الشيخ أبا السعود يدعو لهم ليلا ونهارا، أنه يأتمن على الأرض والناس، إنه يوصيه بالعـدل

والخير وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه، بعد فناء عمر طويل يجيء من يستبيحه. لو جاءه النبي إلياس المعاصر لكافة الأزمنة فسيقول له. أنت المحق. لم تعرف زمنك. لم تغص فيه لتعرف كوامنه. لكن لا النبي إلياس. ولا الخضر عليه السلام سيرشدانه، في السرداب خيل له أن الهاتف صاح عليه، والهاتف يسمع ولا يرى، ولا يجيء إلا للصالحين، إما مرشدا أو محذرا منجيا، أو لائما، أي أسى يطرق القلب الوجيع المحسور، كيف ينفذ بصره إلى الحقيقة، يقولون: مولاه باركه أول سنة لكن لم يهتف الخالق باسمه نسوا وأصبح موقفه عنوانًا لكل ما يجري، آه لو يصل إلى شجرة الحقيقة، حدثه النساك الزاهدون عنها، من أكل ثمارها لا يعرف الضلال أبدا، لو وصل إلى الحقيقة كل أمر مهما اف والتوى، لم يصل إلى الشجرة، لن يرى طيفها، جاءه درويش عجوز صعيدي بحبات التمر، سطل اللبن، أكل وشرب، يميل عليه هامسا، مولانا في الباب رجل اسمه الدمراوي. لا حجاب بيني وبين الخلق.

جاء الدمراوي. فيما يبدو ميسور الحال

جئت ساعيا على قدمي يا مولاي

من أي البلاد أنت؟

منفلوط يا مولاي

إلى منفلوط سافر الزيني بعد رحيل السـلطان إلـى الشام، جمع أهل الناحية كبيرهم وصغيرهم ... فـي البـدء حكى عن كل شيء عن حقيقة الأخبار. الغدر الذي يطل من ابن عثمان. قال فيما قال إنه موقن من تحرك ابـن عثمـان ليأخذ مصر، لكن جند السلطان وفرسان الإسـلام سـيتولون أمره. قال: مصر محمية بأولياء ا . وصعب أخذ بلاد تضم سيدنا الحسين وسيدي أحمد البدوي وسـيدي عبـد الـرحيم القناوي. وسيدي الفولي والقطـب القـوي سـيدي إبـراهيم الدسوقي وسيدي الرفاعي والأولياء أصحاب الأوتاد ومولاي صاحب الكرامات النورانية أبو السعود.

أجرى الدمع من عيون الخلق، يا مولانا، ثم قـال إن خزانة السلطان في أمس الحاجة إلى دارهم، ورجاهم تقبل ما سيقول، جمع ضرائب عام واحد مقدما غير السنة التي نحـن فيها، ولما كان الحال صعبا، والدنيا متشطحة مـع النـاس، ضجوا واعولوا، فتحدث إليهم بلين الكلام، قال من يملك شيئًا ليبيعه، حاش عنهم أذى الأمراء والمماليك ولو تركهم لجاءوا

بسيوفهم، وباعوا أولادهم وبناتهم كما تباع الماشـية، وهـذا ليس غريبا، حدث من قبل مرات ومـرات، وبـين الكلمـة والأخرى يذكر وصية مولاه الشيخ أبي السعود له، فصارت الناس يا مولاي، آه سامحني يا مولاي، بكي الدمراوي، يولي سيدنا الخضر عليه السلام وجهه بعيدا، يزعق المريدون تعلو الهمهمات. "بعد أن صرف الناس، استبقاني مع أربعـة مـن أهالي البلدة أخبرنا بأمور عديدة عن أموالنا فعجبنا فيما بعد، كيف وصلته. ثم قال إنه سيفرض على كل منا مبلغًا قـدره ألف دينار، قال لابد من الدفع، العجيب يا مولانـا، ضـياع اللين في حديثه، نتر في وجوهنا، أظهر القسوة قال إنه يمهلنا شهرا، ولو تأخرنا سيدعو علينا مولاه ... فتخرب بيوتنا.

صرف الدمراوي. ورأى السماء مقطبة الجبين. الآن يرجع الفلاحون إلى ديار الطين، الآن يوقد عساكر السلطان النيران في سهول حلب، الآن يتوه ملاحـون فـي البحـار الغربية، يجيء سيدنا الخضر يرشدهم إلـى السـلامة، الآن يضيع صواب الضالين في الصحراء، ينزل الليـل صـخرا وحجارة، لا يدركهم إلا النبي إلياس، وفي لحظة معينة مـن الليل لم يعرفها أي إنسان حتى أشد الأولياء ورعا. في مكان

مجهول لا تطرقه دابة، يجتمع سيدنا الخضر وسيدنا إليـاس ليلقيا نظرة على بلاد يأجوج ومأجوج، حتى لا يكسروا السد، ويغرقوا العالم. خاطر يضيق به صدر الشيخ. هل نفذ بعض اليأجوج إلى دنيانا، وتنكروا فـي هيئـة البشـر؟ سـيهجر السرداب حينا. خلا البيت من مجيء سعيد.

" يا فرج ... "

جاء المريد الشيخ. لا يعرف الطريق إليه إلا مرة كل سنة، في ميعاد بعينه. امض إلى الزيني بركات، ارتد شـال عمامتك الأحمر، ناد عليه، قل له أن يأتي عندي الليلة ... لا تدعه يغب.

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ

ديوان سر مقدم بصاصي القاهرة

عاجل وهام

تقرير مرفوع إلى الشهاب الأعظم

زكريا بن راضي، كبير بصاصي السلطنة

في الجزء الأخير من هذه الليلة، توجه الزيني بركات ابن موسى، استدار الذخيرة ومتولي حسبة الديار المصـرية، والي القاهرة، والمتحدث عن الوجهين القبلي والبحري إلـى كوم الجارح، بعد استدعاء الشيخ أبـي السـعود الجـارحي العارف با ، وعندما دخل إليه أجلسه بين يديه، مال الزيني عليه، لكن الشيخ لم يراع هذا، ونتر في وجهه، يا كلـب ... لماذا تظلم المسلمين؟ لماذا تنهب أموالهم، وتقول كلاما تنسبه إلي ... أبدى الزيني دهشة حاول الانصراف، لكن الشيخ قام، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فـرج) ... أمـره بخلـع عباءة الزيني عنه، تجمع حوله الدراويش أحاطوا به، أمـر الشيخ فضرب رأس الزيني بالنعال حتى كاد يهلك، ثم أمـر بشك الزيني في الحديد، ثم أرسل إلـى الأميـر عـلان ...

وأيقظه ... وقال له: اطلع شاور نائب السلطان الأمير طومانباي في أمره، وأعلمه أن هذا الكلب يؤذي المسلمين، وفي الحال طلع الأمير علان الدوادار الكبير إلى نائب السلطنة، وأيقظه، وأخبره بما جرى، وقال الأمير طومانباي ليفعل الشيخ أبو السعود ما يبدو له، وحتى ساعة كتابة هذا، مازال الزيني بركات بن موسى محتجزا عند الشيخ أبي السعود. وقال الشيخ لمريديه: "ابقوا الأمر سرا يوما أو يومين حتى استخرج منه ما نهبه من أموال الغلابة، ثم نشهره على حمار، ونخاص الدنيا منه، وحتى الآن لا يعلم العامة بما يجري، وإن تساءل البعض عن عدم ركوب الزيني لصلاة الفجر كعادته، ومن ناحيتنا، بادرنا فأرسلنا العيون والأرصاد في كل فج، وخاصة كوم الجارح، ونمى إلى علمنا، أن دراويش الشيخ ومريديه، وكافة أرباب الطرق الصوفية، والفقراء في بر مصر سيعلنون الخبر ويهيجون الخلق.

عليكم أمان ا تعالى

(مقدم بصاصي القاهرة)

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر نائب الشهاب الأعظم
زكريا، المختص بأحوال ابن عثمان وأموره

مصيبة كبيرة

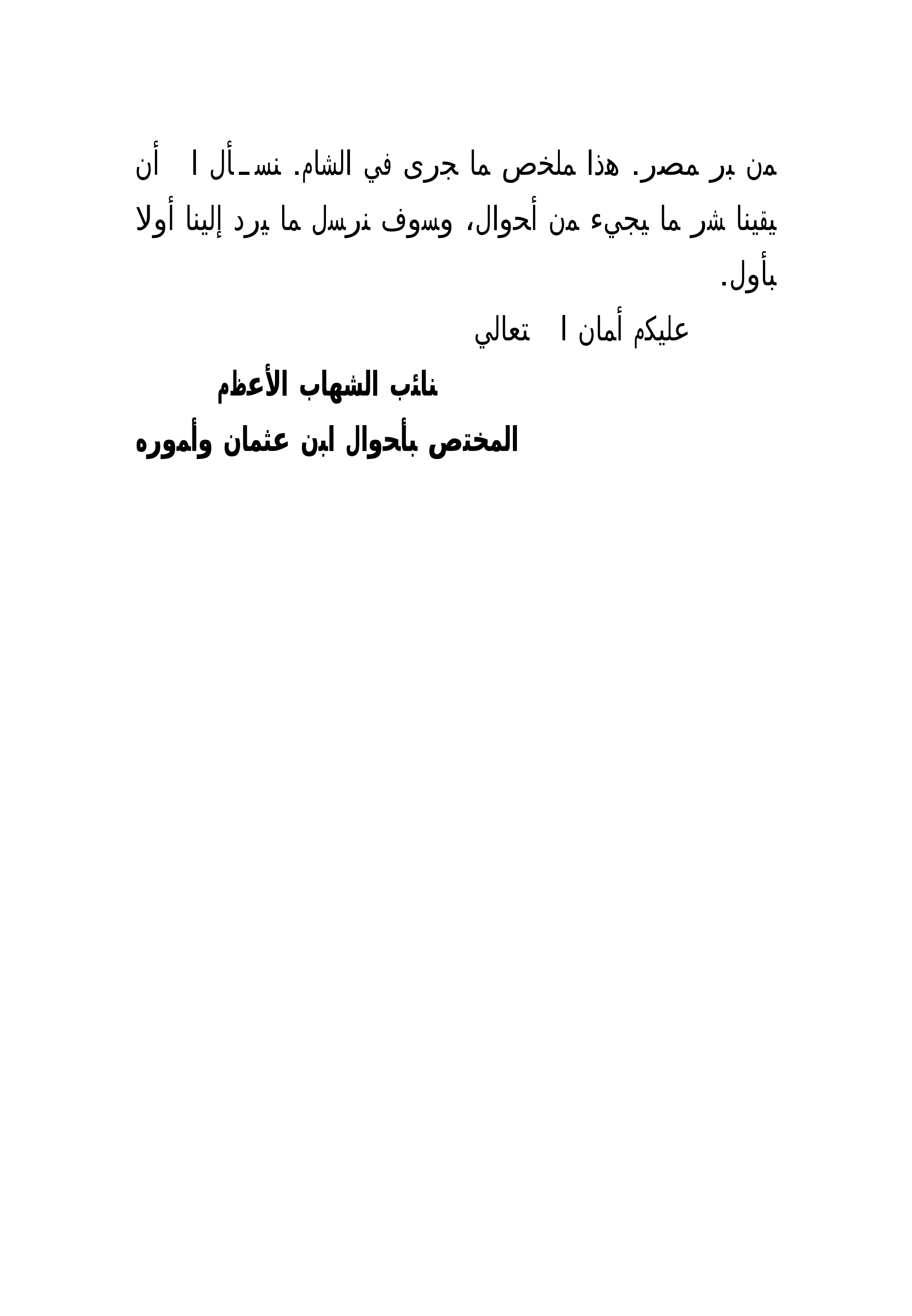
بعد تضارب الأخبار، وكثرة القيل والقال، ورد إلينا، منذ لحظات حقيقة ما جرى، فبادرنا بإرسال الأخبار إلـيكم، ونأسف لعدم تمكننا من الحضور بأنفسنا لانشغالنا باستقصاء الحقائق، لقد وقعت كاينة عظيمة، طمت وعمت، وتفاصيلها، أن السلطان الغوري دهمته عسكر سليم العثمانلي يوم الأحـد خامس وعشرين رجب (و هو يوم نحـس مسـتمر) وكـان السلطان قد صلى صلاة الصبح، ثم ركب وتوجه إلـى تـل الفار. وقيل هناك قبر داود عليه السـلام فركـب السـلطان وصار يرتب العساكر بنفسه، فكان أميـر المـؤمنين علـى ميمنته، وحوله أربعون مصحفا في أكياس حريـر صـفراء على رءوس جماعة أشراف، وفيهم مصحف بخـط الإمـام، عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحوله أيضا جماعـة مـن الفقراء، هم خليفة السيد البدوي، ومعه أعلام حمر، والسـادة الأشراف القادرية، ومعهم أعلام خضر، وخليفة سيدي أحمد

الرفاعي ومعه أعلام خليفتي والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضي ا عنها، بأعلام سود، وكان ميمنـة العسـكر سيباي نائب الشام، وعلى الميسرة خاير بك نائب الحاب.

قيل أول من برز إلى القتال الأتابكي سودون، وماك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القراصنة دون الجلبان، فقاتلوا قتالا شديدا ومعهم جماعة من النواب، فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة، وأخـذوا مـنهم سـبعة صناجق وأخذوا المكاحل التي على العجل ورماة البندق، فهم ابن عثمان بالهروب أو بطاب الأمن. وقتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، كانت النصـرة لعسـكر مصـر أولا، ويا ليت لو تم ذلك. بلغ المماليك القراصنة أن السلطان قـال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا أو خلوا المماليك القراصنة تقاتـل وحدها فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال. وبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون قد قتل في المعركة. وقتل ماـك الأمراء سيباي نائب الشام، فانهزم من الميمنة من المعسكر. ثم إن خاير بك نائب حاب انهزم وهرب فكسـر الميسـرة، وأشيع بين الناس أن خاير بك نائب حاب كان موالسا علـى السلطان الذي ظل واقفا تحت الصنجق في نفـر قليـل مـن

المماليك صار يصيح في العسكر، يا أغـوات هـذا وقـت المروءة قاتلوا وعلي رضاكم، فلم يسمع له أحد قولا وصاروا يتسحبون من حوله شيئًا بعد شيء. فالتفـت إلـى الفقـراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم: ادعوا إلى ا تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم. وصار ما يجد له من معـين ولا ناصـر. فانطلق في قلبه جمرة نار لا تنطفئ وكان ذلك اليـوم شـديد الحر. كثيف الغبار. كان نهارا غضب من ا تعـالى علـى عسكر مصر. ولما تحقق السلطان من الهزيمة نزل عليه في الحال خلط فالج. فأبطل شقته. وأرخى حنكه فطلب ماء فأتوه بماء في طاسة ذهب شربه ومشى خطوتين وانقلب من على فرسه إلى الأرض. فأقام نحو درجة. وخرجت روحه، ومات من شدة قهره. وقيل فقعت مرارته. وطلع من حلقه دم أحمر. ولم يعثر على أثر. ولم يعلم له خبر. فكأن الأرض انشـقت وابتلعته في الحال.

ولم تستغرق هذه الواقعة إلا من طلوع الشمس إلـى بعد الظهر. وانتهى الحال على أمر قدره ا تعالى. تحـول ابن عثمان عن مرج دابق إلى حلب فملكها من غير مـانع. واستولى على مال السلطان وتحفه وأسلحته التي خرج بهـا

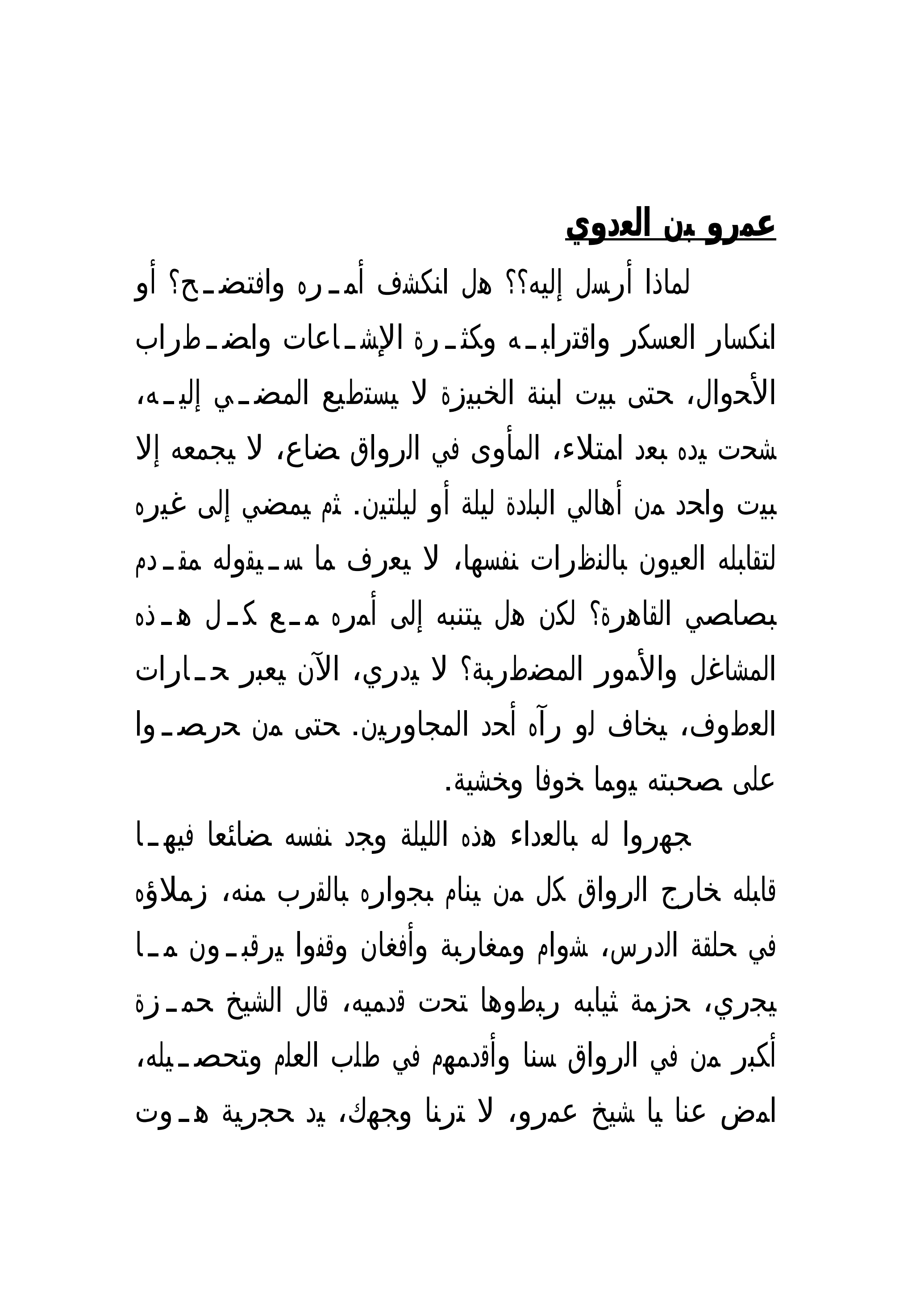


من بر مصر. هذا ملخص ما جرى في الشام. نسـأل ا أن يقينا شر ما يجيء من أحوال، وسوف نرسل ما يرد إلينا أولا بأول.

عليكم أمان ا تعالي

نائب الشهاب الأعظم

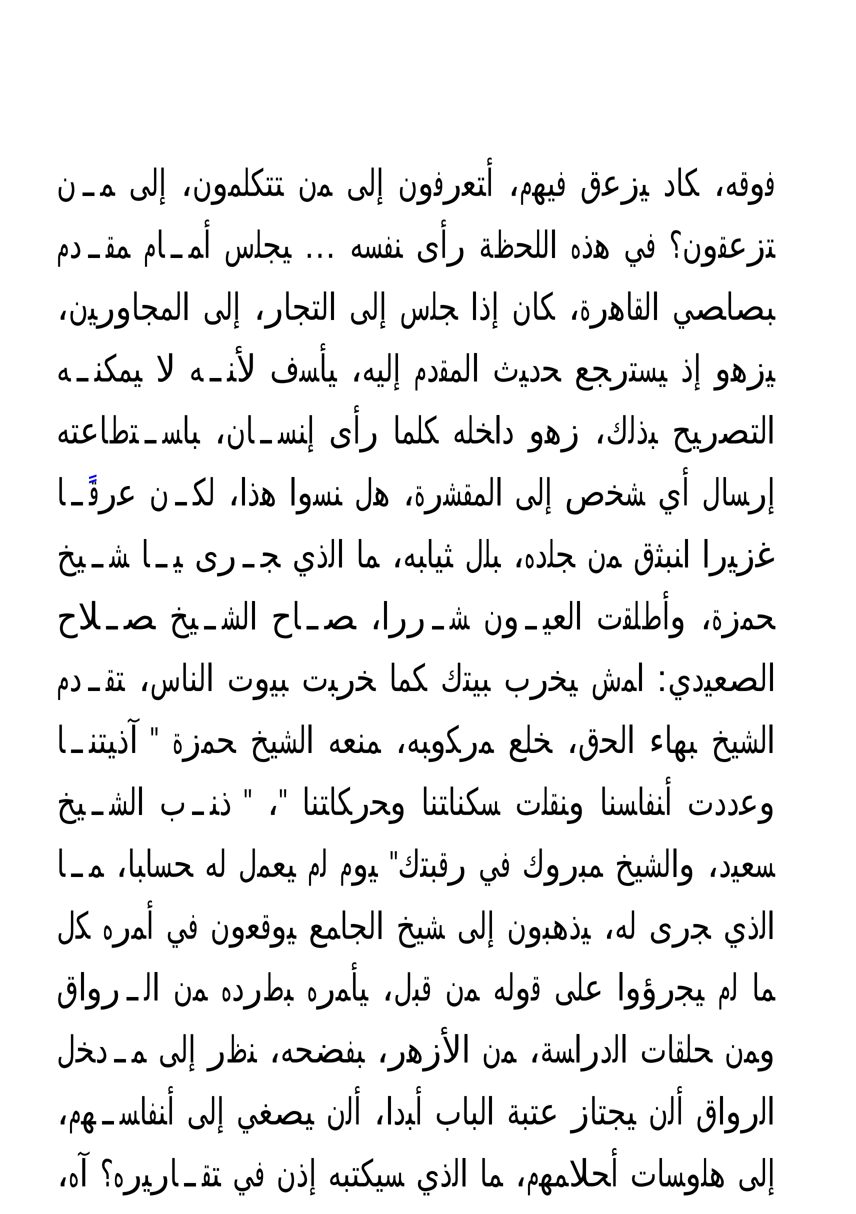
المختص بأحوال ابن عثمان وأموره



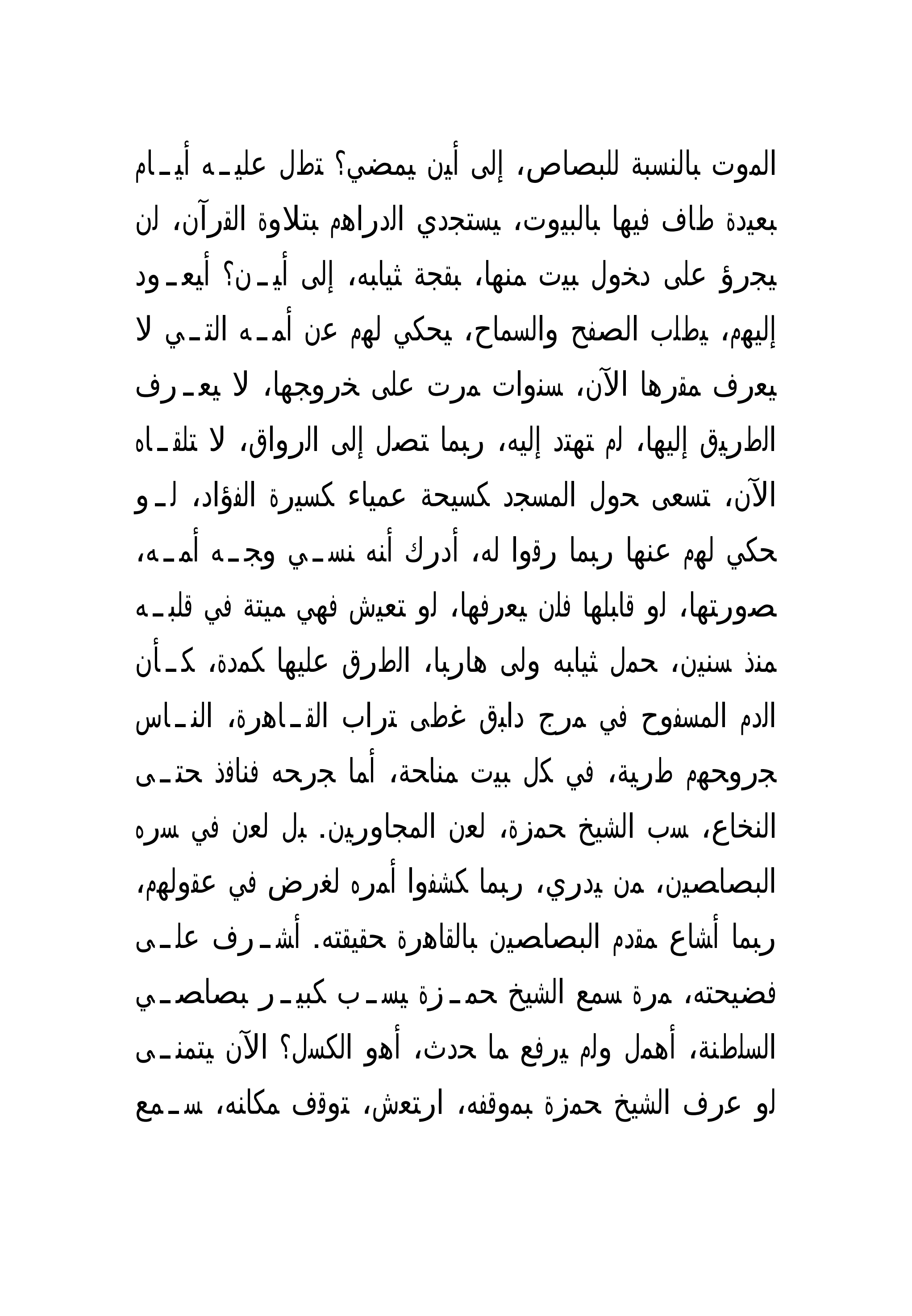
عمرو بن العدوي

لماذا أرسل إليه؟؟ هل انكشف أمـره وافتضـح؟ أو انكسار العسكر واقترابـه وكثـرة الإشـاعات واضـطراب الأحوال، حتى بيت ابنة الخبيزة لا يستطيع المضـي إليـه، شحت يده بعد امتلاء، المأوى في الرواق ضاع، لا يجمعه إلا بيت واحد من أهالي البلدة ليلة أو ليلتين. ثم يمضي إلى غيره لتقابله العيون بالنظرات نفسها، لا يعرف ما سـيقوله مقـدم بصاصي القاهرة؟ لكن هل يتنبه إلى أمره مـع كـل هـذه المشاغل والأمور المضطربة؟ لا يدري، الآن يعبر حـارات العطوف، يخاف لو رآه أحد المجاورين. حتى من حرصـوا على صحبته يوما خوفا وخشية.

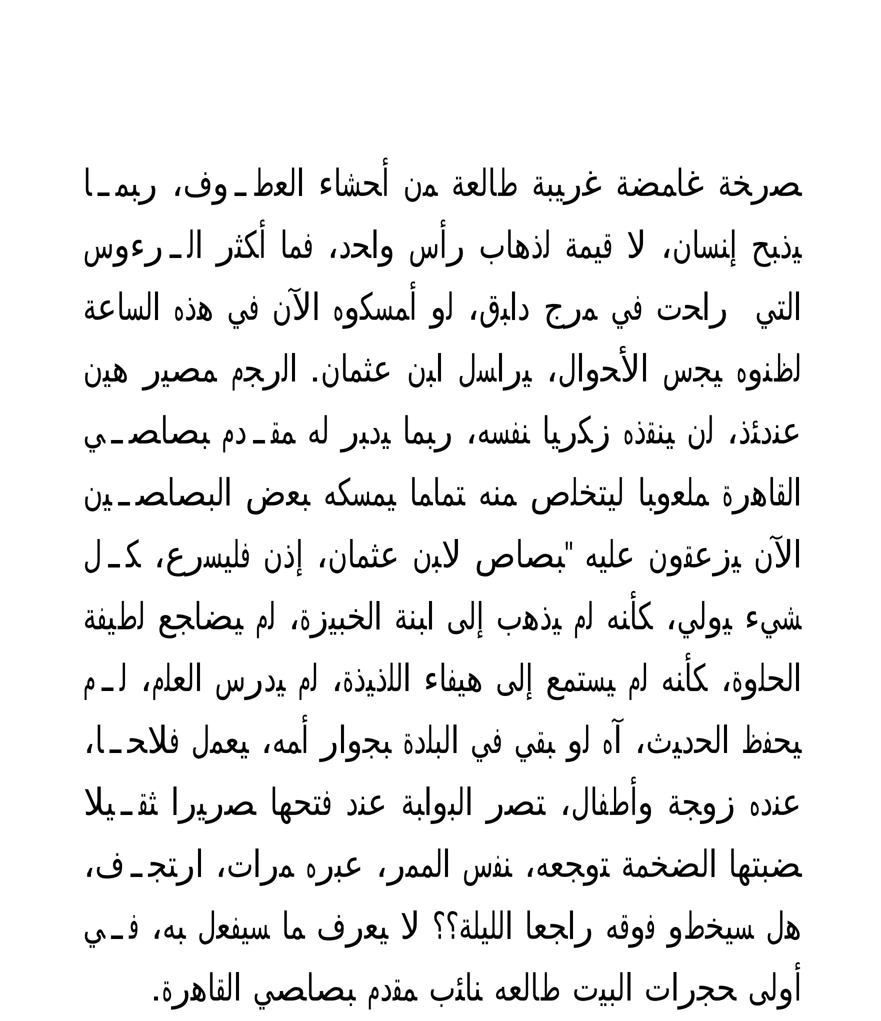
جهروا له بالعداء هذه الليلة وجد نفسه ضائعا فيهـا قابله خارج الرواق كل من ينام بجواره بالقرب منه، زملاؤه في حلقة الدرس، شوام ومغاربة وأفغان وقفوا يرقبـون مـا يجري، حزمة ثيابه ربطوها تحت قدميه، قال الشيخ حمـزة أكبر من في الرواق سنا وأقدمهم في طلب العلم وتحصـيله، امض عنا يا شيخ عمرو، لا ترنا وجهك، يد حجرية هـوت



فوقه، كاد يزعق فيهم، أتعرفون إلى من تتكلمون، إلى مـن تزعقون؟ في هذه اللحظة رأى نفسه ... يجلس أمـام مقـدم بصاصي القاهرة، كان إذا جلس إلى التجار، إلى المجاورين، يزهو إذ يسترجع حديث المقدم إليه، يأسف لأنـه لا يمكنـه التصريح بذلك، زهو داخله كلما رأى إنسـان، باسـتطاعته إرسال أي شخص إلى المقشرة، هل نسوا هذا، لكـن عرقًـا غزيرا انبثق من جلده، بلل ثيابه، ما الذي جـرى يـا شـيخ حمزة، وأطلقت العيـون شـررا، صـاح الشـيخ صـلاح الصعيدي: امش يخرب بيتك كما خربت بيوت الناس، تقـدم الشيخ بهاء الحق، خلع مركوبه، منعه الشيخ حمزة " آذيتنـا وعددت أنفاسنا ونقلت سكناتنا وحركاتنا "، " ذنـب الشـيخ سعيد، والشيخ مبروك في رقبتك" يوم لم يعمل له حسابا، مـا الذي جرى له، يذهبون إلى شيخ الجامع يوقعون في أمره كل ما لم يجرؤوا على قوله من قبل، يأمره بطرده من الـرواق ومن حلقات الدراسة، من الأزهر، بفضحه، نظر إلى مـدخل الرواق ألن يجتاز عتبة الباب أبدا، ألن يصغي إلى أنفاسـهم، إلى هلوسات أحلامهم، ما الذي سيكتبه إذن في تقـاريره؟ آه، لن يرحمه الرجل، فشل ولم يتقن إخفاء نفسه، وهذا يسـاوي



الموت بالنسبة للبصاص، إلى أين يمضي؟ تطل عليه أيام بعيدة طاف فيها بالبيوت، يستجدي الدراهم بتلاوة القرآن، لن يجرؤ على دخول بيت منها، بقجة ثيابه، إلى أين؟ أيعود إليهم، يطلب الصفح والسماح، يحكي لهم عن أمه التي لا يعرف مقرها الآن، سنوات مرت على خروجها، لا يعرف الطريق إليها، لم تهتد إليه، ربما تصل إلى الرواق، لا تلقاه الآن، تسعى حول المسجد كسيحة عمياء كسيرة الفؤاد، لو حكي لهم عنها ربما رقوا له، أدرك أنه نسي وجه أمه، صورتها، لو قابلها فلن يعرفها، لو تعيش فهي ميتة في قلبه منذ سنين، حمل ثيابه ولى هاربا، الطرق عليها كمدة، كأن الدم المسفوح في مرج دابق غطى تراب القاهرة، الناس جروحهم طرية، في كل بيت مناحة، أما جرحه فنافذ حتى النخاع، سب الشيخ حمزة، لعن المجاورين. بل لعن في سره البصاصين، من يدري، ربما كشفوا أمره لغرض في عقولهم، ربما أشاع مقدم البصاصين بالقاهرة حقيقته. أشرف على فضيحته، مرة سمع الشيخ حمزة يسب كبير بصاصي السلطنة، أهمل ولم يرفع ما حدث، أهو الكسل؟ الآن يتمنى لو عرف الشيخ حمزة بموقفه، ارتعش، توقف مكانه، سمع



صرخة غامضة غريبة طالعة من أحشاء العطـوف، ربمـا يذبح إنسان، لا قيمة لذهاب رأس واحد، فما أكثر الـرءوس التي راحت في مرج دابق، لو أمسكوه الآن في هذه الساعة لظنوه يجس الأحوال، يراسل ابن عثمان. الرجم مصير هين عندئذ، لن ينقذه زكريا نفسه، ربما يدبر له مقـدم بصاصـي القاهرة ملعوبا ليتخلص منه تماما يمسكه بعض البصاصـين الآن يزعقون عليه "بصاص لابن عثمان، إذن فليسرع، كـل شيء يولي، كأنه لم يذهب إلى ابنة الخبيزة، لم يضاجع لطيفة الحلوة، كأنه لم يستمع إلى هيفاء اللذيذة، لم يدرس العلم، لـم يحفظ الحديث، آه لو بقي في البلدة بجوار أمه، يعمل فلاحـا، عنده زوجة وأطفال، تصر البوابة عند فتحها صريرا ثقـيلا ضبتها الضخمة توجعه، نفس الممر، عبره مرات، ارتجـف، هل سيخطو فوقه راجعا الليلة؟؟ لا يعرف ما سيفعل به، فـي أولى حجرات البيت طالعه نائب مقدم بصاصي القاهرة.

"اجلس"

لم يلامس ظهره مسند المقعـد، رأى نفسـه بعـين الرجل، أدرك نحول بدنه، اصفرار وجهه.

" فضحت نفسك ... وفضحتنا "

انعقد لسانه ما الذي سيفعل به؟؟ عندما وصـل إليـه الرسول في الفسطاط، أعد كلاما كثيرا يقوله، كل ما يرجـوه تدبير المأوى، يمكنه العمل خادما ينظف الحشـايا ويغسـل الأواني، ألم يبذل الجهد كله في خدمته، هل خاب تقرير واحد أعده من قبل، ألم يتسبب في كشف أمر عشرات المهيجـين، الآن لا يجد كلمة واحدة فوق ما فكر فيه، قام نائـب مقـدم بصاصي القاهرة، لاحظ عمرو أنه متعب، تمنى لو قال لـه "استرح ... لا تتعب نفسك " لو بادله عادي الكلام ...

"سوف تسبب لنا متاعب" ...

قلب عمرو حمامة ابتل ريشها، يلمس ما تقرر فـي أمره، من خلال كلمات الرجل وحركاته، أثناء مشيه ومجيئه في الحجرة، ضرب قبضة يده اليمنى براحة يده اليسرى ...

" ستبقى عندنا وقتا حتى يبت في أمرك "

" هنا "؟؟

ورأى عمرو ظلام الليل أبديا، طاف حولـه خيـال هائم، لا يدري أين صاحبته وتمنى لو اقترب مـن النائـب وهمس برقة " اهتم بنفسك " صحتك علـى غيـر عادتهـا، فيجاوبه النائب، قائلا ... " رعاك ا يا عمرو وأبقاك ..."

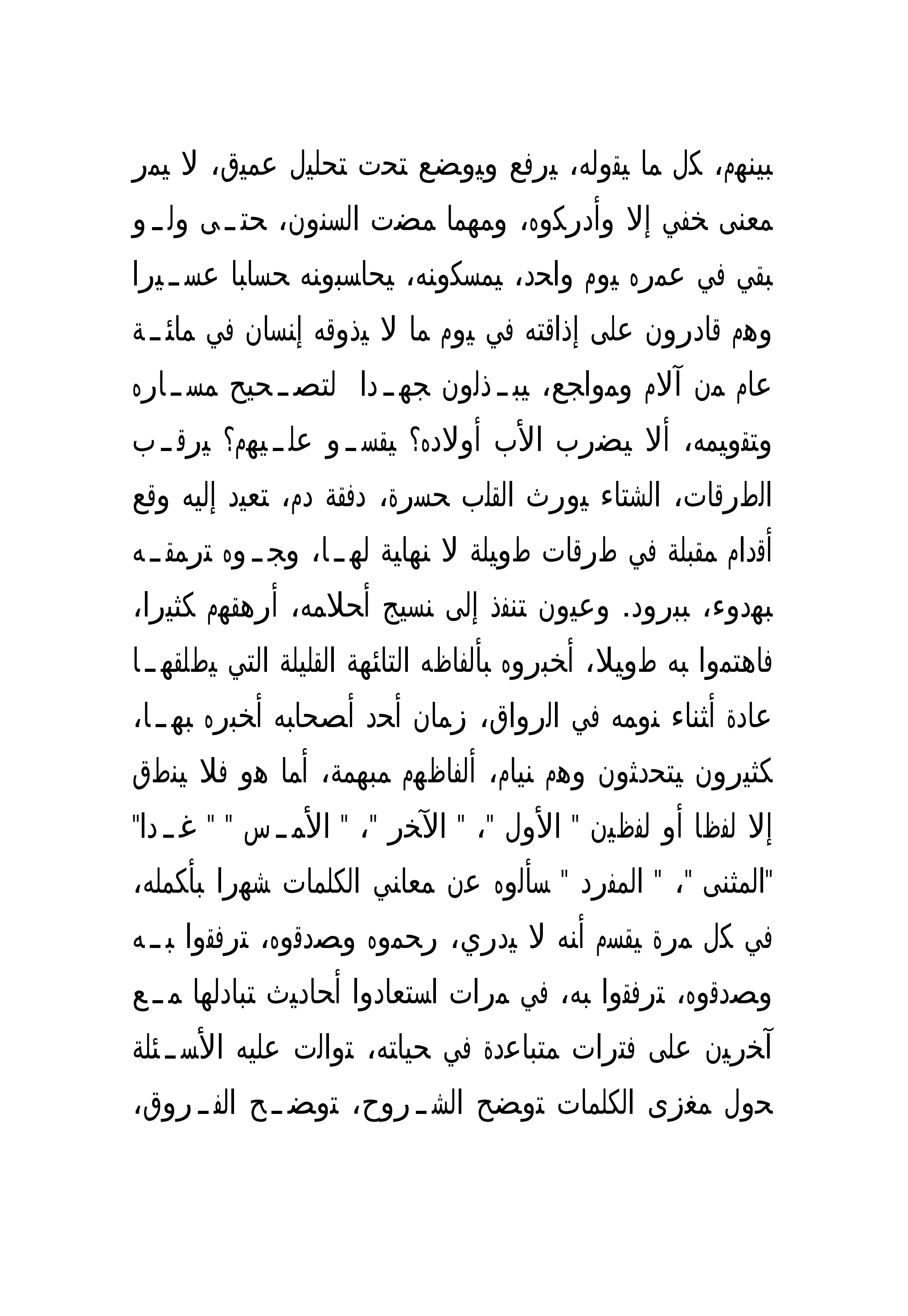
سعيد الجهيني:

بخرقه ممزقة قديمة، أقبل حمزة بن العيد الصـغير، ينظف الموضع المعتاد من الدكة ... "لك وحشـة يـا شـيخ سعيد ... سنتان وأكثر ... هانت عليك العشرة"

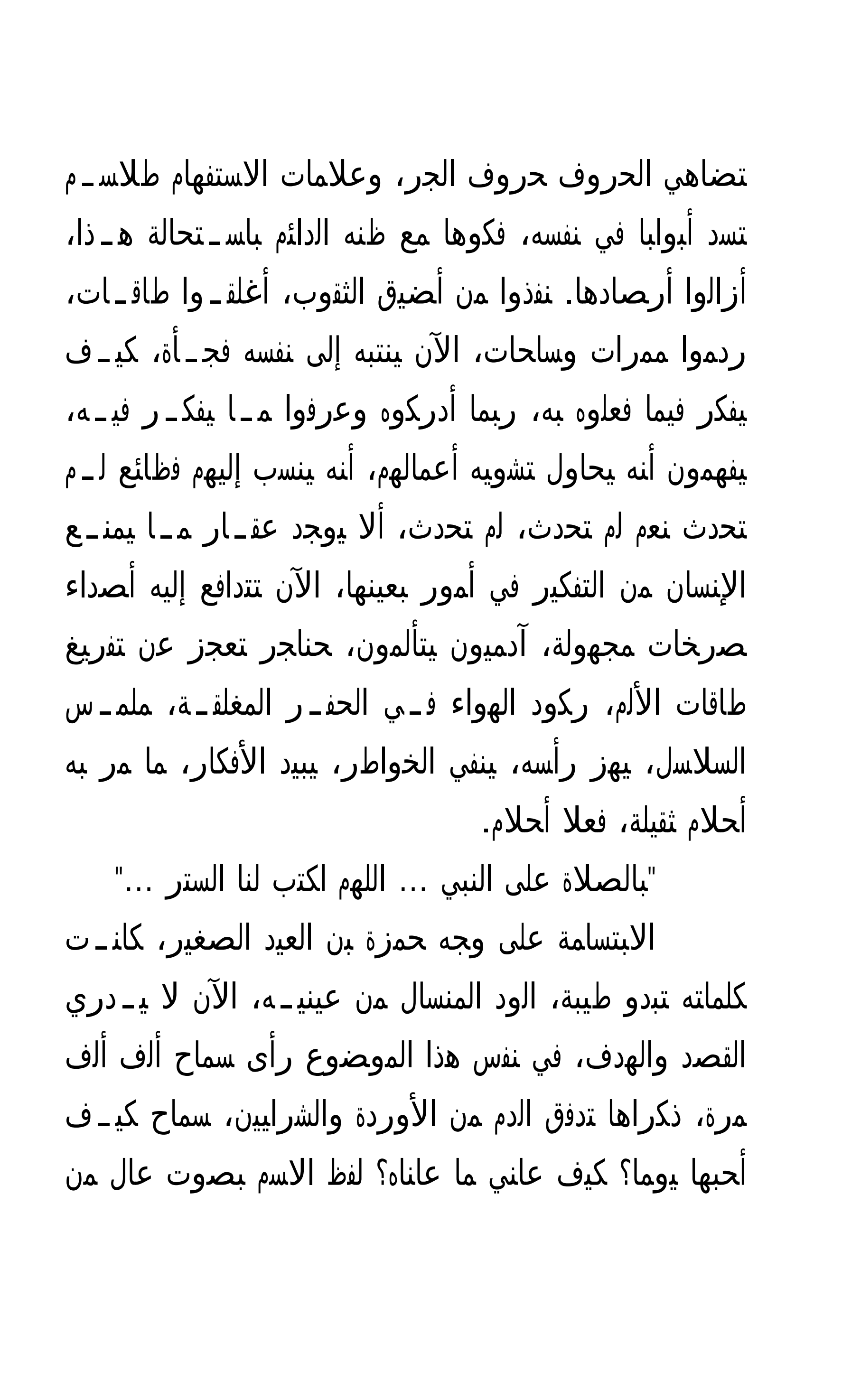
ضيق سعيد عينيه، تعب البصر وامتنع عـن تمييـز القريب من الأشياء، أيصدق حمزة في قوله؟؟ أو يتظـاهر؟؟ أحقا يجهل ما جرى؟؟ ألم يبلغه الأمر؟؟ وإذا تجاهل فلابد من غرض خفي يستحق تظاهره؟ ألم يسمع صدفة حديثا تبادلـه بعض المجاورين المترددين على دكانه، حمزة يدعك يديـه بعضهما البعض، في الترحيب حرارة لا تخفى، هل أوصوه بافتعالها؟؟ أيصدر عن نظراته ما يدفع الريبة والشـك إلـى قلبه؟؟

" غيبته لم تطل يا ريس حمزة ..."

في كلمات قليلة رد، ليفهم حمزة أو أي بصاص آخر يقف قريبا منه، يختبئ في الدكان، في أي مكان لا يراه، أنه لا يبدي الشكوى مما حدث، سعيد عليم بمراقبتهم لـه، فـي مكان بعينه. فوق مساحة أرض بذاتها، فراغ محـدد يقـف إنسان يرصد كلماته، الناس الذين يلقاهم، العبارات المتبادلـة



بينهم، كل ما يقوله، يرفع ويوضع تحت تحليل عميق، لا يمر معنى خفي إلا وأدركوه، ومهما مضت السنون، حتـى ولـو بقي في عمره يوم واحد، يمسكونه، يحاسبونه حسابا عسـيرا وهم قادرون على إذاقته في يوم ما لا يذوقه إنسان في مائـة عام من آلام ومواجع، يبـذلون جهـدا لتصـحيح مسـاره وتقويمه، ألا يضرب الأب أولاده؟ يقسـو علـيهم؟ يرقـب الطرقات، الشتاء يورث القلب حسرة، دفقة دم، تعيد إليه وقع أقدام مقبلة في طرقات طويلة لا نهاية لهـا، وجـوه ترمقـه بهدوء، ببرود. وعيون تنفذ إلى نسيج أحلامه، أرهقهم كثيرا، فاهتموا به طويلا، أخبروه بألفاظه التائهة القليلة التي يطلقهـا عادة أثناء نومه في الرواق، زمان أحد أصحابه أخبره بهـا، كثيرون يتحدثون وهم نيام، ألفاظهم مبهمة، أما هو فلا ينطق إلا لفظا أو لفظين " الأول "، " الآخر "، " الأمـس " " غـدا" "المثنى "، " المفرد " سألوه عن معاني الكلمات شهرا بأكمله، في كل مرة يقسم أنه لا يدري، رحموه وصدقوه، ترفقوا بـه وصدقوه، ترفقوا به، في مرات استعادوا أحاديث تبادلها مـع آخرين على فترات متباعدة في حياته، توالت عليه الأسـئلة حول مغزى الكلمات توضح الشـروح، توضـح الفـروق،


تضاهي الحروف حروف الجر، وعلامات الاستفهام طلاسـم تسد أبوابا في نفسه، فكوها مع ظنه الدائم باسـتحالة هـذا، أزالوا أرصادها. نفذوا من أضيق الثقوب، أغلقـوا طاقـات، ردموا ممرات وساحات، الآن ينتبه إلى نفسه فجـأة، كيـف يفكر فيما فعلوه به، ربما أدركوه وعرفوا مـا يفكـر فيـه، يفهمون أنه يحاول تشويه أعمالهم، أنه ينسب إليهم فظائع لـم تحدث نعم لم تحدث، لم تحدث، ألا يوجد عقـار مـا يمنـع الإنسان من التفكير في أمور بعينها، الآن تتدافع إليه أصداء صرخات مجهولة، آدميون يتألمون، حناجر تعجز عن تفريغ طاقات الألم، ركود الهواء فـي الحفـر المغلقـة، ملمـس السلاسل، يهز رأسه، ينفي الخواطر، يبيد الأفكار، ما مر به أحلام ثقيلة، فعلا أحلام.

"بالصلاة على النبي ... اللهم اكتب لنا الستر ..."

الابتسامة على وجه حمزة بن العيد الصغير، كانـت كلماته تبدو طيبة، الود المنسال من عينيـه، الآن لا يـدري القصد والهدف، في نفس هذا الموضوع رأى سماح ألف ألف مرة، ذكراها تدفق الدم من الأوردة والشرايين، سماح كيـف أحبها يوما؟ كيف عاني ما عاناه؟ لفظ الاسم بصوت عال من

الطاقة، سمع ورأى ما يسقط النجوم الأعـالي، مـا يهـوي بالنفس من شموخها، أدرك العطن جوهره. ظن أنها لا تمس، دب الخراب إلى وجه مليح، بـارت الأرض. أفنـى الوبـاء أمالا. ظن يوما أنه سيعبر المحيطات ويمشي عبـر الربـع الخراب من العالم. يعلو جبال قاف ويمضي إلى واق الواق، يرسو في جزر لا يسكنها أحد، يأكل الحديد ويشرب النـار، فقط لو تصحبه الآن يتساءل؟ كيف. كيف أحبهـا يومـا، لا يدري أين هي. أين تسكن؟ في القاهرة أم رحلت إلى الأرياف مع الراحلين في الأيام الأخيرة. لابد أنها أنجبت طفلا يقـول لزوجها يا أبي، يقول لها يا أمي، لا بـد أن معـالم وجههـا تغيرت، يدها غلظت، كأنه يذكر شخصا غريبا عنـه يعـيش وراء المحيط، عرفه يوما غير أن عكارة في قرارة الـروح، نقطة عنبر أسود لا تروح. لا يدري ما الذي دفع إليـه الآن ذكرى رجل عرفته القاهرة كلها منذ أعوام قضى سـنين لـم يقرب امرأة. وعندما اشترى بماله الذي أفنـى العمـر فـي اقتنائه جاريه حلوة صغيرة، لكنها بعد أيام اسـتغاثت منـه. استعانت عليه بالزيني، الزيني خلصها من الرجـل. طـاش عقله وراح يدور الشوارع في عينيه حيرة ولهفة وقـع بـه

خبل، ياه كانت سماح حربة مغروسة في قلبه لم يعرفها، وأراق الدمع من أجلها، يقول الآن. الحمد   أنه لم يتزوجها، كأن شخصا آخر حكى له ما جرى، قصه عليه. أما هو فلم يعرفه، قرب كوز الحلبة، الطعم مغاير في الحلق، هل نسي المذاق؟ لو اشتهى الحلبة عندهم لجاءوه بها ...

"اللهم استرنا وارحمنا يا كريم"

في البداية أقبل عليه، لكن أسى الوجه الخفي، الصد الذي لا يبين في عينيه، حفر رفيعة طويلة حولهما، كأنه قام من النوم توا، كأنه يعاني حزنا فادحا، أو انتهى فورا من بكاء طويل، حمزة بن العيد الصغير، يرى حاجزا يقوم بينهما.

"أنستنا يا شيخ سعيد ..."

في الجو غليان، إنه يمشي على الرصيف المحيط بصحن المسجد المكشوف من وراء الأعمدة، ينظرهم، لا يقرب حلقات المناقشة إلا وقت الدرس، حتى وقتئذ ينأى بنفسه، لن يدع فرصة للظن أن يهمس لأحدهم، يرى العيون تبرق والعشرات يخرجون إلى ظاهر القاهرة، يشيلون أحمال

التراب، يحفرون للمدافع التي اجتهد السلطان طومانباي فـي صنعها، رذاذ الحديث ينفذ إلى أذنيه.

" لو خرج طومانباي وقابلهم فـي الصـالحية وهـم متعبون ولا طعام عندهم لكنهم استراحوا يا مشـايخ. والآن يسعون إلى الريدانية ..."

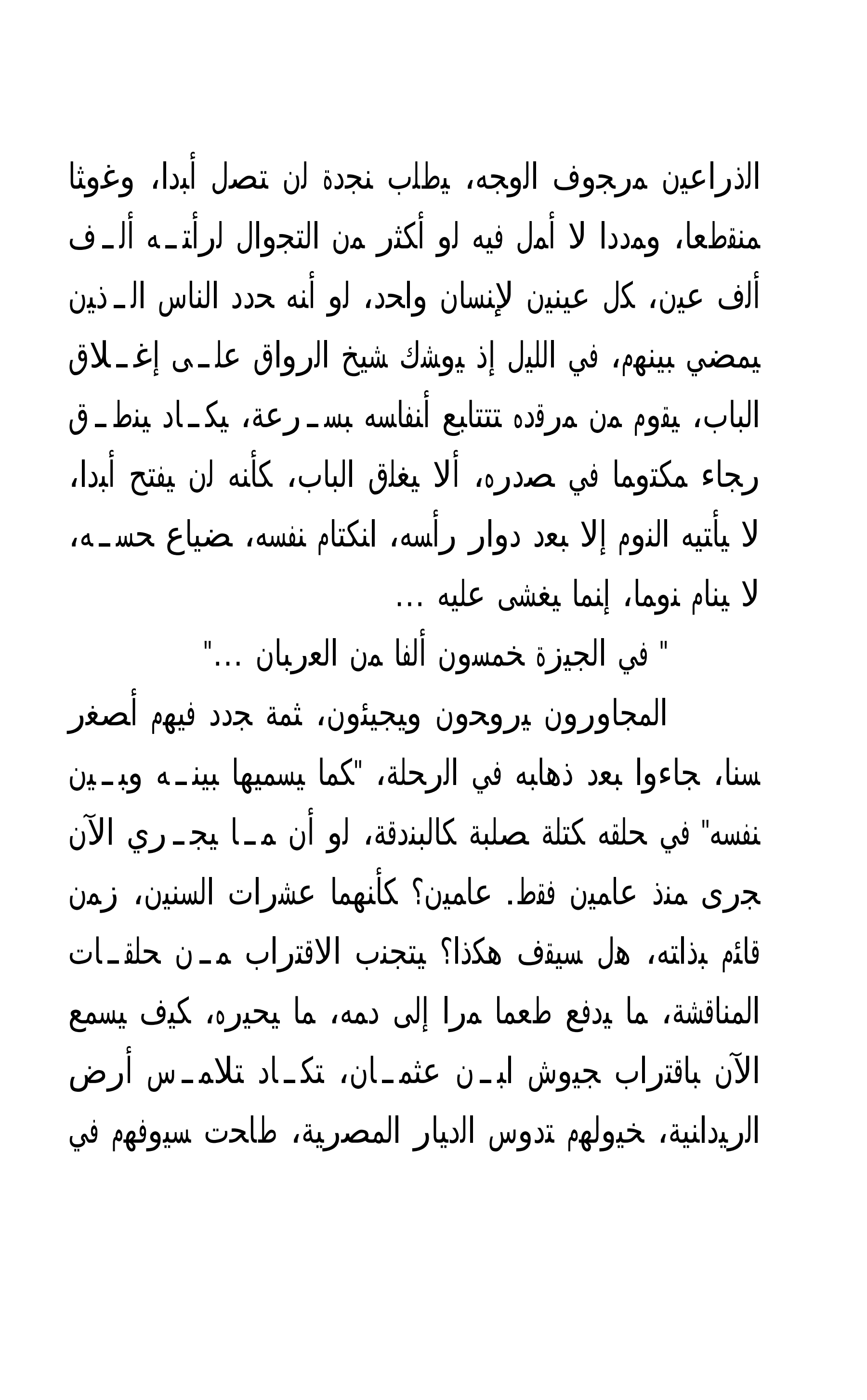
"أنــا أرى أن يخــرج طومانبــاي ويلتــف مــن الصحراء ... ويباغتهم عند بلبـيس. لكـن أن يحفـر فـي الريدانية وينتظرهم هنا فهذا ما لا تحمد عقباه ..."

"ربما أقنعه الأمراء بهذا لغرض في أرواحهم"

"هل شك واحد منا في خاير بك من قبل؟"

" في الجو رائحة نتنة يا مشايخ "

إذا سأله أحد جاوبـه بهـزة رأس لا يعنـي شـيئًا. ابتسامته موجزة تبتر الحديث يعرف أن أصحابه رقـوا لـه. يختمون ما جرى له، لا يهمه ما يقولون، يرجو ألا يثيـرون بالحديث كل كلمة تقال وتضيع في الهواء لا تغني عنـدهم، يقطع الممر الطويل المبلط برخام قديم، يـداه وراء ظهـره، يروح ويجيء، فيه خوف غامض من الخروج إلى الفـراغ. كأنه لو مشى في خط مستقيم سيختل ميزانه، يسقط مرفـوع



الذراعين مرجوف الوجه، يطلب نجدة لن تصل أبدا، وغوثا منقطعا، ومددا لا أمل فيه لو أكثر من التجوال لرأته ألف ألف عين، كل عينين لإنسان واحد، لو أنه حدد الناس الذين يمضي بينهم، في الليل إذ يوشك شيخ الرواق على إغلاق الباب، يقوم من مرقده تتتابع أنفاسه بسرعة، يكاد ينطق رجاء مكتوما في صدره، ألا يغلق الباب، كأنه لن يفتح أبدا، لا يأتيه النوم إلا بعد دوار رأسه، انكتام نفسه، ضياع حسه، لا ينام نوما، إنما يغشى عليه ...

" في الجيزة خمسون ألفا من العربان ..."

المجاورون يروحون ويجيئون، ثمة جدد فيهم أصغر سنا، جاءوا بعد ذهابه في الرحلة، "كما يسميها بينه وبين نفسه" في حلقه كتلة صلبة كالبندقة، لو أن ما يجري الآن جرى منذ عامين فقط. عامين؟ كأنهما عشرات السنين، زمن قائم بذاته، هل سيقف هكذا؟ يتجنب الاقتراب من حلقات المناقشة، ما يدفع طعما مرا إلى دمه، ما يحيره، كيف يسمع الآن باقتراب جيوش ابن عثمان، تكاد تلامس أرض الريدانية، خيولهم تدوس الديار المصرية، طاحت سيوفهم في

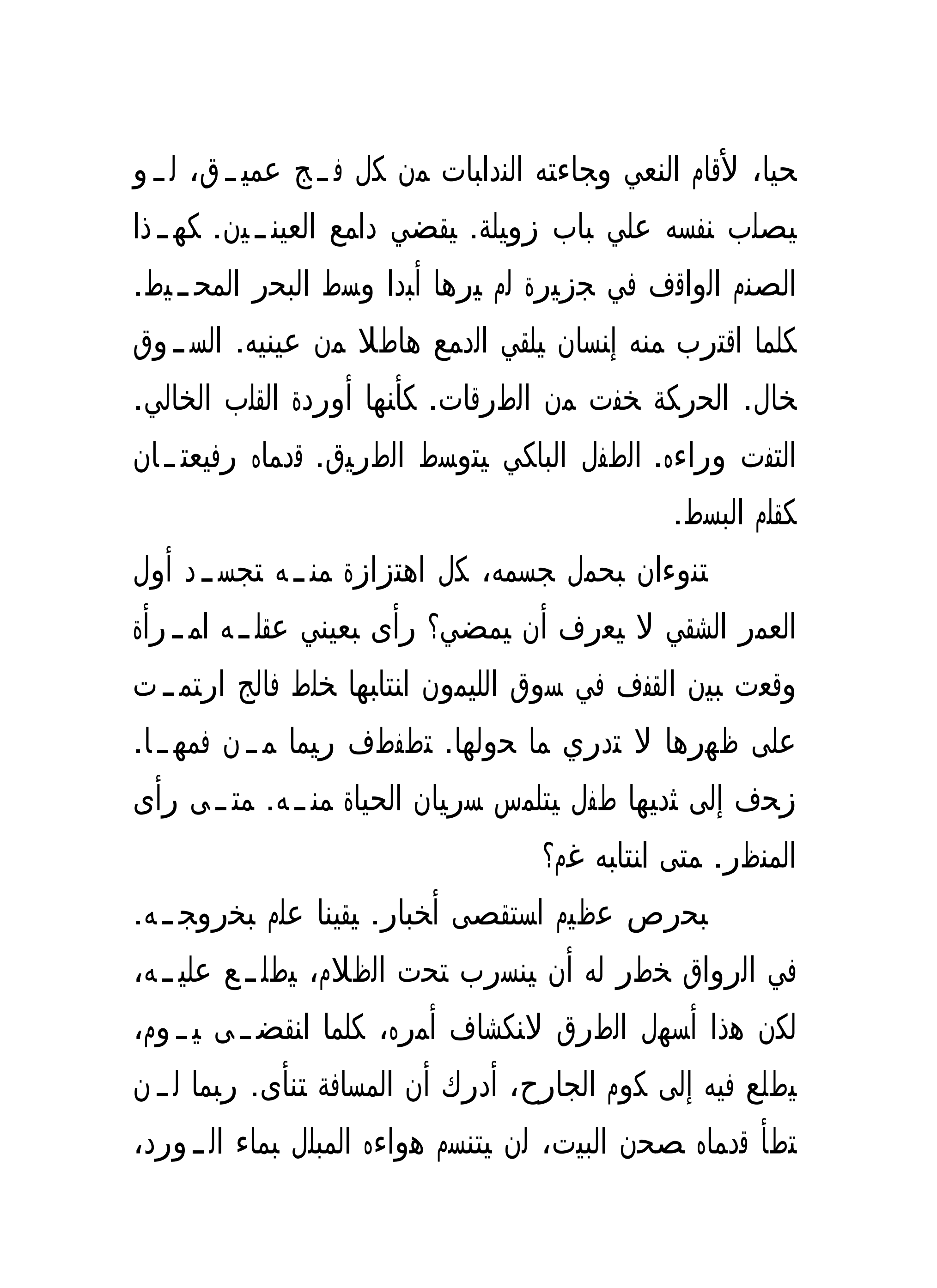
رقاب أهالي الشرقية وبلبيس، ربما اجتاحوا في طريقهم بلدة، قرية، سماح لجأت إليها مع زوجها.

استباحوا عرضها في صحن جامع قـديم. العـرض الذي لم يهتك في خياله يوما ورآه متمرغـا تحـت سـليل الأمراء في لحظات قهر، سعيد يتقلب فوق حصير شائك، ما أبعد المسافة وأناى الترحال بينه وبين زمـن ترعشـه فيـه مظلمة بسيطة، ضرب إنسان في عرض الطريق، تتكـاثف الحيرة والحسرة، كيف لا يحركه ما يجري من أمور؟ انتفض الشامي والمغربي. القريب والبعيد، الحريم يهـتفن بالـدعاء لطومانباي، حتى العيال الصغار، ربما يخشى أن يفهم حماسه خطأ. لو زعق، لو جهر بالدعاء ربما تضايقوا يريدونه هادئًا وادعا. إذا هتف لطومانباي من يدريه أن الـدعاء سيسـمع بنصه؟ رأى نساء الجمالية الفقيرات في العطـوف الجوانيـة والروم والباطنية يقفن أمام مشهد السيدة نفيسـة حسـيرات، تعلو أصواتهن بنصرة طومانباي، ورفعة جند مصر عسـكر الإسلام، في داخل المسجد رءوس معممة، يقيمون الصـلاة في غير أوقاتها يقرأون البخاري، شبان صغار عاب علـيهم يوما انقطاعهم. وترددهم في مواجهة جـور الأمـراء، الآن

يبدون همة لا يدري من أين جاءتهم. أحقا لامهم فعلا؟ لكنـه لا يخطئ الوجوه المنكسرة، معالم الغربة يراها، حتـى فـي أبنية الحواري.

لحظة الغروب تجسد الموت، الأسى رقراق، عبثـا صفاء النفس، الآذان حزين يدفع بالعمر مائة سـنة، يعمـق الغربة لمن لا بيت له ولا زوجة ولا أمـل يرتجـي، كـأن الريف البعيد محي من المكان والزمان، الأشرعة لا تهـدي القوارب إلى بر الأمان، تمضي امرأة تلتف في حرير أصفر، حتى الخيال لم يعد قادرا على تجريد الثياب، لو جاءت بلقيس نفسها. لو رقصت أمامه في حجرة مغلقة نائية. لن تهتز حتى جذور شعيرات رأسه.

طفل ضئيل، صغير الجسم، دامع العينين، الإصـبع في الفم. حيرة أول العمر يبحث عن أبيه، يبحث عن أمه، لا يدري سعيد، الطولة المخوزقة فـي عينيـه أثـارت خوفـا غامضا، في قلبه شفقة تنسال. توقف يرقب الطفل، انتبه إلى خطورة ما أقدم عليه. بأي كلام يفسر وقفته المفاجئـة أمـام الطفل. طفل صغير يبكي رأى نفسه ممددا فوق حشية قديمة. أطفال يصيحون. نساء يلطمن الخدود، آه لو يرثي الإنسـان

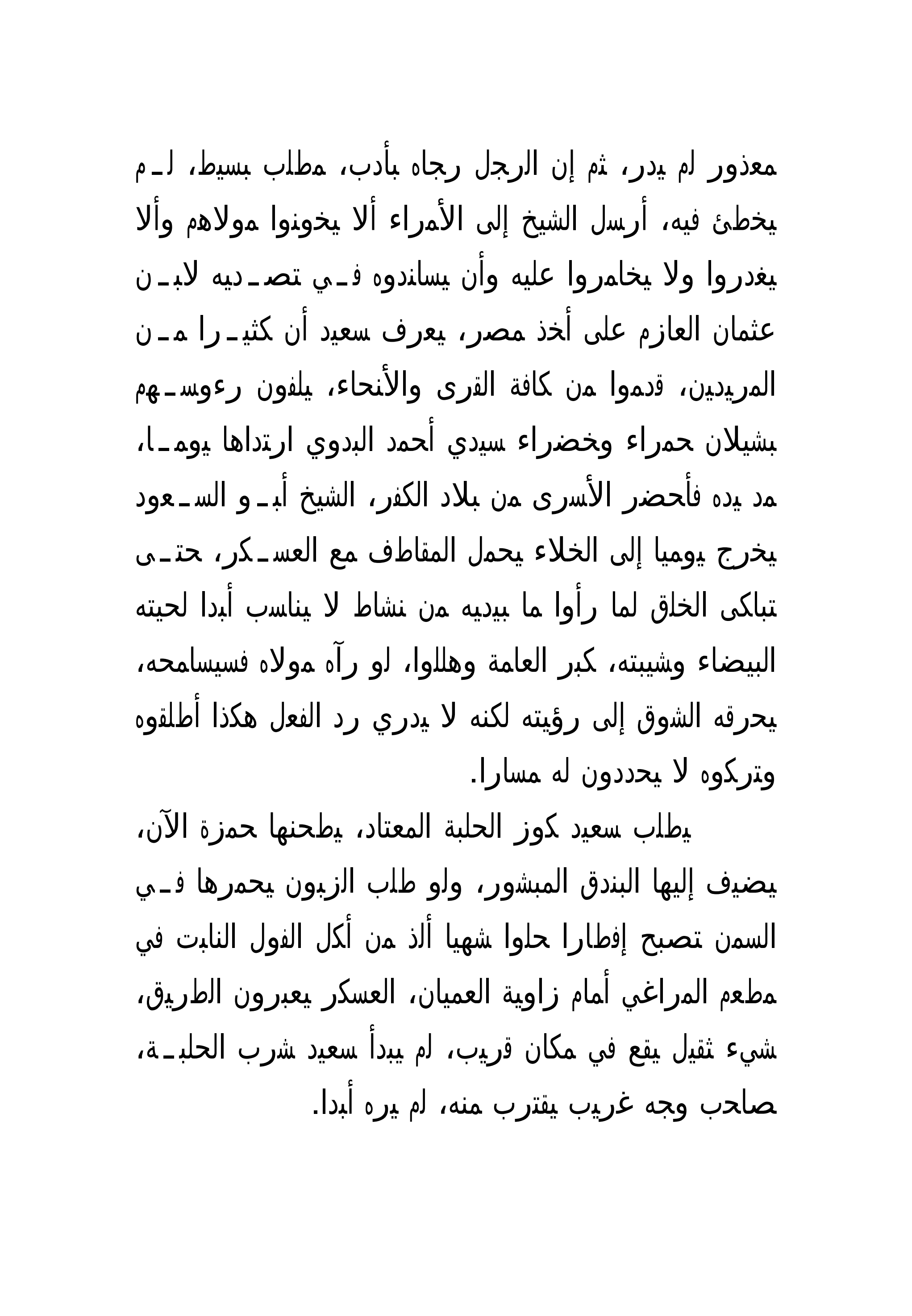


حيا، لأقام النعي وجاءته الندابات من كل فج عميق، لو يصاب نفسه علي باب زويلة. يقضي دامع العينين. كهذا الصنم الواقف في جزيرة لم يرها أبدا وسط البحر المحيط. كلما اقترب منه إنسان يلقي الدمع هاطلا من عينيه. السوق خال. الحركة خفت من الطرقات. كأنها أوردة القلب الخالي. التفت وراءه. الطفل الباكي يتوسط الطريق. قدماه رفيعتان كقلام البسط.

تنوءان بحمل جسمه، كل اهتزازة منه تجسد أول العمر الشقي لا يعرف أن يمضي؟ رأى بعيني عقله امرأة وقعت بين القفف في سوق الليمون انتابها خلط فالج ارتمت على ظهرها لا تدري ما حولها. تطفطف ريما من فمها. زحف إلى ثديها طفل يتلمس سريان الحياة منه. متى رأى المنظر. متى انتابه غم؟

بحرص عظيم استقصى أخبار. يقينا علم بخروجه. في الرواق خطر له أن ينسرب تحت الظلام، يطلع عليه، لكن هذا أسهل الطرق لانكشاف أمره، كلما انقضى يوم، يطلع فيه إلى كوم الجارح، أدرك أن المسافة تنأى. ربما لن تطأ قدماه صحن البيت، لن يتنسم هواءه المبلل بماء الورد،

منذ أعوام لم يخطر بباله قط، لم يكن يقبل أي تصور ليـوم كهذا، لم يطلع إلى كوم الجارح، لكنه في حذر راح يستقصي أحوال مولاه، عرف أن الأمراء عندما عرضوا السلطنة على طومانباي تمنع ورفض، لم يجدوا أمـامهم إلا الشـيخ أبـا السعود ليقنع طومانباي بتولي السلطنة، سعيد يـراه بوجهـه الصافي. ربما أخذه التردد. لا ينسى تدخله إلى جانب الزيني بركات. ثم خيبة رجائه ومسعاه، ابدا أبدا لم يخـب رجـاؤه، بعد عودته من الرحلة طلب منه رجل أتاه دائما هناك، جالسه أياما طويلة، طلب منه الذهاب إلى دكان حمزة كالمعتاد ولو جاءت سيرة الزيني أمامه. لو تساءل الناس عن سر اختفائـه يقول (رجاه الرجل بأدب) إن الزيني في مكان قريب، يعـد العدة ويجمع المال والسلاح، ولم يمانع سعيد، وأي مأخذ في هذا، تساءل الناس في الدكان عن غيبة الزيني قال" إنه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر، يستنفر مشـايخ العربـان لإرسـال رجالهم إلى القاهرة" يذكر يوما شخصا أفرنجيا بدا مصـغيا لكل ما يقال، استراب في أمره، بعـد أيـام عـرف النـاس الحقيقة، الشيخ أبو السعود نفسه قبض على الزيني ورماه في بيته، خجل سعيد من نفسه. خالف أمرا أتـاه مـولاه، لكنـه



معذور لم يدر، ثم إن الرجل رجاه بأدب، مطلب بسيط، لم يخطئ فيه، أرسل الشيخ إلى الأمراء ألا يخونوا مولاهم وألا يغدروا ولا يخامروا عليه وأن يساندوه في تصديه لابن عثمان العازم على أخذ مصر، يعرف سعيد أن كثيرا من المريدين، قدموا من كافة القرى والأنحاء، يلفون رءوسهم بشيلان حمراء وخضراء سيدي أحمد البدوي ارتداها يوما، مد يده فأحضر الأسرى من بلاد الكفر، الشيخ أبو السعود يخرج يوميا إلى الخلاء يحمل المقاطف مع العسكر، حتى تباكى الخلق لما رأوا ما بيديه من نشاط لا يناسب أبدا لحيته البيضاء وشيبته، كبر العامة وهللوا، لو رآه مولاه فسيسامحه، يحرقه الشوق إلى رؤيته لكنه لا يدري رد الفعل هكذا أطلقوه وتركوه لا يحددون له مسارا.

يطلب سعيد كوز الحلبة المعتاد، يطحنها حمزة الآن، يضيف إليها البندق المبشور، ولو طلب الزبون يحمرها في السمن تصبح إفطارا حلوا شهيا ألذ من أكل الفول النابت في مطعم المراغي أمام زاوية العميان، العسكر يعبرون الطريق، شيء ثقيل يقع في مكان قريب، لم يبدأ سعيد شرب الحلبة، صاحب وجه غريب يقترب منه، لم يره أبدا.

" شيخ سعيد؟"

" أيوه "

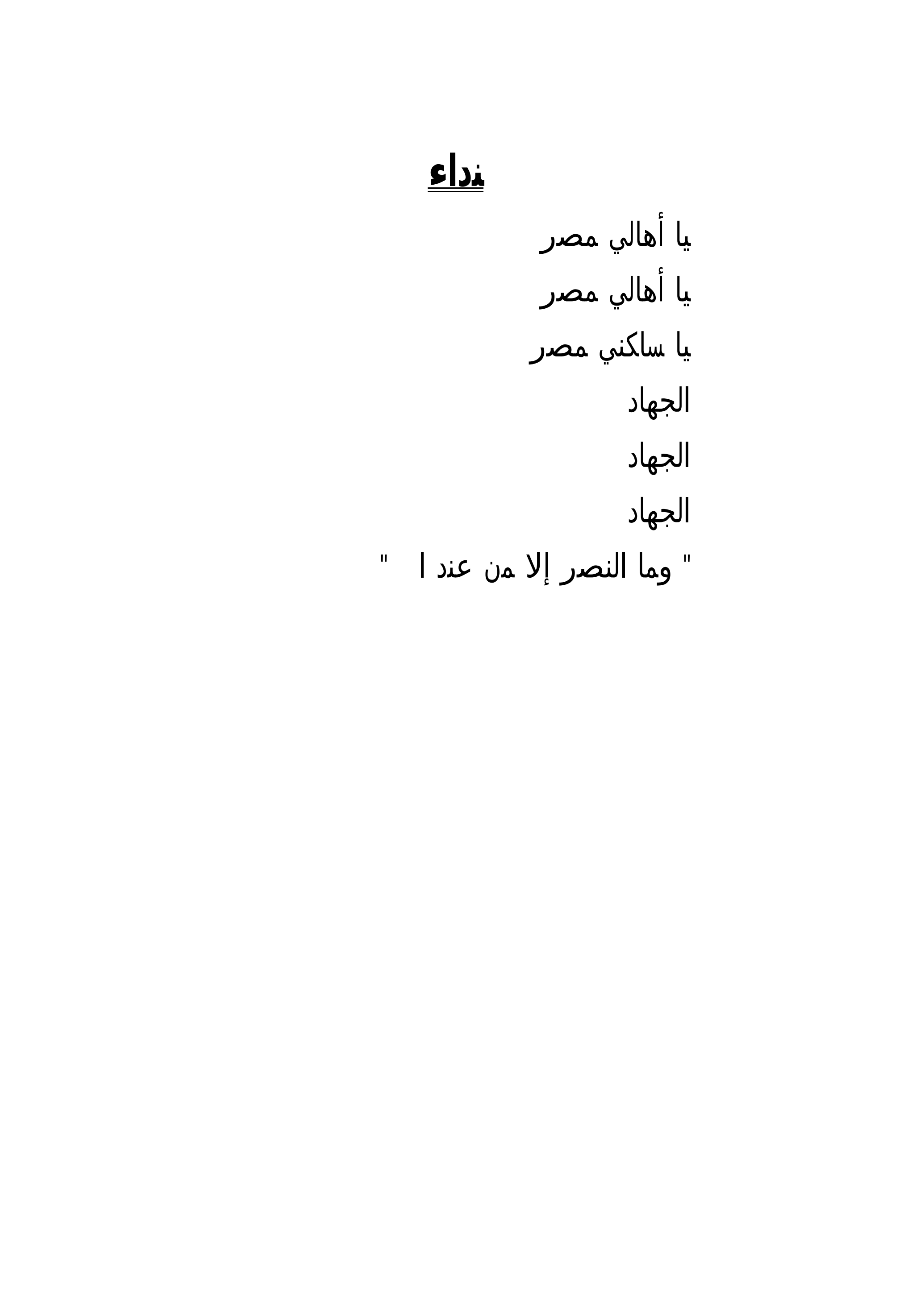
" لو سمحت معي لحظات ..."

الريح صائب، أيبدأ رحلة من جديد، أيعدو؟ إلى أين؟ إلى أين؟

" أبدا ... مقدم بصاصـي القـاهرة يطلبـك. لـيس المفروض أن أقول لك. لكنني أشفق عليك، أعرف رقتك وما يمكن أن يطوف بك ...

يطل حمزة ...

" لم تشرب الحلبة يا شيخ سعيد، لم تشرب الحلبة، لا حول ولا قوة إلا بالله ...



نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

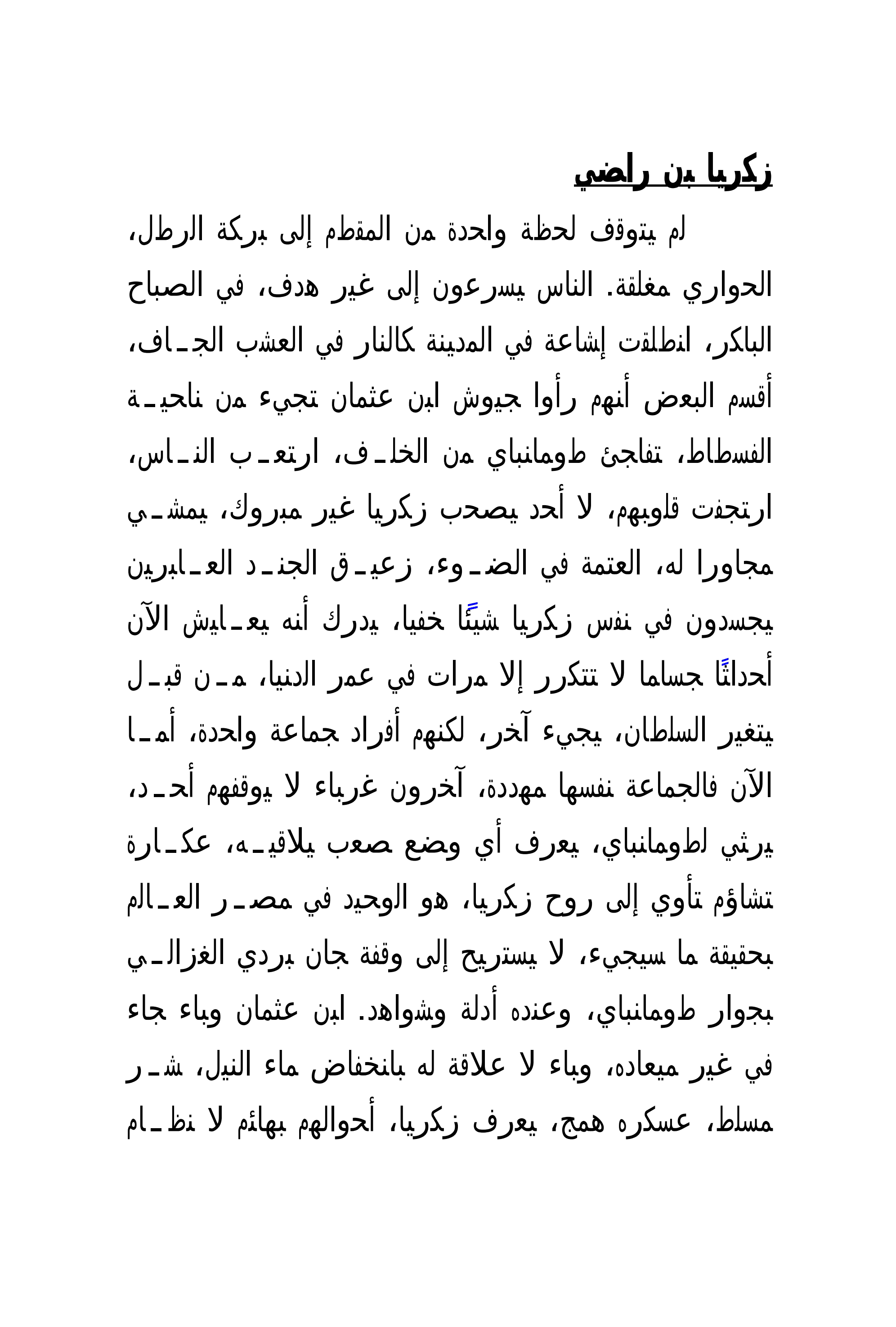
يا ساكني مصر

الجهاد

الجهاد

الجهاد

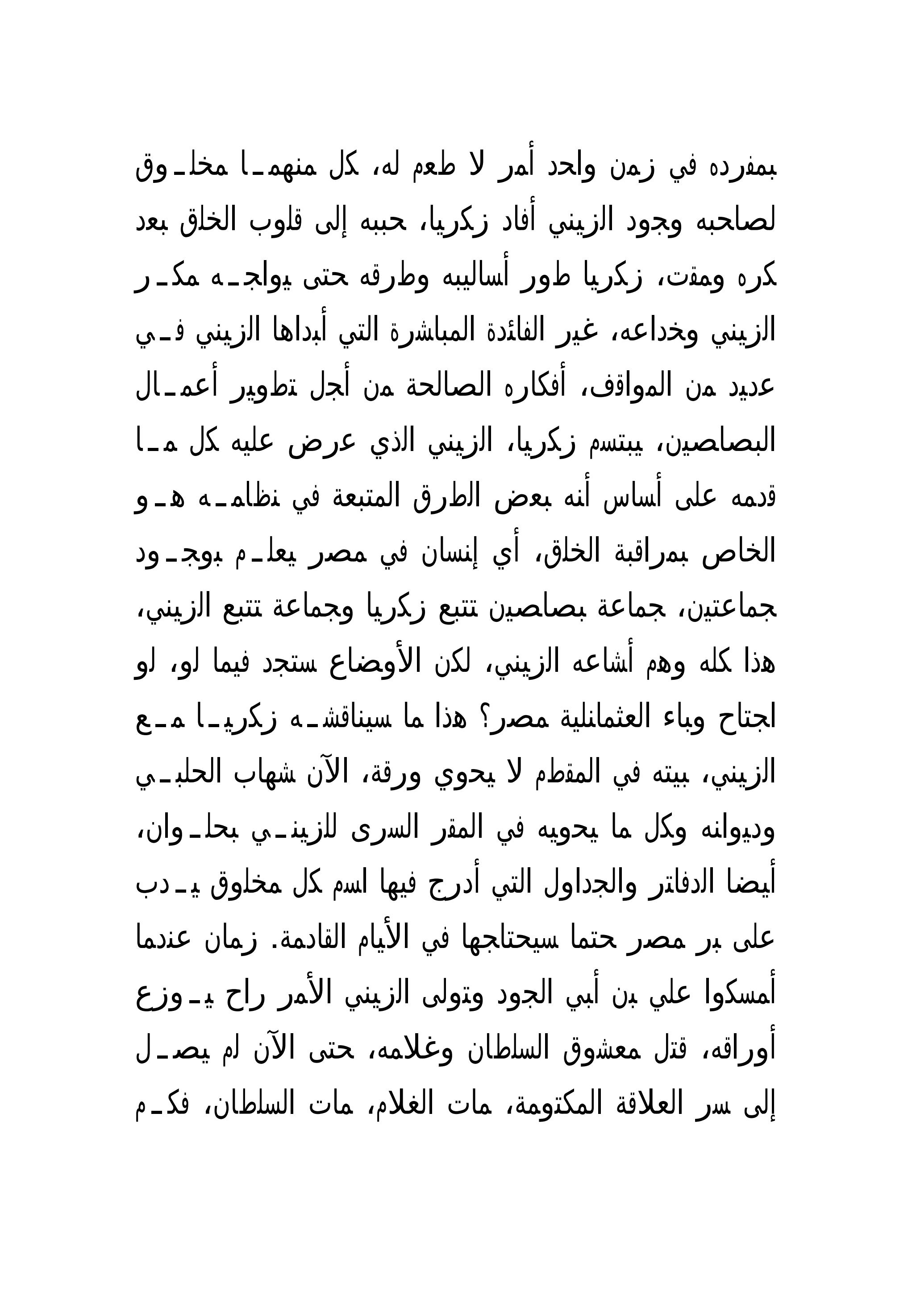
" وما النصر إلا من عند ا "



زكريا بن راضي

لم يتوقف لحظة واحدة من المقطم إلى بركة الرطل، الحواري مغلقة. الناس يسرعون إلى غير هدف، في الصباح الباكر، انطلقت إشاعة في المدينة كالنار في العشب الجـاف، أقسم البعض أنهم رأوا جيوش ابن عثمان تجيء من ناحيـة الفسطاط، تفاجئ طومانباي من الخلـف، ارتعـب النـاس، ارتجفت قلوبهم، لا أحد يصحب زكريا غير مبروك، يمشـي مجاورا له، العتمة في الضـوء، زعيـق الجنـد العـابرين يجسدون في نفس زكريا شيئًا خفيا، يدرك أنه يعـايش الآن أحداثًا جساما لا تتكرر إلا مرات في عمر الدنيا، مـن قبـل يتغير السلطان، يجيء آخر، لكنهم أفراد جماعة واحدة، أمـا الآن فالجماعة نفسها مهددة، آخرون غرباء لا يوقفهم أحـد، يرثي لطومانباي، يعرف أي وضع صعب يلاقيـه، عكـارة تشاؤم تأوي إلى روح زكريا، هو الوحيد في مصـر العـالم بحقيقة ما سيجيء، لا يستريح إلى وقفة جان بردي الغزالـي بجوار طومانباي، وعنده أدلة وشواهد. ابن عثمان وباء جاء في غير ميعاده، وباء لا علاقة له بانخفاض ماء النيل، شـر مسلط، عسكره همج، يعرف زكريا، أحوالهم بهائم لا نظـام

لهم، أسرع الخطى، يهرب من إدراك نتيجة يراها محدقـة، هذا ما سيناقشه مع الزيني بعد قليل. هذا الزيني الذي نفذ إلى عمره، فكره وروحه، فحول ما حول وأبدل ما أبدل، عنـدما قبض على الزيني أدركته دهشة بل مسه خـوف، سـنوات طويلة يكيد فيها للزيني. في زمن هيج عليه مصر كلها عنـد واقعة الفوانيس، لن ينسيه شيئًا أبدا أن الزيني دفع إلى بيتـه بوسيلة الرومية، الزيني أيضا تسبب في قتلهـا، أن يـواري جسدها البلوري وحشة القبر، منذ شهور أدرك أن الزيني لم ينشئ نظاما خاصا به يجس الأخبار والأحـوال، لـم يتبعـه بصاص واحد، إنما هم رجال المحتسب العـاديون، سـنين طويلة وزكريا يجهد نفسه، يبذل طاقات لا أول لها ولا آخر لكي يعثر على بصاص واحد يتبع الزيني. لم يستطع رجاله، أيقن من براعة رجال الزيني في التخفي. عمل لهـم ألـف حساب وحسابا، أدرك زكريا أنه خدع خدعة عميقة، تمنـى زكريا لو وجد نظام بصاصين فعلا يتبع الزيني، وألا يـدرك أن الأمر كله إشاعة أطلقها الزيني، بنى نظاما فـي الهـواء أوجده ولم يوجده، عانى زكريا مرارة الخديعة أيامـا لكنـه أضمر في نفسه إعجابا خفيا للزيني، فعلا أن يوجـد زكريـا

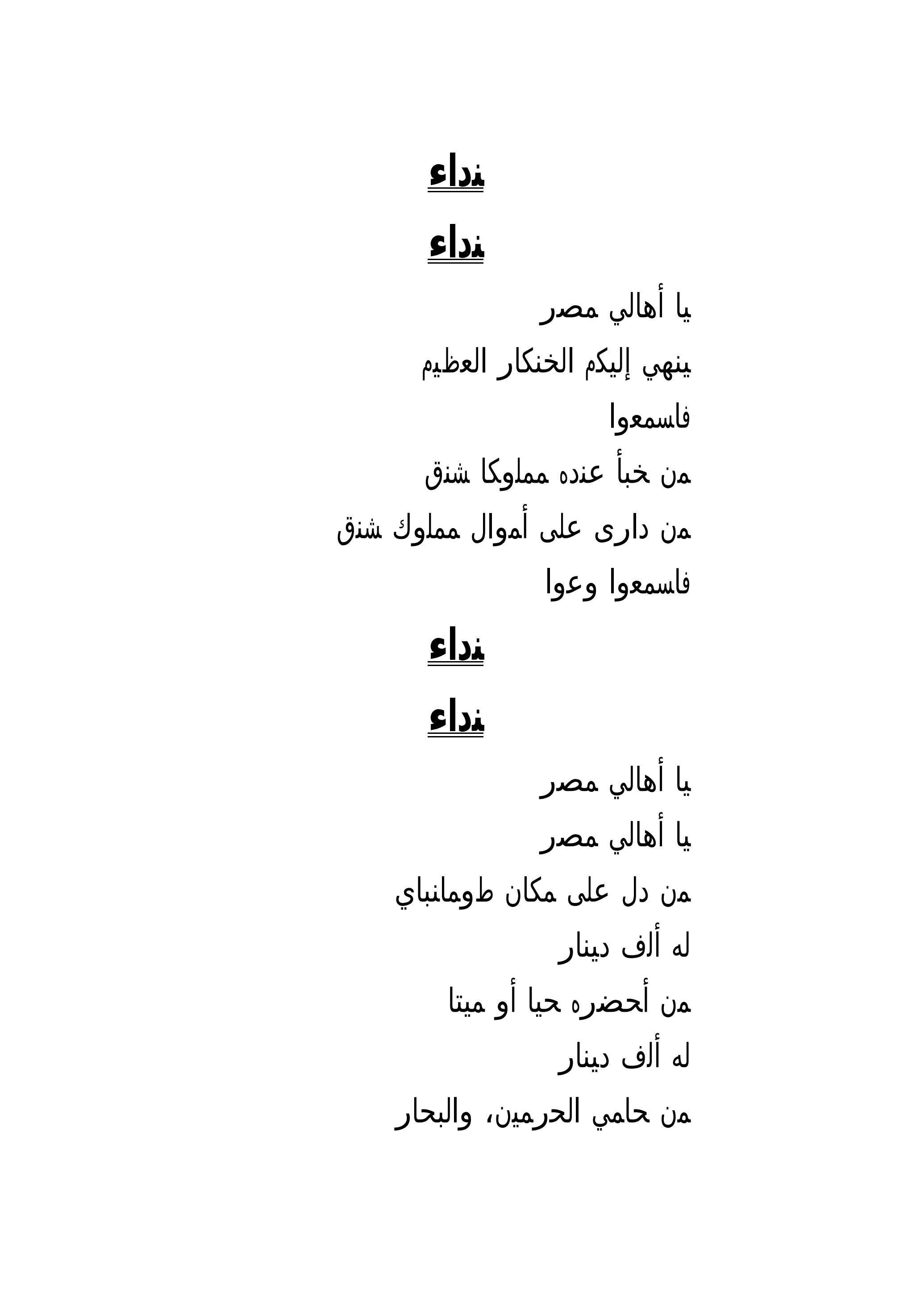


بمفرده في زمن واحد أمر لا طعم له، كل منهمـا مخلـوق لصاحبه وجود الزيني أفاد زكريا، حببه إلى قلوب الخلق بعد كره ومقت، زكريا طور أساليبه وطرقه حتى يواجـه مكـر الزيني وخداعه، غير الفائدة المباشرة التي أبداها الزيني فـي عديد من المواقف، أفكاره الصالحة من أجل تطوير أعمـال البصاصين، يبتسم زكريا، الزيني الذي عرض عليه كل مـا قدمه على أساس أنه بعض الطرق المتبعة في نظامـه هـو الخاص بمراقبة الخلق، أي إنسان في مصر يعلـم بوجـود جماعتين، جماعة بصاصين تتبع زكريا وجماعة تتبع الزيني، هذا كله وهم أشاعه الزيني، لكن الأوضاع ستجد فيما لو، لو اجتاح وباء العثمانلية مصر؟ هذا ما سيناقشـه زكريـا مـع الزيني، بيته في المقطم لا يحوي ورقة، الآن شهاب الحلبـي وديوانه وكل ما يحويه في المقر السرى للزينـي بحلـوان، أيضا الدفاتر والجداول التي أدرج فيها اسم كل مخلوق يـدب على بر مصر حتما سيحتاجها في الأيام القادمة. زمان عندما أمسكوا علي بن أبي الجود وتولى الزيني الأمر راح يـوزع أوراقه، قتل معشوق السلطان وغلامه، حتى الآن لم يصـل إلى سر العلاقة المكتومة، مات الغلام، مات السلطان، فكـم

يبدو الزمن بعيدا، سنوات طويلة في كل يوم منها يؤكد قراره بالإجهاز على الزيني، فرص عديدة سنحت له، عندما أرسل الشيخ أبو السعود وأحضر الزيني وبهدله، ليلتها عندما بلغـه الأمر، قص شعر رأسه، لا بد من حزم سريع، هذا أمـر لا هزل فيه، هاهو الزيني بين يدي رجل صالح تقي كلمتـه لا ترد عند الأمراء، الكبير والصغير، باستطاعة زكريا استنفار أعوانه من كل فج عميق يثير الناس على الزينـي، وينشـر الفضائح عليهم، يمكنه إرسال قوائم طويلة بـالأموال التـي يكتنزها الزيني، الدر والحجر البلخش واليواقيت والفيـروز وأكوام الذهب، رسالة موجزة تقول لمولانا هذه هي المواضع التي كدس فيها الزيني أمواله، حيرة اعتصرته، في تـواريخ طائفة الإسماعيلية قرأ مرة، الفداوي المرسل لقتل عظـيم أو كبير تواجهه في مهمته لحظات، لحظات يجب الحسم فيهـا، ليس مهما صحة القرار أو خطؤه، المهم هو اتخـاذ قـرار، ربما أضاع التردد حياة الفداوي نفسه، المهم اتخاذ القرار في ذاته، درس قديم طالعه زكريا، في الليلة نفسها قرر، الزينـي يجب ألا يروح هدرا، أرسل في طلب إبراهيم بـن السـكر والليمون، المعلم ابن كيفه استنفر آذانه وعيونه المنبثـة فـي

أنحاء الأرض، بذكاء عظيم، بكافة الطرق عليهم التحدث إلى العامة عن عدل الزيني وتقواه وصلاحه، تذكير العامة بمـا أتاه لهم، ثم ينطلقون إلى ما فعله الشيخ أبو السعود الجارحي، صحيح، الشيخ ولي من أولياء ا وفيه بركـة، ولكـن مـا للمشايخ وأمور السلطنة؟ ما للنساك وأمور الدنيا؟ لو انشغلوا بأمور الدنانير لضلوا سواء السبيل، وعندما شرع الشيخ أبـو السعود في تجريس الزيني بركات على حماره، شهره فـي الطرقات راكبا بالمقلوب قرر الأمير علان الدودار الكبيـر، شنقه على باب بيت قريبـه محتكـر الفـول فـي مصـر، بالفسطاط، أرسل زكريا مكتوبا عاجلا إلى طومانباي يشـير فيه إلى مال جسيم لدي الزيني ولا بد مـن رد المـال إلـى خزانة السلطنة، لو شنق لضاع المال، والبلاد في أشد الحاجة إليه، ثم هناك أمور هامة تدخل تحت نطاق السرية معلقة معه وموته يعني التسبب في أضرار كثيرة تمس الأمراء والعامة والسلطنة ذاتها، خاصة في هذه الأوقات العصيبة مع الرسالة نفسها أرسل خطابا صغيرا يطلب فيه من طومانباي الإقـلال من عدد مرات نزوله وظهوره بين الناس حتـى لا تضـيع هيبته من بين العامة، ولا يتعودوا رؤيته، يعلم زكريا تمامـا

أن الزيني يفضل الشنق على إنقاذ زكريا له، أمثال الزينـي يتقبلون ما أقدم عليه زكريا بإنفة، عندما أعيد إلى بيت الشيخ أبي السعود، ورجعوا في شنقه ارتاح زكريا، مـن يـدري؟ ربما يتعرض زكريا لموقف مشابه لن ينقذه إلا الزيني، زمان مضطرب لا يؤمن فيه المرء على روحه ولا عياله خاصـة من كان وضعه مثل زكريا، الآن يقترب من بركة الرطـل، من الطبيعي لم ينزل إلى المدينة، لم يتجول فـي أسـواقها، يرسلون إليه التقارير باستمرار، حتى من البلاد التي اجتاحها ابن عثمان، بعض نوابه راح شهيدا، لم يتصور أنه سـيرى الخراب هكذا بين الخلق، المآذن حروف تجمدت في الهواء، ابنه يس وحريمه في أقصى الصعيد، يعاوده نفس الإحساس، يعيش في زمن يشهد أحداثا كبيرة يندر وقوعها، بيت الزيني يبدو أخيرا، بعد قليل يصغي إليه، ثاني لقاء بينهما منذ خروج الزيني، ياه، ألم يكن غبيا عندما فكـر آلاف المـرات فـي الخلاص منه، ابتسامة خفية علي شفتيه، لكنه أحقا فكر فـي هذا؟ أحقًا؟؟



<u>نداء</u>

<u>نداء</u>

يا أهالي مصر

ينهي إليكم الخنكار العظيم

فاسمعوا

من خبأ عنده مملوكا شنق

من دارى على أموال مملوك شنق

فاسمعوا وعوا

<u>نداء</u>

<u>نداء</u>

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

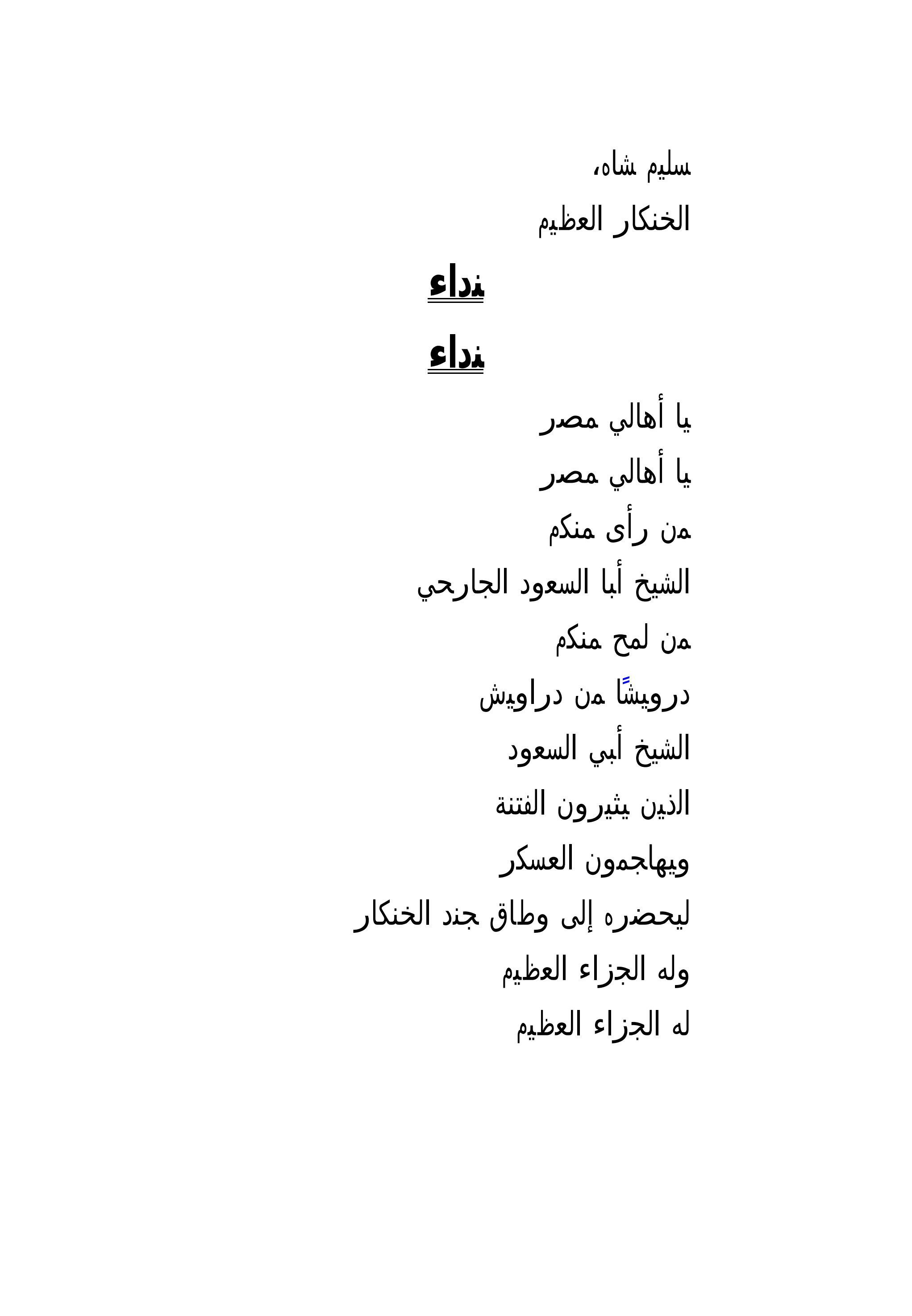
من دل على مكان طومانباي

له ألف دينار

من أحضره حيا أو ميتا

له ألف دينار

من حامي الحرمين، والبحار



سليم شاه،

الخنكار العظيم

نداء

نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

من رأى منكم

الشيخ أبا السعود الجارحي

من لمح منكم

درويشاً من دراويش

الشيخ أبي السعود

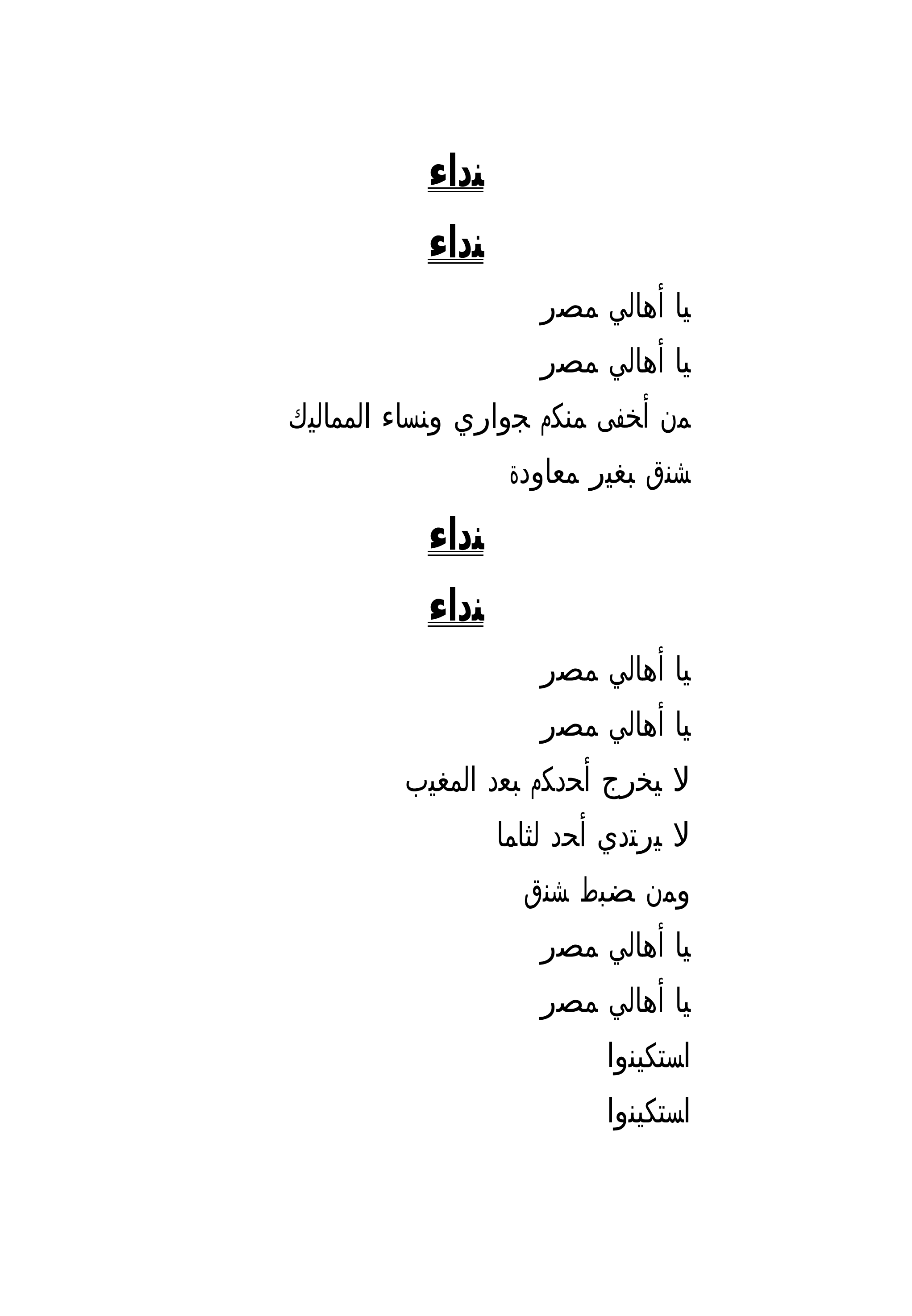
الذين يثيرون الفتنة

ويهاجمون العسكر

ليحضره إلى وطاق جند الخنكار

وله الجزاء العظيم

له الجزاء العظيم



نداء

نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

من أخفى منكم جواري ونساء المماليك

شنق بغير معاودة

نداء

نداء

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

لا يخرج أحدكم بعد المغيب

لا يرتدي أحد لثاما

ومن ضبط شنق

يا أهالي مصر

يا أهالي مصر

استكينوا

استكينوا

ومن خالف شنق



السرادق السادس

كوم الجارح

سعيد الجهيني

للقبر ضمة لا ينجو منها إنسان. يضغط ضلوع المؤمن والكافر، يمحو الأول والآخر، يفرق المثنى، ويشتت الجمع، يساوي الظاهر بالباطن، تعرف كل نفس ما أتت، وتتحدث الأعضاء عما ارتكبت، أي ذنب جنت؟ ويعرف سعيد طريقه إلى الوعر، إلى كوم الجارح. ينقبض قلبه. مستقر النبال والرماح، لم يخطئه هدف في ساحة المعارك والطعان ومنذ رجوعه يود لو رأى مولاه، لحظة لا قبلها ولا بعدها، يسمع لهجته، يعرف أي الأفكار تدور في عقل مولاه حوله هو، شخصه هو، أتى الزمان الذي لا يعرف فيه الابن أباه، يسأل الأخ عن أخيه فينكره حتى لو جاوره وقوفًا، أتى اليوم الذي ترمي فيه كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، في الهواء خمدة، أهي القارعة، وما أدراك ما القارعة، في الهواء زمتة، أهو الدخان الذي يظهر قبل قيام الساعة؟ الجند الغرباء يفتضون الأبكار على باب جامع المؤيد، عند القبة التي انحنى فوقها مرات ومرات، خلع حذاءه، ودخل المسجد العتيد يملأه خشوع.

ما الذي بقي إذن؟؟ ربما ظهر المسيح الدجال، ينزل من المقطم. يطلع من حواري الحسينية، يخرج على النـاس فجأة من الخليج، من النيل قبل ميعاد الوفـاء، مـن جزيـرة الروضة، من الهرم الأكبر، يركب دابته التي تجـس أخبـار الدنيا له، يطول الليل، يصحو القوم فـلا يلقـون إلا ظلامـا مستمرا عتيما، أول خيوط الضوء تدير العقـول، هـا هـي الشمس تطلع من الغرب، ليس قرصا من ذهب، إنما فطيـرة رخوة سوداء، ما الذي بقي إذن؟ أظهر أيها السفياني، ليـنفخ في الصور، النفخة الأولـي، والثانيـة، والثالثـة، تقـبض الأرواح، ويجيء الخراب، أربعون ألف سنة. الـوخز فـي الصدر، أي مرض خلفته الأيام، لكن أي أمر يخشاه، والروح ساحة خرائب، البيوت لا تأمن ساكنيها، ما الذي بقي إذن؟؟

نعرف يا سعيد إنك تتمني رؤية مولاك، هذا من حقك طبعا ... يا سلام يا أخي من علمني حرفا صرت له عبـدا. أنت نطقت باسمه مرات أثناء نومك، يا شعلان ... أي اسـم ردده سعيد في نومه عندما آويناه زمنا؟

" الشيخ أبو السعود ... لم يذكر غير ه ..."

" أرأيت ... اذهب إليه، لا تخـف، بـالعكس نحـن نريدك أن تعاود سيرتك معه كالزمن الأول تماما، نريدك أن تصبح محل ثقته.

لا تنفره منك، اذهب إليه، ارتم على قدميه، ابـك ... ابك فعلا.

سيسألك، أين غبت عنه بعد عودتك، قل له منعوني، لكنني ضربت الآن بمنعهم عرض الحـائط وجئتـك، ألعـن أجدادنا، استمطر الخراب علينا، قل ما تريد يا سعيد ... مـا تشاء، لا بد أن تحيي ثقته بك.

أنت ابنه الذي لم ينجب وأنجبه.

* * *

دار حول باب الوزير، مشهد السيدة فاطمة النبويـة، قدماه تقطعان الطريق، هذه البيوت لم يرها من زمن، وهـج الآمال، رغبة الطواف، الجري، الاندفاع، الحب، ملامسة يد حنون، طعام هنيء بعد غروب شتوي عتيق، أبدا، لم يطـف به شيء من هذا، أخيلة قديمـة مخوزقـة، ذكريـات باليـة كحصيرة عتيقة داستها آلاف الأحذية، إلى الممرات الطويلـة ذهب، حفر صغيرة بالجدران، رأى آدميين، أتعـرف هـذا؟

كان أميرا كبيرا عظيما جليل الشأن، له في الحبوس أربعة وثلاثون عاما، يبول مكانه، يأكل مكانه، نسي اسمه، فعلا نسي اسمه، نسي الألفاظ والحروف وحركات الصوت وسكناته، حفرة أخرى ضمت سجينا صبيا، لا يعرف الضوء، ولا طعمه، في عينيه بريق أزرق كعيون القطط في السواد العقيم، عمره عشرون، كلها قضاها هنا، ربما بدا خروجه إلى الدنيا كذهابك أنت إلى السجن، بين حجارة الصخر تذوي الأعمال، تفنى، تغرب، بين حجارة الصخر، أو في الحجرات الضيقة النظيفة المخيفة، يتمدد صاحبه منصور الآن، فما الذي بقي إذن؟

* * *

" ما نطلبه منك. ما نريده الاستفادة من عظاته وحكمه. أن نعرف ثمين القول الذي يردده. آراءه في الناس. ما ينويه بالنسبة لطومانباي. منذ دخول الخنكار تعرف أن بقاءه في البيت. لكن هناك مريدين يمضون إليه. من هم؟ إلى أين يذهبون؟ هناك من يزعم بنية الشيخ على الخروج في أثر طومانباي. لكن هل تصدق هذا أنت؟ هل يدخل عقلك أن الشيخ أبا السعود، الشيخ الطيب الصالح، الورع التقي، يمكنه

حمل سيف وذبح رقبة؟ أنت أدرى الناس به. إذا كانت هـذه نيته فعلا. فهذا تغير لابد أن نعلمه. لا لشيء لنسـتفيد منـه ونفيد. كيف يتحمل العمر الكبير الحرب والهجـوم؟ والكـر والفر؟ طبعا ... لا تخبره عما نريد. أنت بهذا تنقل تعاليمـه وحكمه إلى الخلق كلهم عن طريقنا. بقيت مسألة ثانية.

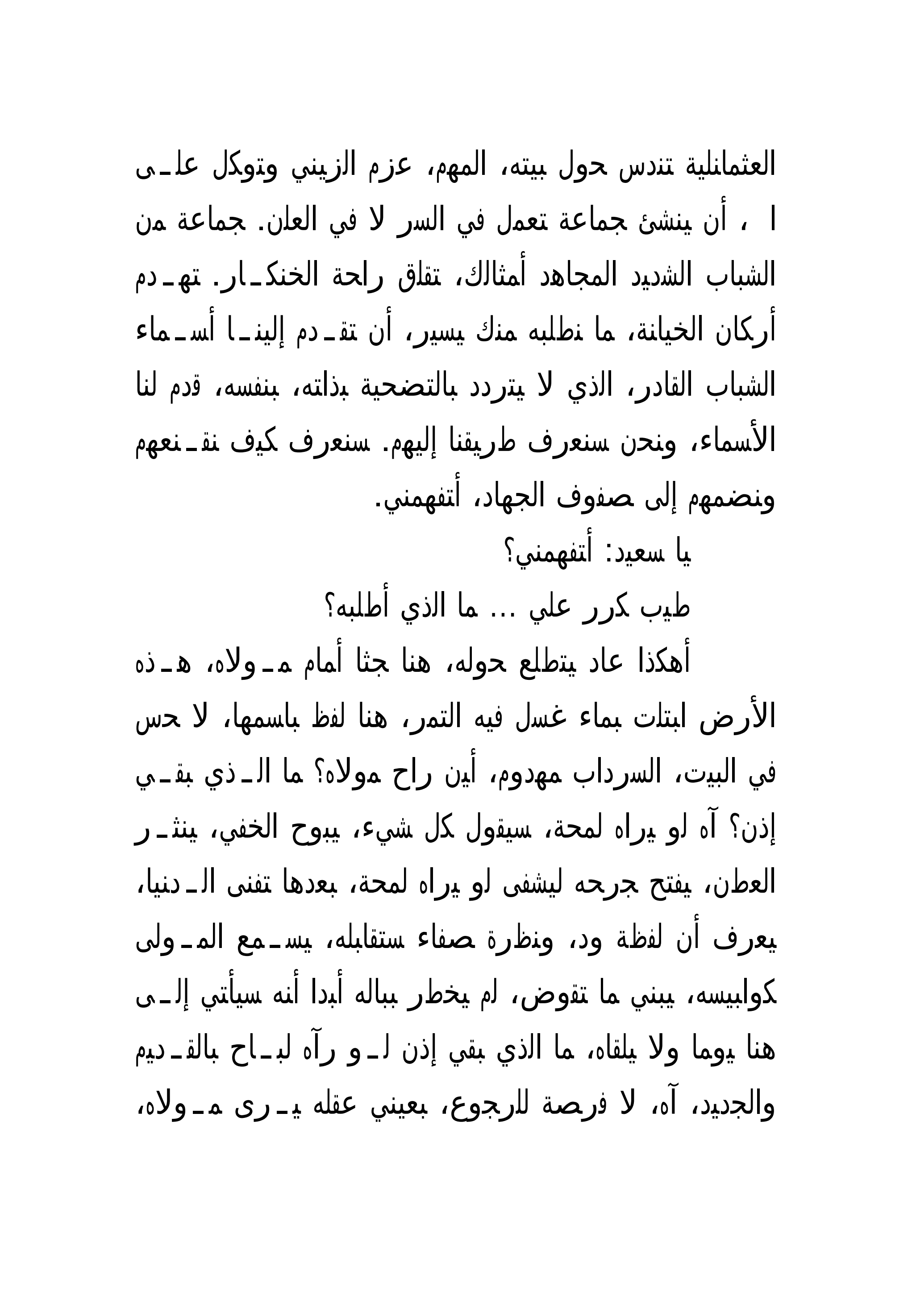
البيت هادئ مستكين. أحلي العمر قضاه هنـا. هنـا رتل عمره ترتيلا. غناه عذبا. يخطو عتبة البيت. بأي عينين يواجهه. بأي المعاني المتبقية في حدقتي العين.

نعرف إنك قادر على هذا. وإلا فلماذا لجأنـا إليـك. نحن نطلب معونتك. يا سعيد أنت قريب منا. أنت منا. أنـت بتاعنا.

أنت منا ... أنت بتاعنا...

"أما المسألة الثانية. تعال. اقتـرب ... يـا شـعلان أخرج ... أخرج لحظات لأن ما سأقوله سر عظيم لن يسمعه إلا سعيد وحده ..."

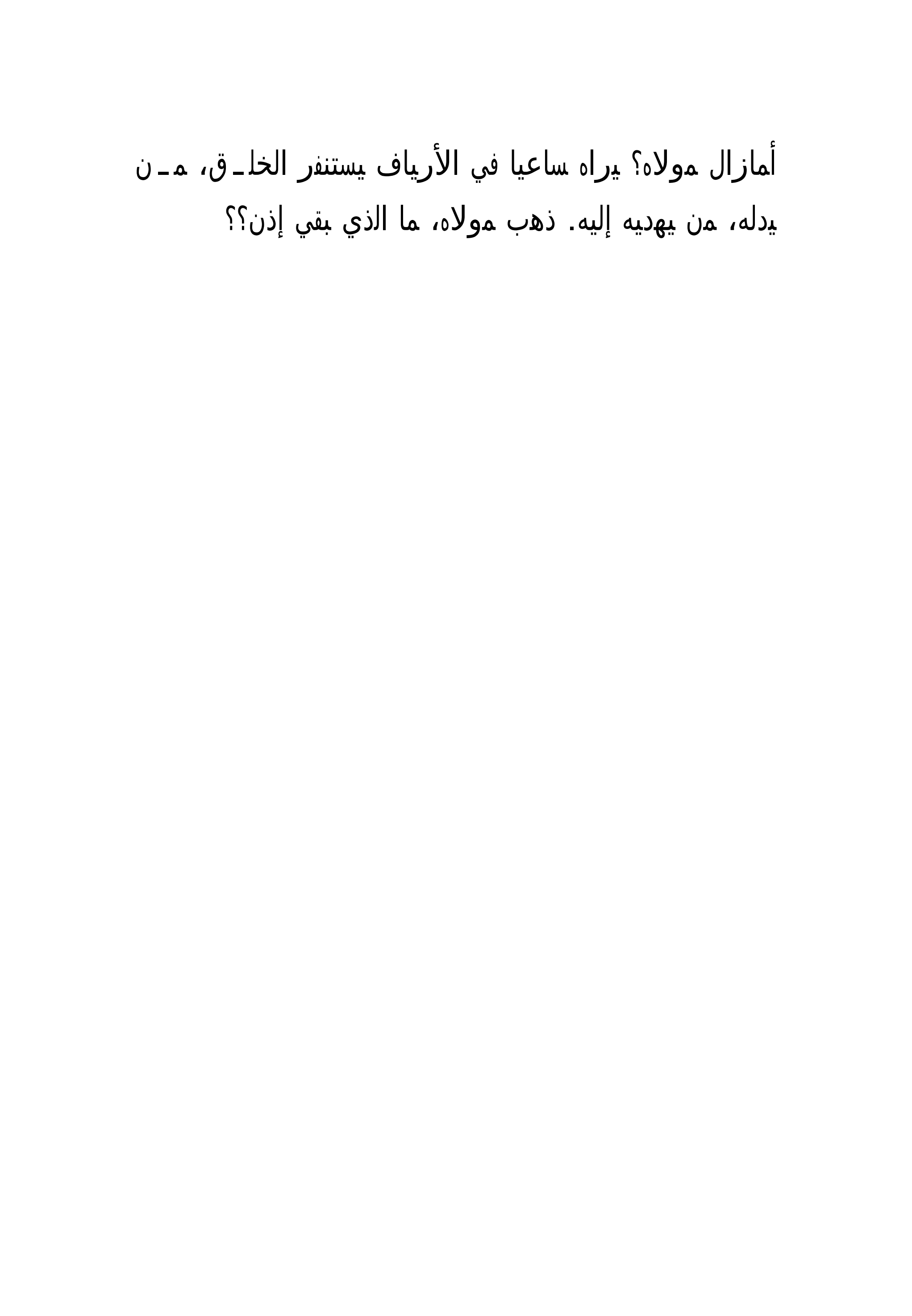
" طبعا أنت ولا أي مسلم مؤمن يرضى عما فعله ابن عثمان بنا، من هنا عزم الزيني بركات، وبالمناسـبة، فهـو يهديك السلام، ويعتذر لك، بـوده لـو رآك، لكـن عيـون


العثمانلية تندس حول بيته، المهم، عزم الزيني وتوكل علـى ا ، أن ينشئ جماعة تعمل في السر لا في العلن. جماعة من الشباب الشديد المجاهد أمثالك، تقلق راحة الخنكـار. تهـدم أركان الخيانة، ما نطلبه منك يسير، أن تقـدم إلينـا أسـماء الشباب القادر، الذي لا يتردد بالتضحية بذاته، بنفسه، قدم لنا الأسماء، ونحن سنعرف طريقنا إليهم. سنعرف كيف نقـنعهم ونضمهم إلى صفوف الجهاد، أتفهمني.

يا سعيد: أتفهمني؟

طيب كرر علي ... ما الذي أطلبه؟

أهكذا عاد يتطلع حوله، هنا جثا أمام مـولاه، هـذه الأرض ابتلت بماء غسل فيه التمر، هنا لفظ باسمها، لا حس في البيت، السرداب مهدوم، أين راح مولاه؟ ما الـذي بقـي إذن؟ آه لو يراه لمحة، سيقول كل شيء، يبوح الخفي، ينثـر العطن، يفتح جرحه ليشفى لو يراه لمحة، بعدها تفنى الـدنيا، يعرف أن لفظة ود، ونظرة صفاء ستقابله، يسـمع المـولى كوابيسه، يبني ما تقوض، لم يخطر بباله أبدا أنه سيأتي إلـى هنا يوما ولا يلقاه، ما الذي بقي إذن لـو رآه لبـاح بالقـديم والجديد، آه، لا فرصة للرجوع، بعيني عقله يـرى مـولاه،



أمازال مولاه؟ يراه ساعيا في الأرياف يستنفر الخلـق، مـن يدله، من يهديه إليه. ذهب مولاه، ما الذي بقي إذن؟؟



السرادق السابع

سعيد الجهيني

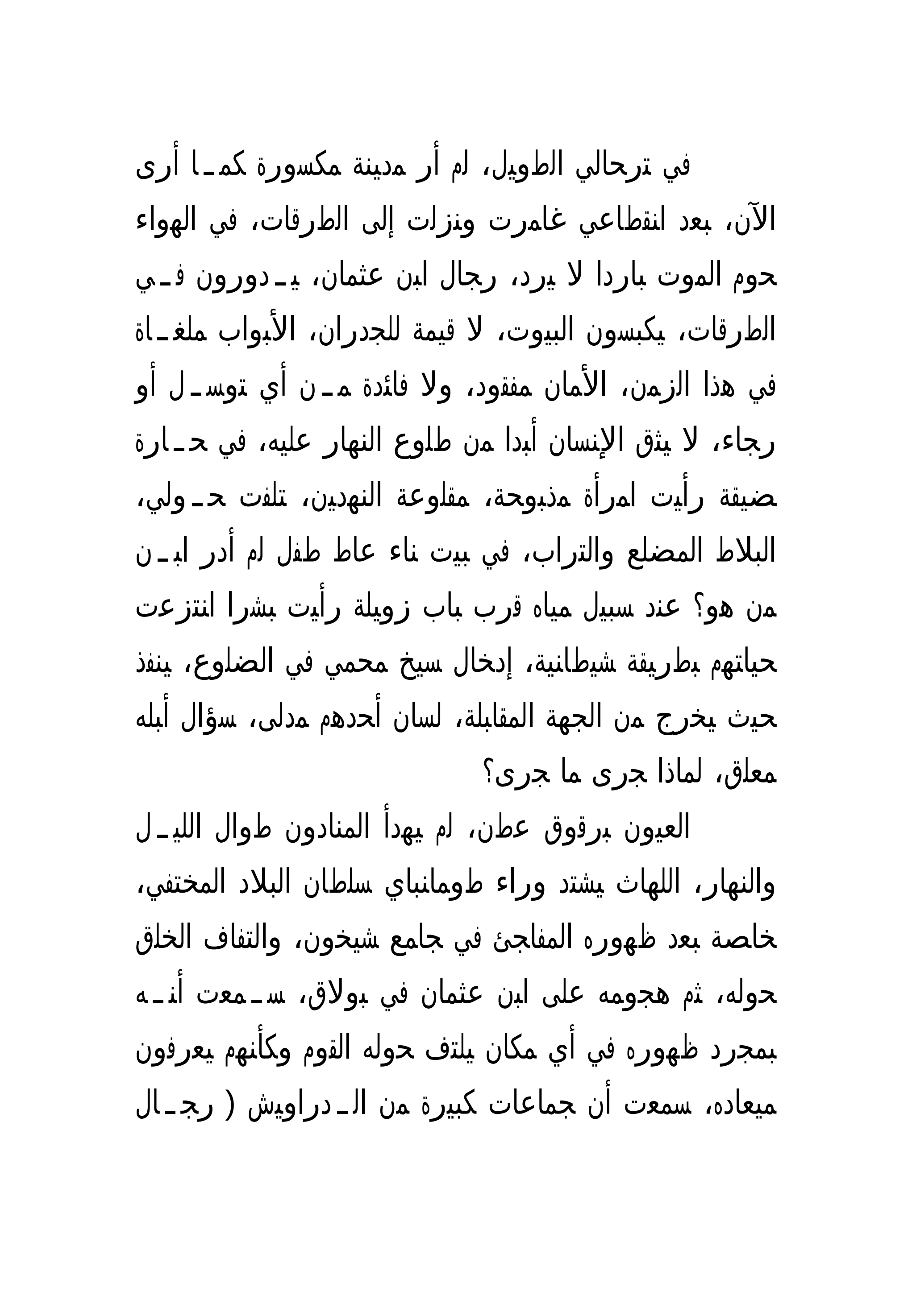
آه، أعطبوني وهدموا حصوني



خارج السرادق

مقتطف أخير من مذكرات الرحالة البندقي

فياسكونتي جانتي ٩٢٣ هـ

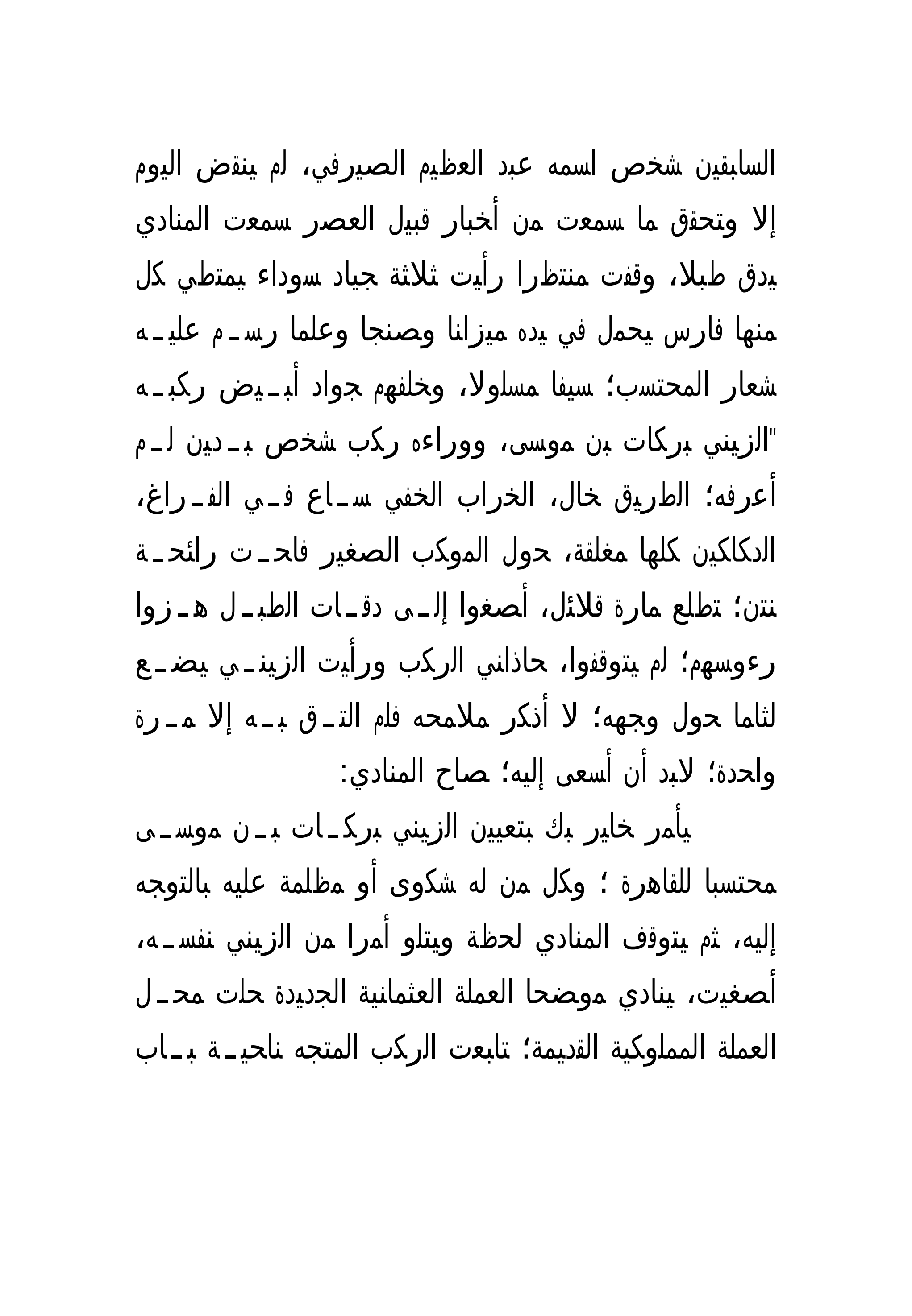


في ترحالي الطويل، لم أر مدينة مكسورة كمـا أرى الآن، بعد انقطاعي غامرت ونزلت إلى الطرقات، في الهواء حوم الموت باردا لا يرد، رجال ابن عثمان، يـدورون فـي الطرقات، يكبسون البيوت، لا قيمة للجدران، الأبواب ملغـاة في هذا الزمن، الأمان مفقود، ولا فائدة مـن أي توسـل أو رجاء، لا يثق الإنسان أبدا من طلوع النهار عليه، في حـارة ضيقة رأيت امرأة مذبوحة، مقلوعة النهدين، تلفت حـولي، البلاط المضلع والتراب، في بيت ناء عاط طفل لم أدر ابـن من هو؟ عند سبيل مياه قرب باب زويلة رأيت بشرا انتزعت حياتهم بطريقة شيطانية، إدخال سيخ محمي في الضلوع، ينفذ حيث يخرج من الجهة المقابلة، لسان أحدهم مدلى، سؤال أبله معلق، لماذا جرى ما جرى؟

العيون برقوق عطن، لم يهدأ المنادون طوال الليـل والنهار، اللهاث يشتد وراء طومانباي سلطان البلاد المختفي، خاصة بعد ظهوره المفاجئ في جامع شيخون، والتفاف الخلق حوله، ثم هجومه على ابن عثمان في بولاق، سـمعت أنـه بمجرد ظهوره في أي مكان يلتف حوله القوم وكأنهم يعرفون ميعاده، سمعت أن جماعات كبيرة من الـدراويش (رجـال

الدين) انضموا إليه، راحوا يغيرون على جنود العثمانليـة، الذين يتطرفون في مشيهم إلى حـارات نائيـة، أو طرقـات بعيدة، يقتلون منهم ما استطاعوا، أثار هذا الفزع بين الغزاة، طولبوا بالتزام الحذر. والمشي جماعات، صباح اليوم طلعت فوق السطح رأيت الأسى شفيفًا كئيبا فوق المدينـة، كـأن البيوت نفسها أسالت دمعا، رأيت وجه صديقي الشيخ محمـد أحمد بن إياس قبل دخول العثمانلية بيوم واحد، في تقاطيعـه رقدت نبوءة بالهزيمة المقبلة، كان منكسرا، لم أره من ليلتها، سمعت ممن أثق به أن طومانباي ظهر في الصعيد وأنه جمع آلاف العربان المسلحين حوله، وقيل أن وليا من أوليـاء ا (قديس) كان يقيم في القاهرة، هجر بيته وانطلق إلى الريف يقيد فيه نارا حامية يستنفر الشعب، وأخبرني محدثي أن عمر هذا القديس يقدر بمائة عام، بل أزيد، وأنه أوتـي شـجاعة عظيمة، وقال محدثي أنه شرب من نبع الحياة، ومن شـرب من نبع الحياة لا يموت أبدا ولا يهزم قط وفعلا انطلق فـي أثره مئات من الشبان الصغار، والرجال والنساء ومعظمهم لم يشاهده مرة واحدة أثناء إقامته في القاهرة، وأخبرني محدثي أن هذا الولي (القديس) يطوي معه بيرقًا رهيبا، يقـال لـه

البيرق النبوي، ومتى نشره تهب أمة مصر من أدناها إلـى أقصاها، فتضع السيف في رقاب الغـزاة، ولا ترتـد حتـى تفنيهم؟ أبديت الشك لمحدثي وسألته، لماذا لـم ينشـر هـذا البيرق الآن؟ قال واثقا إن هذا لا يتم إلا بـأمر مـن عنـده، وأشار إلى السماء، بكى محدثي وهـو شـيخ مـن مشـايخ الأزهر، قال: جاء في الكتب القديمة " مصر كنانة ا مـن أرادها بسوء قصمه ا " اليوم فقط نودي في الناس بالأمـان قلت لأنزل استقصي الأخبار، أدركت مخاطرتي فـالغزاة لا أمان لهم يعلنون الأمان وينقضونه وجدت بيت صاحبي الشيخ ريحان مهدما محروقا: لم يدلني أحد إليه. سـمعت ظهـور الرجل الذي تحدثت عنه كثيرا في رحلتي الثانيـة. الزينـي بركات، قال بعض المشايخ إنه يحاول لم الشبان لمجاهدة ابن عثمان لكن أحدهم أبدى شكا في مقصد الزيني: خاصة بعـد طلوعه إلى القلعة مرات عديدة وجلوسه مع خاير بك أوقاتًـا طويلة، وعلمت أن خاير بك (سبق أن تحدثت عنه) أبـدى رضاءه على الزيني: فعندما دخل الغزاة مصر، كان الزينـي في بيته مغضوبا عليه من طومانباي السلطان السابق، وكان مجردا من كل وظائفه، ينوب عنه في أهمهـا أحـد نوابـه



السابقين شخص اسمه عبد العظيم الصيرفي، لم ينقض اليوم إلا وتحقق ما سمعت من أخبار قبيل العصر سمعت المنادي يدق طبلا، وقفت منتظرا رأيت ثلاثة جياد سوداء يمتطي كل منها فارس يحمل في يده ميزانا وصنجا وعلما رسم عليه شعار المحتسب؛ سيفا مسلولا، وخلفهم جواد أبيض ركبه "الزيني بركات بن موسى، ووراءه ركب شخص بدين لم أعرفه؛ الطريق خال، الخراب الخفي ساع في الفراغ، الدكاكين كلها مغلقة، حول الموكب الصغير فاحت رائحة نتن؛ تطلع مارة قلائل، أصغوا إلى دقات الطبل هزوا رءوسهم؛ لم يتوقفوا، حاذاني الركب ورأيت الزيني يضع لثاما حول وجهه؛ لا أذكر ملامحه فلم التق به إلا مرة واحدة؛ لابد أن أسعى إليه؛ صاح المنادي:

يأمر خاير بك بتعيين الزيني بركات بن موسى محتسبا للقاهرة ؛ وكل من له شكوى أو مظلمة عليه بالتوجه إليه، ثم يتوقف المنادي لحظة ويتلو أمرا من الزيني نفسه، أصغيت، ينادي موضحا العملة العثمانية الجديدة حلت محل العملة المملوكية القديمة؛ تابعت الركب المتجه ناحية باب

الفتوح عند المنحنى اختفى؛ وابتعد النداء الخافت في خـواء شاحب.

جمال الغيطاني

الجمالية ١٩٧٠ – ١٩٧١